

# سلسلة المعارف التعليمية

## دراسات أخلاقية

الأخلاق المحمودة على ضوء فكر الإمام الخميني قدس سره

الجزء الثاني



أكاديمية العلماء الإسلامية المعروفة  
www.islamicoa.com/ims  
+989217854824

الكتاب:	دراسات أخلاقية - الأخلاق الحمودة
نشر:	جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
الإعداد الإلكتروني:	شبكة المعارف الإسلامية_www.almaaref.org
الطبعة الأولى:	٢٠١٦م - ١٤٣٦هـ
جميع حقوق الطبع محفوظة ©	

سلسلة المعارف التعليمية

# دراسات أخلاقية

الأخلاق المحمودة على ضوء فكر الإمام الخميني قدس سره

الجزء الثاني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## الفهرس

١٧	المقّمة
٢١	الدرس الأول :الإيمان (١) حقيقة الإيمان ومراتبه
٢٣	تمهيد
٢٣	ما هو الإيمان؟
٢٤	الإيمان غير الإسلام
٢٥	الإيمان مغاير للعلم
٢٦	التسليم صفة الإيمان
٢٧	الإيمان درجات
٢٩	الحذر من الرضا بالمراتب الدنيا
٢٩	موعظة
٣٥	الدرس الثاني : الإيمان (٢) أهميّة الإيمان ودوره
٣٧	تمهيد
٣٧	الإيمان هو الدّين
٣٨	الإيمان أصل جميع الكمالات
٣٨	أساس كل صلاح
٣٩	الغنى عن الناس
٣٩	التّجاة من الدّنيا
٤٠	الخلاص من تصرّف الشّيطان
٤١	الخلاص الأبدي

٤٥	الدرس الثالث: الإيمان (٣) علائم الإيمان
٤٧	تمهيد
٤٨	كيف نعرف إذا كنا من أهل الإيمان؟
٤٩	علائم الإيمان
٥٤	موعظة للإمام
٥٩	الدرس الرابع: المؤمن (٤) عوامل قوة وضعف الإيمان
٦١	تمهيد
٦٢	عوامل قوة الإيمان
٦٦	عوامل إضعاف الإيمان
٧٣	الدرس الخامس: العلم (١) حقيقة العلم وأهميته
٧٥	تمهيد
٧٦	حقيقة العلم
٨٠	أهمية العلم
٨٤	موعظة
٨٩	الدرس السادس: العلم (٢) علامات العلم الحقيقي وأهدافه
٩١	تمهيد
٩١	العلم بأيّ معلوم
٩٣	أهداف العلم
٩٦	علامات العلم الحقيقي ٩٦
١٠٣	الدرس السابع: العلم (٣) شرائط العلم وموانع تحقّقه
١٠٥	تمهيد
١٠٥	شروط العلم
١١٠	موانع العلم

١١٩	الدرس الثامن: العزم
١٢١	تمهيد
١٢١	ما هو العزم؟
١٢٢	أهمية العزم ودوره
١٢٥	ما الذي يَحَقِّقُ العزم؟
١٢٥	برنامج تحصيل العزم
١٢٧	أسباب ضعف العزيمة
١٢٨	موعظة للإمام
١٣٣	الدرس التاسع: التفكر
١٣٥	تمهيد
١٣٥	ما هو التَّفَكُّر؟
١٣٦	أهميته
١٣٨	بماذا نتفكر؟
١٤١	الذنوب تمنع من التفكر
١٤٢	عوامل مساعدة على تقوية التفكر
١٤٧	الدرس العاشر: الذَّكْر (١) حقيقة الذكر وكيفية
١٤٩	تمهيد
١٤٩	ما هو الذَّكْر؟
١٥٠	ماذا نذكر؟
١٥٢	البرنامج العام للذكر
١٥٦	بعض خصائص الذكر
١٦١	الدرس الحادي عشر: الذَّكْر (٢) أهمية الذكر ودوره
١٦٣	تمهيد
١٦٤	أهمية الذكر وعظمته
١٦٤	الوصول إلى الكمال المطلق
١٦٤	زيادة الإيمان

١٦٥	إصلاح النَّفوس وتهدئتها
١٦٥	فتح أبواب الملكوت
١٦٦	غاية آمال العارفين
١٦٦	الإعانة التامة على الجهاد الأكبر
١٦٦	ذكر الله له
١٦٦	معالجة الأمراض القلبية
١٦٧	ترك المعاصي
١٦٧	فتح العين الباطنية
١٦٧	إزالة الحجب وقسوة القلب
١٦٨	الإعراض عن الدنيا
١٦٨	عمارة الآخرة
١٦٨	التخلّص من الغضب
١٦٨	نيل الشفاعة
١٧٣	الدرس الثاني عشر: الذكر (٣) تحصيل مقام الذكر وأهم موانعه
١٧٥	تمهيد
١٧٥	كيف نصبح من الذاكرين
١٨٠	موانع الذكر
١٨٧	الدرس الثالث عشر: الطمأنينة
١٨٧	تمهيد
١٨٩	ما هي الطمأنينة؟
١٩١	آثار الطمأنينة
١٩٢	أسباب الطمأنينة
١٩٤	كيفية تحصيل الطمأنينة
١٩٥	موانع الاطمئنان
١٩٩	الدرس الرابع عشر: اليقين
٢٠١	تمهيد

٢٠١	التعريف العلميّ
٢٠٢	علامات اليقين
٢٠٥	كمال اليقين
٢٠٩	الدرس الخامس عشر : الشكر
٢١١	تمهيد
٢١١	أهميّة الشّكر
٢١٣	تعريف الشّكر
٢١٤	غاية الشّكر
٢١٥	مراتب الشكر
٢١٦	التّواصل الإيجابيّ مع النّاس
٢١٦	كيفيّة تحصيل فضيلة الشكر
٢٢١	الدرس السادس عشر : الصبر (١) حقيقة الصبر ومراتبه
٢٢٣	تمهيد
٢٢٣	تعريف الصّبر
٢٢٤	صبر الأنبياء
٢٢٤	صبر الأولياء
٢٢٥	علاقة الصّبر بالإيمان
٢٢٧	مراتب الصّبر
٢٣٣	الدرس السابع عشر : الصبر (٢) آثار الصبر وكيفية تحصيله
٢٣٥	تمهيد
٢٣٥	آثار الصّبر
٢٣٩	عوامل تقوية الصّبر
٢٤٠	كيفيّة تحصيل فضيلة الصبر
٢٤١	موعظة للإمام
٢٤٥	الدرس الثامن عشر : الرهبة من الله (١) معنى الرهبة، درجاتها وعلاماتها
٢٤٧	تمهيد

٢٤٧	ما هي الرّهبية؟
٢٤٨	الرّهبية غير مختصرة بالدنيا
٢٤٩	درجات الرّهبية
٢٥١	علامات الخوف والرّهبية
٢٥٧	الدرس التاسع عشر: الرّهبية من الله (٢) آثار الرّهبية وكيفية تحصيلها
٢٥٩	تمهيد
٢٥٩	ثمار الرّهبية
٢٦١	نماذج للزّاهبين
٢٦٢	كيفية تحصيل مقام الرّهبية
٢٦٥	موعظة للإمام
٢٦٩	الدرس العشرون: الرجاء (١) معنى الرجاء والفرق بينه وبين الغرور والطّمع
٢٧١	تمهيد
٢٧١	ما هو الرّجاء؟
٢٧٢	مقارنة الرّجاء بالخوف
٢٧٤	ما الفرق بين الرّجاء والطّمع؟
٢٧٥	ما الفرق بين الرّجاء والغرور؟
٢٨١	الدرس الواحد والعشرون: الرجاء (٢) منشأ الرجاء وكيفية تحصيله
٢٨٣	تمهيد
٢٨٣	علاقة الرّجاء بالعمل
٢٨٤	من أين ينشأ الرّجاء؟
٢٨٦	أهم موانع الرّجاء
٢٨٧	في كيفية تحصيل الرّجاء
٢٨٨	موعظة
٢٩٣	الدرس الثاني والعشرون: التوكّل (١) حقيقة التوكّل وأركانه
٢٩٥	تمهيد
٢٩٥	ما هو التوكّل؟

٢٩٦	الفرق بين التوكل والرضا
٢٩٧	الفرق بين التوكل والتفويض
٢٩٨	الفرق بين التوكل والثقة
٢٩٨	أركان التوكل
٢٩٩	التوكل والسعي
٣٠٠	علاقة الناس بالتوكل
٣٠٥	الدرس الثالث والعشرون: التوكل (٢) منشأ التوكل، آثاره وكيفية تحصيله
٣٠٧	تمهيد
٣٠٧	من أين ينشأ التوكل؟
٣٠٩	ثمار التوكل
٣١١	في كيفية تحصيل التوكل
٣١٣	أهم موارد التوكل
٣١٤	موعظة للإمام
٣١٩	الدرس الرابع والعشرون: التسليم
٣٢١	تمهيد
٣٢١	التعريف الدقيق للتسليم
٣٢٢	أهمية التسليم وآثاره
٣٢٥	ما هي منابع التسليم ومناشؤه
٣٢٦	كيفية تحصيل التسليم
٣٣٣	الدرس الخامس والعشرون: الرضا
٣٣٥	تمهيد
٣٣٥	ما هو الرضا؟
٣٣٦	درجات الرضا
٣٣٨	ما هي آثار الرضا وثماره؟
٣٣٩	من أين ينشأ الرضا؟
٣٤١	في كيفية تحصيل الرضا

٣٤٣	موعظة الإمام
٣٤٧	الدرس السادس والعشرون: التقوى
٣٤٩	تمهيد
٣٤٩	التعريف العلمي للتقوى
٣٥١	دور التقوى
٣٥٣	مراتب التقوى ودرجاتها
٣٥٤	المانع الأكبر من التقوى
٣٥٥	المثابرة والمصابرة طريق التقوى
٣٥٩	الدرس السابع والعشرون: الزهد
٣٦١	تمهيد
٣٦١	تعريف الزهد
٣٦٢	أهمية الزهد ودوره
٣٦٣	الزهد من حالات القلوب
٣٦٤	درجات الزهد
٣٦٦	آثار الزهد
٣٦٧	كيفية تحصيل الزهد
٣٧٣	الدرس الثامن والعشرون: الحلم
٣٧٥	تمهيد
٣٧٥	ما هو الحلم
٣٧٦	الحلم في النصوص الشريفة
٣٧٨	أهمية الحلم
٣٨٠	في كيفية تحصيل الحلم
٣٨٧	الدرس التاسع والعشرون: الأمانة
٣٨٩	تمهيد
٣٩٠	أنواع الأمانات

٣٩٢	آثار الأمانة ونتائجها
٣٩٤	موانع الأمانة
٣٩٥	كيفية حفظ الأمانة
٣٩٧	موعظة
٤٠١	الدرس الثالثون: العدالة
٤٠٣	تمهيد
٤٠٣	معنى العدل
٤٠٣	أهمية العدالة
٤٠٥	العدالة هدف بعثة الأنبياء
٤٠٦	ما هو الدافع إلى إقامة العدالة؟
٤٠٧	العدالة في الأخلاق
٤٠٧	العدالة منهج السير نحو الكمال الإنساني
٤٠٨	العدالة في كل المراتب
٤٠٩	مخاطر ترك العدالة
٤٠٩	المبادرة إلى تحصيل العدالة في الصغر
٤١٥	الدرس الواحد والثلاثون: التواضع (١) معنى التواضع, أهميته ودرجاته
٤١٧	تمهيد
٤١٧	تعريف التواضع
٤١٩	كيفية تحصيل التواضع
٤١٩	التمييز بين التواضع والتملق
٤٢٠	درجات المتواضعين
٤٢١	نماذج من سيرة الأولياء في التواضع
٤٢٧	الدرس الثاني والثلاثون: التواضع (٢) منشأ التواضع وكيفية اكتسابه
٤٢٩	تمهيد
٤٢٩	منشأ التواضع
٤٣٣	كيفية اكتساب التواضع

٤٣٤	موعظة للإمام
٤٣٩	<b>الدرس الثالث والثلاثون: الصمت</b>
٤٤١	تمهيد
٤٤١	ماهية الصمت
٤٤٣	أهمية الصمت
٤٤٥	منهاج الصمت
٤٤٧	الصمت من شروط السير إلى الله
٤٤٨	ما يعين على الصمت
٤٥٣	<b>الدرس الرابع والثلاثون: الرفق</b>
٤٥٥	تمهيد
٤٥٥	ما هو الرفق؟
٤٥٦	أعظم مظاهر الرفق
٤٥٧	أهمية الرفق ودوره
٤٥٨	الرفق وسيلة لترويض النفس
٤٥٨	الرفق باعث لزيادة الإيمان
٤٥٩	الرفق على الصعيد الاجتماعي
٤٥٩	الرفق في التعامل مع العصاة
٤٦٠	الرفق في التعلم والتعليم
٤٦٢	أنموذج للرفق
٤٦٢	من أين ينشأ الرفق؟
٤٦٧	<b>الدرس الخامس والثلاثون: الرأفة</b>
٤٦٩	تمهيد
٤٦٩	ما هي الرأفة؟
٤٧١	أهم تجليات الرأفة في الحياة
٤٧٢	الرأفة من لوزام الفطرة السليمة

٤٧٣	سبيل التحلي بالرفقة
٤٧٥	الحياء أصل الرفقة
٤٧٩	الدرس السادس والثلاثون: العفة
٤٨١	تمهيد
٤٨١	التعريف العلمي
٤٨٢	أهمية العفة
٤٨٣	بعض مناشئ العفة
٤٨٥	إخضاع العفة لحكم العقل والشرع
٤٨٥	أكبر مانع من العفة
٤٨٦	تحصيل العفة بالتفكير والترويض
٤٩١	الدرس السابع والثلاثون: شرح الصدر
٤٩٣	تمهيد
٤٩٣	ما هو شرح الصدر؟
٤٩٤	أهم آثار انشراح الصدر
٤٩٥	من أين ينشأ شرح الصدر؟
٤٩٦	كيف نشرح صدورنا؟
٥٠١	الدرس الثامن والثلاثون: النشاط والبهجة في العبادة
٥٠٣	تمهيد
٥٠٣	أهمية النشاط والبهجة
٥٠٦	من أين ينشأ النشاط والبهجة
٥٠٧	شروط تحصيل الابتهاج والنشاط



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد.

كتب الإمام الخميني قدس سره في الأخلاق وفي تهذيب النفس، فأفاض على طلاب المعارف الحقّة وأصحاب الطّريقة الوسطى ما أنار به دروب سيرهم. وتوغّل قدس سره في أعماق النفس البشريّة، فاستخرج منها ما يجلب الألباب. وارتقى قدس سره في مراتب المعنويّات، فصار قدوة السالكين ومنار العارفين.

هكذا أضحى الإمام قدس سره في هذا الزّمان رمزاً عظيمًا للتّروحيّة الأصيلّة التي تمتزج بالجهاد والوعي ويُعدّ النّظر، وصار مدرسةً تأخذ بأيدي الباحثين من بداية المسير وإلى قمم المجد والعظمة.

المهتمون ببرامج السّير والسلوك، والعاملون على مناهج الأخلاق والتهذيب، والمشتغلون بتربية النفوس وتهذيبها، كلّ هؤلاء وجدوا ضالّتهم في هذه المدرسة الشّاحخة التي اتّسعت لتلقي بظلالها الوارفة على جميع قضايا النفس والروح، وتجيّب عن جميع أسئلة الباحثين.

هذا ما يتعرّف إليه كل من يطالع كتابات الإمام ويكتشفه كل ذي دراية واهتمام، ولكن ماذا عن الذين لا عهد لهم بالمطالعة؟ أو أولئك الذين تحجزهم مصاعب المصطلح والمتابعة؟ هل يجوز أن يبقوا عن هذه المعارف السّامية بعيدين؟! ومن فيض روح الله محرومين؟!

- ألا يمكن أن تُقدّم لهم بأسهل الطرق وأيسر السّبل؟

- وهل يوجد مثل المنهاج التّعليميّ من وسيلة تحلّ المعضلات وتزيل المشكلات؟!

لأجل هذا وغيره، بادر مركز نون للتأليف والترجمة إلى نقل نصوص الإمام الرّائعة من مصادرها الأصيلة ووضعها في قوالب جديدة، تسهّل على طلابنا الأعزّاء عمليّة التعرّف إلى المدرسة الأخلاقية السلوكية الفريدة للإمام الخمينيّ قدس سره، وهذه القوالب هي التي تعتمد المنهجية التحليلية المنطقية التي يقوم بها الدّهن السّليم عند تعامله مع قضايا النّفس وتهدّيها.

إنّ أي مهتمّ بتهديب نفسه وتركيتها لا بدّ له أن يتعرّف على أمراضها أولاً ليتخلّص منها، ومن ثمّ أحوالها الكاملة وفضائلها ليتحلّى بها ثانيًا، ولهذا، قمنا بوضع هذه الأبحاث الأخلاقية في قسمين. الأول ما ذكره الإمام في جميع كتاباته وكلماته حول أمراض القلب وذنائب الأخلاق وحالاتها السّلبية وجاء تحت عنوان "مساويء الخلق". وثانيًا كلماته حول الفضائل الاخلاقية والكمالات النفسية وجاء تحت عنوان "محاسن الخلق". وبالرّغم من الغنى الملحوظ في هذا المجال، تبقى بعض الرّذائل والأمراض ممّا لم يتعرّض له الإمام قدس سره، أو اكتفى بالإشارة إليه في طيات الأبحاث الأخرى.

ولا شكّ بأنّ السّير العلميّ في كلّ مرض يقتضي التعرّف إليه جيّدًا وقبل أيّ شيء، والسّعي لتحديده بصورة علميّة دقيقة ليعين الدّهن على التّعامل معه علميًّا وتحقيقيًّا، فتتسع الفائدة وتعظم.

وإنّ من أهم طرق التعرّف إلى الأمراض معرفة عوارضها ممّا يظهر في النّفس وسلوكياتها وأحوالها، فيتمكّن المهتمّ بتهديب نفسه من اكتشافها. وخصوصًا إنّ من طبيعة الأزمت الأخلاقية أن تخفي نفسها وتتسترّ تحت أوهم الأنايية وحبّ النّفس.

وهذا ما يقودنا إلى دراسة آثار كلّ مرض ونتائجه على مستوى الفرد أو المجتمع، في الحياة والعمل دنيا وآخرة، ليكون أبلغ في التّوجه إلى ضرورة القضاء عليه والتخلّص منه أو معالجته.

فيبدأ الحديث عن العلاج بذكر الأسباب والعوامل التي أدت إلى تشكّل هذه الرّذيلة أو تلك، لأنّ أصل العلاج في الرّجوع إلى السّبب والمنشأ وسدّ بابه أو القضاء عليه. وفي كلّ علاج نجد أهميّة المعرفة والاعتقاد وندرك أنّ البداية ينبغي أن تكون في العلم النّافع، لأنّ الانتقال إلى العمل لا يمكن أن يتحقّق دون ركنة علميّة متينة.

وقد اعتمدنا نفس السبيل التحليلي في الفضائل مع فارق يرتبط بالتعامل معها مقارنةً بالزئافل.

ويتميز هذا الكتاب العديد من الخصائص، منها:

- سعيًا في هذا الكتاب إلى تحقيق الغرض الأساسي من تدوين الكتب الأخلاقية، وهو أن تكون فرصة مهمة للتأثير في النفوس لا مجرد وصفة طبية دقيقة. ولهذا، كان علينا أن نحافظ على النص الأصلي للإمام الخميني قدس سره، دون أي تدخل.

- توثيق نصوص الإمام بعد مزجها في موضوع كل درس، ليتسنى للأستاذ والباحث والمراجعة في المصدر عند الحاجة.  
- وقد قمنا باستقصاء كل ما ذكره الإمام أو كتبه فيما يرتبط بكل رذيلة أو فضيلة، لكننا لم نتمكن من إدراجها كلها وإلا لاحتاج الأمر إلى كتاب أكبر حجمًا بعدة مرات ما يؤثر سلباً على تدريسه واعتماده في المناهج التعليمية.  
- قمنا بانتقاء أهم ما يرتبط بالمسألة المطروحة تاركين الفرصة لكل من يرغب في السباحة في بحر معارف الإمام وتعاليمه.

- أدرجنا نهاية كل درس المفاهيم الرئيسة لما طرحه الإمام في الموضوع المطروح، وهي عبارة عن خلاصة وزيدة أفكار الإمام.

- أدرجنا نهاية كل درس مجموعة من الآيات الشريفة، والأحاديث في نفس موضوع الدرس، لإغناء المادة إضافة إلى ما ذكره الإمام قدس سره من آيات وروايات.

إنّ مركز نون، وإذ يقدم لأساتذتنا الكرام وطلابنا الأعزّاء مثل هذا المتن التعليمي على أمل أن يساهم بقوة في تفعيل تناول الموضوعات الأخلاقية، يرحب بكل ملاحظة أو انتقاد يتقدم بهذا العمل نحو المزيد من الدقة العلمية والروح التعليمية.

والحمد لله رب العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة



## الدرس الأول: الإيمان (١) - حقيقة الإيمان ومراتبه

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرف إلى معنى الإيمان وعلاقته بباقي الكمالات.
- ٢- يبين الفرق بين الإيمان والعلم ويميز بينهما.
- ٣- يشرح أهمية معرفة درجات الإيمان في توجيه سير وسلوك الإنسان.



## تمهيد

ليس الإيمان أحد الكمالات، بل هو أصل ومنبع جميع الكمالات. وذلك لأن كل كمال إنما ينبع بحسب الرؤية التوحيدية من مصدر واحد وهو الله تعالى. ولا يمكن أن يتصف مخلوق بأية صفة وجودية إلا بالله عز وجل. وحيث أن الإيمان عبارة عن التوجه إلى الله والارتباط الواعي به والاتصال بساحة قدسه، فإن المؤمن يكون كمن توجه إلى نبع الماء واتصل به. وبمقدار ما يكون الإيمان حاضرًا في حياة الإنسان وفاعلاً، فإن الارتواء سوف يزداد ويزداد معه مستوى الكمال.

كلّ هذا، كما سيبتين لنا، ينعكس على حياة الإنسان وعلى شخصيته ومصيره وسيره وسلوكه بحيث يجعله شخصاً مختلفاً تماماً عن الذي لا يحمل في قلبه مثل هذا الإيمان. بل إننا نجد التمايز الكبير بين المؤمنين بحسب درجات الإيمان في قلوبهم.

فما هو سرّ هذا الأمر؟ وكيف نفهم الإيمان وسط كل هذا الضجيج الذي يُثار حوله؟ وكيف نميّز الإيمان الحقيقي عن الإيمان المزيف أو التقليدي؟

## ما هو الإيمان؟

يقول الإمام قدس سره: "معلوم أنّ الإيمان نورٌ إلهي يجعل القلب موضع تجليات الحقّ جلّ جلاله، كما جاء في الأحاديث القدسية: "لا يَسْعُنِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي بَلْ يَسْعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ"<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> روح الله الموسويّ الخميني، الأربعون حديثاً، ترجمة محمد الغروي، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الخامسة، ١٩٩٦م، ص ١٣٤.

لا يخلو إنسان من إيمان بشيءٍ ما، فعندما تترسخ فكرة أو قضية ما في نفس الإنسان ويتوَلَّد من هذه الحالة نوع من الالتزام العمليِّ فإنَّ هذا يُسمَّى إيمانًا. ولهذا، نجد من يؤمن بقضية أو وطن أو مشروع أو أطروحة يعمل لها بتفانٍ وجدِّ. إلَّا أنَّ الإيمان المطروح هنا، والذي ذُكر في معظم الآيات والأحاديث الشريفة هو الإيمان بالله تعالى.

ولأنَّ الله عزَّ وجلَّ يختلف تصوُّره بين النَّاس تبعًا للتَّعليم والبيئة والتلقين والتَّجربة الشَّخصية، يختلف الإيمان به بحسب اختلاف التَّصوُّر. بل إنَّ بعض المنكرين لله تعالى والذين يصرِّحون بهذا الإنكار قد يكون إنكارهم لهذا الإله الذي يتصوُّره البعض.

يهتمَّ الإمام الخمينيُّ قدس سره كثيرًا بتعريف الإيمان لأجل تمييزه عن بعض الحالات النَّفسية التي يسميها النَّاس إيمانًا لكي لا ينخدع الباحث عن الحقيقة، فيُحرم من التَّوجُّه إلى المعنى الواقعيِّ ويحرم نفسه بالتالي من تحصيل أعظم الكمالات.

فالذين يتصوِّرون الله كإله يتصرَّف في العالم كمستبد غير محيط بالأشياء لا يمكن أن يدوقوا حلاوة الإيمان ولا يمكن لعلاقتهم برَّهم أن تتكامل وتأخذ بأيديهم إلى الكمالات.

والذين لا يعرفون علاقة الإيمان بالإدراك والمعرفة، ربَّما يخيَّل إليهم أنَّ الإيمان قد يسمو ويزداد بعيدًا عن العلم. وعندئذٍ، فإنَّ طريقهم سينسدُّ ولن يصلوا إلى نتيجة.

أمَّا الذين حصروا الإيمان بالعلم والعقل، ولم يعرفوا معنى حضور الله في القلب، فقد سلكوا طريقًا لزيادة الإيمان من خلال العلم فقط، فأدَّى ذلك إلى وصولهم إلى ما يعارض الإيمان!

ولنستمع إلى مجموعة من كلمات الإمام حول ماهية الإيمان وحقيقته.

### الإيمان غير الإسلام

يقول الإمام قدس سره: "القلب وهو مقرُّ نور الإيمان"<sup>١</sup>. وعن جميل بن صالح عن سماعة قال: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ أَهْمَا مُخْتَلِفَانِ فَقَالَ: إِنَّ الْإِيمَانَ يُشَارِكُ الْإِسْلَامَ وَالْإِسْلَامَ لَا يُشَارِكُ الْإِيمَانَ. فَقُلْتُ فَصِفْهُمَا لِي. فَقَالَ: الْإِسْلَامُ

<sup>١</sup> روح الله الموسوي الخميني، جنود العقل والجهد، دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م، ترجمة مؤسسة أم القرى، ص ١٩١.

شَهَادَةٌ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالتَّصَدِيقُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِهِ خَفِنَتِ الدِّمَاءُ وَعَلَيْهِ جَرَتِ الْمَنَاحِكُ وَالْمَوَارِيثُ وَعَلَى ظَاهِرِهِ جَمَاعَةُ النَّاسِ وَالْإِيمَانُ الْهُدَى وَمَا يَثْبُتُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ صِفَةِ الْإِسْلَامِ وَمَا ظَهَرَ مِنْ الْعَمَلِ بِهِ وَالْإِيمَانُ أَرْفَعُ مِنَ الْإِسْلَامِ بِدَرَجَةٍ إِنَّ الْإِيمَانَ يُشَارِكُ الْإِسْلَامَ فِي الظَّاهِرِ وَالْإِسْلَامَ لَا يُشَارِكُ الْإِيمَانَ فِي الْبَاطِنِ وَإِنْ اجْتَمَعَا فِي الْقَوْلِ وَالصِّفَةِ<sup>١</sup>. يتضح من هذا الحديث الشريف أنّ الإسلام هو الشهادة بالتوحيد، والتصديق بالرسالة الإسلامية، في حين أنّ الإيمان هو تجلّي نور الهداية في القلب. أي إذا استقرت صفة الإسلام في القلب فهو الإيمان الذي يلازمه العمل. فالكثير من الأحاديث الشريفة تصرّح بأنّ العمل بالأركان من الإيمان، وهذا ليس لأنّ للعمل بالأركان مدخلية في حقيقة الإيمان، بل المقصود هو أنّ لازمة الإيمان العمل بالأركان<sup>٢</sup>.

### الإيمان مغاير للعلم

"الإيمان غير العلم والفهم، إذ هما حظّ العقل وهو حظّ القلب، ولا يمكن وصف الإنسان بأنه مؤمن بمجرد حصوله على العلم بالله وملائكته وأنبيائه ويوم القيامة، فقد وصف الله تبارك وتعالى إبليس بأنه كافّر رغم أنّه كان على إحاطة علمية وإدراكية بهذه الأمور. وربما كان الفيلسوف عالماً بالبراهين الفلسفية قادراً على إقامتها فيما يرتبط بإثبات التوحيد وشعبه ومراتبه، ورغم ذلك فهو نفسه غير مؤمن بالله لأنّ علمه لم ينتقل من مرتبة العقل والكلية والتعقل إلى مرتبة القلب والجزئية والوجدان. ولتقريب هذه الحقيقة، أضرب المثال التالي: نحن جميعاً نعرف بالبرهان والإدراك العقلي أنّ الأموات عاجزون عن إلحاق الأذى بالإنسان، وأنّ جميع أموات العالم عاجزون عن التحرك قيد أنملة. كما أنّنا جميعاً نعلم أنّ الحياة لا ترجع إليهم في ظلمة الليل، رغم ذلك نخاف من الموتى في ظلمة الليل فتغلب أوهامنا عقولنا، والسرّ في ذلك أنّ القلب لم يؤمن بهذه الحقيقة العقلية، وأنّ الإدراك العقلي لم يدخل إلى القلب، والذي يوصله إلى القلب هو تكرار البقاء عند الموتى في الليل وكثرة زيارة المقابر في الليالي المظلمة، عندها يزول الخوف من الأموات، بل ومن يفعل ذلك

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٢٥.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٠٠.

يتخذ منزلاً في مقابر الموتى ويأنس بواديهم المظلم. فهو يشارك الأول. الذي لم يوصل العلم إلى القلب. في العلم بعجز الموتى عن إلحاق الأذى بأحد، ولكنّه يختلف عنه في الإيمان القلبيّ به، ولذلك لم يؤثّر العلم على الأول في حين أنّ إيمان الثاني أخرجته من أسر الخوف الخياليّ الوهميّ.

يتّضح إذًا، أنّ الإيمان غير العلم، وهذا ما يصدّقه أيضًا المعنى اللغويّ، لأنّ الإيمان في اللغة جاء بمعنى الوثوق والتصديق والاطمئنان والانقياد والخضوع وقد تُرجم إلى الفارسيّة بمعنى "كرويدن" (الانقياد) وهذا كما هو واضح غير العلم والفهم والإدراك<sup>١</sup>. وذكر قدس سره أن الإيمان ليس هو مجرد العلم فقال قدس سره: و"إنّ الإيمان من الأعمال القلبية، وليس هو مجرد علم"<sup>٢</sup>. أما المؤمن الحقيقي عند الإمام قدس سره فيقول عنه: "إنّ المؤمن هو الذي أدرك بقلبه حضور الحقّ تعالى، والإحاطة القيوميّة لذاته المقدّسة بكلّ شيء، وأحسنّ وجدانيّاً بعظمته وجلاله جلّت عظمته"<sup>٣</sup>.

### التّسليم صفة الإيمان

للإيمان آثار كثيرة، سيأتي الحديث عنها، لكن الصّفة الأساسيّة التي تلازمه وتمتّزح معه هي صفة التّسليم، لأنّ الحقيقة إذا رسخت في القلب حملته طوعًا على التّسليم لكلّ ما ينسجم معها.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "إنّ التّسليم من الخصال الحميدة للمؤمنين، يتوسّلون به لطّي المنازل المعنويّة والحصول على المعارف الإلهيّة. فالذي يتجلّى بالتّسليم للحقّ تعالى ولأوليائه، ولا يناقش لهم أمرًا، يطوي سيره الملكوتيّ بأقدامهم، ولذلك فهو يصل بسرعة إلى مقصده. من هنا قال بعض العرفاء: إنّ المؤمنين أقرب للمقصد والمقصود من الحكماء، لأنهم يضعون ويحرّكون أقدامهم تبعًا لخطى الأنبياء، في حين أنّ الحكماء يسعون للتّسليم على وفق فكرهم وعقولهم"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٣.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ٥٧.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٧.

<sup>٤</sup> م، ص ٣٥٨.

"إنّ ذلك الإنسان الذي تظهر في قلبه تجلّيات نور الإيمان والمعرفة، ويطوّق رقبتَه الحبل المتين والعروة الوثقى للإيمان، ويكون رهن الحقيقة والمعرفة، هو ذلك الإنسان الذي يلتزم بالقواعد الدنيّة وتكون ذمته مرهونة لدى القوانين العقليّة، ويتحرّك بأمرٍ من العقل والشّرع، دون أن يهزّ موقفه أيّ من عاداته وأخلاقه وما يأنس به من مألوفاته. فلا تحيد به عن الطريق المستقيم"<sup>١</sup>.

"إنّ الإنسان الذي يدعي الإسلام والإيمان هو ذلك الذي يستسلم للحقائق ويخضع لها ويرى أهدافه، مهما عظمت، فانية في أهداف وليّ نعمته، ويضحّي بنفسه وبياراته في سبيل إرادة مولاه الحقيقيّ. ومن الواضح أنّ مثل هذا الشّخص لا يعرف العصبيّة الجاهلية، وإنّه بريءٌ منها"<sup>٢</sup>.

### الإيمان درجات

يقول الله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾<sup>٣</sup>.

اشتهر بين الناس أنّ الإيمان درجات، لكنّ أكثر الناس لا يعلمون عن درجاته شيئاً، ويتصوِّرون أنّ كثرة العبادة هي شدّة الإيمان. ولا شكّ أنّ الإكثار من العبادة هو من تجلّيات زيادة الإيمان، لكنّه قد يوجد في نفوس المنافقين والكفّار. وإبليس هو أبلغ مثال على الكافر الذي يكثر العبادة. فقد عُرف بين الملائكة بكثرة عبادته والله تعالى وصفه بأنّه كان من الكافرين. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>٤</sup>. وينبغي أن نعلم أنّ درجات الإيمان إنّما هي لأجل أن يعرف السّالك كيفيّة توجيه مسيرته الإيمانيّة، حيث سيتبيّن لنا أنّ التّوقف عند أيّة درجة من درجات الإيمان أو الكمال هي بمنزلة الوقوع في فخّ إبليس، وهي من أمّ أسباب الهلكة بعينها. ومن أهم درجات كمال الإيمان الحقيقي:

<sup>١</sup> الأريعون حديثاً، ص ١٧٥.

<sup>٢</sup> م، ص ١٧٥.

<sup>٣</sup> سورة المجادلة، الآية ١١.

<sup>٤</sup> سورة البقرة، الآية ٣٤.

## ١ - الطمأنينة

وفي الفصل الذي عقده الإمام للحديث عن مقامات السالكين، وبعد ذكر الدرجة الأولى وهي العلم، يذكر الإمام أنّ الإيمان ينتهي إلى الطمأنينة. قال قدس سره: "مقام الاطمئنان وطمأنينة النفس، وهو في الحقيقة المرتبة الكاملة من الإيمان. قال تعالى مخاطبًا خليله ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِن قَال بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ولعلنا نشير إلى تلك المرتبة أيضاً فيما بعد".<sup>١</sup>

ويقول قدس سره أيضاً: "كمال الإيمان هو الاطمئنان. فإذا قوي نور الإيمان تبعه حصول الاطمئنان في القلب، وجميع هذه الأمور هي غير العلم. فمن الممكن أن يدرك العقل بالدليل شيئاً لكن القلب لم يسلم بعد، فيكون العلم بلا فائدة. مثلاً أنتم أدركتم بعقولكم أن الميت لا يستطيع أن يضرّ أحداً، وأن جميع الأموات في العالم ليس لهم حس ولا حركة بقدر ذبابة، وأن جميع القوى الجسمانية والنفسانية قد فارقتة ولكن حيث أن القلب لم يتقبل هذا الأمر ولم يسلم أمره للعقل، فإنكم لا تقدرون على مبيت ليلة مظلمة واحدة مع ميت!!

وأما إذا سلّم القلب أمره للعقل، وتقبل هذا الحكم منه، فلن يكون في هذا العمل . أي المبيت مع الميت . أي إشكال بالنسبة إليكم، كما أنه وبعد عدة مرات من الإقدام، يصبح القلب مسلماً، فلن يبقى عنده بعدها بأس أو خوف من الميت".<sup>٢</sup>

## ٢ - الشهود

وتكون الطمأنينة هي الدرجة العليا من الإيمان التي تؤسس لمقام الشهود وهو أعلى ما يمكن أن يصل إليه السالك على مستوى معرفة ربّه سبحانه. ومثل هذا المقام الأسنى لا ينتهي إلى مقام، بل هو سير في عالم الإطلاق إلى ما لا يتناهى، فـ "مقام المشاهدة. وهو نور إلهيّ وتجليّ رحمنيّ يظهر في سرّ السالك تبعاً للتجليات الأسمائية والصفائية، وينور جميع قلبه بنور شهوديّ ولهذا المقام درجات كثيرة لا تتسع هذه الأوراق لذكرها. وفي هذا المقام يبرز أتمودج من قرب التوافل المعبر عنه بـ "كنت سمعه وبصره". ويرى السالك نفسه مستغرماً في البحر اللامتناهي ومن ورائه بحر عميق في غاية العمق تنكشف له فيه نبذة من أسرار القدر".<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٢٦.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٨-٥٩.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٢٦-٢٧.

و"أصحاب القلوب وأهل الله ينتقلون من حدّ الإيمان إلى منزل الكشف والشهود. وهو يحصل بالمجاهدة الشديدة والخلوة مع الله والعشق بالله".<sup>١</sup>

#### الحذر من الرضا بالمراتب الدنيا

يقول الإمام الخميني قدس سره محذرا من الرضا والاكتماء بالمراتب الدنيا للإيمان وعدم النظر والسعي نحو المراتب الأعلى والأكمل: "وبالجملة، التخلّص بهذه المرتبة الكاملة، وإن كان لا يتحقّق لغير الكمّل من الأولياء والأصفياء عليهم السلام بل المقام الكامل لهذه المرتبة من مختصّات النبيّ الخاتم والقلب الخالص التّورانيّ الأحديّ الأحمديّ الجمعيّ المحمديّ صلى الله عليه وآله وسلم بالأصالة وللکمّل والخلّص من أهل بيته بالتبعيّة. ولكن لا يجوز للمؤمنين والمخلصين أيضاً أن يغضّوا التّظر عن جميع مراتبه ويقنعوا بالإخلاص الصّوريّ العمليّ والخلوص الظّاهريّ الفقهيّ، لأنّ الوقوف في المنازل من الأعمال العبقريّة لإبليس، الذي قعد على صراط الإنسان والإنسانيّة، لمنعه بأيّة وسيلة ممكنة من العروج إلى الكمالات والوصول إلى المدارج. فلا بدّ من علوّ الهمة وتقوية الإرادة، فلعلّ هذا التّور الإلهيّ واللطفية الرّبانيّة تسري من الصّورة إلى الباطن ومن الملك إلى الملكوت".<sup>٢</sup>

#### موعظة

"نحن جميعاً نعلم أنّ لا أحد يستطيع التصرّف بشيء في مملكة الحقّ تعالى من غير الإذن القيوميّ والإشارة الإشرافيّة لذاته المقدّسة حلّ وعلا، ولا يمكن أن تغلب إرادة أيّ مخلوق إرادته القويمة عز وجلّ ولكنّا مع ذلك نطلب الحاجات من أهل الدّنيا وأصحاب الثّروة ونغفل عنه تعالى!

وتوكّلنا على الطّبيعة وأوضاعها وأمورها يزيد بمآت الأمثال على توكّلنا عليه تبارك وتعالى، والسرّ في ذلك هو، ولا غيره، أنّ حقيقة التّوحيد الأفعاليّ لم تدخل قلوبنا.

<sup>١</sup> (ن.م)، ص ١٠٦.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٦٣٢-٦٣٣.

الحكيم الفيلسفي يقول: "لا مؤثّر في الوجود إلاّ الله" لكنّه يطلب حاجته من غيره تعالى! والمتعبّد المنتسك يجعل ورده ذكر "لا حول لولا قوّة إلاّ بالله" و "لا إله إلاّ الله"، ورغم ذلك فإنّه يمدّ عينه إلى أيدي الآخرين، ولا علّة لذلك سوى أنّ برهان ذلك لم يخرج من دائرة العقل والإدراك العقليّ ولم يدخل القلب، وذكر هذا لم يتجاوز لقلقة اللسان ولم يتذوّقه القلب.

نحن جميعاً نلهج بالحديث عن التوحيد ونخاطب الله تعالى بأنه "مقلّب القلوب والأبصار" وأنّ "الخير كلّه بيده" وأنّ "الشرّ ليس إليه" ولكننا رغم ذلك نواصل السعي لاستقطاب قلوب عباد الله ونتمتّى دائماً الحصول على الخيرات من أيدي غيرنا وشرّ كلّ ذلك ليس سوى أنّنا نتعامل بهذه الحقائق العقليّة التي لم تدخل القلب، أو نرددها لقلقة باللسان دون أن نوصلها إلى مرتبة الذكر الحقيقيّ.

نحن جميعاً نعلم أنّ القرآن الشّريف، تنزّل من معدن الوحي الإلهيّ بهدف تكميل الإنسان وتخليصه من سجن الطّبيعة والدنيا المظلم، وأنّ وعده ووعيده هما جميعاً حقّ صريح وحقيقة ثابتة، وليس فيه أيّة شائبة من الباطن وما يخالف الواقع، ولكن رغم ذلك، فإنّ تأثير هذا الكتاب الإلهيّ العظيم في قلوبنا القاسية لا يبلغ تأثير كتاب قصّة فيها فلا تتعلّق قلوبنا شوقاً بمواعيده الصّادقة لنخرج بذلك من التعلّق بهذه الدّنيا الدّيّة والنّشأة الفانيّة، ونتطلّع إلى تلك الدّار الخالدة، ولا يصل فيها خوف وخشية من الوعيد والإنذار القرآني، فنرتدع عن الذنوب، ونتورّع عن معصية وليّ نعمتنا. ولا علّة لكلّ ذلك سوى أنّ حقيقة وحقائيّة القرآن لم تدخل قلوبنا، ولم تنعقد عليها أفعدتنا. والإدراك العقليّ المجرد قليل التأثير جدّاً.

وقس على ذلك حال جميع نقائصنا وأشكال طغياننا وذنوبنا وحرماننا من جميع المعارف والأسرار، واعرف أنّ علّتها الأساسية تكمن في هذه الحقيقة<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٤-٩٦.

## المفاهيم الرئيسة

١- الإيمان أصل ومنبع جميع الكمالات، وذلك لأن كل كمال إنما ينبع بحسب الرؤية التوحيدية من مصدرٍ واحدٍ وهو الله تعالى.

٢- الإيمان عبارة عن التوجه إلى الله والارتباط الواعي به والاتصال بساحة قدسه، وهو نورٌ إلهي يجعل القلب موضع تجليات الحق جلّ جلاله، لذلك فبمقدار ما يكون الإيمان حاضرًا في حياة الإنسان وفاعلاً يزداد كمالاً.

٣- يختلف تصوّر الله عزّ وجلّ بين الناس تبعاً للتعليم والبيئة والتلقين والتجربة الشخصية، لذا يختلف الإيمان به بحسب اختلاف التصوّر.

٤- إنّ الإيمان يتحقّق عندما يستقرّ العلم الثابت بالبرهان العقليّ في القلب. فبالإضافة إلى العلم هو شعورٌ قلبيّ وإحساس وجدائيّ. فمن حصر الإيمان بالشعور لم يهتد إليه سبيلاً. ومن قصره على العلم، سلك طريق الضياع. فالإيمان تجربة تتفاعل فيها المعرفة مع العمل ويظهر في الصفات والأخلاق.

٥- للإيمان آثار كثيرة، لكن الصفة الأساسية التي تلازمه وتمتزج معه هي صفة التسليم، لأنّ الحقيقة إذا رسخت في القلب حملته طوعاً على التسليم لكلّ ما ينسجم معها.

٦- إنّ للإيمان درجات وإنّ التوقّف عند أية درجة من درجات الإيمان أو الكمال هي بمنزلة الوقوع في فخّ إبليس، وهي من أهمّ أسباب الهلكة.

٧- الطمأنينة هي الدرجة العليا من الإيمان التي تؤسّس لمقام الشهود وهو أعلى ما يمكن أن يصل إليه السالك على مستوى معرفة ربّه سبحانه. وهو سير في عالم الإطلاق إلى ما لا يتناهى.

دعاء:

"اللَّهُمَّ وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِكَ، وَالتَّصَدِيقِ بِرَسُولِكَ، وَالْأَيْمَةِ الَّذِينَ حَتَمْتَ طَاعَتَهُمْ مِمَّنْ يَجْرِي ذَلِكَ بِهِ وَعَلَى يَدَيْهِ، آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ"<sup>١</sup>.

الآيات الكريمة:

١- ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ \* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ \* أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>٢</sup>.

٢- ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَتْهُنَّ﴾<sup>٣</sup>.

٣- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾<sup>٤</sup>.

٤- ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾<sup>٥</sup>.

٥- ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَأُ وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾<sup>٦</sup>.

٦- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>٧</sup>.

٧- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام يوم الأضحى ويوم الجمعة.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآيات ٣-٥.

<sup>٣</sup> سورة البقرة، الآية ٤١.

<sup>٤</sup> سورة البقرة، الآية ١٢١.

<sup>٥</sup> سورة البقرة، الآية ١٣٦.

<sup>٦</sup> سورة الأنفال، الآية ٧٤.

<sup>٧</sup> سورة الأنفال، الآية ٢.

يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيُغْضِ شَأْنَهُمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ<sup>١</sup>.

٨- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ<sup>٢</sup>.﴾

### الروايات الشريفة:

١- قُلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَا الْإِيمَانُ؟ وَمَا الْإِسْلَامُ؟" قَالَ: "أَمَّا الْإِيمَانُ فَالْإِقْرَارُ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِسْلَامُ فَمَا أَفْرَزْتَ بِهِ وَالتَّسْلِيمُ لِلْأَوْصِيَاءِ وَالطَّاعَةُ لَهُمْ"<sup>٣</sup>.

٢- عَنْ سُلَيْمِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا (غَيْرَكَ وَلَا) بَعْدَكَ فَقَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "... تُوْمِنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَبِالْقَدْرِ (كُلُّهُ) خَيْرِهِ وَشَرِّهِ وَخُلُوهِ وَمُرَّه"<sup>٤</sup>.

٣- عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: "سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا الْإِيمَانُ فَجَمَعَ لِي الْجَوَابَ فِي كَلِمَتَيْنِ فَقَالَ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ أَنْ لَا تَعْصِيَ اللَّهَ"<sup>٥</sup>.

٤- مِنْ سُؤَالِ الرَّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنِ مَسَائِلَ كَثِيرَةٍ... ﴿وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا﴾ قَالَ: "فَبَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ مَنْزِلَةٌ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا قَالَ فَمَا الْإِيمَانُ وَمَا الْكُفْرُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْإِيمَانُ أَنْ يُصَدَّقَ اللَّهُ فِيمَا غَابَ عَنْهُ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ كَتَصَدِيقِهِ بِمَا شَاهَدَ مِنْ ذَلِكَ وَ عَائِنَ"<sup>٦</sup>.

٥- قَالَ أَبُو زَرِينٍ الْعَقِيلِيُّ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا"<sup>٧</sup>.

<sup>١</sup> سورة النور، الآية ٦٢.

<sup>٢</sup> سورة الحجرات، الآية ١٥.

<sup>٣</sup> بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٢٨٧.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٢٨٨.

<sup>٥</sup> مستدرک الوسائل، ج ١٦، ص ١٥١.

<sup>٦</sup> بحار الأنوار، ج ١٠، ص ١٨٣.

<sup>٧</sup> مجموعة ورام، ج ١، ص ٢٢٣.



## الدرس الثاني: الإيمان (٢) - أهميّة الإيمان ودوره

### أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرّف إلى أهميّة الإيمان وتأثيره على مصيرنا الدنيويّ والأخرويّ.
- ٢- يبيّن دور الإيمان في إصلاح أنفسنا والارتداع عن الذنوب والمعاصي.
- ٣- يفهم دور الإيمان في التخلّص من تصرّف الشيطان.



## تمهيد

تتضح أهمية الإيمان في المنظومة القيمية الإسلامية عندما نقدر على معرفة مصدر جميع الكمالات والفضائل. وتتجلى هذه الأهمية بأعلى مراتبها عندما ندرك أنّ الإيمان هو السبيل الوحيد للخلاص والتّجاة يوم القيامة. أمّا في الحياة الدّنيا، فإنّ كلّ التحركات الإيجابية التي يقوم بها النّاس لا يمكن أن تؤتي ثمارها الطيبة إلّا إذا انطلقت من الإيمان.

ويقدّم لنا الإمام الخمينيّ قدس سره رؤية متميّزة ومتقدّمة حول موقعيّة الإيمان في الدّين وفي الحياة، تجعلنا في حالة من الإشباع والغنى إلى الدّرجة التي ندرك معها أنّه لا معنى للحياة سوى السلوك في مراتب الإيمان. ولو قيل أنّ كل ما في الوجود، وكل ما يحدث في العالم، وكل ما يجري علينا ومن حولنا إنّما هو لأجل زراعة الإيمان وحرثته لما كان في الكلام أيّة مبالغة.

ها هي الحياة بكلّ ما فيها فرصة عظيمة لتعرّف على ربّنا وتوجّه إليه بقلوبنا حتّى نلقاه. وليس لنا سوى الإيمان زادًا يتجلى في التقوى والعمل الصّالح.

وتظهر أهمية الإيمان من خلال معرفة موقعه ضمن دائرة التّعاليم الإسلامية والدّين، كما أنّ هذه الأهمية تبرز عند التأمّل في الآثار التي لا تُحصى للإيمان على صعيد النّفس والمجتمع دنيا وآخرة.

## الإيمان هو الدّين

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "الإيمان بالله تعالى وبملائكته وكتبه ورسله وبيوم القيامة، هو الدّين القيم المحكم والمستقيم والحقّ على امتداد حياة المجموعة البشرية"<sup>١</sup>.

فالإيمان ليس جزءًا من الدّين بل هو الدّين كلّّه. وكل ما في الدّين فهو مرتبط بالإيمان بدايةً ونهايةً.

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٢١٢.

## الإيمان أصل جميع الكمالات

"من الواضح أيضاً أنّ الإيمان بالله من نوع العلم ومن الكمالات المطلقة، وحيث أنّه من الكمالات فهو أصل الوجود، وأصل حقيقة النور والظهور، وما لا يكون من الإيمان وتوابعه، فهو خارج عن نطاق الكمالات النفسانية الإنسانية، وملحق بظلمات الأعداء والمهيات"<sup>١</sup>.

"واعلم أنّ الإيمان أيضاً من الكمالات الروحية، التي قلّما يدرك أحد حقيقتها النورية، حتى أنّ المؤمنين لم يعرفوا شيئاً عن نورانية إيمانهم، والكرامات التي تنتظرهم لدى ساحة قدسه المتعالي، ما داموا في عالم الدنيا، وظلام الطبيعة"<sup>٢</sup>.

## أساس كل صلاح

يقول الإمام قدس سره: "ولو أنّ الإيمان تغلغل في القلب، لصلحت الأمور، لأنّ آثاره . الإيمان . تتسرّب إلى الظاهر والباطن والسرّ والعلن"<sup>٣</sup>.

ولهذا، فلا يوجد باعث على التوبة والإنابة مثل الإيمان. فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: "الإيمان لا يضُرُّ معهُ عَمَلٌ وَكَذَلِكَ الْكُفْرُ لَا يَنْفَعُ مَعَهُ عَمَلٌ" وهناك روايات أخرى بهذا المضمون. وقد فسر المحدث الجليل المجلسي عليه الرّحمة، الضّر المنفيّ: (ما يصير سبباً لدخول النار أو الخلود فيها). وإذا كان المقصود من الضّر المنفيّ دخول النار، فلا منافاة بين عدم الدخول في النار حسب هذه الروايات، وتحقق أنواع أخرى من العذاب في عالم البرزخ والمواقف المختلفة في يوم القيامة.

ويظنّ الكاتب<sup>٤</sup> بأنه يمكن تفسير هذه الأخبار، بأن الإيمان يتورّ القلب قليلاً وفي درجة محدودة، لو اقرّفت الإنسان خطيئة أو ذنباً، عولج ببركة ذلك النور وملكة الإيمان الإثم وتلك الجريرة، بالتوبة والرجوع إلى الله. فإن صاحب الإيمان بالله واليوم الآخر، لا يسمح لنفسه أن يترك أعماله إلى يوم القيامة. فهذه الأخبار في الحقيقة تحفز الإنسان على التمسك بالإيمان، والمحافظة عليه"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٥٨.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٥٨٢.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٤٠.

<sup>٤</sup> أي الإمام الخميني قدس سره.

<sup>٥</sup> الأربعون حديثاً، ص ٦٠٤.

## الغنى عن الناس

"فما لم تكتب عبارة "لا إله إلا الله" بقلم العقل على لوح القلب الصافي لن يكون الإنسان مؤمناً بوحداية الله. وعندما ترد هذه العبارة التوراتية الإلهية على القلب، تصبح سلطة القلب لذات الحق تعالى، فلا يعرف الإنسان بعدها شخصاً آخر مؤثراً في مملكة الحق، ولا يتوقع من شخصٍ آخر جاهاً ولا جلالاً، ولا يبحث عن المنزلة والشهرة عند الآخرين".<sup>١</sup>

"إنّ مطلق الاعتماد على غير الحق سبحانه والالتفات إلى المخلوق يكون من جزاء ضعف اليقين والإيمان".<sup>٢</sup>

## التجاة من الدنيا

"إنّ خوف وكرهية المتوسطين، للموت، أي الذين لا يؤمنون بعالم الآخرة، فلأنّ قلوبهم انشددت إلى تعمير الدنيا، وغفلت عن تعمير الآخرة، ولهذا لا يرغبون في الانتقال من مكانٍ فيه العمران والازدهار إلى مكانٍ فيه الدمار والحراب... وهذا أيضاً ناتج من نقصٍ في الإيمان والاطمئنان. وأمّا إذا كان الإيمان كاملاً، فلا يسمح الإنسان لنفسه أن يشتغل بأموره الدنيوية المنحطة ويغفل عن بناء الآخرة".<sup>٣</sup>

"إنّ الإنسان ما دام يشتغل بتعمير هذا العالم، ويكون قلبه متّجهاً نحو هذه النشأة، وما دام سكر الطبيعة . عالم المادة . قد أعماه وأفقده وعيه، والشهوة والغضب المخدّرتان قد خدّرتاه وسلبتا لُبّه، يكون محجوباً نهائياً عن صور أعماله وأخلاقه، وتكون آثار أعماله وأخلاقه مهجورة في ملكوت قلبه. ولكن عندما تغشاه سكرات الموت وتواجهه صعابها وضغوطها، ويتعد قليلاً عن هذه النشأة، فإذا كان من أهل الإيمان واليقين، وكان قلبه متعلّقاً بهذه العوالم المادّية، اتّجه قلبه في نهاية المطاف من حياته إلى ذلك العالم، والسائقون المعنويّون، وملائكة الله الموكّلون عليه، يسوقونه جميعاً إلى ذلك العالم، وبعد هذا السّوق وذاك الانصراف ينكشف له نموذج من عالم البرزخ، وتنفّح عليه من عالم

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٨-٥٩.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٦١.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٩٠.

الغيب كُؤةً ويتكشّف له حاله ومقامه قليلاً، كما نُقل عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: "حَرَامٌ عَلَيَّ كُلُّ نَفْسٍ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"... فإن كان من أهل الإيمان والسعادة، يستعدّ قلبه عند معاينة البرزخ لمشاهدة التفحات اللطيفة اللطيفة والجمال، وتظهر فيه آثار تجليات اللطف والجمال، فيأخذ القلب في الحبّ للقاء الله، وتشتعل في قلبه جذوة الاشتياق إلى جمال المحبوب، إن كان من أهل الحسنى وحبّ الله والجاذبة التربويّة، ولا يعرف أحد إلاّ الله، مقدار اللذات والكرامات الموجودة في هذا التجلّي والاشتياق! وإن كان من أهل الإيمان والعمل الصالح، أغدقت عليه من كرامات الحقّ المتعالي بقدر إيمانه وأعماله، ويراهما لدى الاحتضار، فيتوق إلى الموت ولقاء كرامات الحقّ، ويرتجل من هذا العالم مع البهجة والسرور والروح والريحان، ولا تطيق الأعين الملكيّة والذائقة المادّيّة، رؤية هذه الكرامات ومشاهدة هذه البهجة والفرح<sup>١</sup>.

### الخلاص من تصرّف الشيطان

"الإيمان حظّ القلب الذي يحصل من شدّة التذكّر والتفكّر والأنس والخلوة مع الحقّ. فإنّ الشيطان مع أنّ له العلم بالمبدأ والمعاد بنصّ القرآن محسوب في زُمره الكفّار، فلو كان الإيمان عبارة عن هذا العلم البرهانيّ يلزم أن يكون الواجدون لهذا العلم بعيدين عن تصرّف الشيطان ويتلأأ فيهم نور هداية القرآن، مع أنّنا نرى أنّ هذه الآثار لا تحصل بالإيمان البرهانيّ. فإن أردنا أن نخرج من تصرّف الشيطان ونقع تحت عوذة الحقّ لا يبدّ وأن نوصل الحقائق إلى القلب بالارتياض القلبيّ الشديد ودوام التوجّه أو كثرته وشدّة المراودة والخلوة حتّى يصبح القلب إلهياً. فإذا صار القلب إلهياً يخلو من تصرّف الشيطان كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٩٠ - ٤٩٢.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ٢٥٧.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٢٣٥.

## الخلاص الأبدي

"معلومٌ أنّ من يؤمن بالله ويصدقّ بيوم الجزاء ويعتقد بيوم القيامة، لا يقترف موبقة كبيرة، تفضحه في عوالم الغيب والشهادة وفي عالم الدنيا والبرزخ والآخرة، وتقوده إلى شرّ المصائب، التي هي نار جهنم، وتخرجه عن ولاية الحق المتعالي وتدخله تحت ولاية الشيطان"<sup>١</sup>.

وفي المقابل، فإنّ كلّ الشّقاءات والمصائب والنّقااص إنّما ترجع إلى عدم الإيمان أو نقصانه أو ضعفه أو تنزله.

يقول الإمام قدس سره: "إنّ كلّ شقائنا هذا من وراء النّقص في الإيمان بيوم القيامة ومن عدم الاطمئنان بعالم الآخرة. فلو أنّنا آمنّا بعالم الآخرة والحياة الأبدية، عُشر اطمئناننا بالحياة الدنيوية وعيشها، وعُشر إيماننا بحياة هذا العالم وبقائه، لتعلّقت قلوبنا بذلك العالم أكثر ولعشقناه، ولسعينا قليلاً في إصلاح الطّريق وترميمه. ولكن المؤسف أنّ إيماننا بالآخرة قد نضب في القلب، وأنّ يقيننا متزلزل"<sup>٢</sup>.

وإنّ مصدر جميع الخطايا والمعاصي التي تصدر من الإنسان، هو النّقص في اليقين والإيمان، وإنّ مراتب اليقين والإيمان مختلفة على مستوى لا يمكن عدّها وبيائها. وإنّ اليقين الكامل للأنبياء والاطمئنان التام الذي يحظون به، الحاصلان من المشاهدة الحضورية هو الذي يعصمهم من الآثام. إنّ يقين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد أبلغه إلى مستوى يقول "والله لو أُعطيْتُ الأقاليم السّبعة بما تحّت أفلاكها على أن أعصى الله في مَلَّةٍ أسألُها جَلْبُ شَعيرةٍ ما فَعَلْتُهُ"<sup>٣</sup>.

ف "لا بدّ من إصلاح ينبوع، والعثور على الإيمان بالله، وبكلمات أنبيائه حتّى يتم إصلاح الأمور. إنّ كل تعاستنا من ضعف الإيمان ووهن اليقين"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٣٤٠.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٩٠.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٥٨١.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٤٦٢.

## المفاهيم الرئيسة

- ١- سيّمت المؤمنين أفضل من حسنات الآخرين التي لا تُقبل أبدًا، لأنّ خطايا المؤمنين وذوي الدّين الحقّ، تؤول إلى المغفرة كما قال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.
- ٢- إنّ كلّ الشّقاءات والمصائب والتّفائص إنّما ترجع إلى عدم الإيمان أو نقصانه أو ضعفه أو تزلزله.
- ٣- الإيمان ليس جزءًا من الدّين بل هو الدّين كلّّه. وكل ما في الدّين فهو مرتبط بالإيمان بدايةً ونهايةً.
- ٤- الإيمان بالله من نوع العلم ومن الكمالات المطلقة، وحيث أنّه من الكمالات فهو أصل الوجود، وأصل حقيقة النور والظهور، وما لا يكون من الإيمان وتوابعه، فهو خارج عن نطاق الكمالات التّفسيّة الإنسانيّة، وملحق بظلمات الأعدام والمهيات.
- ٥- لو أنّ الإيمان تغلغل في القلب، لصلّحت الأمور، لأنّ آثاره . الإيمان . تتسرّب إلى الظاهر والباطن والسرّ والعلن. فلإيمان ظهور في القلب على صعيد العقائد والمعارف والمشاعر، وفي النّشأة البرزخيّة على مستوى الأخلاق والملكات، وفي النّشأة الملكيّة الظاهرة على صعيد الأعمال.
- ٦- إنّ مطلق الاعتماد على غير الحقّ سبحانه والالتفات إلى المخلوق يكون من جرّاء ضعف اليقين والإيمان.
- ٧- إذا كان الإيمان كاملاً، لا يسمح الإنسان لنفسه أن يشتغل بأموره الدنيويّة المنحطّة ويغفل عن بناء الآخرة.
- ٨- إذا أردنا أن نخرج من تصرّف الشّيطان ونقع تحت عودة الحقّ لا بدّ وأن نوصل الحقائق إلى القلب بالارتياض القلبيّ الشّديد ودوام التّوجه أو كثرته وشدّة المراودة والخلوة حتّى يصبح القلب إلهياً.

دعاء:

"اللَّهُمَّ وَأَنْتَ جَعَلْتَ مِنْ صَفَائِنَا تِلْكَ الْوُطَائِفِ، وَخَصَائِصِ تِلْكَ الْفُرُوضِ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي اخْتَصَصْتَهُ مِنْ سَائِرِ الشُّهُورِ، وَخَيَّرْتَهُ مِنْ جَمِيعِ الْأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، وَأَثَرْتَهُ عَلَى كُلِّ أَوْقَاتِ السَّنَةِ بِمَا أَنْزَلْتَ فِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالنُّورِ، وَضَاعَفْتَ فِيهِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَفَرَضْتَ فِيهِ مِنَ الصِّيَامِ، وَرَعَبْتَ فِيهِ مِنَ الْقِيَامِ"<sup>١</sup>.

الروايات الشريفة:

١- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ كُلُّهُ فِي قَرْنٍ وَاحِدٍ فَإِذَا سَلِبَ أَحَدُهُمَا اتَّبَعَهُ الْآخَرُ"<sup>٢</sup>.

٢- عَنِ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِيَّاكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَمَّامَ بِغَيْرِ مَنْرٍ فَإِنَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ"<sup>٣</sup>.

٣- فُقِّهُ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِيَّاكُمْ وَالْبُخْلَ فَإِنَّهَا عَاهَةٌ لَا تَكُونُ فِي حُرٍّ وَلَا مُؤْمِنٍ إِنَّهَا حَلَاقَةٌ الْإِيمَانِ"<sup>٤</sup>.

٤- عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَزْهَرُ نُورُهُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا يَزْهَرُ نُجُومُ السَّمَاءِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَالَ إِنَّ الْمُؤْمِنَ وَلِيُّ اللَّهِ يُعِينُهُ وَيَنْصُرُهُ وَيَصْنَعُ لَهُ وَلَا يَقُولُ عَلَيْهِ إِلَّا الْحَقَّ وَلَا يَخَافُ غَيْرَهُ"<sup>٥</sup>.

٥- عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "إِنَّ فِي كِتَابِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً النَّبِيُّونَ ثُمَّ الْوَصِيُّونَ ثُمَّ الْأُمَمَلُ فَالْأُمَمَلُ وَإِنَّمَا يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِ الْحَسَنَةِ فَمَنْ صَحَّ دِينُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَجْعَلِ الدُّنْيَا ثَوَابًا لِلْمُؤْمِنِ وَلَا عُقُوبَةً لِكَاْفِرٍ وَمَنْ سَخَفَ دِينَهُ وَضَعَفَ عَمَلَهُ قَلَّ بَلَاؤُهُ وَأَنَّ الْبَلَاءَ أَسْرَعُ إِلَى الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ مِنَ الْمَطْرِ إِلَى قَرَارِ الْأَرْضِ"<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في وداع شهر رمضان.

<sup>٢</sup> وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ١٦٨.

<sup>٣</sup> مستدرک الوسائل، ج ١، ص ٣٧٦.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ج ٧، ص ٣٢.

<sup>٥</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٧٠.

<sup>٦</sup> (ن.م)، ص ٢٥٩.



## الدرس الثالث: الإيمان (٣) - علائم الإيمان

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرف إلى علائم الإيمان لاكتشافه في نفسه.
- ٢- يبين العلاقة بين الإيمان والخشوع في الصلاة.
- ٣- يشرح العلاقة بين الإيمان واكتساب الكمالات.



## تمهيد

"لقد ذكر الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم خصائص المؤمنين، كما بيّن أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام صفاتهم في الأحاديث الشريفة، لكننا لا نتحلّى بأيّ منها، رغم أنّنا نعتقد جميعًا (نظريًا) بالله تبارك وتعالى وتوحيد ذاته المقدّسة وسائر أركان الإيمان استنادًا إلى البراهين العقلية وأمثالها.

والسرّ في ذلك يكمن فيما ذكرناه من أنّ الإيمان غير الإدراك العقليّ، يقول تبارك وتعالى في الآية الثانية من سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>١</sup> إلى أن يقول: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. فهو تبارك وتعالى يصرّح، وعلى نحو الحصر، بأنّ المؤمنين هم الذين يتحلّون بهذه الصّفات، أي أنّ غيرهم ليسوا بمؤمنين، ثمّ يختم هذا الوصف بتأكيد الأمر والتصريح بأنّ الذين تتوفر فيهم هذه الصّفات هم وحدهم المؤمنون حقًّا.

<sup>١</sup> سورة الأنفال، الآية ٢.

وصفاتهم المذكورة في الآية قد لاحظتموها، وأنتم تدعون الإيمان، وقد أدركتم عقلياً جميع أركانه ولديكم دليل عقلي وأوجدتم دليلاً لكلّ منها، فارجعوا إلى أنفسكم وتدبروا فيها ولا حظوا أيّ تلك الصفات موجودة في قلوبكم؟ تسمعون أو تردّدون كلّ هذا الدّكر لله تعالى ولكن أين "وجلّ القلوب" الذي يظهر على المؤمن عند ذكر الله؟ لا ريب في أنّ القلب الذي يدرك وجدانيّاً عظمة الحقّ تعالى وجلاله، ولم يتجلّ فيه كبرياؤه تعالى وعلوّه، لا يوجل من ذكره عزّ وجلّ".<sup>١</sup>

### كيف نعرف إذا كنّا من أهل الإيمان؟

طالما أنّ الإيمان ليس بالادّعاء، كما أنّه ليس مجرد علم أو شعور، فكيف يمكن لنا أن نعرف الإيمان في قلوبنا؟ وما هي الدّرجة من الإيمان التي ينبغي أن نبحث عنها؟

حقيقة الإيمان ترتبط بتكبيّة الإنسان وتشريحه المعنويّ. ويدلّنا الإمام الخمينيّ قدس سره وهو العارف بتشريح الوجود الإنسانيّ وعلاقة الأعضاء والأقاليم والنشآت والمراتب ببعضها البعض. فيعتبر أنّ القلب هو الهوية الحقيقيّة التي تتجلّى في الصفّات النّفسانيّة والملكات الأخلاقيّة، والتي بدورها تتجلّى في سلوكيّات الإنسان.

يقول الإمام قدس سره: "لو أنّ شخصاً قام بالوظائف العبوديّة والمناسك الظاهريّة . حسب ما هو لازم ومطابق لتوجيهات الأنبياء . لانعكست من جرّاء أدائه لمسؤوليّاته العبوديّة آثار على قلبه وروحه، حيث يحسن خلقه وتكامل عقائده. وهكذا فإنّ من يواظب على تهذيب خُلُقهِ وتحسين باطنه، يترك آثاراً على النشأتين الأخرويّتين البرزخ والقيامة. كما أنّ كمال الإيمان ومتانة العقائد يؤثّران في النشأتين التاليتين. ويكون كلّ ذلك نتيجة شدّة الارتباط بين المقامات الثلاثة، بل التعبير بالارتباط بين العوالم الثلاثة من جهة ضيق الخناق لعدم وجود كلمة أخرى تعبّر عن مدى تداخل كلّ منها في الآخر. إذ لا بدّ وأن نقول إنّها . العوالم الثلاثة . حقيقة واحدة، ذات مظاهر ثلاثة. وهكذا كمالات المقامات الثلاثة مرتبطة بكمالات كلّ واحد منها. من دون أن يظنّ أحد أنّه يستطيع أن يكون ذا إيمانٍ كاملٍ أو خُلُقٍ مهذبٍ من دون الأعمال الظاهريّة، والعبادات الصّوريّة. أو يستطيع أن يجعل إيمانه كاملاً وأعماله تامة، رغم نقصانٍ في خُلُقهِ وعدم تهذيبه، أو يمكن أن يتمّ أعماله الظاهريّة ويكتمل محاسن أخلاقه من دون الإيمان القلبيّ".<sup>٢</sup>

وعلى هذا الأساس، فلإيمان ظهور في القلب على صعيد العقائد والمعارف والمشاعر، وفي النشأة البرزخيّة على مستوى الأخلاق والملكات، وفي النشأة الملكيّة الظاهرة على صعيد الأعمال.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٦-٩٧.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤١٩-٤٢٠.

## علائم الإيمان

وعلى هذا الأساس لكلّ ظهور بحسب التّشأّة علامات، بحيث إذا لم تكن هذه العلامات فهذا يدلّ على عدم الإيمان. يقول الإمام قدس سره "وإذا فُقدت علائم الإيمان في شخص ما فالإيمان نفسه يكون مفقودًا فيه أيضًا"<sup>١</sup>.

ويقول قدس سره: "إنّ ما ذُكر في الأخبار الشريفة من أنّ الإقرار باللسان والعمل بالأركان من دعائم الإيمان، فهو بيان لسرّ طبيعي، ولسنة الله الجارية، لأن حقيقة الإيمان، تلازم العمل والتنفيذ. إنّ العاشق في جوهر طبيعته، يظهر العشق تجاه المعشوق ويتغزّل به، وإنّ المؤمن إذا لم يعمل بمتطلّبات الإيمان وما تستدعيه محبة الله وأوليائه، لما كان مؤمنًا ومحبًّا. وإنّ هذا الإيمان الشكليّ والمحبة الجوفاء، من دون جوهر ومضمون، ينتفي ويحول أمام حوادث بسيطة وضغوط يسيرة، وينتقل هذا المحبّ إلى دار جزاء الأعمال، صفر اليدين"<sup>٢</sup>.

ولنتوقّف عند مجموعة مهمّة من علامات الإيمان كما جاء في كلمات الإمام قدس سره.

### ١- الخشوع في الصلّاة

"قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾<sup>٣</sup> فجعل الخشوع في الصلّاة من حدود الإيمان وعلائمه. فمن لم يكن خاشعًا في الصلّاة فهو خارج زمرة أهل الإيمان طبقًا لما قاله ذات الحقّ المقدّس تعالى شأنه. قال الصادق عليه السلام: "إذا دخلت في صلاتك فعليك بالتخشّع والإقبال على صلاتك فإنّ الله تعالى يقول: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾. وبما أنّ صلواتنا ليست مشفوعة بالخشوع، فإنّ ذلك ناجم إمّا عن نقص الإيمان أو فقدانه... وأمّا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾<sup>٤</sup> فلعلّ المراد منه هو الإيمان الصّوريّ أي الإيمان بما جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وإلا فالإيمان الحقيقيّ يتلازم مع مرتبة من الخشوع لا محالة. أو أنّ المراد من الخشوع في هذه الآية، هو الخشوع بمراتبه الكاملة، كما أنّ العالم ربّما يطلق على من انتقل من حدّ العلم

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٩.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ٦٠٨.

<sup>٣</sup> سورة المؤمنون، الآيات ١-٢.

<sup>٤</sup> سورة الحديد، الآية ١٦.

إلى حدّ الإيمان، ويُحتمل أن تكون الآية الشريفة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>١</sup> إشارة إلى هؤلاء<sup>٢</sup>.

## ٢- الجِدِّ والاجتهاد

"إنّ هذه البرودة الموجودة فينا إنّما هي من برودة أشعة الإيمان، وهذا الوهن الذي نجده إنّما هو من وهن أساس الإيمان. ولو أحدثت أخبار الأنبياء والأولياء عليهم السلام وبراهين الحكماء والعرفاء عليهم الرضوان في أنفسنا مجرد الاحتمال، لكان اللازم علينا أن نقوم بالأمر ونجتهد في تحصيله بأحسن ممّا نحن فيه"<sup>٣</sup>.

## ٣- الخوف والخشية

"يقول الله تعالى في سورة الأنفال في الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>٤</sup>، فلا بدّ للسالك من أن يلاحظ هل أنّ هذه الأوصاف الثلاثة تنطبق عليه؟ وهل أنّ قلبه يوجلّ إذا ذكر الله ويخاف؟ وإذا تليت عليه الآيات الشريفة الإلهية هل يزداد نور الإيمان في قلبه؟ وكذلك اعتماده وتوكّله على الحقّ تعالى؟ أم أنّه عن كلّ هذه المراتب متأخّر، ومن كلّ هذه الخصائص محروم؟ فإنّ أراد أن يفهم أنّه من الحقّ تعالى خائف وقلبه من خوف الله وجل فليُنظر إلى أعماله"<sup>٥</sup>.

## ٤- الشدّة على الكفّار

من صفات المؤمنين الأساسية أنهم أشدّاء على الكفار رحماء بينهم: "وأهل المعرفة يعلمون بأنّ الشدّة على الكفار . وهي من صفات المؤمنين . وقتالهم أيضاً (هي) رحمة ولطف من الألفاظ الخفية للحقّ تعالى"<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> سورة فاطر، الآية ٢٨ .

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٢٩ .

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٥٩ .

<sup>٤</sup> سورة الأنفال، الآية ٢ .

<sup>٥</sup> معراج السالكين، ص ٢١٧ .

<sup>٦</sup> وصايا عرفانية، ص ٢٣ .

## ٥- التواضع

"إعلم أنّ للتواضع درجات يقابلها التكبر في كل درجة: ... الرابعة، تواضع المؤمنين الذين حصلوا بنور الإيمان على العلم بالله، وعرفوا أنفسهم بمقدر ما أضاءه لهم هذا النور الإيمانيّ، فصاروا متواضعين للحقّ تعالى ولخالقه"<sup>١</sup>.

## ٦- إيجاد الكثير من الكمالات

"الإيمان بأنّ المتصرّف في مملكة الوجود وعوالم الغيب والشّهود هو الحقّ تعالى وليس لسائر الموجودات فيها تصرّف إلاّ التصرّف الإذنيّ الظلّيّ يؤدّي إلى الكثير من الكمالات النّفسانيّة والأخلاق الإنسانيّة الفاضلة، مثل التوكّل والاعتماد على الحقّ وقطع الطّمع بالملحوق الذي هو أمّ الكمالات، ويوجب كثيراً من الأعمال الصّالحة والأفعال الحسنة وترك الكثير من القبائح... وهكذا مثلاً خُلِق الرّضا فإنّه من الأخلاق الإنسانيّة الكماليّة، وله تأثيرات كبيرة في تصفية النّفس وتجليتها، ويجعل القلب مورداً للتّجليات الإلهيّة الخاصّة، ويوصل الإيمان إلى كماله، وكمال الإيمان إلى الطّمأنينة"<sup>٢</sup>.

"عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "كان أبي يقول: إنّه ليس من عبدٍ مؤمنٍ إلاّ وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وُزِن هذا لم يزد على هذا"<sup>٣</sup>، وفيه في حديث آخر: "لا يكون المؤمن مؤمناً حتّى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتّى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو"<sup>٤</sup>.

وقد ذكرت الأحاديث الشريفة للمؤمنين مجموعة من الأوصاف والصفات يتحلّون بها، مثل التوكّل والتسليم والرّضا والخوف والرجاء ونظائرها. ولا ريب في أنّ من لا يتحلّى بها لن يكون من أهل الإيمان، والعلة في عدم التحلّي بها هو أنّ العلم والإدراك لم يتحوّلا فينا إلى الإيمان وإلاّ لظهرت فينا تلك الأوصاف التّبيّلة والأعمال الصّالحة. والله العالم"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٣.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٩٦.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٤٢-١٤٣.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ٢، ص ٧١.

<sup>٥</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٠١.

## ٧- الغنى عن الناس

"عليك بالمجاهدة لتودع القلب عند الله، ولا ترى مؤثراً غيره.. أوليس عامّة المسلمين المتعبدين يصلّون في اليوم واللييلة عدّة مرات . والصلاة زاخرة بالتوحيد والمعارف الإلهية ويقولون عدّة مرات في اليوم واللييلة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. ويتلقّظون أنّ العبادة والإعانة مختصّتان بالله.. إلاّ أنّهم بتذللون ويتزلفون لكلّ عالمٍ وقويٍّ وثريٍّ، إلاّ المؤمنون بحقّ وخواصّ الحقّ سبحانه".<sup>١</sup>

وفي موضعٍ آخر يقول الإمام قدس سره: "﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، إلى أن قال ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. يصرّح الله تعالى في هذه الآيات وعلى نحو الحصر بأنّ المؤمنين هم الذين تتوقّف فيهم الصّفات المذكورة في هذه الآيات، أي أنّ من لم تتوقّف فيهم ليسوا بمؤمنين، ومن هذه الصّفات أنّهم يثقون برّبهم، ويتوكّلون عليه في أعمالهم، وتتعلّق قلوبهم. وعليه يتّضح أنّ الذين تتوجّه قلوبهم إلى غيره ويعتمدون على غير ذاته المقدّسة جلّ وعلا، ويتطلّعون في أمورهم إلى سواه، ويطلبون الفرج من غيره تعالى، هم فاقدون لحقيقة الإيمان، محرومون من نور الإيمان".<sup>٢</sup>

## ٨- زيادة الإيمان والبصيرة

"إنّ مثلاً الإيمان وتوفير بواعث التوفيق، مثلاً إنسان قد حمل مصباحاً وسلك طريقاً مظلماً، فكلمًا تقدّم خطوة، أضاء أمامه واهتدى للخطوة اللاحقة. فكلمًا رفع الإنسان قدمًا نحو عالم الآخرة، اتّضح السبيل أكثر، وغمرته عنايات الحقّ بصورة أكبر، وتوقّرت عوامل التوجّه إلى عالم القرب . الآخرة . والانزعاج عن عالم البعد . الدنيا . والعنايات الأزليّة للحقّ المتعالي إنّما تسع الأنبياء والأولياء لعلمه . سبحانه . الأزليّ بطاعتهم أياّم التّكليف".<sup>٣</sup>

و"إنّ من السلوك الفطريّ في الإنسان أن يستشعر الضّعة والخشية في محضر السلطان

<sup>١</sup> وصايا عرفانيّة، ص ٥٠.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٠٥-٢٠٦.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٧٧.

العظيم حتى لو لم يجد في نفسه تقصيراً، بل وحتى عندما يراها في خدمة السلطان، وإن كان جميع الخلائق عاجزين عن القيام بحق المعرفة والعبادة والخدمة للذات الإلهية المقدسة، وكيف لا يكونون كذلك وأشرف الممكنات وأعرف خلق الله بالله وأقربهم منه تعالى، الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم يصرح بالقول: "ما عبدناك حقَّ عبادتك وما عرفناك حقَّ معرفتك"، و(ماذا يمكن للبعوضة الضعيفة أن تفعله في الوادي الذي يتناثر فيه ريش الصقور).

إذن فالخاصية الأولى من علامات المؤمن مفقودة فينا، وهكذا حال الخاصية الثانية وهي زيادة الإيمان عند تلاوة الآيات الكريمة على المؤمن، فكلّ هذه الآيات التكوينية والتدوينية تُتلى وتُعرض علينا لكنّها تزيد من احتجابنا بدلاً من زيادة إيماننا! فما أكثر ما نتلوه ونسمعه من آي القرآن الحكيم في أيام عمرنا دون أن يظهر منه قلوبنا نور الإيمان، ودون أن نتذكر أو نتنبّه لتأثير هذه الآيات الكريمة<sup>١</sup>.

#### ٩- شفاء الأمراض

"وهنا تدبّر بصدق ولاحظ هل أنّ صدر الآية الكريمة الرابعة والأربعين من سورة فُصِّلَت المباركة ينطبق علينا أم ذيلها، وهي: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٧-٩٨.

<sup>٢</sup> سورة فصلت، الآية ٤٤.

فأين نجد فينا ذلك الهدى والشفاء من الأمراض الباطنية الذي يشره القرآن الشريف للمؤمنين؟ لماذا لا تنفذ هذه الآيات الكريمة إلى أسمعنا؟ ولماذا تصير لنا حجاباً فوق حجاب؟ لا علة لذلك سوى أنّ نور الإيمان لم يدخل قلوبنا، وعلومنا لم تتجاوز حدّ الإطار النظريّ، ولم تكتب على لوح القلب. وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تمكّننا أن نعرف جيّداً حالنا بواسطتها وذلك بتطبيق ما تذكره على صفاتنا<sup>١</sup>.

### موعظة للإمام

"إنّ النفوس المنكبّة على الدّنيا، والملتهية بتعميرها والمنصرفة عن الحقّ، تكون منكوسة، رغم أنّها تعتنق الإيمان بالمبدأ والمعاد، لأنّ المقياس في انتكاس القلوب، هو الغفلة عن الحقّ والانشغال بالدّنيا وتعميرها. وهذا الإيمان بالمبدأ والمعاد إمّا لا يُعدّ إيماناً وعقيدة كما ذكر في شرح بعض الأحاديث السابقة، أو أنّ الإيمان يكون ناقصاً وبسيطاً جدّاً، وعليه لا يتنافى مع انتكاس القلب، بل إنّ من يظهر الإيمان بالغيب والحشر والنشر، ولا يخشى من ذلك، وأنّ إيمانه لا يدفع به إلى عمل الجوارح والأركان، يكون مثل هذا الإنسان منافقاً ولا يكون مؤمناً. ويمكن أن يكون مثل هؤلاء المؤمنين الشكليّين، مثل قوم كانوا بالطائف. كما ورد في الحديث إن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك وإن أدركه على إيمانه نجاً"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٨.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٦٤.

## المفاهيم الرئيسة

- ١- إذا فُقدت علائم الإيمان في شخص ما فالإيمان نفسه يكون مفقودًا فيه أيضًا.
- ٢- من لم يكن خاشعًا في الصلاة فهو خارج زمرة أهل الإيمان طبقًا لما قاله ذات الحقّ المقدّس تعالى شأنه.
- ٣- إنّ هذه البرودة الموجودة فينا إنّما هي من برودة أشعة الإيمان، وهذا الوهن الذي نجدّه إنّما هو من وهن أساس الإيمان.
- ٤- ذكرت الأحاديث الشريفة للمؤمنين مجموعة من الأوصاف والصفات يتحلّون بها، مثل التوكّل والتسليم والرضا والخوف والرّجاء ونظائرها. ولا ريب في أنّ من لا يتحلّى بها لن يكون من أهل الإيمان.
- ٥- الذين تتوجّه قلوبهم إلى غيره ويعتمدون على غير ذاته المقدّسة جلّ وعلا، ويتطلّعون في أمورهم إلى سواه، ويطلبون الفرج من غيره تعالى، هم فاقدون لحقيقة الإيمان.
- ٦- إنّ مثّل الإيمان وتوفير بواعث التوفيق، مثّل إنسان قد حمل مصباحًا وسلك طريقًا مظلمًا، فكلمًا تقدّم خطوة، أضاء أمامه واهتدى للخطوة اللاحقة.
- ٧- من علائم الإيمان الشفاء من الأمراض قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.
- ٨- إنّ من يظهر الإيمان بالغييب والحشر والنشر، وإيمانه لا يدفع به إلى عمل الجوارح والأركان يكون منافقًا ولا يكون مؤمنًا.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

"اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَبَلِّغْ بِإِيمَانِي أَكْمَلَ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْ يَقِينِي أَفْضَلَ الْيَقِينِ، وَأَنْتَهُ بِنَيْتِي إِلَى أَحْسَنِ النَّيَّاتِ، وَبِعَمَلِي إِلَى أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ اللَّهُمَّ وَفَرِّ بِلُطْفِكَ نَيْتِي، وَصَحِّحْ بِمَا عِنْدَكَ يَقِينِي، وَاسْتَصْلِحْ بِقُدْرَتِكَ مَا فَسَدَ مِنِّي"<sup>١</sup>.

الروايات الشريفة:

١- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "عَلَامَةُ الْإِيمَانِ أَنْ تُؤَثَّرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَى الْكُذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ وَالْأَلَا يُكُونُ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عِلْمِكَ وَأَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ فِي حَدِيثِ غَيْرِكَ"<sup>٢</sup>.

٢- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "الْمُؤْمِنُ لَا يَغُشُّ الْمُؤْمِنَ وَلَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخُونُهُ وَلَا يَحْدُلُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَغْتَابُهُ وَلَا يَقُولُ لَهُ أَفَّ فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ لَهُ أَفَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَهُمَا وَلَا يَأْتِيهِ إِذَا اتَّهَمَهُ أَنْمَاتُ الْإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ - كَمَا يَنْمَاتُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ"<sup>٣</sup>.

٣- قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "السَّخَاءُ مِنْ أَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ عِمَادُ الْإِيمَانِ وَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا إِلَّا سَخِي"<sup>٤</sup>.

٤- عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "خَطَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ فِيمَا يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، أَيُّهَا النَّاسُ أَنَا قَلْبُ اللَّهِ الْوَاعِي وَلِسَانُهُ النَّاطِقُ وَأَمِينُهُ عَلَى سِرِّهِ وَحِجَّتُهُ عَلَى خَلْقِهِ وَخَلِيفَتُهُ عَلَى عِبَادِهِ وَعَيْنُهُ النَّاطِرَةُ فِي بَرِّيَّتِهِ وَيَدُهُ الْمَبْسُوطَةُ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَدِينُهُ الَّذِي لَا يُصَدِّقُنِي إِلَّا مَنْ مَحَضَ الْإِيمَانَ مَحْضًا وَلَا يُكْذِبُنِي إِلَّا مَنْ مَحَضَ الْكُفْرَ مَحْضًا"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق.

<sup>٢</sup> نهج البلاغة، ص ٥٥٦.

<sup>٣</sup> مشكاة النور، ص ١٠٤.

<sup>٤</sup> مستدرک الوسائل، ج ٧، ص ١٧.

<sup>٥</sup> بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٥٧.

٥- عن الصادق عليه السلام: "قِيلَ مَا عَلَامَاتُ الْمُؤْمِنِ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَرْبَعَةٌ نَوْمُهُ كَنُومِ الْغُرْفِيِّ وَأَكْلُهُ كَأَكْلِ الْمَرَضِيِّ وَبُكَاءُهُ كَبُكَاءِ الثَّكَلِيِّ وَقُعُودُهُ كَقُعُودِ الْمَوَاتِبِ"<sup>١</sup>.

٦- عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "قِيلَ لَهُ مَا بَالُ الْمُؤْمِنِ أَحَدٌ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: لِأَنَّ عِزَّ الْقُرْآنِ فِي قَلْبِهِ وَمَخْضَ الْإِيمَانِ فِي صَدْرِهِ وَهُوَ عِنْدَ مُطِيعٍ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مُصَدِّقٌ، قِيلَ لَهُ: فَمَا بَالُ الْمُؤْمِنِ قَدْ يَكُونُ أَشَحَّ شَيْءٍ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ يَكْسِبُ الرِّزْقَ مِنْ حِلِّهِ وَمَطْلَبُ الْحَلَالِ عَزِيزٌ فَلَا يُحِبُّ أَنْ يُفَارِقَهُ شَيْئُهُ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عِزِّ مَطْلَبِهِ وَنَ هُوَ سَخَتْ نَفْسُهُ لَمْ يَضَعْهُ إِلَّا فِي مَوْضِعِهِ، قِيلَ فَمَا بَالُ الْمُؤْمِنِ قَدْ يَكُونُ أَنْكَحَ شَيْءٍ؟ قَالَ: لِحِفْظِهِ فَرْجَهُ عَنْ فُرُوجٍ لَا تَحِلُّ لَهُ وَلِكَيْلَا تَمِيلَ بِهِ شَهْوَتُهُ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا فَإِذَا ظَفِرَ بِالْحَلَالِ اكْتَفَى بِهِ وَاسْتَعْنَى بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ قُوَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي قَلْبِهِ أَلَّا تَرُونَ أَنَّكُمْ تَجِدُونَهُ ضَعِيفَ الْبَدَنِ نَحِيفَ الْجِسْمِ وَهُوَ يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَصُومُ النَّهَارَ"<sup>٢</sup>.

٧- قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَا يُعْظَمُ حُرْمَةُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَنْ قَدْ عَظَّمَ اللَّهُ حُرْمَتَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ كَانَ أَبْلَغَ حُرْمَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ كَانَ أَشَدَّ تَعْظِيمًا لِحُرْمَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ اسْتَهَانَ لِحُرْمَةِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ هَتَكَ سِتْرَ إِيْمَانِهِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِعْظَامَ ذَوِي الْقُرْبَى فِي الْإِيمَانِ"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> مستدرک الوسائل، ج ٨، ص ٤٠١.

<sup>٢</sup> من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٥٦٠.

<sup>٣</sup> مصباح الشريعة، ص ٦٩.



## الدرس الرابع: المؤمن (٤) - عوامل قوة وضعف الإيمان

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرف إلى السبيل لتحصيل الإيمان.
- ٢- يبيّن شروط استقرار الإيمان في القلب.
- ٣- يتعرف إلى العوامل التي تساهم في إضعاف الإيمان.



## تمهيد

بعد أن تعرّفنا على الإيمان وأهميته وكيفية تشخيصه في العقائد والمشاعر والأخلاق والأعمال. يأتي الحديث إلى كيفية تحصيله وتقويته. فقد ذكر الإمام أنّ الإيمان فيض إلهيّ وخلعة ربّانية غيبية يفيض بها على المخلصين من عباده والخاصة في محفل أنسه. فهل يعني هذا أنّ طريقه الوحيد هو الإخلاص؟! وما هو حال إيمان كلّ من لم يكن مخلصاً؟ هل يُعدّ إيمانه عارية غير مستقرّ كما جاء في تفسير الإمام الصادق عليه السلام لقوله تعالى ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾<sup>١</sup>، وإذا كان الإيمان هبة إلهية، فهل يعني هذا أنّه لا دور للتكسّب فيه؟ أسئلة عديدة تنتظر إجابات واضحة من تعاليم الإمام الخمينيّ قدس سره ومدرسته الأخلاقية العميقة.

يقول الإمام قدس سره: "إن أصول الإيمان وأركانها - التي هي عبارة عن معرفة الله والتّوحيد والولاية، والإيمان بالرّسل ويوم المعاد والملائكة والكتب السّماوية: هي من الأمور الفطرية غير أنّ بعضها أصليّ مثل معرفة الله والتّوحيد، وبعضها الآخر فرعيّ"<sup>٢</sup>. وفيما يلي نذكر أهمّ الأصول والقواعد التي يذكرها الإمام الخميني قدس سره لبناء إيمان قوي في النفس لا يتزلزل ولا يعتوره الشك والشبهات، ثم نتحدث عن العوامل السلبية التي تحبط الإيمان وتؤدي إلى إضعافه في النفس.

<sup>١</sup> سورة الأنعام، الآية ٩٨.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٠٢.

## عوامل قوة الإيمان

### ١- التفكير والرياضة العقلية

إنّ كون الإيمان فيضاً غيبياً لا يعني أنه سيستقرّ بمجرد نزوله في قلب الإنسان. فبعض القلوب تكون متزلزلة مهتزة إلى الدرجة التي تمنع استقرار أيّ خير فيها. والبعض الآخر يكون منكوساً بحيث يكون أعلاه أسفله وأسفله أعلاه (كالوعاء المقلوب) لا يستقبل شيئاً من فيوضات الملكوت الأعلى. يقول الإمام الخميني قدس سره: "إنّ القلب إمّا أن يكون مؤمناً بكلّ ما جاء به التبيصلي الله عليه وآله وسلم أو لا! وإمّا أن يظهر إيمانه أو لا! وعلى الأول، إمّا أن يستقرّ فيه الإيمان من دون تزلزل أو يؤمن حيناً ويتراجع حيناً آخر رغم إفصاحه عن الإيمان أيضاً"<sup>١</sup>.

ولهذا، فإنّ قضية تحصيل الإيمان ترتبط بالدرجة الأولى في أحوال القلب من حيث التوجّه والتبّات وقوة التحمّل. وذلك لأنّ المزيد من الإيمان يحتاج إلى قلب قويّ. وعلينا أن نعرف أنّ قوة القلب ترتبط كذلك بقوة النفس، لأنّ النفس بمنزلة القواعد والأسس التي يرتكز عليها القلب.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "اعلم، أنّ الإيمان بالمعارف الإلهية وأصول العقائد الحقّة لا يتحقّق إلّا بما يلي: أن يفهم المرء أولاً تلك الحقائق بوسيلة التفكير والرياضات العقلية، والآيات والبيانات والبراهين العقلية، وهذه المرحلة هي بمثابة مقدّمة الإيمان.

وبعد أن يستوفي العقل نصيبه منها، لا ينبغي أن يقنع بها، لأنّ هذا المقدار من المعارف محدودٌ جدّاً، وكلّما تحصل منه النورانية، لذا يجب أن يشتغل السالك إلى الله بالرياضات القلبية لكي يوصل هذه الحقائق. بأيّ رياضة مناسبة. إلى القلب فينعدّد عليها. وهنا تتمايز مراتب الإيمان، ولعلّ هذا هو معنى الحديث الشريف: "العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء"، لأنّ العلم بالله هو نورٌ ما دام في دائرة القلب، وبعد الرياضات القلبية يقذفه الله تعالى في القلوب المناسبة فتنعدّد عليه القلوب. فمثلاً إنّ حقيقة التوحيد. وهي أصل أصول المعارف ومنها تنفرّع معظم الفروع الإيمانية، والمعارف الإلهية، والصفات الروحية الكاملة، والصفات القلبية النورانية. لا تثمر أيّاً من هذه الفروع، ولا توصل الإنسان إلى أيّ من تلك

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٥٧.

الحقائق ما دامت في دائرة الإدراك العقليّ المجرد. فالْتَوَكَّل على الله تعالى هو أحد فروع التّوحيد والإيمان، وأركان (النّظرية) كاملة عند أغلبنا بوجودها فينا البرهان العقليّ أو ما يشبهه، لكنّ حقيقة التّوحيد (في التوكّل) مفقودة عندنا رغم ذلك"<sup>١</sup>.

وهذا دستورٌ جامعٌ من الإمام قدس سره يبيّن كيفيّة استحلاب نور الإيمان بالتّوجّه إلى آيات الله في العالم وانتزاع الحقائق منها بقوة التّفكّر. وبالتفكّر يزدهر العلم في القلب وتحصل اليقظة، وبالتلقين تتبدّل الحقائق المكتسبة إلى ذكر، فيعمر القلب بالإيمان.

لقد ذكر الإمام أنّ جميع موجودات العالم هي من أجل دفع الإنسان نحو الإيمان والكمال: "فجميع موجودات عوالم الغيب والشّهادة مخلوقة لإيصال هذا الموجود الشّريف إلى مقامه، وقد ورد في الأحاديث القدسيّة: "يا بن آدم! خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي"، نقول: إذا عرف المؤمن ذلك، وعرف كيف يستفيد من المخلوقات في إصلاح نفسه وإيصالها إلى الكمال اللائق بها، وأدرك أنّ الحقّ جلّ وعلا هو العالم بكيفيّة تسخير المخلوقات في إصلاحه... وإذا بلغ الإيمان بذلك مرتبة الطّمأنينة والاطمئنان، زال التزلزل والاضطراب بصورة كاملة، وسكن القلب إلى الحقّ تعالى وإلى تصرّفه وإلى تصرّفه فيه ما دام الإنسان في هذه الحدود فهو واقع في مقام الكثرة، يرى لغير الحقّ تعالى تأثيراً في الأمور، إذا عبر هذا المقام شاهد بنور المعرفة قبسٌ من تجلّيات التّوحيد في الأفعال، وأسقط تأثير الموجودات الأخرى، وعميت عينه بالكمال عنها وتنوّرت بالتوكّل على الحقّ جلّ علا"<sup>٢</sup>.

ويقول قدس سره أيضاً: "فالإيمان بأمثال هذه الحقائق لا يحرز إلا بالمجاهدة والتّفكّر والتلقين"<sup>٣</sup>.

فالمجاهدة تشير إلى ضرورة بذل الجهد الكبير، والتّفكّر عبارة عن وسيلة تبديل المعطيات الخارجيّة التي يصطدم بها الإنسان نتيجة توجّهه إلى حقائق ثابتة قابلة للتّرسّخ، أمّا التلقين فهو وسيلة التّدكّر.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٣-٩٤.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٠٠-٢٠١.

<sup>٣</sup> وصايا عرفانيّة، ص ٢٦.

ويقول قدس سره: "إنّ البرهان يقول لنا "لا مؤثّر في الوجود إلّا الله" وهذا أحد معاني لا إله إلا الله، وبركة هذا البرهان نقطع يد تصرّف الموجودات عن ساحة كبرياء الوجود ونرجع ملكوت العوالم ومملكها إلى صاحبها، ونظهر حقيقة ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، و﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾. ولكن ما لم يصل هذا المطلب البرهانيّ إلى القلب ويصبح صورة باطنيّة للقلب، فلا تنتقل من حدّ العلم إلى حدّ الايمان، ولا يكون لنا من نور الإيمان الذي ينور مملكة الباطن والظاهر سهم ونصيب. فلهذا، مع وجود البرهان على هذا المطلب الإلهيّ الشامخ، فنحن واقعون في التّكثير وليس عندنا خبر من التّوحيد الذي هو قرة عين أهل الله، ندقّ طبل لا مؤثّر في الوجود إلّا الله، ومع ذلك نمدّ عين الطّمع ويد الطّلب إلى من هو أهل وغير أهل".<sup>١</sup>

وفي شرحه لحديث جنود العقل والجهل يشير الإمام قدس سره إلى دور المعارف الإلهيّة في الإيمان قائلاً: "وفي ذلك فتح لأبواب المعارف الإلهيّة التي هي مصدر الإيمان"<sup>٢</sup>. فالإيمان لا ينمو ولا يتعدّى إلّا بماء العلم النّافع. ولا علم أنفع للإنسان وآخرته سوى معرفة الله وشؤونه وتجليّاته.

## ٢- إخلاص النّيّة

وفي كلّ مجاهدة ما لم تكن النّيّة حاضرة في صفائها وخلوصها، فلن يحصل التّوفيق. فكيف إذا كان الأمر مرتبطاً بالإيمان. ولهذا، يقول الإمام قدس سره: "إنّ إيماننا ناقصٌ، ولم تخرج أدلّتنا العقليّة من نطاق العقل لتصل إلى حدود القلب. ليس الإيمان بالقول والسّماع والمطالعة والمباحثة والنّقاش فحسب وإنما يتطلّب أيضاً خلوص النّيّة. إنّ الباحث عن الله يجده لا محالة، والذي يطلب المعارف يبحث عنها، ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾<sup>٣</sup>. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ١٠٤-١٠٥.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٢.

<sup>٣</sup> سورة الإسراء، الآية ٧٢.

<sup>٤</sup> سورة النور، الآية ٤٠.

<sup>٥</sup> الأربعون حديثاً، ص ١٣٩-١٤٠.

### ٣- حبّ عليّ والولاية

"إنّ حبّ الإمام عليّ عليه السلام يبعث على نور وإيمان يجنّبان صاحبهما عن الآثام، ويدفعانه إلى التّوبة والإنابة إذا ابتلي بالمعصية من دون أن يفسح المجال أمامه للتمادي في الغيّ والعصيان"<sup>١</sup>.

"لأنّ الإيمان لا يحصل إلّا بواسطة ولاية عليّ وأوصيائه من المعصومين الظاهرين عليهم السلام، بل لا يقبل الإيمان بالله ورسوله من دون الولاية"<sup>٢</sup>.

"وإسناده عن أبي جعفر عليه السلام: قال "ذُرْوَةُ الأَمْرِ وَسَنَامُهُ وَمِفْتَاحُهُ وَبَابُ الأَشْيَاءِ وَرَضَى الرَّحْمَنُ الطَّاعَةَ لِلإِمَامِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ... أما لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَامَ لَيْلَهُ وَصَامَ نَهَارَهُ وَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِ مَالِهِ وَحَجَّ جَمِيعَ دَهْرِهِ وَلَمْ يَعْرِفْ وَلايَةَ وَلِيِّ اللهِ فَيُؤَالِيَهُ وَتَكُونُ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ بِدَلالَتِهِ إِلَيْهِ، ما كانَ له عَلى اللهِ حَقٌّ في ثَوابِهِ وَلا كانَ مِنْ أَهْلِ الإِيمانِ". ولاية أهل البيت عليهم السلام شرط في قبول الأعمال عند الله سبحانه، بل هو شرط في قبول الإيمان بالله والنبى الأكرم"<sup>٣</sup>.

### ٤- محاسبة النفسك

"إذا خصّص (الإنسان) عدّة دقائق في اليوم واللييلة . بحسب إقبال قلبه وتوجّهه، أي بحسب مقدار حضور قلبه . لمحاسبة النفس على مقدار سعيها في اكتساب نور الإيمان، ومطالبتها بهذا النور والبحث عن آثار الإيمان فيها، فإنّ ذلك سيؤثّر في حصوله على النتائج بصورة أسرع إن شاء الله"<sup>٤</sup>.

### ٥- الزّهد في الدّنيا

"بإستناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: "سمعتة يقول: جُعل الخير كلّهُ في بيت، وجُعل مفتاحه الزّهد في الدّنيا. ثمّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يجد الرّجل حلاوة الإيمان حتّى لا يبالي من أكل الدّنيا. ثمّ قال أبو عبد الله عليه لاسلام: حرامٌ على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتّى تزهد في الدّنيا"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الأربوعون حديثًا، ص ٦٠٥.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٦٠٧.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٦٠٨-٦٠٩.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ١١٠.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ٢٨٢.

## ٦- كظم الغيظ

عن الباقر عليه السلام قال: "من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه، حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة"<sup>١</sup>.

ولا شك بأن هذه التوصيات هي غيظ من فيض مجموعة كبيرة من الأمور التي تساهم في توسعة القلب وتوجيهه لينال فيض الإيمان، مثلما أنّها تساهم في تثبيته ومنع تزلزله بواسطة ثقل الحقائق. كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: "الحقّ ثقيلٌ مريءٌ والباطل خفيفٌ ويء"<sup>٢</sup>.

في الخلاصة يقول الإمام قدس سره: "بعد أن اتّضح أنّ الإيمان غير العلم، وأنّ ما لدينا من المعارف وحقائق توحيد الله وأسمائه وصفاته هو من العلم الذي يدخل قلوبنا، ما لم يدخل العلم بها إلى القلب فيؤمن بها، يبقى أثرها ضعيفاً. بعد اتّضح ذلك يجب على الإنسان أن يجتهد في السّعي لاكتساب الإيمان، فلو خرجنا من هذا العالم . وهو دار النّغيّر والتبدّل، الذي يمكن فيه تغيير جميع الملكات والأوصاف والأحوال القلبيّة . دون أن نكتسب الإيمان، فسيورثنا ذلك خسارات شديدة، بل سنقع في الخسران العظيم وسيكون نصيبنا التّدم الذي لا حدّ له، إذ أنّ من المحال في العالم الآخر تغيير أيّ حال من أحوال النّفس، فلا يمكن هناك اكتساب الإيمان الذي لم يكتسبه هنا"<sup>٣</sup>.

## عوامل إضعاف الإيمان

تبيّن لنا من الكثير من الشّواهد السابقة أنّ العامل الأساس لضعف الإيمان واضمحلال نوره في القلب هو الابتعاد عن أسبابه الموجبة لتحصيله أو حصوله كالعلم والتفكّر والتذكّر. وفي المقابل هناك أسباب تؤدّي إلى محقّق الإيمان وإضعافه وتزلزله نقتبس من كلمات الإمام قدس سره بعض ما يشير إليها:

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٧٩.

<sup>٢</sup> نهج البلاغة، ص ٥٤٢.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٠٧.

## ١ - عشرة السوء

"يجب على الشباب حتى إذا كانت قلوبهم مطمئنة بالإيمان، أن يتبهاوا إلى كيفية تفاعلهم وعشرتهم مع الآخرين، ويتورعوا عن الاختلاط مع السيئين. بل إن الصداقة والاختلاط مع العصاة وذوي الخلق الفاسد والسلوك المنحرف مسيء لجميع الناس من أي طبقة كانوا، ويجب أن لا يكون أحد مطمئناً بنفسه ومغوراً بإيمانه أو أخلاقه وأعماله. كما ورد في الأحاديث الشريفة الأمر بالابتعاد عن معاشره أهل المعصية".<sup>١</sup>

## ٢ - المعاصي

"جاء في حديث آخر في الكافي الشريف: "فإذا أتى العبد كبيرة من كبائر المعاصي أو صغيرة من صغار المعاصي التي نهى الله عز وجل عنها، كان خارجاً من الإيمان ساقطاً عنه اسم الإيمان وثابتاً عليه اسم الإسلام، فإن تاب واستغفر عاد إلى دار الإيمان".<sup>٢</sup>

## ٣ - الغفلة

"مسكين هو الإنسان الغافل! إنه يولي الأمور الدنيوية الفانية كل هذا الاهتمام... وهو يرى كل يوم أن أهلها يتركونها ويرحلون، ولا يأخذون معهم سوى الحسرات، لكنه رغم ذلك يتهاون إلى هذه الدرجة في اكتساب الإيمان الذي يتكفل بتحقيق السعادة الأبدية له، فيبقى على تهاونه وتساهله في هذا الأمر رغم كل مواعظ الأنبياء والأولياء والكتب السماوية، فلا يفكر في يوم مصابه وذلته وعذابه، ولا تؤثر في قلبه القاسي كل مواعظ القرآن ووعده ووعيده التي تليّن الصخرة الصماء، وتخضع لها جبال العالم، أجل، يقول تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾"<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٣٥.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٠٠-١٠١.

<sup>٣</sup> سورة الحشر، الآية ٢١.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ١١١-١١٢.

#### ٤ - الغضب

"في الوسائل عن الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل". وفي المستدرک عن الجعفریات بإسناده عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل وكما يفسد الخل العسل". وينبغي أن نعرف نحن المساكين المبتلين بغلاف الطبیعة وبالحجب الظلماتیة للحياة الدنیویة الوضیعة، المحجوبين والجاهلين بالغيب وملكوت النفس وما يضرها ويفسدها وما يصلحها وما يهلكها أننا لا ندرك كيف يزيل الغضب نور الإيمان ويفسد حقيقته، ولا نرى بنور البصيرة هذا التضاد بين حقيقة الإيمان والغضب في غير موارد المطلوبة، وقد بعث الحق تعالى أطباء النفوس والقلوب، العارفين بالعلم الإلهي المحيط وبنور البصيرة النافذة في بواطن الملك والملكوت بالأمراض القلبية وأدويتها ومصالحات القلوب ومفسداتها، بعثهم من أجل إيقاظنا بكشف الحقائق وإظهار البواطن، فهم يخبروننا بما في بواطن قلوبنا ويكشفون لنا ملكوت نفوسنا، وهم يعرفون أن نار الغضب واثرتة تطفيء نور الإيمان وتفسده مثلما يفسد الخل والصبر العسل بسرعة، وتحول حلاوته اللطيفة إلى مرارة وحموضة لا تُستساغ"<sup>١</sup>.

#### ٥ - اتباع الشهوات

"إذا جاء ملك الموت ونحن لا نزال عبيد الشهوات وأسارى قيود أهواء النفس المتشعبة . والعياذ بالله . لكان من الممكن للشيطان أن يسرق إيماننا الذي هو غايته القصبوى وأن يحتال ويتراءى أمام قلبنا بصورة نخرج من الدنيا ونحن أعداء الحق المتعالي والأنبياء والأولياء"<sup>٢</sup>.

#### ٦ - الحسد

"الحسد، آفة الإيمان التي تأكله، كما تأكل النار الحطب. ويكفي في شناعة هذه الرذيلة هو أن الحسد يقضي على الإيمان الذي يعدّ وسيلة النجاة في الآخرة، وباعتنا حياة القلوب، ويجعل الإنسان مفلسًا ومسكينًا"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٢٨-٢٢٩.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ٢٩٣.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ص ١٣٥.

## ٧. الغيبة

"اعلم أنّ حرمة الغيبة محلّ اتفاق إجمالاً، بل تُعدّ من ضروريات الفقه ومن المعاصي الكبيرة والموبقات المهلكة... واللازم في هذا المقام التّنبية على فساد هذه السيئة الموبقة وعلى مضاعفاتها، حتّى نبتعد عنها ولا نُبتلى بها إن شاء الله أو إذا ابتلينا . لا سمح الله . لتراجعنا وتُبنا، واستأصلنا مادّة الفساد، ولا نفسح المجال للترحيل من هذا العالم مع هذا الدّنس والابتلاء بهذه المعصية الكبيرة الماحقة للإيمان"<sup>١</sup>.

## ٨- المفاسد الأخلاقية

"ويستفاد من الأحاديث أنّ ضعف الإيمان وعدم خلوصه كما يسبّب فساداً في الأخلاق وانحرافاً في الأعمال، كذلك توجب المفاسد الأخلاقية نقصاً في الإيمان بل زواله"<sup>٢</sup>.

## ٩- المرء والجدال

"فلما علمنا أنّ لهذه الصفة . المرء والجدال . مساوئ عظيمة، وأنّ كلّ واحدة منها توجب الموبقات والمهلكات، وجب إنقاذ أنفسنا بالتّرويض والجهد، من هذه الخصلة المشينة، والرذيلة المفسدة للقلب، المدمّرة للإيمان"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٣٦.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٤٠.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٤٠٨.

## المفاهيم الرئيسة

- ١- الإيمان فيض إلهيّ وخلعة ربّانية غيبية يفيض بها على المخلصين من عباده والخاصّة في محفل أنسه. وكون الإيمان فيضاً غيبياً لا يعني أنّه سيستقرّ بمجرد نزوله في قلب الإنسان. فبعض القلوب تكون متزلزلة مهتزة. والبعض الآخر يكون منكوساً.
- ٢- إنّ قضية تحصيل الإيمان ترتبط بالدرجة الأولى في أحوال القلب من حيث التوجّه والثبات وقوّة التّحمّل، وذلك لأنّ المزيد من الإيمان يحتاج إلى قلبٍ قويّ. وقوّة القلب ترتبط كذلك بقوّة النّفس.
- ٣- الإيمان لا ينمو ولا يتعدّى إلّا بماء العلم النّافع. ولا علم أنفع للإنسان وآخرته سوى معرفة الله وشؤونه وتجليّاته.
- ٤- بالتفكّر يزدهر العلم في القلب وتحصل اليقظة، وبالتلقين تتبدّل الحقائق المكتسبة إلى ذكر، فيعمر القلب بالإيمان.
- ٥- يُستجلب نور الإيمان بالتوجّه إلى آيات الله في العالم وانتزاع الحقائق منها بقوّة التفكّر، فجميع موجودات العالم هي من أجل دفع الإنسان نحو الإيمان والكمال.
- ٦- من العوامل التي تساعد على اكتساب الإيمان أيضاً: حبّ الإمام عليّ عليه السلام ومحاسبة النفس وكظم الغيظ والزهد في الدنيا. وإخلاص النية.
- ٧- العامل الأساس لضعف الإيمان واضمحلال نوره في القلب هو الابتعاد عن أسبابه الموجبة لتحصيله أو حصوله كالعلم والتفكّر والتذكّر.
- ٨- ما يؤدّي إلى محق الإيمان وتزلزله: عشرة السوء، المعاصي، الغفلة، الغضب، اتّباع الشّهوات، الحسد، الغيبة، المفاصد الأخلاقية، والمرء والجدال.
- ٩- يجب الحرص على تعميق الإيمان في الظاهر والباطن والسرّ والعلن، حتى يتجدّد الإيمان في القلب ولا يزول أمام أيّ عائق ومانع أو أيّ تغيير وتبديل.

دعاء:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إلهي أتراك بعد الإيمان بك تُعذِّبني أم بعد حبي إياك تُبَعِّدني أم مع رحائي لِرحمتِكَ وَصَفْحِكَ تَحْرُمُني أم مع استِحارتي بعفوك تُسَلِّمُني حاشا لوجهك الكريم أن تُحَيِّبني لَيْتَ شِعْرِي أَلَلِّسَّعَاءَ وَلَدَتْنِي أُمِّي أم لَلْعَاءِ رَبَّتْنِي فَكَيْتَهَا لَمْ تَلِدْنِي وَلَمْ تُرَبِّني وَلَيْتَنِي عَلِمْتُ أَمِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ جَعَلْتَنِي وَبِقُرْبِكَ وَجِوَارِكَ خَصَصْتَنِي فَتَقَرُّ بِذَلِكَ عَيْنِي وَتَطْمَئِنُّ لَهُ نَفْسِي".<sup>١</sup>

الروايات الشريفة:

١- قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "الْحَشِيَّةُ مِيرَاثُ الْعِلْمِ وَالْعِلْمُ شُعَاعُ الْمَعْرِفَةِ وَقَلْبُ الْإِيمَانِ".<sup>٢</sup>

٢- و قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "نحن معاشر الأنبياء والأمناء والأتقياء براء من التكلف، فاتق الله واستقم يغنك عن التكلف ويطبعك بطباع الإيمان، ولا تشتغل بلباس آخره البلاء وطعام آخره الخلاء ودار آخرها الخراب ومال آخره الميراث وإخوان آخرهم الفراق وعز آخره الذل ووقار آخره الجفاء وعيش آخره الحسرة".<sup>٣</sup>

٣- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا بُنَيَّ اعْرِفْ مَنَازِلَ الشَّيْعَةِ عَلَى قَدْرِ رَوَايَتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ هِيَ الدَّرَايَةُ لِلرَّوَايَةِ وَبِالدَّرَايَاتِ لِلرَّوَايَاتِ يَعْلُو الْمُؤْمِنُ إِلَى أَقْصَى دَرَجَاتِ الْإِيمَانِ، إِنِّي نَظَرْتُ فِي كِتَابِ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَوَجَدْتُ فِي الْكِتَابِ أَنَّ قِيَمَةَ كُلِّ امْرِيٍّ وَقَدْرَهُ مَعْرِفَتُهُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحَاسِبُ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْعُقُولِ فِي دَارِ الدُّنْيَا".<sup>٤</sup>

٤- قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟ فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَقَالَ: قُولُوا، فَقَالُوا: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ الصَّلَاةُ، فَقَالَ: إِنَّ لِلصَّلَاةِ فَضْلًا وَلَكِنْ لَيْسَ بِالصَّلَاةِ، قَالُوا: الرُّكَاةُ، قَالَ: إِنَّ لِلرُّكَاةِ فَضْلًا وَلَيْسَ بِالرُّكَاةِ، فَقَالُوا: صَوْمُ شَهْرٍ

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، مناجاة الخائفين.

<sup>٢</sup> مصباح الشريعة، ص ٢٠.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ١٤٠.

<sup>٤</sup> بحار الأنوار، ج ١، ص ١٠٦.

رَمَضَانَ، فَقَالَ: إِنَّ لِرَمَضَانَ فَضْلًا وَلَيْسَ بِرَمَضَانَ، قَالُوا: فَالْحُجُّ وَالْعُمْرَةُ، قَالَ: إِنَّ لِلْحُجِّ وَالْعُمْرَةَ فَضْلًا وَلَيْسَ بِالْحُجِّ وَالْعُمْرَةَ، قَالُوا: فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: إِنَّ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَضْلًا وَلَيْسَ بِالْجِهَادِ، قَالُوا: فَاللَّهُ وَرَسُولُهُ وَابْنُ رَسُولِهِ أَعْلَمُ، فَقَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ تَوَالِي وَلِيِّ اللَّهِ وَتَعَادِي عَدُوِّ اللَّهِ<sup>١</sup>.

٥- أَقْبَلَ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: "يَا مَعْشَرَ الصَّحَابَةِ! وَاللَّهِ مَا تَقَدَّمْتُ عَلَى أَمْرٍ إِلَّا مَا عَهَدَ إِلَيَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَطُوبَى لِمَنْ رَسَخَ حُبَّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي قَلْبِهِ لِيَكُونَ الْإِيمَانُ أَثْبَتَ فِي قَلْبِهِ مِنْ جِبِلِّ أَحَدٍ فِي مَكَانِهِ"<sup>٢</sup>.

٦- وَرُوي أَنَّ جَبْرَائِيلَ نَزَلَ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْحَيَاءِ وَالْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ فَقَالَ: "رَبُّكَ يَقُولُ لَكَ تَخَيَّرَ مِنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ وَاحِدًا فَاخْتَارَ الْعَقْلَ، فَقَالَ جَبْرَائِيلُ لِلْإِيمَانِ وَالْحَيَاءِ ارْحَلَا، فَقَالَا أَمْرًا أَنْ لَا نُفَارِقَ الْعَقْلَ"<sup>٣</sup>.

٧- قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "تَفَضَّلَ عَلَيَّ مَنْ شِئْتَ فَأَنْتَ أَمِيرُهُ وَاسْتَعْنَى عَمَّنْ شِئْتَ فَأَنْتَ نَظِيرُهُ وَأَفْتَقَرُ إِلَى مَنْ شِئْتَ فَأَنْتَ أَسِيرُهُ، وَالطَّامِعُ مَنْزُوعٌ عَنْهُ الْإِيمَانُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَحْجُزُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الطَّمَعِ فِي الْخَلْقِ فَيَقُولُ يَا صَاحِبِي خَزَائِنُ اللَّهِ تَعَالَى مَمْلُوءَةٌ مِنَ الْكِرَامَاتِ وَهُوَ لَا يُضِيغُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ مَشُوبٌ بِالْعَدْلِ وَيَرُدُّهُ إِلَى التَّوَكُّلِ وَالْقَنَاعَةِ وَقَصْرِ الْأَمَلِ وَلُزُومِ الطَّاعَةِ وَالْبِئْسَ مِنَ الْخَلْقِ فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَزِمَهُ فَقَدْ صَلَحَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ تَرَكَهُ مَعَ شُومِ الطَّمَعِ وَفَارَقَهُ"<sup>٤</sup>.

٨- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَا يَصْدُقُ إِيْمَانُ عَبْدٍ، حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يَدِهِ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٢٥.

<sup>٢</sup> بحار الأنوار، ج ٣٩، ص ٣٥٢.

<sup>٣</sup> إرشاد القلوب، ص ١١١.

<sup>٤</sup> مصباح الشريعة، ص ١٠٥.

<sup>٥</sup> تحف البلاغة، ص ٥٢٩.

## الدرس الخامس: العلم (١) - حقيقة العلم وأهميته

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن ماهيّة العلم الحقيقيّ الذي تعشقه الفطرة.
- ٢- يتعرّف إلى أهميّة العلم ودوره في نيل المقامات المعنويّة.
- ٣- يبيّن دور الإخلاص وتطهير النّفس في نيل العلم.



## تمهيد

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>١</sup>.

إنَّ علاقة الإنسان بالعلم تكشف عن حاله وموقعه على طريق التَّكامل والتَّسافل. فإذا كان التَّكامل تعبيراً عن حبِّ الله تعالى يكون حاله كما جاء في الحديث: "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ خَيْرٍ فَقَهَّهُ فِي الدِّينِ وَأَلْهَمَهُ الْيَقِينَ"<sup>٢</sup>، والفقّه هو الفهم والتعلُّم الواعي. وإذا كان سالِماً سبيل التَّسافل، فإنَّه يكون من المطرودين وهو الذي ينطبق عليه قول الإمام عليّ عليه السلام: "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَبْدًا حَظَرَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ"<sup>٣</sup>.

فحبُّ العلم والتعلُّم مؤشِّرٌ واضحٌ على الحياة المعنويَّة الحقيقيَّة. وفي المقابل، إنَّ التَّفور من العلم أو الحرمان منه أو الإعراض عنه لغيره (مهما كان هذا الغير) هو من علائم الشَّقَاء.

بدايةً لا بدَّ أن تميَّز بين العلم كمصطلح ورد في النصوص الدِّينيَّة والعلم الذي يُستخدم اليوم بمعنى منهجيَّة البحث عن الواقع والحقيقة والذي يُجمع تحت العلوم. فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق: "العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء"<sup>٤</sup>. والإمام الخميني قدس سره يقدِّم لنا مجموعة من الملاحظات المهمَّة حول حقيقة العلم وماهيَّته تساعدنا في تلمُّس درب الهداية وسط صخب وضوضاء العلوم.

<sup>١</sup> سورة فاطر، الآية ٢٨.

<sup>٢</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٢٠٠.

<sup>٣</sup> نخب البلاغة، ص ٥٢٦.

<sup>٤</sup> مصباح الشريعة، ص ١٦.

## ١- العلم من جنود العقل

"اعلم، أنّ العلم والجهل اللذين عُدا في هذا الموضوع من الحديث الشّريف من جنود العقل والجهل، وهما غير العقل والجهل نفسيهما... فشأن العقل العلم، لأنّ العقل حقيقة مجردة غير محجوبة، وهي متصلة بالبرهان، لذا فهي حقيقة عاقلة عالمة"<sup>١</sup>.

ولكي لا نحصر العقل بالبرهان، يقول الإمام قدس سره: "ويجدر التنبيه إلى أنّ المقصود الأصليّ ليس العلم بالله برهانياً، بل المعيار في الكمال هو معرفة الله التي تكون أعلى مراتبها مرتبة الفناء المطلق فيه، وهي المرتبة التي تعني رفض التعيينات ونفض غبار الأنانية والإنيّة. رزقنا الله وجميع المؤمنين ذلك"<sup>٢</sup>.

## ٢- العلم الحقيقي آية

"اعلم أنّ كثيراً من العلوم تندرج على تقدير في قسم من الأقسام الثلاثة التي ذكرها رسول الله<sup>٣</sup>، وعلى تقدير آخر في قسم آخر. مثلاً: إنّ علم الطبّ والتشريح والتنجوم والأفلاك وما يضاهاها، إذا جعلناها آية وعلامة، وكذلك علم التاريخ وأمثاله، إذا ألقينا عليه نظرة اعتبار وأتعاظ، اندرج جميعها في (الآية المحكّمة)، لأنّه يحصل بواسطتها العلم بالله أو بالمعاد، أو يتأكد العلم بالله وبالمعاد وقد يندرج تحصيلها في (الفريضة العادلة) وقد يندرج تحت (السنّة القائمة). وأمّا إذا كانت دراسة هذه العلوم، لأجل ذاتها أو لأجل أهداف أخرى، فلو شغلنا عن علوم الآخرة، لأصبحت مذمومة بالعرض، لأنّها صرفت الناس عن الآخرة، وإن لم تشغلنا عن علوم الآخرة فليس فيها ضررٌ أو نفع، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فالعلوم بصورة كلية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٣٨-٢٣٩.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٤٢.

<sup>٣</sup> عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: "دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ فِذَا جَمَاعَةٌ قَدْ أَطْفَأُوا بِرِجْلِي، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقِيلَ: عَلَامَةٌ، فَقَالَ: وَمَا الْعَلَامَةُ؟ فَقَالُوا لَهُ: أَعَلِمَ النَّاسَ بِأَنْسَابِ الْعَرَبِ وَوَقَائِعِهَا وَأَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْأَشْعَارِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ذَلِكَ عِلْمٌ لَا يَضُرُّ مَنْ جَهَلَهُ وَلَا يُنْفَعُ مَنْ عِلِمَهُ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا الْعِلْمُ ثَلَاثَةٌ: آيَةٌ مُحَكَّمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، وَمَا خَلَاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ" الكافي، ج ١، ص ٣٢.

**الأول:** ما كان نافعًا للإنسان حسب أحواله في التّشآت الأخرى التي يعتبر الوصول إليها غاية التّكوين والكائنات. وهذا القسم هو الذي جعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علمًا، وقسّمه إلى الأقسام الثلاثة التي وردت في الحديث الشريف.

**الثاني:** ما يضرّ بالإنسان ويصرفه عن وظائفه اللازمة. ويكون هذا القسم من العلوم المذمومة التي يجب على الإنسان أن لا يقترب منها مثل علم السّحر، والشعوذة وأمثالهما...

**الثالث:** ما لا يوجد فيها ضرر ولا نفع، فيهدر الإنسان وقته عليها للتسلّي والتلهي، مثل علم الموسيقى وعلم الأنساب والحساب والهندسة والأفلاك وأمثال ذلك. ولو استطاع الإنسان أن يُدخل هذا النوع من العلم تحت واحد من العلوم الثلاثة لكان أفضل. وإن لم يتمكّن من ذلك، فعدم الاشتغال يكون حسنًا. لأن الإنسان العاقل عندما عرف بأنّه مع هذا العمر القصير، والوقت القليل، والحوادث الكثيرة، لا يستطيع أن يكون جامعًا لكلّ العلوم وحائزًا على جميع الفضائل، فلا بدّ له من التّفكير والتأمّل في العلوم، واختيار ما يكون له أنفع، والانصراف إليه، وتكميله. ومن العلوم ما هو أنفع من كلّ العلوم وأهمّها بالنسبة إلى حياته الأبدية الخالدة هو العلم الذي أمر به الأنبياء عليهم السلام والأولياء، وحثّوا النَّاس على تعلّمه، وهو هذه العلوم الثلاثة التي ذكرناها<sup>1</sup>.

### ٣- العلم الذي تعشقه الفطرة

"هناك اختلاف بين بني الإنسان في تشخيص مصاديق العلم، وهذا الاختلاف ناتج من احتجاب الفطرة التي تحبّ في الواقع العلم المطلق، ولكن يجب التنبّه إلى أنّ العلم الذي تعشقه الفطرة ليس هو العلم المعروف عند العامّة والذي يعني العلم بالمفاهيم والعناوين والعلم الارتسامي، فهذه العلوم ناقصة من جهات عدّة وإن كان فيها . في أحد أبعادها . العلم الحقيقي، وكل ما فيه نقص هو خارج عن دائرة العشق الفطري، من هنا فإنّ جميع العلوم الجزئية والعلوم الكلية المفهومية حتى العلم (المفهومي) بالله وشؤونه الذاتية والصفاتية

<sup>1</sup> الأربعون حديثًا، ص ٤٢٩-٤٣٠.

والأفعالية، ليست هي العلم الذي تعشقه الفطرة السليمة، بل إنّ ما تعشقه هو المعرفة على نحو المشاهدة الحضورية، وهذه المعرفة تحصل برفع الحجب، والحجب كآفة من النقص والعدم، ولا تصل الفطرة إلى معشوقها ومطلوبها إلا بعد إزاحة هذه الحجب كآفة، الظلمانية منها والتوراتية، وعندها يتحقّق للفطرة شهود "كلّ الكمال" وتصل الفطرة إلى محبوبها: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، وإليه المرجع والمآب<sup>١</sup>.

"يتّضح من الرجوع إلى الفطرة الإنسانية أنّ كلّ إنسان عاشقٌ للكمال المطلق... وأنّ الجميع متنفّرون من النقص، ولأنّ العلم قرينٌ مساوق للكمال المطلق، فإنّ العشق للكمال عشقٌ للعلم أيضاً، كما أنّ الجهل قرين النقص ومساوق له، لذا فالجميع متنفّرون منه. يُضاف إلى ذلك أنّ الفطرة تعشق العلم بذاته وتكره الجهل بذاته كما هو واضحٌ من الرجوع إلى الفطرة الإنسانية.

... من هنا، ومن الإيضاحات السابقة أيضاً، يتّضح أنّ العلم من لوازم الفطرة أي أنّ الفطرة التي لم تحتجب ولم تنغمر في غلاف الطّبيعة متوجّهة إلى المعرفة المطلقة أمّا إذا احتجبت فإنّها تتباعد عن هذه المعرفة بمقدار احتجابها حتّى تصل إلى مرتبة الجهالة المطلقة"<sup>٢</sup>.

#### ٤ - العلم نور

"اعلم أنّ حقيقة العلم والإيمان الذي يتقوّم بالعلم، عبارة عن النور، وهذا الموضوع مضافاً إلى أنّه مطابق مع البرهان والعرفان، موافق لنصوص وأخبار أهل العصمة والطّهارة عليهم السلام أيضاً. لأنّ حقيقة النور التي هي عبارة عن الظاهر والمكشوف بالذات، المظهر والكاشف للغير، ثابتة للعلم وصادقة عليه، بل صدق هذه الحقيقة على العلم يكون حقيقياً، وعلى الأنوار الحسيّة، مجازياً، لأنّ النور الحسيّ، لا ظهور ذاتي له في الحقيقة وإنّه من تعيّنات . مصاديق . تلك الحقيقة، وتكون لها الماهيّة، وأمّا حقيقة العلم، فهي عين الوجود ذاتاً، وغيره مفهومًا، فهو في حاقّ الحقيقة، وعالم الخارج موافق للوجود ومتّحد معه، وتكون حقيقة الوجود عين

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٤٣-٢٤٤.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٢٤٣-٢٤٤.

النور، وعين العلم ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>١</sup>. فالعلم عين النور. وقد عبّر في الآيات الشريفة عن الإيمان والعلم بالنور ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾<sup>٢</sup>.

وقد فُتّر (النور) حسب تفسير أهل بيت العصمة عليهم السلام في آية النور المباركة بالعلم، فعن الصادق عليه السلام: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال: كذالك الله عزّ وجلّ مثلُ نوره قال: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، كَمِشْكُوتٍ قَالَ: صَدْرُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فِيهَا مِصْبَاحٌ، قَالَ: فِيهِ نُورُ الْعِلْمِ يَعْنِي النُّبُوَّةَ، الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاجَةٍ قَالَ: عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى قَلْبِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ. وورد في الحديث المعروف: "العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء". ولهذا النور مراتب، حسب مراتب إيمان وعلم ذوي النور"<sup>٣</sup>.

## ٥- العلم مناقض للأهواء

"اعلم، أنّ العلم الإلهيّ التّامع أو العمل الصّالح المطلوب هو كلّ علمٍ أو عمل يُبعد الإنسان عن الأهواء التّفنّسيّة والصفات الشّيطانيّة، ويحدّ من طغيان النّفس، والعكس صحيح، فكلّ علمٍ أو عمل يبعث في الإنسان العُجب بالنّفس والطّغيان، أو على الأقل لا يطهره من الصفات التّفنّسيّة والرّذائل الشّيطانيّة، فهو علم أو عمل مصدره الشّيطان والنّفس الأمّارة بالسّوء، فليس مثل هذا العلم علمًا إلهيًّا نافعًا وإن كان يُصنّف اصطلاحًا من المعارف الإلهيّة، وليس مثل هذا العمل صالحًا نافعًا للروح وإن كانت الشّروط (الظاهريّة) للعمل الصّالح مجتمعةً فيه"<sup>٤</sup>.

## ٦- العلم فيض إلهيّ غيبيّ

"إنّ إلقاء العلوم والمعارف من العوالم الغيبيّة، ومن نتائج ارتباط النّفس بها . وتقبّلها للعلوم . كما ورد في الحديث الشريف: "لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ التَّعْلِيمِ بَلْ هُوَ نُورٌ يَقْدِفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ"، فكلّ نفس ذات ارتباط مع الملكوت الأعلى وعالم الملائكة المقربين، تكون الإلقاءات إليها من نوع الفيوضات الملكيّة، والعلوم التي تُفاض عليها هي من العلوم الحقيقيّة ومن عالم الملائكة.

<sup>١</sup> سورة النور، الآية ٣٥ .

<sup>٢</sup> سورة النور، الآية ٤٠ .

<sup>٣</sup> الأريعون حديثًا، ص ٤٥٣-٤٥٤ .

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٦ .

وكلّ نفس منشدة إلى عالم الملكوت السفليّ، وعالم الجنّ والشيطان والنّفوس الخبيثة، كانت الإلقاءات إليها شيطانيّة ومن قبيل الجهل المركّب، والحجب المظلمة.

ومن هذا المنطلق يرى أرباب المعارف . العرفاء . وأصحاب العلوم الحقيقية أنّ تطهير النّفوس، وإخلاص النّيّة، وتصحيح الغايات والأهداف في تحصيل العلم وخاصّة في دراسة المعارف الحقّة والعلوم الشرعيّة، هو الشرط الأوّل في ذلك، ويؤكّدونه على المتعلّمين، لأنّه مع تصفية النّفوس، وتحليتها، يشتدّ ارتباطها بالمبادئ العالية. وعندما يقول الرّب جلّ جلاله في الآية الكريمة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ فلاجل أنّ التقوى تزكّي النّفوس وتربطها بعالم الغيب المقدّس تمّ يكون التّعليم الإلهيّ والإلقاء الرّحمانيّ، لأنّ البخل في المبادئ العالية، محال، وإنّ فيضها يكون واجبًا، إذ إنّ واجب الوجود بالذات، واجب من جميع الجهات والحيثيات<sup>1</sup>.

فالعلم لا ينحصر في إطار المفاهيم، بل هو كشف الحقيقة بحسب الإدراك الحقيقيّ الذي هو إدراك القلوب بالشّهود. وعلى ضوء هذا التّعريف، ينبغي تمييز مراتب العلم، بعد أن اتّضح الفارق بينه وبين العلم الاصطلاحيّ المرتبط بالعلوم.

### أهميّة العلم

ذكر الإمام قدس سره أنّ العلم هو من أعظم الفضائل، وأنّه طريق إلى الجنّة وأنّ حملته ولادة روحانيّة تنبثق من أبوة الأنبياء عليهم السلام، وأنّ فضل العالم على العابد كفضل القمر على النّجوم ليلة البدر، وأنّه من أهمّ علامات القرب من الحقّ المتعال، وأنّه أهمّ عنصر في الزّهد والإعراض عن الدّنيا الدنيّة الغرور، ولا يمكن لأحد أن يبلغ المقامات الكماليّة والدرجات الأخرويّة إلّا به.

وقد استفاد الإمام قدس سره هذه الحقائق من فهمه وغوره في الأحاديث الشّريفة لأهل بيت العصمة عليهم السلام فنهض شارحًا ومفسّرًا لها ليقدم لنا تراثًا عظيمًا من المعارف الإلهيّة.

<sup>1</sup> الأربعون حديثًا، ص ٤٠٣-٤٠٤.

## ١ - نورانية كل إنسان في الآخرة بحسب علمه

"لا بد من معرفة أن هذا النور الحقيقي الموجود في قلوب أهل الإيمان والعلم، لما كان من أنوار عالم الآخرة، (فهو) ينير في عالم الآخرة حسب فعالية النفس بالنور الحسي. وحيث أن هذا النور هو الذي ينير الصراط، يكون نور طائفة مثل نور الشمس وأخرى مثل نور القمر حتى ينتهي الأمر إلى نور يضيء أمام قدميه فقط".<sup>١</sup>

## ٢ - محل عناية ملائكة الله

"إن طلبة العلم والمعارف، والمتوجهين إلى الحق والحقيقة، والسالكين لسبيل رضا الله من الأبناء الروحانيين لآدم صفي الله عليه السلام الذين يكونون مسجودًا للملائكة ومطاعًا لتمام دائرة الوجود، هؤلاء يكونون محل عناية ملائكة الله، ورعايتهم وتأييدهم وإنّ مثل هذا الملكي الذي تحوّل إلى وجودي ملكوتي، وهذا الأرضي الذي أصبح سماويًا قد وطأت أقدامهم أجنحة الملائكة، فإذا انفتحت عين بصيرته الملكوتية والمثالية لرأى بأنّه مستقرّ على أجنحة الملائكة، وأنّه يطوي المسافات بفضل تأييدهم. هذا بالنسبة إلى الذين هاجروا من الملك إلى الملكوت، وإن كانوا لا يزالوا في الطريق. وأمّا الذين، لا يزالون يعيشون في عالم الملك، ولم يتركوا عالم الملكوت، فمن الممكن أن يكونوا محلّ تأييد ولطف الملكوتيين، حيث يفترضون أجنحتهم تواضعًا لهم وابتهاجًا بهم وبأعمالهم. كما أشير إلى ذلك في هذا الحديث الشريف وفي حديث (غوالي اللثالي). عن المقداد . رضي الله عنه . أنّه قال: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ حَتَّى يَطَّأَ عَلَيْهَا رِضًا بِهِ" ... فلمّا لم يكن هذا الكلام معارضاً للبرهان، بل يوافق، فلا داعي إلى تأويله".<sup>٢</sup>

## ٣ - أفضل عبادة ومقام

"لا بدّ وأن نعرف بأنّ العبادة لا تتحقّق من دون علم أيضًا، ومن هنا يكون للعابد نور مخصوص به، بل إنّ نفس الإيمان وعبادة الحقّ المتعالي من سنخ النور ولكن نور العابد،

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٤٥٤.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.

يضيء لنفسه، وينير تحت أقدامه، ولا ينير للآخرين ولهذا يكون مثلهم مثل النجوم ليلة البدر، حيث تختفي أنوارها أمام نور القمر ليلة البدر، وإنما تضيء لنفسها من دون أن تنفع الآخرين وتسطع لهم. فمثل العابد أمام العالم، لا يكون مثل النجمة في الليل المظلم حتى ينير قدرًا من المساحة المحيطة بالنجمة وإنما يضيء بمثل إضاءة النجمة ليلة البدر حيث تكون ظاهرة وغير مظهرة لشيءٍ آخر<sup>١</sup>.

#### ٤ - علامة القرب

"اعلم، أن العلم من أفضل الكمالات وأعظم الفضائل، فهو من أشرف الأسماء الإلهية ومن صفات الموجود بما هو موجود، وبيركته انتظم نظام الوجود وطرز الغيب والشهود، وكل موجود يكون تحقّقه بحقيقة العلم الشريفة أقوى، فهو أقرب إلى المقام المقدس للحقّ تعالى وإلى المرتبة القدسية للواجب جلّ وعلا: بل إن العلم مساوئق للوجود، فحيثما سطع شعاع الوجود كان معه، وبمقداره شعاع نور العلم، ولذلك، فإنّ الخلوّ التام من حقيقة العلم يعني الخلوّ التام أيضًا من حقيقة الوجود، والفاقد لهذه الحقيقة هو العدم المطلق. وهذا الأمر قائم على برهان عقليّ رصين، هو برهان "دار الوجود هي دار العلم"، فلا تخلو أيّ ذرة من الموجودات . حتى الجمادات والنباتات . من العلم، بل إنّ لها نصيبًا من العلم يتناسب مع مقدار نصيبها من حقيقة الوجود"<sup>٢</sup>.

#### ٥ - الإعراض عن الدنيا

"قال تعالى شأنه في وصف قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ \* وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾<sup>٣</sup>. فالذين أنست قلوبهم بالدنيا وجعلوها وزينتها مطلوبهم، تفجرت أمانيهم وتأسفوا حسرةً على عدم امتلاكهم لما عند قارون، لما رأوه خارجًا في زينته، أما الذين أوتوا العلم وتفضّل الله عليهم بالعلم بغيب هذا الظاهر، لم تؤثر فيهم زينة الدنيا وقارون، لأنهم كانوا يطلبون

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٤٥٥.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٤٠-٢٤١.

<sup>٣</sup> سورة القصص، الآيات ٧٩ - ٨٠.

ثواب الله، وقد عرفوا أنّ سبيلهم إليه الصبر عن الرّخارف الدنيويّة"¹.

"والعلّة ما اهتّم بشيء في كتاب الله ووصايا الأنبياء والأولياء عليهم السلام وخصوصًا أمير المؤمنين عليه السلام مثلما اهتّم بترك الدّنيا والرّهذ فيها والإعراض عنها الذي هو من حقائق التّقوى. ولا تحصل هذه المرتبة من التّطهير إلّا بالعلم النّافع والرياضات القلبيّة القويّة وصرف الهمة في التّفكّر في المبدأ والمعاد وإشغال القلب بالاعتبار في أفول الدّنيا وخرابها وكرامة العوالم الغيبيّة وسعادتها: "رحم الله امرءاً علم من أين وفي أين وإلى أين"².

## ٦- شرط لبلوغ المقامات المعنويّة

"من دون معرفة الحقّ سبحانه وعبوديته لا يمكن لأحد من عباده أن يبلغ المقامات الكماليّة والمدارج الأخرويّة ... ولما كان كذلك فقد فتح الله تعالى بلطفه الشّامل ورحمته الواسعة بابًا من الرّحمة والرّعاية بالعباد عن طريق تعليمات الوحي الغيبيّة والإلهام، وبوساطة الملائكة والأنبياء. ذلكم هو باب العبادة والمعرفة. فعلم العباد طرق عبادته، وفتح لهم سبيلًا إلى المعارف لكي يخفّفوا من نقائصهم قدر الإمكان، ويسعوا لنيل الكمالات الممكنة، ويهتدوا بأشعة نور العبوديّة للوصول إلى عالم كرامة الحقّ، وإلى الرّوح والريحان وجنّات النّعيم، بل إلى رضوان الله الأكبر"³.

## ٧- طريق الجنّة

"العلوم في أيّ مستوى كانت: سواء كان علم المعارف أو غيره فهي السّبيل للوصول إلى الجنّة التي تتناسب مع ذلك العلم، وسالك سبيل كلّ علم، سالك لطريق من طرق الجنّة... العلوم بصورة عامّة، طريق إلى العمل، حتّى علوم المعارف إلّا أنّ الأعمال التي تنجم من علم المعارف، هي أعمال قلبيّة، وجذبات باطنيّة، وتكون نتيجة تلك الأعمال والجذبات وصورها الباطنيّة، صورة جنّة الدّات واللقاء"⁴.

¹ جنود العقل والجهل، ص ٢٧٩-٢٨٠.

² معراج السالكين، ص ١٠٣-١٠٤.

³ الأربعون حديثًا، ص ٢٦٠.

⁴ (م.ن)، ص ٤٤٦-٤٤٧.

## موعظة

"فويلٌ لك أيُّها المسكين المبتلى بحفنة من المفاهيم، والمتشاغل بمجموعة من الاصطلاحات، لقد قضيت عمرك في الانحدار إلى أعماق مستنقع الطبيعة، فابتعدت - بوسيلة العلوم والمعارف الحقّة عن الحقّ تعالى! لقد خنتَ المعارفَ إذ اتَّخذت الحقّ تعالى والعلم الإلهيَّ أداةً لعملك الشَّيطانيِّ، فاستيقظ قليلاً من نومة الغفلة ولا تثلج صدرك بهذه المفاهيم، ولا تنخدع بمكائد إبليس اللعين، فهو يسوقك إلى الهلكة ويبعدك عن منزل الكرامة الإنسانية وعن قرب الحقّ تعالى"<sup>١</sup>.

---

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٨.

## المفاهيم الرئيسة

١- إنّ علاقة الإنسان بالعلم تكشف عن حاله وموقعه على طريق التّكامل والتّسافل. فحبّ العلم والتّعلّم هو مؤشّر واضح على الحياة المعنويّة الحقيقيّة، وهو شرط لبلوغ المقامات. وفي المقابل، إنّ التّفور من العلم أو الحرمان منه أو الإعراض عنه لغيره (مهما كان هذا الغير) هو من علائم الشّقاء.

٢- طالب العلم الحقيقيّ يحدّد قيمة كلّ علم من العلوم وموقفه منه على أساس دوره في إيصاله إلى المطلوب الحقيقيّ والمقصد الواقعيّ.

٣- العلم من جنود العقل والجهل، وهو نورٌ كاشفٌ عن الحقيقة، وفيضٌ إلهيٌّ غيبيّ.

٤- إنّ العلم من لوازم الفطرة ومعشوقها، إلا أنّ العلم الذي تعشقه الفطرة هو المعرفة على نحو المشاهدة الحضورية، والتي تحصل برفع الحجب الظلمانيّة والتّوراتيّة.

٥- إنّ العلم الإلهيّ النّافع أو العمل الصّالح المطلوب هو كلّ علمٍ أو عملٍ يُبعد الإنسان عن الأهواء التّفسائيّة والصفّات الشّيطانيّة، ويحدّد من طغيان التّفوس.

٦- الشّروط الأول لتحصيل العلم والارتباط بالمبادئ العالية هو تطهير التّفوس وإخلاص النّيّة.

٧- من شأن العلم أن يورث نورانيّة لكلّ إنسان في الآخرة بحسب علمه وهو من أهمّ علامات القرب، وبه تحصل الولادة الملكوتيّة والنبوة الرّوحانيّة والإعراض عن الدّنيا.

٨- العلم هو أفضل عبادة ومقام، والعبادة بحدّ ذاتها لا تتحقّق من دون علم، ومن هنا يكون للعابد نورٌ مخصوصٌ به.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

"اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَقِنَا مِنْكَ، وَاحْفَظْنَا بِكَ، وَاهْدِنَا إِلَيْكَ، وَلَا تُبَاعِدْنَا عَنْكَ إِنَّ مَنْ تَقِيهِ يَسْلَمْ وَمَنْ تَهْدِهِ يَعْزَم، وَمَنْ تُفَرِّقْهُ إِلَيْكَ يَعْزَم"¹.

الروايات الشريفة:

١ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "قَالَ قَرَأْتُ فِي كِتَابِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْخُذْ عَلَى الْجُهَّالِ عَهْدًا يَطْلَبُ الْعِلْمَ حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ عَهْدًا يَبْدُلُ الْعِلْمَ لِلْجُهَّالِ لِأَنَّ الْعِلْمَ كَانَ قَبْلَ الْجُهْلِ"².

٢ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، قَالَ: "لِيَكُنِ النَّاسُ عِنْدَكَ فِي الْعِلْمِ سَوَاءً"³.

٣ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْعِلْمُ؟ قَالَ: الْإِنْصَاتُ، قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: الْإِسْتِمَاعُ، قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: الْحِفْظُ، قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: الْعَمَلُ بِهِ، قَالَ: ثُمَّ مَهْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَشْرُهُ"⁴.

٤ - عن أمير المؤمنين عليه السلام: "اللَّهُمَّ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَأْرِزُ كُلُّهُ وَلَا يَنْقَطِعُ مَوَادُّهُ"⁵.

٥ - عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "الْعِلْمُ عِلْمَانِ عِلْمٌ عَلَى اللِّسَانِ فَذَلِكَ حُجَّةٌ عَلَى ابْنِ آدَمَ وَعِلْمٌ فِي الْقَلْبِ فَذَلِكَ الْعِلْمُ النَّافِعُ"⁶.

¹ الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام لنفسه وأهل ولايته.

² الكافي، ج ١، ص ٤١.

³ (ن.م).

⁴ (ن.م)، ص ٤٨.

⁵ (ن.م)، ص ٣٣٥.

⁶ بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٣.

٦- عن أبي عبد الله عليه السلام: "قَلِيلُ الْعَمَلِ مِنَ الْعَالِمِ مَقْبُولٌ مُضَاعَفٌ وَكَثِيرُ الْعَمَلِ مِنْ أَهْلِ الْهَوَى وَالْجَهْلِ مَرْدُودٌ"<sup>١</sup>.

٧- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "الْعِلْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدْقُ عِزٌّ وَالْجَهْلُ ذُلٌّ وَالْفَهْمُ مَجْدٌ وَالْجُودُ نَجْحٌ وَحُسْنُ الْخُلُقِ مَحَلَبَةٌ لِلْمَوَدَّةِ وَالْعَالِمُ بِزَمَانِهِ لَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ اللَّوَابِسُ وَالْحَزْمُ مَسَاءَةُ الظَّنِّ وَبَيْنَ الْمَرْءِ وَالْحِكْمَةِ نِعْمَةُ الْعَالِمِ وَالْجَاهِلُ شَقِيٌّ بَيْنَهُمَا وَاللَّهُ وَلِيُّ مَنْ عَرَفَهُ وَعَدُوٌّ مَنْ تَكَلَّفَهُ"<sup>٢</sup>.

٨- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَيُّهَا النَّاسُ اعْلَمُوا أَنَّ كَمَالَ الدِّينِ طَلَبُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلُ بِهِ أَلَا وَإِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَوْجَبُ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْمَالِ إِنَّ الْمَالَ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ قَدْ قَسَمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ وَضَمِنَهُ وَسَيَفِي لَكُمْ وَالْعِلْمُ مَخْزُونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ وَقَدْ أَمْرْتُمْ بِطَلَبِهِ مِنْ أَهْلِهِ فَاطْلُبُوهُ"<sup>٣</sup>.

٩- عَنْ أَبِي حَمزة الثَّمَالِيِّ قَالَ قَالَ لِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "اغْدُ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا أَوْ أَحَبِّ أَهْلِ الْعِلْمِ وَلَا تَكُنْ رَابِعًا فَتَهْلِكَ بِبَعْضِهِمْ"<sup>٤</sup>.

١٠- عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لَطَلَبُوهُ وَلَوْ بِسُفْكِ الْمُهْجِ وَخَوْضِ اللَّجَجِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ دَائِبًا أَنْ أَمَقَّتْ عَيْدِي إِلَيَّ الْجَاهِلُ الْمُسْتَحْفُ بِحَقِّ أَهْلِ الْعِلْمِ التَّارِكُ لِلْإِفْتِدَاءِ بِهِمْ وَأَنْ أَحَبَّ عَيْدِي إِلَيَّ التَّقِيُّ الطَّالِبُ لِلشَّوَابِ الْجَزِيلِ اللَّارِزِمِ لِلْعُلَمَاءِ التَّابِعِ لِلْخُلَمَاءِ الْقَابِلُ عَنِ الْحُكَمَاءِ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ١، ص ١٧.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٦.

<sup>٣</sup> (ن.م).

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٣٤.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ٣٥.



## الدرس السادس: العلم (٢) - علامات العلم الحقيقي وأهدافه

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يشرح أهمية إخلاص النية في طلب العلم.
- ٢- يتعرف إلى غاية العلم وأهدافه.
- ٣- يفهم علامات العلم والعالم الحقيقي.



## تمهيد

لا يكفي أن يحب الإنسان الفضائل، بل ينبغي أن يسعى لتحصيلها وتحقيقها. ولا شك بأنَّ حبَّ العلم تأثيرًا واضحًا في جذب المحبِّ إلى هذه الفضيلة الكبرى، لكن غالبًا ما يحدث أن يضع محبُّو العلم في متاهات العلم الفضولي الذي لا تأثير له على سعادة الإنسان وكماله. وكثيرًا ما ينتهي هؤلاء إلى فقدان تلك الجاذبة المهمة ويتحوّل طلبهم للعلم إلى تحصيل الاعتبارات والأمور الدنيوية.

لهذا يحتاج طالب العلم إلى تحديد دقيق للعلم المطلوب ومعرفة دوره على مستوى الكمال والتوظيف الصحيح للمعارف التي ينالها.

وكل ذلك موقوف على صدق النية في الطلب وتحقق الإخلاص الذي يتّوج بالعبودية، كما قال الإمام الصادق عليه السلام في وصيته لعنوان البصري: "اطلب العلم واطلب معه العبودية".

إنَّه العلم الذي يتبع التّكليف مثلما أنه يساهم في كشفه. إنَّه العلم الذي يتعد عن الدّنيا وجاهاها واعتباراتها. إنَّه العلم الذي يسلك بصاحبه طريق الجنّة.

## العلم بأيّ معلوم

انقسم النَّاس فيما يتعلّق بأشرف معلوم إلى طوائف وفئات، حتّى وصل الأمر ببعضهم إلى حدّ العلم باللغة أشرف علم. ومعزل عن المبررات التي يقدّمها هؤلاء، فإنّ الإجابة عن هذا السؤال: "ما هو أشرف معلوم يتعلّق به علم الإنسان؟" ترجع إلى رؤية الإنسان الكونية وكيفية ترتيبه لنظام الوجود. ولا شكّ بأنّ العلم . وخصوصًا العلم بالله وأسماء ذاته المقدّسة وصفاتها وآياتها وكل ما يرتبط بها . هو من أعظم الفضائل، كما قال الإمام آنفًا.

وبناءً عليه، فإنّ كل ما يرتبط بذات الله يكون العلم به شريعياً بشرط أنّ يكون دليلاً عليه وطريقاً إلى العلم به. ويقول الإمام قدس سره: "إنّ لجميع الموجودات الممكنة الوجود جهتين ووجهتين: الجهة الأولى هي التوراتية والوجود والإطلاق والكمال وهذه هي الوجهة الغيبية الإلهية. والجهة الثانية هي الظلمة والتعريف والمهابة والنقص: وهذه هي الوجهة النفسانية للأشياء. والأشياء في الوجهة الأولى من الشؤون الإلهية والآيات الربانية، ولعلّ المراد من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "آية محكمة" في الحديث المروي عنه في الكافي الشريف: "إنما العلم ثلاثة: آية محكمة..<sup>١</sup>، هو العلم بالوجهة النورانية للأشياء، وهو علم ملازم لمعرفة الله. وشأن العقل إدراك تلك الجهة التوراتية التي هي من الآيات الإلهية، في حين أنّ شأن الوهم والجهل إدراك تعينات الأشياء، وهي جهالة مركبة وسراب باطل لا حقيقة له: "ألا كل شيء ما خلا الله باطل"<sup>٢</sup>.

ويطرح الإمام رؤية شاملة حول المعلوم المطلوب الذي يكون العلم به نافعا فيقول: "للإنسان . إجمالاً وبصورة كلية . نشآت ومقامات وعوالم ثلاث:

**الأولى:** نشأة الآخرة، وعالم الغيب، ومقام الروحانية والعقل.

**الثانية:** نشأة البرزخ وعالم متوسط بين العالمين، ومقام الخيال.

**الثالثة:** نشأة الدنيا ومقام الملك وعالم الشهادة. ولكلٍّ منها كمال خاصّ وتربية خاصّة وعمل يتناسب مع نشأته ومقامه، وإنّ الأنبياء عليهم السلام يتولّون بيان تلك الأعمال.

فجميع العلوم النافعة تنقسم إلى هذه العلوم الثلاثة:

علم راجع إلى الكمالات العقلية والوظائف الروحية. وعلم راجع إلى الأعمال القلبية ووظائفها. وعلم راجع إلى الأعمال القلبية الخارجية، ووظائف النشأة الظاهرة للنفس.

أما العلوم التي تقوّي العالم الروحانيّ، والعقل المجرد وتربيتهما فهي: العلم بالذات المقدّس الحقّ حلّ وعلا، ومعرفة أوصافه الجمالية والجلالية، والعلم بالعوالم الغيبية المجردة... والعلم بالأنبياء والأولياء ومقاماتهم ومدارجهم، والعلم بالكتب المنزلية،

<sup>١</sup> عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إنما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل" الكافي، ج ١، ص ٣٢.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٣٩-٢٤٠.

وكيفيّة نزول الوحي، وتنزّل الملائكة والروح. والعلم بنشأة الآخرة وكيفيّة عودة الموجودات إلى عالم الغيب، وحقيقة عالم البرزخ والقيامة، وتفصيل ذلك...

وملخص الكلام أنّ العلم الذي يرتبط بالعالم الروحانيّ والعقل المجرد، هو العلم بمبدأ الوجود وحقيقته ومراتبه وبسطه وقبضه وظهوره ورجوعه. ويتكفل بيان هذا العلم بعد الأنبياء والأولياء، الفلاسفة والعظام من الحكماء وأصحاب المعرفة والعرفان.

أما العلوم التي ترتبط بتربية القلب وترويضه والأعمال القلبية فهي: العلم بالمنجيات الخلقية والمهلكات الخلقية، أي العلم بمحاسن الأخلاق مثل الصبر، والشكر... والعلم بكيفية تحصيلها وأسباب حصولها ومبادئها وشرايطها. والعلم بقبائح الأخلاق مثل الحسد والكبر... وغير ذلك، والعلم بمبادئها التي تمنحها الوجود، والعلم بكيفية التنزّه عنها. والذي يتولّى بيان هذه الأمور أيضًا الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ثمّ علماء الأخلاق وأصحاب الرّياضة الرّوحية وذوي المعارف.

والعلوم التي تُنشط بها تربية الظاهر وترويضه، علم الفقه ومبادئه، وعلم آداب المعاشرة وتديبر المنزل، وسياسة الميّدن ويتكفل بشرحها الأنبياء ثمّ الأولياء عليهم السلام ثمّ علماء الظاهر من الفقهاء والمحدّثين.

ولابدّ من معرفة أنّ كلّ واحد من هذه المراتب الثلاث الإنسانيّة المذكورة مترابطة بدرجة تنعكس آثار كل مرتبة على المرتبة الأخرى من دون فرق في ذلك بين الأمور الكمالية، أو الأمور القبيحة المعيبة..<sup>١</sup>

"إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قسم في هذا الحديث الشّريف العلوم إلى ثلاثة أقسام. ولاشكّ أنّ هذه العلوم الثلاثة، مرتبطة بهذه المراتب الثلاث كما تشهد بذلك العلوم السائدة في الكتب الإلهية وسنن الأنبياء وأحاديث المعصومين عليهم السلام، حيث تكون العلوم لديهم مقسّمة إلى هذه الأقسام الثلاثة"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٤١٨-٤١٩.

<sup>٢</sup> عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إنّما العِلْمُ ثَلَاثَةٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، وَمَا خَلَاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ" الكافي، ج ١، ص ٣٣.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثًا، ص ٤٢١.

## أهداف العلم

بمعرفة الهدف من العلم يحقق الطالب الشرط الأول في إخلاص النية الذي يهيئ القلب للتوجه إلى ملكوت العلم والمعارف. ولا شك بأن للنية مدخلية في تنوير العلم أو ظلماته. لهذا، يقول الإمام قدس سره: "لا بد من معرفة أنّ العلوم بصورة كلية تنقسم إلى قسمين: أحدهما: العلوم الدنيوية التي هدفها الوصول إلى المآرب الدنيوية. على أساس أنّ النية قد تكون الأنانية وقد تكون إلهية. والآخر: العلوم الأخروية التي يقصد منها البلوغ إلى المقامات والدرجات الملكوتية والوصول إلى المراتب الأخروية...".<sup>١</sup> إنّ الإخلاص في طلب العلم يقتضي أن يحافظ الطالب والعالم على التوجه القلبي نحو المقصد النهائي. كما أنّ التوجه الصادق يحفظ مسيرة التعلم ومساره الصحيح، فلا ينحرف الطالب ويتجه نحو المقاصد الشيطانية التي فيها الهلاك المبين والعاقبة الوخيمة. وفيما يلي نذكر بعض ما بيّنه الإمام من أهداف العلم:

### ١ - مقدمة للإيمان

"إنني أيضاً لا أعتقد كثيراً بالعلم فقط، إنّ العلم الذي لا يفرضي إلى الإيمان أراه الحجاب الأكبر، ولكن لو لم نرد الحجاب ولم نتعلم لما تمكنا من حرقه. إنّ العلوم بدور المشاهدات. وإنه لمن الممكن أن يبلغ الإنسان إلى مقامات شامخة من دون تعلم حجاب المصطلحات والعلوم، ولكن هذا خلاف العادة، وخلاف طبيعة السنن، وإنه نادراً ما يحصل. فالطريق الطبيعي لمعرفة الله وطلبه هو أنّ الإنسان يتدبّر أولاً بإنفاق وقت في التفكر بالحق سبحانه، ويحصل على العلم بالله وأسماء ذاته المقدّس وصفاته حسب الأساليب المتبعة من التلمذة على يد رجال ذلك العلم، ثمّ يتزوّد من العارف بواسطة الرياضة العلمية والعملية وينتهي بذلك حتماً إلى النتيجة المنشودة"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٤٥.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٤٨٩.

## ٢- مقدمة للعمل

"ذكرنا سابقاً بأن العلوم بأسرها تكون للعمل، حتى علوم المعارف الإلهية حيث لها انعكاسات عملية أيضاً. ونقول هنا بأن علم أحوال القلوب وكيفية صحتها ومرضها وصلاحها وفسادها، من العلوم التي تُعدّ مقدمة للعمل، وأداة لعلاج القلب وإصلاحه. وأما الإحاطة بهذه الأمور واستيعابها لا يعتبر من الكمالات الإنسانية"<sup>١</sup>.

فعلى طالب العلم أن يطلب من وراء العلم والتعلم رفع الحجب عن صفحة القلب ليتحقق التوجه التام إلى منابع العلم ومصادره. وعندها تنزل فيوضات الإيمان فيتسع القلب ويصبح مستعداً لشهود الحقائق التي أدركها سابقاً على نحو كلي واستقر في قلبه نور الإيمان. ولا شك بأن من أراد ذلك كله، عليه أن يبحث في كل علم عن العمل به وعن الجانب التطبيقي فيه لأنه السبيل إلى كل هذه التوفيقات جميعاً.

## ٣- رفع الحجب

"المقياس في العلم ليس بجميع المفاهيم الكلية والاصطلاحات العلمية، بل المقصود منه رفع الحجب عن عين البصيرة للنفس وفتح باب معرفة الله، حيث يكون العلم الحقيقي هو مصباح هداية الملكوت، والصراط المستقيم للتقرب إلى الحق ودار كرامته. وكل ما عدا ذلك، وإن كان في عالم الملك وقبل إزاحة حجب الطبيعة. الدنيا. فهو في شكل العلم وصورته، وإن أصحابه لدى أهل الحوار والجدال، يُعدّون من العلماء والعرفاء والفقهاء. ولكنه بعد تساقط الحجب عن وجه القلب، وكشف ستار الملكوت، والاستفاقة من السبب العميق في عالم الملك والطبيعة. الدنيا. يتبين بأن شمس هذا الحجاب وغلظته أكثر من كل الحجب، وإن هذه العلوم المقررة بأسرها من الحجب الغليظة الملكوتية التي تكون بين حجاب وآخر مسافة أميال وفساخ وقد كنا من الغافلين عنه "الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا" ويتبين لنا جميعاً كيف سنكون"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٥٤-٥٥٥.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٤٠٤-٤٠٥.

#### ٤ - العلم مقدّمة للمكاشفات

"إنّ الحقّ يستدعي أن نقول بأنّ العلم هو الذي يشتمل على التدبّر والتمعّن والبرهان والاستدلال، بينما قد تكون المكاشفات والمشاهدات نتيجة العلوم الحقيقيّة، وقد تكون من جرّاء الأعمال القلبيّة. وعلى أيّ حال إنّ المشاهدات والمكاشفات، والتحقّق بجقائق الأسماء والصّفات، يجب أن لا تندرج في تقسيمات العلوم، لأنّ العلوم في وادّ والمكاشفات في وادّ آخر".<sup>١</sup> وعليه فما لم ينته العلم إلى الشّهود، يكون الطّالب في خطرٍ عظيم. أمّا الإحجام والإعراض عن هذا المقصد السيّء فهو الطّرد والوقوع في فخ إبليس الأكبر.

يقول الإمام قدس سره: "هناك فرق واضح بين العرفان والعلم، بين التعرّف على شيء وبين العلم به. يُقال أنّ العلم في اللغة يختصّ بالكليّات، والمعرفة خاصّة بالجزئيّات والتّشخّص، ويُقال أنّ العارف بالله هو الذي يتعرّف على الحقّ سبحانه والمشاهدة الحضورية، وإنّ العالم بالله هو الذي ينتهي إلى الحقّ سبحانه من خلال البراهين الفلسفية. وذهب البعض إلى أنّ الفارق بين العلم والعرفان من وجهين: الأوّل من ناحية متعلّق كلّ منهما كما ذكرنا متعلّق العلم كلّيّ ومتعلّق المعرفة جزئيّ. والثّاني أنّه أخذ في المعرفة نسيان الشّيء المعلوم سابقاً. في حين أنّ العلم هو ما يدركه الإنسان ابتداءً. وأمّا الشّيء الذي كان معلوماً فغفل عنه ونسيه ثمّ أدركه ثانيّاً يُقال له أنّه قد عرفه".<sup>٢</sup>

#### علامات العلم الحقيقيّ

بالرّغم من اشتراكهما في بعض الخصائص إلّا أنّ العلم الحقيقيّ الذي هو أعظم نور يهدي إلى الله يختلف كثيراً عن العلم المزيف الذي هو حجاب سميك بين الإنسان والمقصد التّهائيّ.

ويذكر لنا الإمام الخمينيّ قدس سره مجموعة من العلامات المؤكّدة للعلم التّورانيّ، منها:

#### ١ - التّواضع

"فقد روي في الكافي مسنداً عن مولى الموحّدين عليه السلام أنّه قال: "يا طالب العلم، إنّ العلم ذو فضائل كثيرة، فأرأسه التّواضع وعينه البراءة من الحسد".، وعلى العالم

<sup>١</sup> الأربعة حديثاً، ص ٤٢٩.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٦٦١.

العامل أن يتفكّر في نفسه وأحوالها وملكاها، ويمعن التّظر بدقّة في صفاتها، ليعرف طبيعة الملكات التي أوجدها فيه علمه من أي فرع كان. إذا كان من أهل المعارف فليُنظر في نفسه ليعرف هل نُوّر نور معرفة الله قلبه وجعله محبًّا وبالتّالي متواضعًا للحقّ تعالى ومظاهر جماله وجلاله؟! أم أنّ تمرّسه لمُدّة في مجموعة من الاصطلاحات المعرفيّة، جعله ينظر بعين الاحتقار. وهي نظرة إبليس إلى العالم برمته والعلماء جميعًا. فيسمّي الحكماء "قشريين من أهل الظاهر" ولا يرى سائر العلماء بالمرّة، وينظر إلى سائر الناس نظرتَه إلى البهائم!<sup>١</sup>.

ويقول قدس سره أيضا: "إذا رأيت أنّ هذه العلوم أوجدت فيك العُجب بالنّفس وعبوديتها وحبّها، فاعلم أنّك قد صرت طعمة لإبليس، وابتعد عن طريق السّعادة، وانظر حينئذٍ إلى ما حصلت عليه، هل تجد عندك سوى حفنة من الاصطلاحات الجوفاء؟! وهل يمكنك الإجابة بهذه المصطلحات عن أسئلة ملائكة الله الغلاظ الشّداد؟! وهل يمكن مخادعة ربّ العالمين من قبيل الهيولي والصّورة، والمعاني الحرفيّة؟!"<sup>٢</sup>.

## ٢- البعد عن الشّهرة والتّعالّي

"كم هو جهولٌ ذاك الذي يتوّهم أنّه قد وصل . بهذه المفاهيم الجوفاء . إلى مقام "العلماء بالله، وأنّ الملائكة تفرش أجنحتها تحت قدميه، ثم يتوقّع . بسبب هذه الأوهام . أن يحوطه عباد الله بالتبجيل والاحترام فيضيّق عليهم الطّريق في الأزقة، ويزاحمهم على أماكنهم في المجالس؟! كلّ هذه من مظاهر الغرور المذموم والجهالة والشّيطنة، وهي موارث إبليس وظلمات بعضها فوق بعض، فالعلم نور، والنور ينوّر القلب ويوسّعه، ويشرح الصّدر، ويضيء طريق الهداية والسلوك، فكيف أوجدت فينا هذه العلوم الرّسميّة ظلمة القبر وضيق الصّدر والتّعالّي والتكبر؟! هل يمكن والحال هذه أن نعتبر هذه الألفاظ علومًا وترفناخر بها في العالم؟!"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٦-٣٠٧.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٠٩.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣١٠.

### ٣- تلاشي الأنايية

"فالمقياس في العلم أن يكون آية وعلامة، ولا تكون له إتيية ولا أنايية، بل تضمحلّ لدى حصول العلم الإتيية، وتلاشي الأنايية ولا يغدو العلم باعثًا على التّخوة والأنايية والتّظاهر والترفع".<sup>١</sup>

### ٤- الحكمة

"فأنت عندما بذلت الجهد أربعين عامًا أو أكثر في سبيل تجميع المصطلحات والمفاهيم العلمية، واعتبرت نفسك علامة ومن جنود الله، ولكن لم تجد أثرًا للحكمة في قلبك، ولا طعمًا لها على لسانك فاعلم بأنّ دراستك وتعبك لم يقترنا بالإخلاص بل إنّما اجتهدت للشيطان والرغبات التّفسيية".<sup>٢</sup>

### ٥- الحزن والهّم الخاصّ

"الأصحاب الفقه والعقل - الذين يقصدون التّفقه في الدّين وإدراك الحقائق . أيضًا علامات وآثار، عمدتها ما ذكره الإمام عليه السلام، منها: أنّه ينجم عن هذا العلم في قلبه الحزن والهّم والانكسار، ومن الواضح أنّ هذا الانكسار والفرغ لا يكون لأجل الأمور الدنيوية الدّنية الزائلة، بل إنّها ناجم عن الخوف من المعاد، والتّقصير في وظائف العبوديية... ومن علامات هذا العالم الرّبانيّ أنّه رغم قيامه الكامل بوظائف العبوديية يعيش حالة الفرغ، لأنّ نور العلم يهديه إلى أنّه كلما أدّى وظائفه، يشعر بأنّه قاصر أو مقصّر، وأنّه لا يستطيع أن يخرج من مسؤوليّة شكر نعمه وحقيقة عبادته. فيكون قلبه مملوءًا من الخوف والخشية. وقد قال الحقّ جلّ جلاله فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. إنّ نور العلم يبعث على الخشية والحزن، وصاحبه رغم إقباله على إصلاح نفسه لا يقتر له قرار من جرّاء خوفه من يوم القيامة، ويدفعه نحو الطلب من الله في أن يصلحه، ويحذره من الانشغال بغير الحقّ، ويبعده عن أهل زمانه، ويجعل حاجسه الخوف من أنّ أهل الدنيا قد يمنعونه من السّير إلى الله، والسّفر إلى عالم الآخرة، ويترّتون الدّنيا ولذائدها في عينه. والحقّ سبحانه يؤيّد مثل هذا الإنسان، ويقوي وجوده وينعم عليه بالأمان يوم القيامة. فَيَا لَيْتَنَّا كُنَّا مَعَهُمْ فَتَنَوْرَ فَوْزًا عَظِيمًا"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٤٢٦-٤٢٧.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٤٢٧.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٤١٢-٤١٣.

## ٦- الخدمة للناس

وروي في الكافي الشريف أيضاً: "قال عيسى ابن مريم عليها السلام: يا معشر الحواريين لي إليكم حاجة اقضوها لي. قالوا: قضيت حاجتك يا روح الله، فقام فغسل أقدامهم. فقالوا: كنا نحن أحقّ بهذا يا روح الله. فقال: إنّ أحقّ الناس بالخدمة العالم. إنّما تواضعتُ هكذا لكم لكي تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم!، ثمّ قال عيسى عليه السلام: بالتواضع تعمّر الحكمة لا بالتكبر، وكذلك في السهل ينبث الزرع لا في الجبل". إنّ ذكر أحوال العظماء والأولياء والأنبياء، في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ليس بهدف التّسجيل التاريخي، بل لتكميل بني الإنسان من خلال الاعتبار بسيرة عظماء العالم، والاتّصاف بصفاتهم الكريمة وأخلاقهم الفاضلة. وهذا الحديث الشريف ينبغي للعلماء والأجلاء بالدّرجة الأولى أن يضعوه نصب أعينهم ويتّخذوه وصية أخلاقية دينية مستفادة من سيرة العلماء بالله وزعماء الدّين، فيعلّموا المتعلّمين منهم العمل بهذه السيرة النبوية، ويتخلّقوا هم أنفسهم بهذه الأخلاق الإلهية العظيمة، ويتفكّروا في معنى اعتبار عيسى عليه السلام غسل أقدام الحواريين حاجةً له يطلبها، وهذا ما يعبر عن غاية التذلل (للمؤمنين) ومنتهى التواضع"<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣١٤-٣١٥.

## المفاهيم الرئيسة

١- انقسم الناس فيما يتعلّق بأشرف معلوم إلى طوائف وفتات، وذلك بحسب رؤية الإنسان الكونيّة وكيفيّة ترتيبه لنظام الوجود.

٢- كل ما يرتبط بذات الله يكون العلم به شريفًا بشرط أن يكون دليلاً عليه وطريقاً إلى العلم به، وهو من أعظم الفضائل.

٣- للإنسان إجمالاً نشآت ومقامات وعوالم ثلاث: نشأة الآخرة ومقام الروحانيّة والعقل، نشأة البرزخ، ونشأة الدنّيا. ولكلٍّ منها كمال خاصّ وتربية خاصّة وعمل يتناسب مع نشأته ومقامه، وجميع العلوم النّافعة تنقسم إلى هذه العلوم الثلاثة: علم راجع إلى الكمالات العقليّة، وعلم راجع إلى الأعمال القلبيّة، وعلم راجع إلى الأعمال القالبيّة الخارجيّة. وتنعكس آثار كلّ مرتبة على المرتبة الأخرى.

٤- إنّ العلم الذي يرتبط بالعالم الرّوحانيّ والعقل المجرّد هو العلم بمبدأ الوجود وحقيقته ومراتبه وبسطه وقبضه وظهوره ورجوعه.

٥- العلوم التي ترتبط بتربية القلب وترويضه والأعمال القلبيّة هي العلم بالمنجيات والمهلكات الخلقية.

٦- العلوم التي تُنّاط بها تربية الظّاهر وترويضه هي علم الفقه ومبادئه، وعلم آداب المعاشرة وتدبير المنزل، وسياسة المديّن.

٧- ينقسم طلاب العلم بصورة كليّة أوليّة إلى طائفتين بما يتعلّق بمهدفهم من وراء طلب العلم، فإمّا أن يكون إلهياً أو لأمر نفسيّة.

٨- بمعرفة الهدف من العلم يحقّق الطالب الشّروط الأوّل في إخلاص النية الذي يهيئ القلب للتوجّه إلى ملكوت العلم والمعارف.

٩- العلم مقدّمة للإيمان وللعمل ولرفع الحجب، "العلوم بذور المشاهدات".

١٠- أهمّ علامات العلم الحقيقيّ: التّواضع، البعد عن الشّهرة والتّعالي، تلاشي الأنانيّة، الحكمة، خدمة النّاس، الحزن والهّم نتيجة الشعور بالتقصير.

١١- إذا أوجدت العلوم في الانسان العُجب بالنفس وعبوديّتها وحبّها، فقد صار الانسان طعمة لإبليس وابتعد عن طريق السّعادة.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

"اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَارْزُقْنِي صِحَّةً فِي عِبَادَةٍ، وَفَرَاغاً فِي زَهَادَةٍ، وَعِلْماً فِي اسْتِعْمَالٍ، وَوَرَعاً فِي إِجْمَالٍ"<sup>١</sup>.

### الروايات الشريفة:

١ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: يَا طَالِبَ الْعِلْمِ إِنَّ لِلْعَالَمِ ثَلَاثَ عِلْمَاتٍ: الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالصَّمْتَ، وَلِلْمُتَكَلِّفِ ثَلَاثَ عِلْمَاتٍ: يُنَازِعُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ وَيُظْلِمُ مَنْ دُونَهُ بِالْعَلْبَةِ وَيُظَاهِرُ الظَّلْمَةَ"<sup>٢</sup>.

٢ - عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَا يَضِلُّ أَوْلِيَاؤُكَ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ بَلْ أَيْنَ هُمْ وَكَمْ أَوْلِيَاؤُكَ الْأَقْلُونَ عَدَدًا وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ جَلًّا ذِكْرُهُ قَدْرًا الْمُتَّبِعُونَ لِقَادَةِ الدِّينِ الْأَيِّمَةِ الْهَادِينَ الَّذِينَ يَتَأَدَّبُونَ بِأَدَابِهِمْ وَيَنْهَجُونَ نَهَجَهُمْ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَهْجُمُ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ فَتَسْتَجِيبُ أَرْوَاحُهُمْ لِقَادَةِ الْعِلْمِ وَيَسْتَلِيئُونَ مِنْ حَدِيثِهِمْ مَا اسْتَوْعَرَ عَلَى غَيْرِهِمْ وَيَأْتَسُونَ بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْمُكَدِّبُونَ وَأَبَاهُ الْمُسْرِفُونَ أَوْلِيَاؤُكَ أَتْبَاعُ الْعُلَمَاءِ صَحْبُوا أَهْلَ الدُّنْيَا بِطَاعَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَوْلِيَاؤُهُ وَدَانَاؤُهُ بِالتَّقِيَّةِ عَنْ دِينِهِمْ وَالْخَوْفِ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَأَرْوَاحُهُمْ مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى فَعُلَمَاؤُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ خُرْسٌ صُمْتُ فِي دَوْلَةِ الْبَاطِلِ مُنْتَظَرُونَ لِدَوْلَةِ الْحَقِّ وَ سِيحِقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَمْحَقُ الْبَاطِلَ"<sup>٣</sup>.

٣ - قَالَ لِقِمَانِ لَابِنِهِ: "لِلْعَالَمِ ثَلَاثُ عِلْمَاتٍ الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَبِمَا يُحِبُّ وَ مَا يَكْرَهُ"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ١، ص ٣٧.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٣٥.

<sup>٤</sup> بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤١٥.

٤- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "يَا كُمَيْلُ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا أَحْفَظُ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَّجٌ رَعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ فَيَهْتَدُوا وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى زَكْنٍ وَثِيقٍ فَيَنْجُوا، يَا كُمَيْلُ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ التَّفَقُّهُ وَالْعِلْمُ يَزُكُّ عَلَى الْإِنْفَاقِ، يَا كُمَيْلُ مَحَبَّةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ (بِهِ) الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ وَجَمِيلَ الْأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ وَصَنِيعَ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ يَا كُمَيْلُ هَلْكَ خُرَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ بِأَقْوَمِ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ"<sup>١</sup>.

٥- عن علي بن الحسين عليه السلام: "كَانَ إِذَا جَاءَهُ طَالِبُ عِلْمٍ قَالَ مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ إِذَا خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ لَمْ يَضَعْ رِجْلَهُ عَلَى رَطْبٍ وَلَا يَأْبِسُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا سَبَّحَتْ لَهُ إِلَى الْأَرْضِينَ السَّابِعَةَ"<sup>٢</sup>.

٦- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "شَرُّ الْعِلْمِ عِلْمٌ لَا يَعْمَلُ بِهِ"<sup>٣</sup>.

٧- عنه عليه السلام: "الزُّمُّ الْعِلْمُ بِكَ (لَكَ) مَا ذَلِكَ عَلَى صِلَاحِ دِينِكَ وَ أَبَانَ لَكَ عَنْ فَسَادِهِ"<sup>٤</sup>.

٨- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "الْعِلْمُ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ رِشَادُكَ وَ شَرُّهُ مَا أَفْسَدَتْ بِهِ مَعَادَكَ"<sup>٥</sup>.

٩- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "قَوْلٌ لَا أَعْلَمُ نِصْفَ الْعِلْمِ"<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٤٤.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ج ١، ص ١٦٨.

<sup>٣</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٤٥.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٤٦.

<sup>٥</sup> (ن.م).

<sup>٦</sup> (ن.م)، ص ٤٨.

## الدرس السابع: العلم (٣) - شرائط العلم وموانع تحقّقه

### أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرّف إلى الشّروط اللازمة للعلم والتعلّم والتّعليم.
- ٢- يبيّن خطورة طلب العلم من دون تهذيب النّفس.
- ٣- يشرح أهم موانع تحصيل العلم.



## تمهيد

شبه العلم النافع المفيد بالمطر الطاهر العذب. بيد أن النفوس والقلوب تتفاوت في استعدادها وتقبلها لهذا المطر كما تتفاوت الأراضي الزراعية. بل إن بعضها يتحول إلى صخرة صماء لا يستقر عليها حبة ماء قط. وبعض القلوب تتلوث إلى درجة تصبح كالقمامة بحيث إذا هطل عليها المطر اشمأزت قلوب الناس من نتانة ريحها.

وإن ما يلوث القلوب ليس سوى التعلقات الدنيوية التي تظهر بصورة رذائل الأخلاق كالكبر والعجب وحب الظهور. وما لم يعمل طالب العلم على تهذيب نفسه من أرجاس الأخلاق ومذام الصفات، فإنه يوشك أن يتبدل إلى موجود شيطاني إبليسي، كما كان حال إبليس في علمه الكثير الذي لم يورثه سوى الخسران المبين والطرده والرجم من ساحة عز الربوبية إلى أسفل سافلين باستكباره وطلبه للعلو والمنزلة.

## شروط العلم

لكي ينال الطالب من العلم نوره، ولكي يقدم العالم في التعليم نوره، يجب عليهما رعاية مجموعة من الشروط والآداب المعنوية. وقد ذكر الإمام قدس سره شرطاً مهمّاً من هذه الشروط، نذكر منها:

### ١- تهذيب النفس أولاً

"يجب على طلاب العلوم الدينية، والسالكين لهذا السبيل المحفوف بالمخاطر، أن يكون أول ما يضعونه بعين الاعتبار، إصلاح أنفسهم أثناء الدراسة ويفضّلونه مهما أمكن على كلّ شيء، لأنّه أوجب كلّ الواجبات العقلية والفرائض الشرعية وأصعبها"<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤١١.

## ١ - مجاهدة النفس بالتقوى

"نفس العلم حجاب غليظ، فإذا لم يُخرق هذا الحجاب بتوفيقٍ من الله سبحانه في ظلّ التقوى الكاملة والتّرويض المجهّد للنفس، والانقطاع التام لله والمناجاة الصادقة معه، لم تُشرق في قلب السالك أنوار الجمال والجلال، ولم يشهد قلب المهاجر إلى الله، المشاهدات الغيبية، ولم يتمتّع بالحضور العينيّ لتجليات الأسماء والصفات، فضلاً عن الخطوة بالتجليات الذاتية. وهذا المعنى يجب أن لا يُحجم الإنسان عن البحث والطلب الذي هو تذكّر للحقّ سبحانه. إذ أنّه من التادر جدّاً غرس الشجرة الطيبة للمعرفة في القلب أو إنعاشها ونضارتها من دون بذر علوم حقّة مع كافّة شرائطها المعهودة، فالإنسان لا بدّ وأن يواظب في بدء الأمر على الرياضة العلمية مع التّهوض بجميع شرائطها ومتّمتاتها، ولا يسحب يده منها حيث قالوا: "العلوم بذر المشاهدات". وإن لم تنتج العلوم في هذا العالم لأجل العوائق، نتيجة مجدية وتامة، لأثمرت في عوالم أخرى ثمرات طيبة، ولكنّ المهمّ هو التّهوض بشرائطها ومقدّماتها".<sup>١</sup>

## ٢ - التشدّد في مراقبة النفس

"يجب على علماء الدّين وطلبة علومه أن يتشدّدوا للغاية في مراقبة أنفسهم وتصرفاتهم، لكي يضمّنوا سعادة الناس إضافة إلى سعادتهم هم، فالفساد والقيح منهم أشدّ إفساداً وقيحاً بكثيرٍ ممّا يصدر من غيرهم، والحجّة عليهم أتمّ".<sup>٢</sup>

## ٣ - الإخلاص

"إذا انحرف العالم - لا سمح الله - عن طريق الإخلاص، وسلك طريق الباطل، اعتُبر من علماء السوء الذين هم أسوأ خلق الله وقد وردت فيهم أحاديث شديدة، وتعبيرات قاسية".<sup>٣</sup>

"أيتها العزيز إنّ العلاج كلّ العلاج فيما إذا أراد الإنسان أن يكون علمه إلهياً أن يبادر إلى مجاهدة النفس عندما يدرس أيّ علم شاء، ويسعى بواسطة الرياضة الرّوحانية في

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٧١.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣١٦.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤١١.

سبيل تخلص نبيته. فإن المنقذ الأساسي ومصدر الفيض تخلص النبيّة، والنبيّة الخالصة "مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا جَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ" فهذه فوائد وآثار الإخلاص في أربعين يوم<sup>١</sup>.

#### ٤- العمل بما يعلم

"إنّ من يعرف نفسه على أنّه شمع محفل العرفان، والهادي إلى السعادة، ومعرف طرق الآخرة، ثم لا يعمل. لا سمح الله. بما يقول، ويختلف باطنه عن ظاهره، يكون في زمرة أهل الرياء والتفاق، ويُحسب من علماء السوء، ويكون عالماً بلا عمل. وهذا عقابه أكبر وعذابه أشدّ. وقد أشار الله سبحانه إلى أمثال هذا في القرآن بقوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾<sup>٢</sup>.

"هؤلاء من الناس الذين ورد فيهم الحديث قائلًا "يَطْلَعُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُونَ مَا أَدْخَلَكُمْ النَّارَ وَإِنَّمَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ بِفَضْلِ تَعْلِيمِكُمْ وَتَأْدِيبِكُمْ فَيَقُولُونَ إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُكُمْ بِالْخَيْرِ وَلَا نَفْعَلُهُ"<sup>٣</sup>.

#### ٥- عدم التوقّف عند أي حدّ

"فموسى الكليم مع ما له من المقام العظيم في النبوة لم يقتنع بذلك المقام وما توقّف عند مقام علمه الشامخ، وبمجرد أن لاقى شخصًا كاملاً كالخضر قال له بكلّ تواضع وخضوع: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾<sup>٤</sup>، وصار ملازمًا لخدمته حتّى أخذ منه العلوم التي احتاج إليها"<sup>٥</sup>.

و"ابراهيم عليه السلام لم يقتنع بمقام شامخ الايمان والعلم الخاصّ للأنبياء فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾<sup>١٠</sup>. فأراد أن يرتقي من الإيمان القلبيّ إلى مقام الاطمئنان الشهوديّ. وأعظم من ذلك إنّ الله تبارك وتعالى يأمر نبيّه الخاتم. وهو أعرف خلق الله مطلقًا. في

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٤٢٧.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٧٩.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٤١٠.

<sup>٤</sup> سورة الكهف، الآية ٦٦.

<sup>٥</sup> معراج السالكين، ص ٢٠٦.

الكرامة الشريفة ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾<sup>١</sup>. فهذه الأوامر في الكتاب الإلهي ونقل قصص الأنبياء لأجل أن نتنبه ونستيقظ من نوم الغفلة<sup>٢</sup>.

## ٦- التركيز على العمق الفكري والمعنوي

"يجب على متعلّمي علوم أولئك العظماء والمفسرين من إفادات القرآن الشريف وأحاديث أهل العصمة أن يشكروا هذه النعمة ويجازوا على هذه العطية، بأن يتعاملوا بالمثل، وذلك بأن يرجعوا الصورة (الظاهرية) إلى الباطن، والقشر إلى اللب، والدنيا إلى الآخرة، فإن الوقوف عند الحدود اقتحام للهلكات، والقناعة بالصورة تخلف عن قافلة السالكين، وهذه الحقيقة واللطفية الإلهية. أي العلم بالتأويل. تحصل بالمجاهدات العلمية والرياضات العقلية، مقرونة بالرياضات العلمية، وتطهير النفوس، وتنزيه القلوب، وتقديس الأرواح، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ و"المطهرون" على نحو الإطلاق هم الأنبياء والأولياء المعصومون، ولذلك كان علم التأويل بجميع المراتب مختصاً بهم. ولكن لعلماء الأمة أيضاً حظٌ وافٍ من ذلك العلم يتناسب مع مرتبتهم في العلم والطهارة، ولهذا نُقل عن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه كان يقول بأنه من الراسخين في العلم"<sup>٣</sup>.

## ٧- إيقاظ الفطرة وتفعيلها

"ما دام الإنسان على فطرته الأصلية السليمة النازلة من عالم التور والطهارة والتناسبة بالتالي مع العلوم الحقيقية والمعارف الإلهية والحقائق الروحانية والعوالم الغيبية فإنه يقبل جيداً تلك العلوم والمعارف الحقّة"<sup>٤</sup>.

## ٨- إخراج الناس من الاحتجاب

"وبالجملّة، فصاحب كلّ مقصد يرى مقصده كاملاً وصاحبه كاملاً ويعشقه، ويتنقّر من غيره. فالأنبياء عليهم السلام، والعلماء بالله وأصحاب المعرفة قد جاؤوا ليخرجوا الناس

<sup>١</sup> سورة طه، الآية ١١٤.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٢٠٦.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٦٨-٦٩.

<sup>٤</sup> (م.ن)، ص ١١٦.

من الاحتجاب، ويخلصوا نور فطرتهم من ظلمات الجهل، ويعرفوهم على الكامل والكمال. فإنهم إذا شخصوا الكمال والكمال، لن يحتاجوا إلى دعوة للتوجه إليه وترك ما سواه، بل نور الفطرة هو أعظم هاد الهي وهو موجود في جميع سلالة البشر".<sup>١</sup>

#### ٩- المداراة ورعاية القابليات

"الناس متميزون في تحمّل العلوم والمعارف وكذلك في تحمّل الطّاعات القلبيّة والبدنيّة، فلا يمكن الإفصاح لكلّ شخص عن كلّ علم خاصّة في باب المعارف، بل إنّ سرائر التّوحيد وحقائق المعارف هي من الأسرار التي يجب كتمانها وحفظها عند أهلها. ومعظم الضّلالات وأنواع الإضلال وأشكال التّكفير ناتجة من عدم التزام هذه الوصية، بل إنّ اجتناب الناس، حتى علماء الظاهر منهم للعلوم الإلهيّة وابتعادهم عن المعارف والحقائق ناتج من "تحتك" بعض أرباب الاصطلاحات الذوقية أو أصحاب العلوم العرفانيّة الرّسميّة الذين أفصحوا عن القرآن والحديث الشّريف وإصلاحاتها، رغم أنّ هذه الحقائق المعرفيّة موجودة - في أكمل صورها من البيان - في كتاب الله وأحاديث أئمّة الهدى عليهم السلام، ولكن هؤلاء أظهورها بصورة سيّئة جعلت أهل الظّاهر ينفرون منها، بعد أن عمزوا هم أيضاً عن فصل اللبّ عن القشر، والحقيقة عن الصّورة الظّاهريّة، والمعنى عن اللفظ، فنفوا أصل تلك الحقائق المعرفيّة الشّريفة".<sup>٢</sup>

#### ١٠- النهوض بمهمّة التّربية

"نرى أنّ أهل العلم ينبغي أن يكونوا هم المرّتين لأبناء البشر، باعتبارهم فروع شجرة النبوّة والولاية، وعارفين بوخامة الأمور وعواقب فساد الأخلاق".<sup>٣</sup>

#### ١١- استخدام الأساليب المناسبة

"إنّ من يريد أن يربّي ويعلم وينذر ويبشّر فلا بدّ له أن يضمّن مقصده بالعبارات المختلفة والبيانات المتنوّعة، فتارةً في ضمن قصّة وحكاية وأخرى في ضمن تاريخ ونقل، وحيناً

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ١٣٠.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٣.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ١٧٩.

بصراحة اللهجة، وحينًا بالكناية والأمثال والرموز حتى يتمكن كل من النفوس المختلفة والقلوب المتشعبة من الاستفادة منها".<sup>١</sup>

## ١٢ - الصمت

"هذا المنهاج عام يشمل الصمت والسكوت والكلام والإرشاد، فعلى الإنسان أن يشتغل في بداية أمره . حيث يكون متعلمًا . بالبحث والدّرس والتّعلّم، فيجتنب فقط الكلمات والأقوال اللغووية الباطلة. فإذا كُمّل فعليه أن يشتغل بالتّفكّر والتّدبّر، فيمنع لسانه عن التّطرق بغير ذكر الله وما يرتبط به لكي تفيض على قلبه الإفاضات الملكوتية".<sup>٢</sup>

## ١٣ - المودة للنّاس

"ولا يمكن للعالم والمرشد أن ينهض بمهمّة إرشاد الناس وتعليمهم وبذر بذور المعارف والحكم في قلوبهم ما لم يكن قلبه هو منورًا صافيًا تملؤه المودة والتّواضع".<sup>٣</sup>

## موانع العلم

يوجد الكثير من الموانع التي تقف أمام طالب العلم فتحرفه أو تمنعه من سلوك طريق العلم. يتصوّر بعض النّاس أنّهم على خير لأنّه لم يصبهم ما أصاب بعض أهل العلم من الغرور والعجب والتّفاخر وحبّ الشّهرة والجاه، وهم لا يعلمون بأنّهم في الفتنة قد سقطوا. لأنّ احتمال نجاحهم بعد ذلك من جميع هذه المهلكات يكاد يكون صفرًا. وقد جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: "...العالم تأتيه الفتنه فيخرج منها بعلمه...".<sup>٤</sup> لذا يجب على الطالب العالم أن يتعرّف على العواقب الوخيمة والآثار المدمرة للانحراف بسبب عدم تجاوز الموانع وخرق الحجب. وقد ذكر الإمام مجموعة كبيرة من الموانع في هذا المجال، ونحن نبيّن بعضها على سبيل الاختصار:

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ١٩٧.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٤٧.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣١٦.

<sup>٤</sup> بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٠٨.

## ١ - سوء الخلق

"إذا صار العالمُ جبارًا متكبرًا بطلت خاصية علمه وتأثيره، وهذه أعظم خيانة للعلم والمعارف، لأنها تُبعد الناس عن الحق والحقيقة. فإذا لم يتعامل العالم مع الناس بمقتضى العلم أي الأخلاق الحسنة، أدى ذلك إلى إسقاط الدين والعلم من أعين الناس، وإضعاف عقائدهم، وتنفير قلوبهم من علماء الحق، وهذه أشدّ ضربة تُوجّه للدين والحقيقة بأيدي العلماء غير المسؤولين، وكلما تجددت ضربة تماثلها في هذا التأثير. إنَّ تصرفًا أو عملاً واحدًا يخالف الأخلاق أو الأعمال السليمة يصدر من عالم أو أحد طلبة علوم الدين يُؤثر في إفساد أخلاق الناس وأعمالهم بمقدارٍ قلما نجد مثيلاً له في آثار الأعمال الإفسادية الأخر (الصادرة من غيرهم)".<sup>١</sup>

## ٢ - المباهاة والتفاخر

"العلم التوحيدى الذي يكون تعلّمه من أجل التشدّد به في مجالس العوالم أو العلماء يكون فاقداً للتوراثية، بل هو طعام أعدته يد الشيطان لتغذية النفس الأتامة بالسوء، لذلك فهو يخرج صاحبه من التوحيد ويقربه إلى الشرك".<sup>٢</sup>

## ٣ - التكبر

"لقد طرد إبليس عن مقام القرب بسبب تكبره على آدم، فكيف تريد أن تجدد لنفسك سبيلاً بهذا التكبر على بني آدم إلى المعارف الحقّة؟!".<sup>٣</sup>

"أما قوله عليه السلام: "بالتواضع تعمُر الحكمة"، فالمقصود فيه هو: إمّا أنّ بذور الحكمة لا تنمو في القلب الفاقد للتواضع مثلما أنّ النبتة لا تنمو في الأرض الصلدة، وإمّا أن يكون المقصود هو أنّ العلماء لا يستطيعون بذر بذور الحكمة وتنميتها في قلوب الناس ما لم يكن العلماء أنفسهم متواضعين، فينبغي تليين القلوب القاسية بالتواضع، ثمّ بذر بذور الحكمة

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣١٦.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٠٨.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٧.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ١، ص ٣٧.

فيها وتوقع الثمار منها. وكلا هذين الاحتمالين صحيحان، فالأول يرتبط بإصلاح النفس، والآخر بإصلاح الآخرين<sup>١</sup>.

#### ٤ - التوقف عند المشاهدات

"رغم أنّ العلوم بذور المشاهدات إلا أنّ الوقوف عندها - عند المشاهدات وعدم تجاوزها - هو الحجاب عينه، وما لم تنفس تلك البذور في أرض القلب فلن تظهر شجرة حصول المشاهدات، وما دامت مكدّسة في مخزن القلب ينظر إليها كقيمة مستقلة بحدّ ذاتها فإنّها لن تعطي ثمارها"<sup>٢</sup>.

#### ٥ - طلب الدنيا

"أقسم بروح الحبيب، أنّ العلوم الإلهية والدينية إذا لم تهدينا إلى طريق الصّلاح والاستقامة، ولم تحدّب بواطننا وظواهرنا، فإنّ أحقر الحرف الدنيوية أفضل منها، لأنّ نتائج الحرف الدنيوية عاجلة ومفاسدها أقل، في حين أنّ العلوم الدينية إذا اتخذت وسيلة لإعمار الدنيا كانت بيعاً للدّين، ووزر بيع الدّين ووباله أشدّ وأفظع من كلّ شيء"<sup>٣</sup>.

#### ٦ - أن يُطلب العلم لذاته

"الحديث الشريف<sup>٤</sup> قد عبّر عن علم العقائد والمعارف بالآية وهي بمعنى العلامة، والسّر في التعبير هذا هو أنّ العلوم العقلية، والحقائق الاعتقادية إذا تمّ تحصيلها لأجل نفس هذه العلوم والحقائق ولأجل تجميع المفاهيم والمصطلحات وزخرفة العبارات وتزيين الكلمات بعضها مع بعض ومن تمّ نقلها إلى العقول الضعيفة، للحصول على المقامات الدنيوية، لا تكون مثل هذه العلوم من الآيات المحكّمة، وإنّما هي حجب غليظة وأوهام واهية، لأنّ الإنسان إذا لم يبتغ من وراء طلب العلم الوصول إلى الحقّ، والتحقّق بأسماء الله وصفاته، والتخلّق بأخلاق الله، سيتحوّل كلّ واحدٍ من إدراكاته إلى دركات وحجب مظلمة، تسودّ قلبه

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣١٥.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٦٧.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٠٩-٣١٠.

<sup>٤</sup> عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنّة قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل" الكافي، ج ١، ص ٣٢.

وتعني بصيرته، ويصبح من مصاديق الآية المباركة التي تقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ \* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا \* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَمَا نَسَى الْيَوْمَ تَنَسَى ﴿٢١١﴾ .

#### ٧- طلب الكثرة العلمية

"فعلى السالك ألاّ يغرّر بمكايد الشيطان في هذا المقام، فيحتجب بكثرة العلم وغزارته وقوة البرهان عن الحقّ والحقيقة ويتأخر عن السير في الطلب. بل يشمر ذيل همتته، ولا يغفل عن الحدّ في طلب المطلوب الحقيقيّ حتى ينال المقام الثاني" <sup>٣</sup>.

"فجمع المفاهيم والإكثار من المصطلحات لا تجدي نفعاً، وإنما تُشغل القلب بغير الحقّ سبحانه، وتثنيه عن الدّات المقدّس، فيغفله" <sup>٤</sup>.

"ولا بدّ أن يُعلم أنّ مجرد العلم البرهانيّ والسير التفكّريّ في باب التوحيد الفعليّ لا ينتج النتيجة المطلوبة، بل ربّما تكون كثرة الاشتغال بالعلوم البرهانيّة سبباً لظلمة القلب وكدورته، وتمنع الإنسان من المقصد الأعلى. وفي هذا المقام قيل "العلم هو الحجاب الأكبر". وفي عقيدة الكاتب إنّ جميع العلوم عمليّة حتى علم التوحيد" <sup>٥</sup>.

#### ٨- طلب التفوّق على الغير

"إنّ الإنسان يرغب أن يتفرد في استيعاب معضلة علميّة وحلّها لدى محضر العلماء والرؤساء والفضلاء ويتهج أكثر كلّما كان توضيحه للمسألة العلميّة أحسن، ولفت انتباه الحاضرين أكثر. لأنّه يحبّ أن ينتصر على كلّ من يناظره. إنّه يشعر بنوعٍ من الدّلال العلميّ والتفوّق، وإذا اقترن ذلك بتصديق من إحدى الشّخصيات لكان نور على نور. إنّ هذا المسكين غافلٌ عن أنّه أحرز هنا موقعاً لدى الفضلاء والعلماء ولكنّه سقط من عين ربّهم ومالك ملوك العالم، وأنّ عمله قد ترك بأمر الحقّ المتعال في سجّين... فإذا رجعتم

<sup>١</sup> سورة طه، الآيات ١٢٤ - ١٢٦.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٢٥.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٢٦.

<sup>٤</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٢٧.

<sup>٥</sup> معراج السالكين، ص ١٠٤.

إلى باطنكم ورأيتم أنكم ما زلتم تميلون للغلبة والاشتهار بين العلماء بالعلم والفضل وأنّ بحثكم العلميّ كان لأجل الحصول على المكانة في قلوب أولئك، إذاً، فاعلموا أنّكم مرأؤون في هذا البحث العلميّ الذي هو من أفضل الطّاعات والعبادات وأنّ عملكم هذا . بحسب الرّواية الشّريفة في كتاب (الكافي) هو في "سجّين"، وأنّكم مشركون بالله<sup>١</sup>.

#### ٩- العصبية

"قباحة هذه السّجّية (العصبية) لدى أهل العلم هو جانب العلم نفسه، إذا إنّ هذه العصبية خيانة للعلم وتجاهل لحقّه إذ أنّ من يتحمّل عبء هذه الأمانة ويلبس لبوسها، فعليه أن يرضى حرمتها واحترامها، وأن يعيدها إلى صاحبها صحيحة سليمة. فإذا ما تعصّب، تعصّب الجاهلية يكون قد خان الأمانة وارتكب الظلم والعدوان، وهذه بذاتها خطيئة كبرى. والتّاحية الثانية من جزاء هذه السّجّية القبيحة إهانة أهل العلم فيما إذا كان التّعصّب في المباحث العلميّة، مع العلم بأنّ أهل العلم من الودائع الإلهية الواجب احترامهم. بينما يكون هتكهم هتكاً لحرمة الله ومن الموبقات الكبيرة. وقد تؤدّي العصبية التي لا تكون في محلّها، إلى هتك حرمة أهل العلم. أعوذ بالله من هذه الخطيئة الكبيرة!"<sup>٢</sup>.

#### ١٠- إنكار المقامات المعنوية

"العمر الحبيب ليس لي غاية من هذا الكلام إلّا أن ينتبه الأخوة الإماميون وخصوصاً أهل العلم فلا ينكروا على الأقل مقامات أهل الله لأنّ هذا الانكار منشأ جميع الشّقاوات، وليس مقصودنا أن نبين من هم أهل الله بل مقصودنا ألاّ ننكر المقامات، وأما من هو صاحب هذه المقامات؟ فالله يعلم، وهذا أمر لا يطّلع عليه أحد"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الأربعة حديثاً، ص ٧٠-٧١.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٨٠.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ١٧٨.

## المفاهيم الرئيسة

١- لكي ينال الطالب من العلم نوره، ولكي يقدم العالم في التعليم نوره، يجب عليهما رعاية مجموعة من الشروط والآداب المعنوية، وهي: مراقبة النفس وإصلاحها، المداراة ورعاية القابليات وتفعيلها، النهوض بمهمة التربية، العمل بما يعلم، الإخلاص، استخدام الأساليب المناسبة، إخراج الناس من الاحتجاب، التركيز على العمق الفكري والمعنوي، مجالسة العلماء مع حفظ آداب العشرة، الصمت، التوسع وعدم الانحصار بأحد العلوم، عدم التوقف عند أي حد في طلب العلم، مودة الناس.

٢- نفس العلم حجاب غليظ، فإذا لم يُحرق هذا الحجاب بتوفيق من الله سبحانه في ظل التقوى الكاملة وترويض النفس والانقطاع التام لله، لم تُشرق في قلب السالك أنوار الجمال والجلال، ولم يشهد قلب المهاجر إلى الله المشاهدات الغيبية.

٣- يتصور بعض الناس أنهم على خير لأنه لم يصبهم ما أصاب بعض أهل العلم من الغرور والعجب وحب الشهرة والجاه، وهم لا يعلمون بأنهم في الفتنة قد سقطوا.

٤- يجب على الطالب العالم أن يتعرف على العواقب الوخيمة والآثار المدمرة للانحراف بسبب عدم تجاوز الموانع وخرق الحجب.

٥- من الموانع التي تقف أمام طالب العلم وتمنعه من سلوك طريق العلم هي: سوء الخلق، المباهاة والتفاخر والتكبر، التوقف عن الازدياد العلمي، طلب الدنيا، طلب العلم لذاته فيصبح حجب غليظة وأوهام واهية، طلب الكثرة العلمية، طلب التفوق على الغير، العصبية، إنكار المقامات المعنوية.

٦- إذا صار العالم جباراً متكبراً بطلت خاصية علمه وتأثيره، وهذه أعظم خيانة للعلم والمعارف، لأنها تُبعد الناس عن الحق والحقيقة.

٧- إذا لم يبتغ الإنسان من وراء طلب العلم الوصول إلى الحق، والتحقق بأسماء الله وصفاته، والتخلق بأخلاق الله، سيتحول كل واحد من إدراكاته إلى دركات وحجب مظلمة، تسود قلبه وتعمي بصيرته.

٨- العصبية خيانة للعلم وتجاهل لحقه، كما أنها إهانة لأهل العلم وهتك لحرماتهم.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

اللَّهُمَّ يَا مَنْ خَصَّ مُحَمَّدًا وَآلَهُ بِالْكَرَامَةِ وَحَبَاهُمْ بِالرِّسَالَةِ وَخَصَّصَهُمْ بِالْوَسِيلَةِ وَجَعَلَهُمْ وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَخَتَمَ بِهِمُ الْأَوْصِيَاءَ وَالْأَيْمَةَ وَعَلَّمَهُمْ عِلْمَ مَا كَانَ وَعَلَّمَ مَا بَقِيَ وَجَعَلَ أَفْعَدَهُ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَافْعَلْ بِنَا مَا أَنْتَ أَهْلُهُ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>١</sup>.

الروايات الشريفة:

١- عن الإمام الصادق عليه السلام: "نَصَبَ الْحَقُّ لِبَطَاعَةِ اللَّهِ وَلَا نَجَاةَ إِلَّا بِالطَّاعَةِ وَالطَّاعَةُ بِالْعِلْمِ وَالْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَالتَّعَلُّمُ بِالْعَقْلِ يُعْتَقَدُ وَلَا عِلْمَ إِلَّا مِنْ عَالِمٍ رَبَّانِيٍّ وَمَعْرِفَةُ الْعِلْمِ بِالْعَقْلِ"<sup>٢</sup>.

٢- عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: "إِذَا سَمِعْتُمْ الْعِلْمَ فَاسْتَعْمِلُوهُ وَلْتَسِعْ قُلُوبُكُمْ، فَإِنَّ الْعِلْمَ إِذَا كَثُرَ فِي قَلْبِ رَجُلٍ لَا يَحْتَمِلُهُ قَدَرُ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ فَإِذَا خَاصَمَكُمْ الشَّيْطَانُ فَأَقْبِلُوا عَلَيْهِ بِمَا تَعْرِفُونَ فَإِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا، فَقُلْتُ وَمَا الَّذِي نَعْرِفُهُ؟ قَالَ: خَاصِمُوهُ بِمَا ظَهَرَ لَكُمْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"<sup>٣</sup>.

٣- عَنْ أَبِي الْجَارُودِ قَالَ: "سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا الْعِلْمَ، قَالَ: قُلْتُ: وَمَا أَحْيَاؤُهُ؟ قَالَ: أَنْ يُذَاكِرَ بِهِ أَهْلَ الدِّينِ وَأَهْلَ الْوَرَعِ"<sup>٤</sup>.

٥- عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: "قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا هِشَامُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَشَّرَ أَهْلَ الْعَقْلِ وَالْقَهْمِ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ \* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾...

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في ذكر محمد وآل محمد.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ١، ص ١٧.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٤٥.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٤١.

يَا هِشَامُ إِنَّ الْعَقْلَ مَعَ الْعِلْمِ، فَقَالَ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾<sup>١</sup>.

٦. عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ عَلَيْهِ فُقُلٌ وَ مِفْتَاحُهُ الْمَسْأَلَةُ"<sup>٢</sup>.

٧. عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "الْعِلْمُ مَقْرُونٌ إِلَى الْعَمَلِ فَمَنْ عَمِلَ عَمِلَ وَعَمِلَ عَمِلَ وَالْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ"<sup>٣</sup>.

٨. عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ أَوْ يُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وَجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ الرِّئَاسَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِأَهْلِهَا"<sup>٤</sup>.

٩. عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا جَلَسْتُمْ إِلَى الْمُعَلِّمِ أَوْ جَلَسْتُمْ فِي مَجَالِسِ الْعِلْمِ فَادْنُوا وَليُجَلِسْ بَعْضُكُمْ خَلْفَ بَعْضٍ وَلَا تَجْلِسُوا مُتَفَرِّقِينَ كَمَا يَجْلِسُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ"<sup>٥</sup>.

١٠ - عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ التُّعْمَانِ: "يَا ابْنَ التُّعْمَانِ لَا تَطْلُبِ الْعِلْمَ لِثَلَاثٍ لِثَرَائِي بِهِ وَلَا لِتُبَاهِيَ بِهِ وَلَا لِتُمَارِيَ بِهِ وَلَا تَدْعُهُ لِثَلَاثٍ رَغْبَةً فِي الْجَهْلِ وَرَهَادَةً فِي الْعِلْمِ وَاسْتِحْيَاءً مِنَ النَّاسِ"<sup>٦</sup>.

١١ - عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ حَمَلُوهُ بِحَقِّهِ لِأَحِبِّهِمْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتَهُ وَلَكِنَّهُمْ حَمَلُوهُ لَطَلَبَ الدُّنْيَا فَمَقَّتْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَهَانُوا عَلَيْهِ"<sup>٧</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ١ ص ١٣.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٤٠.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ص ٤٤.

<sup>٤</sup> (م.ن)، ص ٤٧.

<sup>٥</sup> مستدرک الوسائل، ج ٨، ص ٤٠٣.

<sup>٦</sup> (م.ن)، ج ٨، ص ٤٦٧.

<sup>٧</sup> غرر الحكم، ص ٤٨.



## الدرس الثامن: العزم

### أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرّف إلى ماهيّة العزم وأهمّيته وموقعه في السّير والسلوك.
- ٢- يبيّن كيف يمكن أن يصبح الإنسان من أصحاب عزيمة.
- ٣- يحلّل أسباب ضعف العزيمة فينا.



## تمهيد

نحن نعلم أنّ قدر المرء على قدر عزمته، وأنّه لا يُنال شيءٌ من المجد والسُّؤدد إلّا بالعزم، لكنّنا عندما نسير أغوار هذه الصّفة نتفاجأ كم تحمل من أسرار.

كم نتمنّى أن نصبح من أصحاب العزائم، وخصوصًا إذا عرفنا طول المسير وُبعد السّفر وقلة الرّاد ووحشة الطّريق وكثرة الآفات وشدّة الصّعوبات.

فنسمع عن أصحاب المقامات المعنويّة ونقرأ عن أحوال العارفين ونتعرّف على رجالٍ أشدّاء في الله، ونرى العزم فيهم جميعًا كصفة مشتركة. ثمّ نتساءل هل يأتي العزم مع الوراثة والطّباع أم أنّه يحصل بالسّعي والتكسّب؟ وهل هو موهبة إلهيّة محضة أم فضيلة مكتسبة؟ هذا ما ستسعى الصّفحات التالية إلى الإجابة عنه.

## ما هو العزم؟

بالرّغم من كون العزم من الأمور الوجدانيّة لأنّه قلّ من لم يجزّيه في حياته، إلّا أنّ التّفكّر فيه وفي أسراره يفتح علينا أبواب المعارف الإنسانيّة. كيف لا! وهو كما وصفه الإمام الخمينيّ قدس سره: "جوهر الإنسانيّة ومعيار ميّزة الإنسان، ويكون اختلاف درجات الإنسانيّة باختلاف درجات العزم".<sup>1</sup>

كلّ واحدٍ منّا كان له في حياته عزم على أمرٍ ما. وأكثر ما عزمنا عليه يرتبط بدنيانا وحاجاتنا المادّيّة. لكنّ العزم المقصود هنا هو ما يرتبط بأمر عظيمه يراها أهل الدّنيا في المستحيلات، كما يقول الإمام قدس سره في هذا المجال: "العزم... هو أن يوطّن الإنسان نفسه على ترك المعاصي وأداء الواجبات، ويتخذ قراراً بذلك، ويتدارك ما فاتته في أيّام حياته،

<sup>1</sup> الأربعون حديثًا، ص ٣٠.

وبالتالي يسعى على أن يجعل من ظاهره إنساناً عاقلاً وشرعياً، بحيث يحكم الشرع والعقل حسب الظاهر بأن هذا الشخص إنسان. والإنسان الشرعي هو الذي ينظم سلوكه وفق ما يتطلبه الشرع، يكون ظاهره كظاهر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، يقتدي بالنبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، ويتأسى به في جميع حركاته وسكناته، وفي جميع ما يفعل وما يترك. وهذا أمر ممكن، لأن جعل الظاهر مثل هذا القائد أمر مقدور لأي فرد من عباد الله<sup>١</sup>.

فما رآه أهل الدنيا مستحيلاً يعدّه الإمام الخميني ممكناً لأنه الخبير بهذا العالم وما فيه من أسرار.

وللوهلة الأولى إذا عرف الإنسان ظاهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدرك أنّ مطابقة ظاهره لظاهر الرسول في حركاته وسكناته أمر بعيد المنال، وهو غاية في الصعوبة. لكن الإمام يدعونا إلى امتلاك عزم يرتبط بهذا المقام. وبالتأكيد لا يطلب منا أن نمتلك عزمًا يوصلنا إلى باطن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنه فوق قدرة جميع البشر وطاقاتهم، فهو أعظم أولي العزم من المرسلين قاطبةً.

#### أهمية العزم ودوره

يذكر الإمام مجموعة من أبعاد العزم وأدواره، منها:

#### ١- أول شرط للسلوك

"فقو عزمك واحكم إرادتك، فإنّ أول شرط للسلوك هو العزم، وبدونه لا يمكن أن يُسلك أيّ طريق أو يُنال أيّ كمال. والشّيخ الأجلّ الشّاه آبادي (روحي فداه) كان يعبر عنه بلبّ الإنسانيّة. بل يمكن أن يُقال أنّ من إحدى الجهات المهمّة للتقوى والتّجّنب عن المشتهايات النفسانيّة وترك أهوائها والرياضات الشرعية والعبادات والمناسك الإلهيّة تقوية العزم وانقهار القوى الملكيّة تحت ملكوت النفس"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٣٠.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٦٤.

## ٢- قطع جذور حبّ الدّنيا

"إنّ قطع جذور حبّ الدّنيا أمرٌ صعب . خصوصاً في بداية الأمر وابتداء السّلك . ولكن كلّ صعب يتيسّر بالعزم وقوة الإرادة، فقوّة الإرادة والعزم الرّاسخ حاكمان على كل أمر صعب وأقوى منه، وهما ييسران كل طريق طويل شائك"<sup>١</sup>.

## ٣- امتلاك وسيلة السّير إلى الله

"إن المرحلة الأولى من مراحل الإنسانيّة هي "اليقظة" وهي الاستيقاظ من نوم الغفلة، والصّحوة من سكر الطّبيعة، والإدراك بأنّ الإنسان مسافر، وأنّه لا بُدّ للمسافر من زاد وراحلة. وزاد الإنسان خصاله، وراحلته في هذه المرحلة الخطيرة المخيفة، وفي هذه الطّريق الضيّقة، على الصّراط الذي هو أحدّ من السّيف وأدقّ من الشّعرة<sup>٢</sup>، هي همّة الرجال وعزمهم"<sup>٣</sup>.

## ٤- عبور مراتب الكمال

ينقل الإمام الخمينيّ قدس سره عن أحد المشايخ: "إنّ العزم هو جوهر الإنسانيّة، ومعيار ميّزة الإنسان، وأن اختلاف درجات الإنسان باختلاف درجات عزمه"<sup>٤</sup>. ويضيف: "إذا لم يُعمر مقام الغيب للنفس بالمعارف الإلهية، والجذبات الغيبية الذاتية، لم تحصل للإنسان جنّة الذات واللّقاء. وإن لم يهدّب الباطن، ولم يتحلّ الداخل، ولم تقو الإرادة والعزم ولم يكن القلب محلّ تجلّ للأسماء والصفّات، لم تكن جنّة الأسماء والصفّات التي هي الجنّة المتوسّطة للإنسان"<sup>٥</sup>.

## ٥- التحقّق بمقام الكمال الأخرويّ

يقول الإمام قدس سره: "اجتهد لتصبح ذا عزم وإرادة، فإنّك إذا رحلت من هذه الدّنيا دون أن يتحقّق فيك العزم (على ترك المحرمات) فأنت إنسانٌ صوريّ، بلا لبّ، ولن تُحشر في

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٣٥.

<sup>٢</sup> كما جاء في الحديث النبوي صلى الله عليه وآله وسلم: "الصراط أدق من الشعر وأحد من السيف وأظلم من الليل" الكافي، ج ٨، ص ٣١٣. "المقصد الرابع في معنى الصراط" وبنفس هذا المعنى جاء في الرواية المروية عن الإمام الصادق عليه السلام في أمالي الصدوق، ص ١٧٧ وكذلك في بحار الأنوار، ج ٨، ص ٦٥.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ١٢٥.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٣٠.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ٤٤٦.

ذلك العالم (عالم الآخرة) على هيئة إنسان، لأنّ ذلك العالم هو محلّ كشف الباطن وظهور السريرة<sup>١</sup>.

و"اعلم، يا عزيزي، أنّ العزم والإرادة القويّة لذلك العالم ضروريّان وذات فعاليّة. إنّ البلوغ لأحد مراتب الجنّة والذي يُعدّ من أفضلها هو العزم والإرادة. فالإنسان الذي ليست له إرادة نافذة ولا عزم قويّ لا ينال تلك الجنّة ولا ذلك المقام الرّفع<sup>٢</sup>".

#### ٦- انقهار جميع قوى النفس للحقّ

"إنّ من الفضائل والأسرار الشاقّة والصّعبة للعبادات تحقّق هذا الهدف . تسخير مُلك الجسم للملكوت . أكثر حيث يصير الإنسان بذلك ذا عزم، ويتغلّب على الطبيعة والملك . فإذا اكتملت الإرادة وقوي العزم واشتد، أصبح كمثّل الجسم وقواه الظاهرة والباطنة مثل ملائكة الله الذين لا يعصون الله وأيّما يطيعونه في كلّ ما يأمرهم به وينهاهم عنه، من دون أن يعانوا في ذلك عنثاً ولا مشقّة. كذلك إذا أصبحت قوى الإنسان مسخّرة للروح، زال كلّ تكلف وتعب وتحول إلى الرّاحة واليسر، واستسلمت أقاليم الملك السبعة للملكوت وأصبحت جميع القوى عمالاً له<sup>٣</sup>".

#### ٧- شرط لنيل المحبّة والتّوبة

"ترك كل معصية في الروح أثراً عبّر عنه في الأحاديث الشريفة بالنقطة السوداء وهي ظلام ظهر في القلب والروح ثم تتوسّع هذه النقطة حتى تسوق الإنسان إلى الكفر والزندقة والشقاوة الأبدية... فالإنسان العاقل لو انتبه لهذه المعاني واعتنى بكلام الأنبياء والأولياء . عليهم السلام . والعرفاء والحكماء والعلماء . رضوان الله عليهم . بقدر اعتناؤه بقول طبيب معالج، لا يتعد لا محالة عن المعاصي ولم يقترب منها أبداً. وإذا ابتلي بالمعصية لا سمح الله أبدى بسرعة تبرّمه وانزعاجه منها وندم عليها وظهرت صورة ندمه في قلبه وتكون نتيجة هذه التّدامة عظيمة جداً، وآثارها حسنة وكثيرة ثم يحصل من جرّاء ندمه العزم على ترك

<sup>١</sup> الأريعون حديثاً، ص ٣٠.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ١٥٢.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ص ١٥١-١٥٢.

المعصية وترك مخالفة رب العالمين. وعندما يتوقّر هذان الركنان . الندم على اقتراف المعصية والعزم على عدم العودة إليها . يتيسّر أمر سالك طريق الآخرة، وتغمره التوفيقات الإلهية ليصبح حسب النص القرآني ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾<sup>٢١١</sup> .

## ما الذي يحقق العزم؟

يبين الإمام مجموعة من الشّروط والمقدمات التي تحقّق العزم، فيقول:

### ١ - اليقظة

"اعلم أنّ المنزل الأوّل من منازل الإنسانيّة هو منزل اليقظة كما يقوله كبار أهل السّلوك في بيانهم لمنازل السالكين، ولهذا المنزل كما يقول الشيخ العظيم الشّأن الشاه آبادي . دام ظله . بيوت عشرة، لسنا الآن بصدد تعدادها. ولكن ما يجب قوله هو أنّ الإنسان ما لم ينتبه إلى أنّه مسافر، ولا بُدّ من السير، وأنّ له هدف وتجب الحركة نحوه، وأنّ البلوغ إلى المقصد ممكن، لما حصل له العزم والإرادة للتحرّك"<sup>٣</sup> .

### ٢ - الصبر

"إنّ الصبر مفتاح أبواب السعادات، وباعث للنجاة من المهالك بل الصبر يهوّن المصائب، ويخفف الصّعاب، ويقوّي العزم والإرادة، ويبعث على استقلالية مملكة الروح"<sup>٤</sup> . فأتضح أنّ المعرفة بالدور والهدف والصبر عليه هو الذي يولّد العزم في وجود الإنسان لبلوغ مراتب الكمال.

## برنامج تحصيل العزم

بالإضافة إلى ما تقدّم يذكر الإمام قدس سره مجموعة من الوصايا العمليّة التي تساعد على تقوية العزم اللازم للسير إلى الله، منها:

### ١ - عدم اليأس

"كما أنّ إرادة الإنسان في شبابه، شابّة وقويّة، وعزمه شابّ وقويّ، لذلك فالإصلاح أيسر عليه يومئذٍ، أمّا في مرحلة الشيخوخة فالإرادة تضعف، والعزم يشيخ، لذا تكون السيطرة على

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٣٠٩ .

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ٢٢٢ .

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٢٠٢ .

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٢٩٧ .

القوى أصعب على الإنسان، ولكن . مع ذلك . لا ينبغي للشيوخ أن يغفلوا عن السعي لإصلاح نفوسهم وتركيتها، فلا ينبغي لهم أن يأسوا، لأنّ الإنسان . رغم كلّ ذلك . يستطيع أن يصلح نفسه ما دام في هذا العالم . وهو دار التبدّل والتغيّر، ومنزل الهيولى والاستعداد، ويمكنه بالجهد والاجتهاد أن يقتلع جذور الأمراض النفسانيّة المزمّنة مهما بلغت درجة رسوخها"<sup>١</sup>.

## ٢- الابتعاد عن الملذّات

"كلّما كانت العبادات أشق كانت أرغب: "أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَحْمَرُهَا"<sup>٢</sup>. فالتنازل عن النوم اللذيذ في ليل الشتاء البارد، والانصراف إلى عبادة الحقّ المتعال، يزيد من قوّة الرّوح وتغلّبها على قوى الجسم، ويقوّي الإرادة. وإذا كان هذا في أوّل الأمر على شيءٍ من المشقّة والعناء، فإنّ ذلك يخفّ تدريجيّاً كلّما واصل العبادة، وازدادت طاعة الجسم للنفس. إذ أنّنا نلاحظ أنّ أهل العبادة يقومون بالأعمال دون مشقّة وتكلف. أمّا نحن فشعورنا بالكسل وبالمشقّة ناشئ من أنّنا لا نبدأ بالعمل. فلو أنّنا بدأنا العمل وكترناه عدّة مرات، لتبدّلت مشقّته إلى راحة، بل إنّ أهلها يلتذّون بها أكثر مما نلتذّ نحن بمشتميات الدّنيا. إذا، الأمر يصبح عادياً بالتكرار. والخير عادة"<sup>٣</sup>.

## ٣- العبادة

"للعبادة ثمرات، منها: أنّ صورة العمل نفسه تصبح على قدر من الجمال في ذلك العالم لا يكون له نظير في هذا العالم، ونكون عاجزين عن تصوّر مثلها. ومنها: أنّ النّفس تصبح ذات عزم واقتدار، فتكون لها نتائج كثيرة"<sup>٤</sup>.

## ٤- الرّياضات الشّرعية

"وكما يقوى عزم الإنسان بالرياضات الشرعية والعبادات والمناسك وترك الرغبات ويصبح الإنسان ذا عزم وإرادة، فكذلك في المعاصي تتغلب الطبيعة لدى الإنسان وتضعف إرادته وعزمه"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٥٤.

<sup>٢</sup> بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ١٩١.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ١٥٣.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ١٥٣.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ١٥٣.

## ٥- ترك التسويف

"إنَّ طريق الحقَّ سهلٌ بسيطٌ، ولكنَّه يحتاج إلى انتباهٍ يسير، فيجب العمل، لأنَّ التَّبَاطُؤَ والتَّسْوِيفَ، ومضاعفة المعاصي في كلِّ يوم، تبعث على صعوبة الأمر، وأما الإقبال على العمل، والعزم على إصلاح السلوك والتَّنْفِيسَ، يقرب الطَّريق ويسهل العمل"<sup>١</sup>.

## أسباب ضعف العزيمة

إنَّ الالتفات إلى العوامل التي تؤدي إلى إضعاف العزم، بل زواله، أمر ضروريٌّ لكلِّ مجاهد في سبيل الله، ويذكر الإمام مجموعة من موانع العزم، فيقول:

### ١- التجرؤ على المعاصي

"وإنَّ التجرؤ على المعاصي يفقد الإنسان تدريجيًّا، العزم ويحتطف منه هذا الجوهر الشريف"<sup>٢</sup>.

### ٢- استماع الغناء

"يقول الأستاذ المعظم دام ظلّه: إنَّ أكثر ما يسبّب على فقد الإنسان العزم والإرادة هو الاستماع للغناء"<sup>٣</sup>.

### ٣- حبّ الدنّيا

"ومن المفاسد الكبيرة لحبّ الدنّيا أنه يمنع الإنسان من الرياضات الشرعيّة والعبادات والمناسك، ويُقوِّي جانب الطَّبِيعَة في الإنسان بحيث يجعلها تعصي الرّوح وتمرّد عليها ويوهن عزم الإنسان وإرادته"<sup>٤</sup>.

### ٤- التسويف

"ويجب أن نعرف أن من أهم أسباب عدم التيقظ الذي يؤدي إلى نسيان المقصد ونسيان لزوم المسير، وإلى إماتة العزم والإرادة، هو أن يظنّ الإنسان أنّ في الوقت متسعًا للبدء

<sup>١</sup> الأريعون حديثًا، ص ٣١٣.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٠-٣١.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣١.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ١٥١.

بالسير، وأنه إذا لم يبدأ بالتحرك نحو المقصد اليوم، فسوف يبدأ غدًا، وإذا لم يكن في هذا الشهر، فسيكون في الشهر المقبل<sup>١</sup>.

## ٥- تحريف وجهة العزم

"القلب بمثابة مرآة لها وجهان، وجهٌ منها نحو عالم الغيب، وتنعكس فيه الصور الغيبية، ووجه آخر نحو عالم الشهادة وتنعكس فيه الصور الملمكية الدنيوية. ويتم انعكاس الصور الدنيوية من خلال القوى الحسية الظاهرية وبعض القوى الباطنية مثل الخيال والوهم. وتنتقش الصور الأخروية فيها من باطن العقل وسرّ القلب. فإذا قويت الوجهة الدنيوية، والتفتت كليًا إلى تعمير الدنيا، وانحصرت همته في هذا العالم واستغرق في ملاذ البطن والفرج، وكافة المشتبهات والمتع الدنيوية، انعطفت باطن الخيال نحو الملكوت السفلي، الذي يكون بمثابة الظل المظلم لعالم الملك والطبيعة، وعالم الجن والشياطين والنفوس الخبيثة، وتكون اللقاءات شيطانية، وباعثة على تخیلات باطلة وأوهام خبيثة. وحيث أنّ النفس تنبته إلى الدنيا، اشتاقت إلى تلك التخیلات الباطلة، وتبعها أيضًا العزم والإرادة، وتحوّل كل الأعمال القلبية والقالبية إلى سنخ الأعمال الشيطانية من قبيل الوسوسة"<sup>٢</sup>.

## موعظة للإمام

"إذًا، تجنّب يا أحي المعاصي، واعزم على الهجرة إلى الحقّ تعالى، واجعل ظاهرك ظاهرًا إنسانيًا، وادخل في سلك أرباب الشرائع، واطلب من الله تعالى في الخلوات العون على بلوغ هذا الهدف واستشفع برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام حتى يوفقك الله على ذلك، ويعصمك من المزالق التي تعترضك، لأنّ هناك مزالق كثيرة تعترض الإنسان أيام حياته، ومن الممكن أنّه في لحظة واحدة يسقط في مزلق مهلك، يعجز من السعي لإنقاذ نفسه، بل قد لا يهتم بإنقاذ نفسه، بل ربّما لا تشمله حتى شفاعة الشافعين. نعوذ بالله منها"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٢٠٢.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٤٣٣.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣١.

## المفاهيم الرئيسة

١- العزم هو أن يوطّن الإنسان نفسه على ترك المعاصي وأداء الواجبات، ويتّخذ قراراً بذلك، ويتدارك ما فاتته في أيام حياته.

٢- من أبعاد العزم وأدواره أنّه: أوّل شرط للسلوك، يقطع جذور حبّ الدّنيا، زاد الإنسان في سيره وسلوكه، السّبيل لنيل الجنّة، يجعل جميع قوى النّفس منقهرة للحقّ، شرط لنيل المحبّة والتّوبة.

٣- شروط تحقّق العزم:

- اليقظة: فما لم ينبته إلى أنّه مسافر، ولا بُدّ من السير، وأنّ له هدف وتجب الحركة نحوه، وأنّ البلوغ إلى المقصد ممكن، لما حصل له العزم والإرادة للتحرّك.

- الصّبر: فالصّبر يهوّن المصائب، ويخفف الصّعاب، ويبعث على استقلالية مملكة الروح، وبالتالي يقوّي العزم.

٤- يحصل العزم من خلال:

- عدم اليأس: فما دام الإنسان في هذا العالم - دار التبدّل والتغيّر، ومنزل الهوى والاستعداد - يمكنه بالجهد والاجتهاد أن يقتلع جذور الأمراض النفسانيّة المزمّنة مهما بلغت درجة رسوخها.

- الابتعاد عن الملذّات: فالتنازل عن النوم اللذيذ في ليل الشتاء البارد، والانصراف إلى عبادة الحقّ المتعال، يزيد من قوّة الرّوح وتغلّبها على قوى الجسم، ويقوّي الإرادة.

- ترك التّسويق، لأنّ التّباطؤ والتّسويق، ومضاعفة المعاصي في كلّ يوم، تبعث على صعوبة الأمر.

٥- أسباب ضعف العزيمة:

التحرّؤ على المعاصي، استماع الغناء، حبّ الدّنيا، التّسويق، تحريف وجهة العزم نحو الملذّات الدنيويّة والخيالات الباطلة.

دعاء:

"وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ زَادَ الرَّاحِلِ إِلَيْكَ عَزْمُ إِرَادَةِ يَحْتَارُكَ بِهَا وَيَصِيرُ بِهَا إِلَى مَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ اللَّهُمَّ وَقَدْ نَادَاكَ بِعَزْمِ الْإِرَادَةِ قَلْبِي وَاسْتَبَقَنِي (اسْتَبَقَنِي) نِعْمَتَكَ بِفَهْمِ حُجَّتِكَ لِسَانِي وَمَا تَبَسَّرَ لِي مِنْ إِرَادَتِكَ اللَّهُمَّ فَلَا أُخْتَرَلَنَّ عَنْكَ وَأَنَا أَوْمُكُ وَلَا أُخْتَلَجَنَّ عَنْكَ وَأَنَا أُتْحَرَاكَ اللَّهُمَّ وَأَيَّدْنَا بِمَا تَسْتَخْرِجُ بِهِ فَاقَةَ الدُّنْيَا مِنْ قُلُوبِنَا وَتَنَعَّشْنَا مِنْ مَصَارِعِ هَوَاهَا وَتَهْدِمُ بِهِ عَنَّا مَا شِيدَ مِنْ بُنْيَانِهَا وَسَقَيْنَا بِكَاسِ السَّلْوَةِ عَنْهَا حَتَّى تَخْلِصَنَا لِعِبَادَتِكَ وَتُورِثَنَا مِيرَاثَ أَوْلِيَائِكَ".<sup>١</sup>

الآيات الكريمة:

١ - ﴿لَتَلْبُلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>٢</sup>.

٢ - ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>٣</sup>.

الروايات الشريفة:

١ - عَنِ الْحَسَنِ بْنِ الْجُهْمِ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِنَّ عِنْدَنَا قَوْمًا لَهُمْ حُبَّةٌ وَلَيْسَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْعَزِيمَةُ، يَقُولُونَ بِهَذَا الْقَوْلِ، فَقَالَ: لَيْسَ أَوْلِيَاكَ مِمَّنْ عَاتَبَ اللَّهُ إِمَّا قَالَ اللَّهُ ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾"<sup>٤</sup>.

٢ - عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ مُتَّحِنًا إِخْلَاصُهَا مُعْتَقِدًا مُصَاصُهَا نَتَمَسُّكَ بِهَا أَبَدًا مَا أَبْقَانَا وَنَدَخِرُهَا لِأَهَاوِيلِ مَا يَلْقَانَا فَإِنَّهَا عَزِيمَةُ الْإِيمَانِ وَفَاتِحَةُ الْإِحْسَانِ وَمَرْضَاةُ الرَّحْمَنِ وَمَدْحَرَةُ الشَّيْطَانِ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان، من أدعية يوم المبعث.

<sup>٢</sup> سورة آل عمران، الآية ١٨٦.

<sup>٣</sup> سورة الشورى، الآية ٤٣.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ١، ص ١١.

<sup>٥</sup> نصح البلاغة، ص ٤٦.

٣- عَنْ هِشَامٍ عَنِ ابْنِ أَبِي يَعْقُوبٍ قَالَ: "سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: سَادَهُ النَّبِيُّ وَالْمُرْسَلِينَ خَمْسَةٌ وَهُمْ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَعَلَيْهِمْ دَارَتِ الرَّحَى نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَلَى جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ"<sup>١</sup>.

٤- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "قَامَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ هَمَامٌ وَكَانَ عَابِدًا نَاسِكًا مُجْتَهِدًا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَخْطُبُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لَنَا صِفَةَ الْمُؤْمِنِ كَأَنَّا نَنْظُرُ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا هَمَامُ الْمُؤْمِنُ... يُحِبُّ فِي اللَّهِ بَيْفَهُ وَعِلْمٌ وَيَقْطَعُ فِي اللَّهِ بِحَزْمٍ وَعَزْمٍ"<sup>٢</sup>.

٥- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِذَا عَقَدْتُمْ عَلَى عَزَائِمِ خَيْرٍ فَأَمْضَوْهَا"<sup>٣</sup>.

٦- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَا تَجْتَمِعُ عَزِيمَةٌ وَوَلِيمَةٌ، مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ، وَأَمَحَى الظُّلْمَ لِتَذَاكِيرِ الْهَمِّ"<sup>٤</sup>.

٧- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "عَزِيمَةُ الْكَيْسِ وَجَدَّهُ لِإِصْلَاحِ الْمَعَادِ وَالِاسْتِكْتَارِ مِنَ الزَّادِ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ١، ص ١٧٥.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ج ٢، ص ٢٢٦.

<sup>٣</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٤٧٦.

<sup>٤</sup> نهج البلاغة، خ ٢٣٩.

<sup>٥</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ١٤٩.



## الدّرس التاسع: التّفكّر

### أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرّف إلى ماهيّة التّفكّر ودوره في تكامل الإنسان.
- ٢- يشرح أهم المسائل التي ينبغي التّفكّر بها.
- ٣- يبيّن أهم موانع التّفكّر والعوامل التي تساعد على تحصيل هذه الفضيلة.



## تمهيد

إذا كان تهذيب النفس أساس الحياة المعنوية ونيل الفيوضات الربانية، فإنّ التفكير هو الخطوة الأولى على هذا الطريق. وليس المقصود أن يكون للإنسان بعض الأوقات يتفكّر فيها، بل أن يصبح التّفكّر في شخصيته سمة بارزة وملكة راسخة.

إنّ التفكير يعبر عن تفاعل الإنسان الإيجابي مع كلّ ما هو إلهي ورحماني. فقد خلق الله الوجود ودبره بحكمته وأرسل من يهدي إليه وحملهم كتبه من أجل أن يتفاعل البشر مع كلّ المظاهر ويستفيدوا منها، فینالوا بذلك كما لهم ويسيروا بأنحاء غاية خلقهم. ولا يمكن أن يحصل هذا التفاعل إلّا إذا سعى الإنسان لمعرفة أسرار الخلق ومعانيه، وهذا الذي يحصل بالتّفكّر.

## ما هو التّفكّر؟

لا بدّ أوّلًا من أن نعرف ما هو التّفكّر. فالكثير من الناس يظنّون أنّ التّفكّر عبارة عن استحضار صور القضايا في الذهن والخيال والتحوّل فيها. لكنّ التّفكّر أمرٌ أبعد من ذلك لأنّه يرتبط بالتّوجه إلى المقصد واستحضار الغايات من القضايا، كما يقول الإمام الخميني قدس سره: "والعمدة في هذا الباب أن يفهم الإنسان ما هو التّفكّر المدوح، لأنّه لا شكّ في أنّ التّفكّر مدوحٌ في القرآن والحديث، فأحسن التّعبير فيه ما قاله الخواجة عبد الله الانصاري قدس سره: "اعلم أنّ التّفكّر تلمّس البصيرة لاستدراك البغية"، يعني أنّ التفكير هو تجسّس البصيرة (وهي بصر القلب) للوصول إلى المقصود والنتيجة التي هي غاية الكمال. ومن المعلوم أنّ المقصد هو السعادة المطلقة التي تحصل بالكمال العلمي والعملّي"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> معراج السالكين، ص ٢١٤.

ولهذا فإنّ التّفكّر المطلوب في آيات القرآن الكريم هو السّعي للوصول إلى المقصد كما قال الإمام الخميني قدس سره: "من آداب قراءة القرآن حضور القلب... ومن آدابه المهمّة: التّفكّر، والمقصود من التّفكّر أن يبحث في الآيات الشريفة عن المقصد والمقصود"<sup>١</sup>.

#### أهميته

من خلال التأمّل في أحوال البشر يتبيّن لنا أنّ الإنسان لا يمكن أن يخلو من حالة التّفكّر، فما دام مستيقظاً فهو دائم التّحوّل في الأفكار، بل قد يلحقه التّفكّر إلى التّوهم أحياناً!

التّفكّر - إذاً - هو أمرٌ قهريٌّ. ويكون الحثّ عليه عندها من باب تحصيل الحاصل! لكن لو تأملنا جيّداً، لوجدنا أنّ أكثر النّاس لا يعرفون كيفية التّفكّر الصّحيح، ولا يتفكّرون فيما ينبغي لهم، بل يغلب عليهم التّفكّر في أمور لا طائل وراءها. لهذا، فإنّ جُلّ ما ورد في باب التّفكّر إنّما كان لأجل توجيهنا نحو المواد التي ينبغي أن نتفكّر فيها. وقد أشارت بعض النّصوص إلى شروطه وكيفيته. وشاهدنا بعضها يدلّنا على موانعه وعواقب تركه وإهماله.

أكثر ما نحتاج إليه ليصبح التّفكّر ملكة راسخة فينا، فننتقدّم على طريق الكمال، هو إدراك أهميته واستشعار عظمة تأثيره ودوره على جميع الصّعد. لهذا، لم يكن أمامنا أجمل ممّا قاله الإمام الخميني قدس سره شارحاً مفسّراً للنّصوص الشريفة:

#### ١ - غاية إنزال الكتاب

"قد كثرت الدّعوة إلى التّفكير وتمجيده وتحسينه في القرآن الشّريف قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>٢</sup>. وفي هذه الآية مدحٌ عظيمٌ للتّفكّر، لأنّها جعلت غاية إنزال الكتاب السّماويّ العظيم والصّحيفة النّورانية المجيدة احتمال التّفكّر، وهذا من شدّة الاعتناء به حيث أنّ مجرد احتمالها صار موجّباً لهذه الكرامة العظيمة، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَقْصِبْ قَلْبُكَ لِتَفَكَّرُونَ﴾<sup>٣</sup>. والآيات من هذا القبيل أو ما يقرب منه كثيرة والروايات أيضاً في التّفكّر كثيرة. فقد نُقل عن الرّسول

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٢١٣.

<sup>٢</sup> سورة النحل، الآية ٤٤.

<sup>٣</sup> سورة الأعراف، الآية ١٧٦.

الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم أنه لما نزلت الآية الشريفة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ﴾ إلى آخرها.. قال صلى الله عليه وآله وسلم: "ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها"<sup>١</sup>.

## ٢- باب معرفة الله

"فالتطريق الطبيعي لمعرفة الله وطلبه هو أن يتدعى الإنسان أولاً بانفراق وقت في التفكر بالحق سبحانه، ويحصل على العلم بالله وأسماء ذاته المقدّس وصفاته حسب الأساليب المتبعة من التلمذة على يد رجال ذلك العلم، ثم يتزوّد من المعارف بواسطة الرياضة العلميّة والعملية وينتهي بذلك حتماً إلى النتيجة المنشودة"<sup>٢</sup>.

## ٣- مقدّمة للتذكّر

"إنّ قوّة التذكّر وكماله، يرتبطان بقوّة التفكير وكماله. والتفكر الذي يفضي إلى التذكّر التامّ للمعبود، لا يساوي الأعمال الأخرى ولا يقاس في الفضيلة بها. ففي الأحاديث الشريفة أن تفكر ساعة أفضل من عبادة سنة واحدة أو ستين عاماً أو سبعين عاماً. ومن الواضح أنّ الغاية من العبادات وثمرتها المهمة، حصول المعرفة والتذكّر للمعبود الحقّ. والحصول على هذه الخاصية من التفكير الصحيح، أحسن من الحصول عليها عن طريق العبادة. إذ لعلّ تفكر ساعة واحدة، يفتح أبواباً من المعارف على السالك، لا تفتحها عبادة سبعين سنة، أو إنّ في تفكر ساعة واحدة تذكّر للإنسان بجيبه سبحانه، ما لا يحصل من المشاق والمساعي المجهدة فترة سنين عديدة مثل هذا التذكّر. واعلم أيّها العزيز أنّ تذكّر الحبيب، والتفكر فيه دائماً، يثمر نتائج كثيرة لكافة الطبقات"<sup>٣</sup>.

## ٤- مقدّمة الإيمان

"اعلم، أنّ الإيمان بالمعارف الإلهية وأصول العقائد الحقّة لا يتحقّق إلّا بما يلي: أن يفهم المرء أولاً تلك الحقائق بوسيلة التفكير والرياضات العقلية، والآيات والبيانات والبراهين العقلية، وهذه المرحلة هي بمثابة مقدّمة الإيمان"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٢١٣-٢١٤.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٨٩.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٢٥.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٣-٩٤.

## ٥- مفتاح أبواب المعارف

"فالتفكير هو مفتاح أبواب المعارف وخزائن الكمالات والعلوم، وهو مقدمة لازمة وحتمية للسلوك الإنساني"<sup>١</sup>.

## ٦- مقدمة لازمة للسلوك

"اعلم أنّ أول شرط مجاهدة النفس والسير باتجاه الحقّ تعالى هو "التفكير"<sup>٢</sup>.

## ٧- باب جعل القلب إلهياً

"من الأمور الهامة، إذا، السعي في سبيل تطوير حالة القلب، وجعلها إلهية، وتوجيهها نحو الحقّ المتعالى وأوليائه ودار كرامته، ويتمّ هذا قطعاً بواسطة التفكير في آلاء الدّات المقدّس، ونعمائه والمحافظة على طاعته وعبادته"<sup>٣</sup>.

## ٨- أفضل الأعمال القلبية والعبادية

"إنّ التفكير في لطائف الصّنع ودقائقها وفي إتقان نظام الخليقة، من العلوم النّافعة، ومن أفضل الأعمال القلبية، وخير من جميع العبادات، لأنّ نتيجته أشرف نتيجة. وعلى الرّغم من أنّ التّنتيجة الأصلية لجميع العبادات والسرّ الحقيقي لها هو الحصول على المعرفة، فإنّ كشف هذا السرّ والحصول على تلك التّنتيجة ليسا متيسّرين للجميع، بل إنّ لذلك أهلاً تكون لهم في كلّ عبادة بذرة لمشاهدة أو لمشاهدات"<sup>٤</sup>.

## بماذا نتفكر؟

وإذا عرفنا أهميّة التفكير ومالت قلوبنا إليه احتجنا إلى تطبيقه ووضع ضمن إطار عمليّ. والتفكير كالنّار يزداد لهيباً واشتعالاً كلّما قدّمنا له مادّة صالحة كما أنّه يخبث أو ينحرف إذا حرّمناه من هذه الموادّ وقدّمنا له بدلاً من ذلك ما لا يوصل إلى نتيجة تتناسب مع المقصد التّهائيّ للخليقة. ويعرض لنا الإمام الخمينيّ قدس سره بعض نماذج التفكير المحمود:

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٢٢.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٨.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٤٩٤.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٢٢٨.

## ١ - نظام الكون

"أيها العزيز، انظر وتأمل في العلاقة التي بين هذه الشمس والأرض. وفي المسافة المعينة بين الأرض والشمس، وحركة الأرض حول نفسها وحول الشمس. تلك الحركة التي تكون على مدارٍ محدد فيحصل منها الليل والنهار والفصول. فما أتقنه من صنع وما أكملها من حكمة! ولولا هذا التنظيم، أي لو كانت الشمس أقرب أو أبعد، لما تكوّنت الأرض، في الحالة الأولى من الحرّ، وفي الحالة الثانية من البرد، معدن، ونبات، وحيوان. وكذلك لو توقفت الأرض عن الحركة، على ما هي عليه من البعد عن الشمس لما كان الليل أو النهار، ولما كانت الفصول، ولما تكوّنت الأرض نهائيًا أو القسم الأكبر منها. ولا يقتصر على هذا أيضًا، فإنّ الأوج، أو أقصى نقطة للأرض عن الشمس، يقع في جهة الشمال لكي لا تزداد الحرارة فتُصاب الكائنات بالضرر. وكذلك الحضيض، أو أقرب نقطة بين الشمس والأرض، يقع في جهة الجنوب، لكي لا يُصاب أهل الأرض بضرر. ولا يكتفي بهذا أيضًا، فالقمر المؤثّر في تربية موجودات الأرض، يعاكس الأرض في سيرها، بحيث عندما تكون الشمس في شمال الأرض، يكون القمر في جنوبها، والعكس بالعكس، إذا كان هذا في الشمال، كانت تلك في الجنوب، وذلك لانتفاع سكّان الأرض منهما. هذه كلّها من الأمور الضرورية المحسوسة. غير أنّ الإحاطة بدائع النظام ودقائقه لا تكون إلّا للخالق الذي يحيط علمه بكلّ شيء".<sup>١</sup>

## ٢ - خلق الإنسان

"لم ابتعدنا كلّ هذا البعد؟ فليفكر المرء في خلقه هو، على قدر طاقته وسعة علمه: أوّلًا في الحواس الظاهرة التي صُنعت وفق المدركات والمحسوسات، إذ إنّ لكلّ مجموعة من المدركات، التي توجد في هذا العالم، قوّة مدركة بأدقّ ما تكون من الدقّة والترتيب الخبيرين للعقول. والأمور المعنويّة، التي لا تُدرك بالحواس الظاهرة، تُدرك على ضوء الحواس الباطنيّة.

دع عنك علم الروح والقوى الروحيّة للنفس، ممّا تقصر مدارك الإنسان عن فهمها، وأتجه بنظرك إلى علم الأبدان وتشريحها وبنائها الطبيعيّ، وخصائص كلّ عضو من

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٢٢٩.

الأعضاء الظاهرية والباطنية. انظر ما أغرب هذا النظام وما أعجب هذا الترتيب؟! على الرغم من أن علم البشر لم يبلغ حتى الآن، ولن يبلغ حتى بعد مائة قرن، إلى معرفة واحد بالألف منه، حسب الاعتراف الصريح بأفصح لسان من جميع العلماء بعجزهم، مع أن جسم الإنسان بالنسبة إلى كائنات الأرض الأخرى، لا يزيد على مجرد ذرة تافهة، وأن الأرض وجميع كائناتها، لا تعدل شيئاً إزاء المنظومة الشمسية، وإن كل منظومتنا الشمسية لا وزن لها إزاء المنظومات الشمسية الأخرى، وإن كل هذه المنظومات، الكبيرة منها والصغيرة، مبنية وفق ترتيب منظم، ونظام مرتب، بحيث أن أي نقد لا يمكن أن يوجه إلى أنه ذرة فيها، وأن عقول البشر كافة عاجزة عن فهم دقيقة من دقائقها.

فهل بعد هذا التفكير يحتاج عقلك إلى دليل آخر ليذعن بأن كائناً عالماً، حكيمًا، لا يشبه الكائنات الأخرى، هو الذي أوجد هذه الكائنات بكل حكمة ونظام وترتيب واتقان؟ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>١</sup>. إن كل هذا الخلق المتقن الذي يعجز عقل الإنسان عن فهمه، لم يظهر عبثاً وتلقائياً!<sup>٢</sup>.

### ٣- التفكير في تجرد النفس الإنسانية

"من درجات التفكير أيضاً التفكير في أحوال النفس يؤدي إلى نتائج كثيرة ومعارف عديدة... إن من حالات النفس هو تجردها، وهي حالة لم يُولِ الحكماء العظام أهمية لأية مسألة حكمية فلسفية أخرى مثلما أولوا هذه المسألة وأثبتوها بالأدلة والبراهين. ولكننا لسنا الآن في صدد إثبات تجرد النفس بصورة مفصلة، وإنما نكتفي ببعض الأدلة التي لا تستعصي مبادئها على الفهم، للوصول إلى المقصود.

**فنعقول:** يجمع الأطباء وعلماء الأبدان، وفي ظل التجارب، على أن جميع أعضاء الجسم، من أم الدماغ التي هي مركز الإدراكات ومحل ظهور قوى النفس، وحتى آخر أجزائه الصلبة، تبدأ، من سن الخامسة والثلاثين، أو الثلاثين فما فوق، بالانحدار نحو الانحطاط والنقصان، والاقتراب من الضعف والانحلال. ولقد جربنا بأنفسنا أيضاً كيف يبدو الضعف في القوى

<sup>١</sup> سورة إبراهيم، الآية ١٠.

<sup>٢</sup> الأريعون حديثاً، ص ٢٢٩-٢٣١.

كلها. ولكن في هذه الفترة نفسها، أي من سن الثلاثين أو الأربعين فما فوق، تزداد القوى الروحية والإدراكات العقلية كمالاً ورقياً وسداداً. ويتضح من هذا أن القوى العقلية ليست جسمانية، إذ لو كانت جسمانية لانحدرت، مثل سائر قوى الجسم، نحو الضعف والوهن. كما لا يمكن القول بأن القوى العقلية تزداد قوة بكثرة أعمال القوة الفكرية وحصول التجربة، إذ أن القوى الجسمانية يتتابها التعب والانحلال، لا القوة والكمال، نتيجة لكثرة العمل وبذل الجهد. وهذا بذاته دليل على أن القوى العقلية ليست جسمية ولا من آثار الجسم<sup>١</sup>.

#### ٤ - التفكير في النعم من حولنا

"التفكير في هذا المقام هو أن يفكر الإنسان بعض الوقت في أن مولاه الذي خلقه في هذه الدنيا، ووفر له كل أسباب الدعة والراحة، ووهبه جسمًا سليمًا وقوى سالمة ذات منافع تحيّر ألباب الجميع، والذي رعاه وهياً له كل هذه السعة وأسباب النعمة والرحمة من جهة، وأرسل جميع هؤلاء الأنبياء، وأنزل كل هذه الكتب "الرسالات"، وأرشد ودعا إلى الهدى من جهة أخرى... هذا المولى ماذا يستحقّ منّا؟ وما هو واجبنا تجاه مالك الملوك هذا؟! هل أنّ وجود جميع هذه النعم، هو فقط لأجل هذه الحياة الحيوانية وإشباع الشهوات التي نشترك فيها مع الحيوانات أو أن هناك هدفاً وغاية أخرى؟ هل أنّ للأنبياء الكرام، والأولياء العظام، والحكماء الكبار، وعلماء كلّ أمة الذين يدعون الناس إلى حكم العقل والشّرع ويحدّونهم من الشهوات الحيوانية ومن هذه الدنيا البالية، عداً ضدّ الناس أم أنّهم كانوا مثلنا لا يعلمون طريق صلاحنا نحن المساكين المنغمسين في الشهوات؟! إنّ الإنسان إذا فكّر لحظة واحدة، عرف أنّ الهدف من هذه النعم هو شيء آخر، وأنّ الغاية من هذا الخلق أسمى وأعظم، وأنّ هذه الحياة الحيوانية ليست هي الغاية بحدّ ذاتها..."<sup>٢</sup>.

#### الذنوب تمنع من التفكير

قد علمنا أنّ التفكير المحمود هو الذي يوصل إلى المقصد والمقصود، ويكون أفضل معين على التذكّر الذي هو عبارة عن الحضور والقرب. ولهذا، فإنّ كلّ ما يمنع من تحقيق هذا الغرض

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٢٩-٢٣١.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٢٨-٢٩.

فهو من موانع التفكّر الذي يجب اجتنابه والتخلّص منه. وأبرز هذه الموانع الذنوب والمعاصي فيشير الإمام الخميني قدس سره إلى تأثير الأعمال السيئة على التفكّر فيقول: "وليُعلم كما أنّ لكلّ عمل من الأعمال الصالحة أو السيئة صورة في عالم الملكوت تتناسب معه، فله صورة أيضًا في ملكوت النفس، وتحصل بواسطتها في ملكوت النفس: إمّا التورائية... وإمّا أن يصير ملكوت النفس بما ظلمانيًا وحيثًا، وفي هذه الصورة يكون القلب كالمراة المرينة والمدنسة، لا تنعكس فيها المعارف الإلهية ولا الحقائق الغيبية، وحيث أنّ القلب في هذه الحالة يقع بالتدريج تحت سلطة الشيطان ويكون إبليس هو المتصرّف في مملكة الروح، فيقع السمع والبصر وسائر القوى أيضًا تحت تصرّف ذاك الخبيث، وينسدّ السمع بالكلية عن المعارف والمواظع الإلهية، ولا ترى العين الآيات الباهرة الإلهية وتعمى عن الحقّ وآثاره وآياته ولا يتفقه القلب في الدين، ويُحرم من التفكّر في الآيات والبيّنات وتذكر الحقّ والأسماء والصفات، كما قال الحقّ تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾<sup>١</sup>. فيكون نظرهم إلى العالم كنظر الأنعام والحيوانات الخالية من الاعتبار والتدبّر، وقلوبهم كقلوب الحيوانات لا نصيب لها من التفكّر والتدكّر، بل تزداد حالة الغفلة والاستكبار فيهم يومًا بعد يوم من جرّاء النظر في الآيات وسماع المواظع، فهم أزلّ وأضلّ من الحيوان"<sup>٢</sup>.

### عوامل مساعدة على تقوية التفكّر

ذكر الإمام الخميني قدس سره مجموعة من الأمور التي تساهم في جعل التفكّر عادة أو ملكة ثابتة في النفس.

#### ١ - الجذبة الإلهية

بعض هذه الأمور تندرج ضمن التوفيق الخاصّ الذي يجب أن نطلبه من الله تعالى كالجذبة الربوبية. يقول الإمام الخميني قدس سره: "لو حصلت الجاذبية الربوبية والحال الخاصة، لأمكن إدراك حقيقة العبادة والسرّ الحقيقي للتدكّر والتفكّر"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٢١١.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثًا، ص ١٥٣.

## ٢- معرفة الغاية

ومنها ما يرتبط بعلمه الفكريّ ومعارفه كإدراك غاية وجوده، لأنّه عندئذٍ سيقبل على كتاب الله تعالى كمسافر يرتقي سلّم العروج إلى هدفه. يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "فيذا أدرك القارئ المقصد، صار بصيراً في تحصيله، وانفتح له طريق الاستفادة من القرآن الشّريف، وفتحت له أبواب رحمة الحقّ، ولم يصرف عمره القصير العزيز ورأسمال تحصيل سعادته على أمور ليست مقصودة لرسالة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكفّ عن فضول البحث والكلام، في مثل هذا الأمر المهمّ. فيذا أشخص بصيرته مدّة إلى هذا المقصود وصرف نظره عن سائر الأمور تتبصّر عين قلبه ويكون بصره حديداً ويكون التّفكّر في القرآن للنفس أمراً عادياً، وتفتّح طرق الاستفادة، وتفتّح له أبواب لم تكن مفتوحة لحينها، ويستفيد مطالب ومعارف من القرآن ما كان لينالها بأيّ شكل، فحينها يفهم كون القرآن شفاء للأمراض القلبية"<sup>١</sup>.

## ٣- صلاة الليل

ومنها صلاة الليل، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "لو أنّ يقظة الليل تكشف للإنسان حقيقة الصّلاة وسرّها، لأنس بذكر الله والتّفكّر في الله، ولجعل الليالي مركوبة للعروج إلى قربه تعالى، ولما كان ثمّة ثواب له إلا جمال الحقّ الجميل وحده"<sup>٢</sup>.

## ٤- الصمت

ومنها الصّمت، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "وحيث إن الصمت عن الباطل واللغو، واجتناب الهديان والهدر، يُعين الإنسان على التفكير والاشتغال بباطنه وتطهيره من الرجس، وتخليته وتصفيته، وبالتالي تقريبه من مبدأ الكمال الذي تعشقه الفطرة، وإزالة الأشواك من طريقه إليه، لذا فإنّه من لوازم الفطرة السليمة المخمّرة إلهياً ومن جنود العقل والرحمان"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٢١٤-٢١٥.

<sup>٢</sup> الأريعون حديثاً، ص ٢٣٨-٢٣٩.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٥٤.

## المفاهيم الرئيسة

- ١- التفكير هو الخطوة الأولى على طريق تهذيب النفس ونيل الفيوضات الربانية.
- ٢- يعبر التفكير عن تفاعل الإنسان الإيجابي مع كل ما هو إلهي ورحماني، فينال بذلك كماله ويسير بأجاء غاية خلقه.
- ٣- التفكير هو تلمس البصيرة للوصول إلى المقصود والنتيجة التي هي غاية الكمال، لا استحضار صور القضايا في الذهن والخيال والتجول فيها كما يظن البعض.
- ٤- ما ينبغي التفكير فيه هو: نظام الكون، خلق الإنسان، أحوال النفس ومآلها، وماذا يستحق منا المولى الوهاب للنعم، التفكير بالحق وأسمائه وصفاته، والتفكير بعالم الملك.
- ٥- من أدوار التفكير وآثاره أنه:
  - مفتاح أبواب المعارف ومقدمة لازمة للسلوك.
  - باب معرفة الله.
  - حياة الروح وجعل القلب إلهياً وأفضل الأعمال القلبية والعبادية.
  - مقدمة للتذكر.
  - مقدمة التحقق بالاسم الأعظم.
  - مقدمة الإيمان وقطع الطمع بالمخلوق.
  - الحصول على مقام القرب.
- ٦- الأعمال السيئة من موانع التفكير، حيث يصير ملكوت النفس بها ظلماتياً وخبثياً.
- ٧- من الأمور التي تساهم في جعل التفكير عادة أو ملكة ثابتة في النفس:
  - إدراك الإنسان لغاية وجوده لأنه عندئذ سيقبل الى المقصد وهو بصير في تحصيله.
  - صلاة الليل.
  - الصمت عن الباطل واللغو.

دعاء:

اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِي مِنَ التَّمَنِّيِّ وَالتَّطَنِّيِّ وَالْحَسَدِ ذِكْرًا لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّرًا فِي قُدْرَتِكَ، وَتَدْبِيرًا عَلَيَّ عَدُوِّكَ<sup>١</sup>.

الآيات الكريمة:

١- ﴿أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>٢</sup>.

٢- ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾<sup>٣</sup>.

٣- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرِكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>٤</sup>.

٤- ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ﴾<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في الاستعاذة من الشيطان الرجيم.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ٢٦٦.

<sup>٣</sup> سورة آل عمران، الآية ١٩١.

<sup>٤</sup> سورة الأعراف، الآية ١٧٦.

<sup>٥</sup> سورة يونس، الآية ٢٤.

٥- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾<sup>١</sup>.

٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾<sup>٢</sup>.

### الروايات الشريفة:

١- عن الإمام الصادق عليه السلام: "يَا هِشَامُ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ دَلِيلًا وَدَلِيلَ الْعَقْلِ التَّفَكُّرُ، وَدَلِيلُ التَّفَكُّرِ الصَّمْتُ"<sup>٣</sup>.

٢- عن الإمام الرضا عليه السلام يقول: "لَيْسَ الْعِبَادَةُ كَثْرَةُ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ إِنَّمَا الْعِبَادَةُ التَّفَكُّرُ فِي أَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"<sup>٤</sup>.

٣- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "فِكْرٌ سَاعَةٌ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةٍ سَنَةٍ وَلَا يَنَالُ مَنْزِلَةَ التَّفَكُّرِ إِلَّا مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِنُورِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ"<sup>٥</sup>.

٤- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "التَّفَكُّرُ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ كَمَا يَمْشِي الْمَاشِي فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ بِحُسْنِ التَّحَلُّصِ وَقَلَّةِ التَّرْبُصِ"<sup>٦</sup>.

٥- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ إِذْمَانُ التَّفَكُّرِ فِي اللَّهِ وَفِي قُدْرَتِهِ"<sup>٧</sup>.

٦- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ"<sup>٨</sup>.

٧- قَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "عَجَبٌ لِمَنْ يَتَفَكَّرُ فِي مَأْكُولِهِ كَيْفَ لَا يَتَفَكَّرُ فِي مَعْقُولِهِ فَيُجَنَّبُ بَطْنَهُ مَا يُؤْذِيهِ وَ يُودِعُ صَدْرَهُ مَا يُرْدِيهِ"<sup>٩</sup>.

<sup>١</sup> سورة الروم، الآية ٢١.

<sup>٢</sup> سورة سبأ، الآية ٤٦.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ١، ص ١٥.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٥٥.

<sup>٥</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ١٨٤.

<sup>٦</sup> الكافي، ج ١، ص ٢٨.

<sup>٧</sup> (ن.م)، ص ٥٤.

<sup>٨</sup> نهج البلاغة، ص ١١١.

<sup>٩</sup> بحار الأنوار، ج ١، ص ٢١٨.

## الدرس العاشر: الذّكر (١) - حقيقة الذّكر وكيفيّته

### أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرّف إلى ماهيّة الذّكر الحقيقيّ وكيفيّته.
- ٢- يتعرّف إلى دور القرآن الكريم والأولياء في الذّكر.
- ٣- يبيّن دور الصّلاة ومنزلتها في الذّكر.



## تمهيد

تطالعنا الشواهد الكثيرة من كلمات الإمام الخميني قدس سره حول الذكر. وهي إن دلت على شيء فإنها تدل أولاً على أهمية هذا المقام المعنوي الذي يحكي عن عمق ارتباط الذاكر بالواقع والحقيقة.

وسوف نتعرف في هذا البحث على دور الذكر في حياة الإنسان ومصيره وبناء شخصيته وتكميله، إلا أن ذلك موقوف على فهم حقيقة الذكر أولاً لأن أكثر الناس يخلطون بينه وبين الورد. كما أنه يعتمد على معرفة ما ينبغي أن يذكره الإنسان ثانيًا.

ولكي تحصل الفائدة المرجوة من هذا البحث فنقبل على الذكر ونراه شرطاً أساسياً للسعادة نحتاج إلى التوجه والإدراك العميق لأهمية الذكر في حياتنا.

## ما هو الذكر؟

عند الحديث عن ملكات النفس ومقاماتها المعنوية وكما أنها يكون الذكر بمعنى حضور الحقائق في القلب. أما إذا كان الحديث عن الأعمال والعبادات الذكرية فإن الذكر يشير إلى ما ينبغي أن نقوم به من أجل الوصول إلى هذا المقام الشامخ.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "وبالجمل، فحقيقة الذكر والتذكر هي الذكر القلبي. أما الذكر اللساني بدونه فهو بلا لب وساقط عن درجة الاعتبار تمامًا. كما أشير إلى ذلك في الأحاديث الشريفة في غير مرة، فعن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لأبي ذر: "يا أبا ذر ركعتان مقتصدتان في تفكير، خير من قيام ليلة والقلب لاه (ساه)"<sup>١</sup>

٢"

<sup>١</sup> وسائل الشريعة، ج ٤، ص ٧٤.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٤٤.

وعليه، فإنّ الذكر من أحوال القلوب وصفاتها وإن ظهر على اللسان، بل على الجوارح والأعضاء حتّى قيل خير الذكر العمل. والمقصود بذلك أنّ الذكر القلبيّ إذا وصل إلى نصابه وبلغ حدّه المطلوب سرى من القلب إلى جميع مراتب النفس. لهذا قال الإمام قدس سره: "إنّ ذكر الحقّ والتذكّر لذاته المقدّس من صفات القلب، وإنّ القلب إذا تذكّر ترتّب عليه. القلب. جميع الفوائد المذكورة للذكر، ولكنّ الأفضل أن يعقب الذكر القلبي، الذكر اللساني. وإنّ أفضل وأكمل مراتب الذكر كافّة هو الذكر الساري في نشآت مراتب الإنسانيّة، والجاري على ظاهر الإنسان وباطنه، سرّه وعلنه. فيكون الحقّ سبحانه مشهوداً في سرّ الوجود، وتكون الصّورة الباطنيّة للقلب والروح، صورة تذكّر المحبوب. ويطغى على الأعمال القلبية والقاليبة. الظاهرية. التذكّر لله سبحانه. وتفتح الأقاليم السبع الظاهرية، والممالك الباطنية، على ذكر الحقّ، وتتسخّر لتذكّر الجميل المطلق".<sup>١</sup>

وإذا كان الفكر عبارة عن حضور الحقائق في مرتبة الدّهن، فإنّ الذكر هو اشتداد هذا الحضور وقوّته ودخوله إلى باطن النفس ولبّها المسمّى بالقلب. يقول الإمام الخميني قدس سره: "يقول العارف عبد الله الأنصاري "التذكّر فَوْقَ التّفكّر، فإنّ التّفكّر طلبٌ والتذكّر وجودٌ" إذ إنّ التّفكّر طلب للمحبوب والتذكّر حصول للمطلوب. فما دام الإنسان يطلب ويبحث يكون محجوباً عن مطلوبه وعندما يصل إلى محبوبة يتحرّر من عناء البحث والتفتيش".<sup>٢</sup>

ويقول قدس سره: "اعلم أن التذكّر من نتائج التّفكّر، ولهذا يعتبرون مقام التّفكّر مقدّمًا على مقام التذكّر".<sup>٣</sup> إذن التّفكّر مقدّمة أساسيّة للتذكّر: "إنّ قوّة التذكّر وكماله يرتبطان بقوّة التّفكّر وكماله".<sup>٤</sup>

## ماذا نذكر؟

طالما أنّ الذكر عبارة عن شدّة حضور الحقائق في القلب، ينبغي أن نتعرّف على هذه الحقائق التي يؤدّي تذكّرها إلى تلك الآثار العظيمة في النفس حاضرًا ومستقبلاً.

<sup>١</sup> الأريعون حديثًا، ص ٣٢٦-٣٢٧.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٢٥.

<sup>٣</sup> (ن.م).

<sup>٤</sup> (ن.م).

لا شك بأن الحقيقة الوحيدة التي تحقّق هذا الفرض هي حقيقة الألوهية. فيكون الذّكر الوحيد ذكر الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾<sup>١</sup> وحقيقة الألوهية هي التي تقف وراء كلّ ظواهر الوجود والعالم المعرّب عنها بالآيات. قال الله تعالى: ﴿سُرُّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>٢</sup>. وإنّما كانت هذه الحقيقة هي النافع الوحيد لأجل انحصار كلّ خير وكمال بما. فيكون الإعراض عنها إعراضاً عن مصدر السعادة الأوحّد. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾<sup>٣</sup>، وإنّ القول الجامع لهذه الحقيقة هو لا إله إلا الله. ولهذا، قال الإمام الخميني قدس سره في شرحه لجنود العقل والجهل "فليعمد إلى ذكر "لا إله إلا الله" الشّريف الذي هو أفضل الأذكار وأجمعها"<sup>٤</sup>. ويقول قدس سره: "إذا استحکم في القلب أصل التوحيد الفعليّ للحقّ وسقي بماء العلم التوأم للعمل اللطيف الذي يقرع باب القلب تكون نتيجته تذکر مقام الألوهية، ويصفو القلب بالتدرّج للتجلّي الفعليّ للحق"<sup>٥</sup>.

ويكون هدف الذّكر ربط الإنسان بمصدر الكمال والسعادة الأوحّد، ويكون تذکر ما سواه نافعاً ومفيداً في هذا المجال إذا نظر إليه بمنظار الإسميّة والمظهرية، كما قال الإمام قدس سره: "لا بدّ للسالك أن يفهم قلبه أنّ جميع الموجودات الظاهرة والباطنة وجميع عوالم الغيب والشّهادة تحت تربية أسماء الله، بل هي ظاهرة بظهور أسماء الله وجميع حركاته وسكناته وجميع العالم بقيومية الاسم الأعظم، فمحامده للحقّ وعبادته وإطاعته وتوحيده وإخلاصه كلّ ذلك بقيومية الاسم الله، فإذا أحكم واستقرّ هذا المقام وهذه اللطيفة الإلهية في قلبه بواسطة التذکر الشّدید الذي هو غاية العبادات، كما قال تعالى في خلوة الأنس ومحفل القدس لكليمه موسى بن عمران: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

<sup>١</sup> سورة الرعد، الآية ٢٨.

<sup>٢</sup> سورة فصلت، الآية ٥٣.

<sup>٣</sup> سورة طه، الآية ١٢٤.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ١١٠.

<sup>٥</sup> معراج السالكين، ص ٢٣٤.

لِلذِّكْرِ<sup>١</sup>. فجعل غاية إقامة الصلاة ذكره، فبعد التذکر الشديد يُفتح لقلب العارف طريق آخر من المعارف ويُجذب الى عالم الوحدة حتى يكون لسان حاله وقلبه بالله، الحمد لله، وأنت كما أثبتت على نفسك، وأعوذ بك منك<sup>٢</sup>.

### البرنامج العام للذكر

ولأجل تعميق هذا الذكر والتوجه في القلب، جعل الله تعالى أطراً عامة للذكر كالقرآن الكريم وأحوال الأولياء ومقاماتهم والصلاة والعوامل. ولا شك بأن أعظم الذكر هو القرآن بل هو الذكر. وهو المقصد الأعلى للذكر أيضاً. وقد بلغ أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام مرتبة صاروا فيها أهل الذكر. وهم المعنويون بقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>٣</sup>.

وداخل هذه الأطر العامة يوجد مجموعة من الحقائق المرتبطة بأحوال السالكين ومراتبهم وحاجاتهم المعنوية والسلوكية. وسوف نتعرض إلى الشواهد العديدة من كلمات الإمام الخميني قدس سره في هذا المجال.

### ١- القرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾<sup>٤</sup>، وقال عز من قائل: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِشَدِيدِ بِهِ وَذِكْرِي لِلْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>٥</sup>.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "من عود نفسه على قراءة الآيات والأسماء الإلهية من كتاب التكوين والتدوين الإلهيين يصير قلبه بالتدريج على صورة الذكرى والآية ويتحقق باطن الذات بذكر الله واسم الله وآية الله"<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> سورة طه، الآية ١٤.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٢٥١.

<sup>٣</sup> سورة النحل، الآية ٤٣.

<sup>٤</sup> سورة الإسراء، الآية ٤١.

<sup>٥</sup> سورة الأعراف، الآية ٢.

<sup>٦</sup> معراج السالكين، ص ٢٢٦.

## ٢- أولياء الله

"نرى ذكر الأولياء ومقاماتهم دحيلاً في تصفية القلوب وتخليصها وتعميرها. لأنّ ذكر خير أصحاب الولاية والمعرفة يوجب المحبة والتواصل والتناسب، وهذا التناسب يوجب التجاذب، وهذا التجاذب يؤدي إلى الشافع الذي ظاهره الإخراج من ظلمات الجهل إلى أنوار الهداية والعلم، وباطنه الظهور بالشفاعة في عالم الآخرة، لأنّ شفاعة الشافعين لا تكون من دون تناسب وتجادب باطني ولا تكون من الجزاف والباطل".<sup>١</sup>

وفي الكافي الشريف: "عَنْ الْعَرْفُوفِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أبا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: "اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا إِخْوَةً بَرَّةً فِي اللَّهِ مُتَوَاصِلِينَ مُتَرَاحِمِينَ. تَرَاوَرُوا وَتَلَاقُوا وَتَذَكَّرُوا أَمْرًا وَأَحْيَا"<sup>٢</sup>.

## ٣- الصلاة

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾<sup>٣</sup> يقول الإمام قدس سره: "لو أن يقظة الليل تكشف للإنسان حقيقة الصلاة وسرها، لأنس بذكر الله والتفكير في الله، ولجعل الليالي مركوبة للعروج إلى قربته تعالى، ولما كان ثمة ثواب له إلا جمال الحق الجميل وحده"<sup>٤</sup>.

"واعلم أنّ المصلّي اذا تحقّق بمقام الذكر ورأى جميع ذرات الكائنات، من أعلى الموجودات إلى أدناها أسماء إلهية، وأخرج عن قلبه جهة الاستقلال، ونظر إلى موجودات عوالم الغيب والشهود بعين الاستقلال، تحصل له مرتبة التّحميد ويعترف قلبه أنّ جميع المحامد من مختصات الذات الأحديّة وليس لسائر الموجودات فيها شركة لأنّه ليس لها كمال من أنفسها حتّى يقع الحمد والتّناء لها"<sup>٥</sup>.

## ٤- العالم التكويني

يصبح العالم وسيلة لذكر الله ووحدانيتته عندما ننظر إليه كمرآة وآيات. لهذا، قال

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٢٣٢.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٣٤٣.

<sup>٣</sup> سورة طه، الآية ١٤.

<sup>٤</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٣٨-٢٣٩.

<sup>٥</sup> معراج السالكين، ص ٢٢٧.

الإمام قلس سره: "من عوّد نفسه على قراءة الآيات والأسماء الإلهية من كتاب التكوين والتدوين الإلهيين يصير قلبه بالتدريج على صورة الذكرى والآية ويتحقق باطن الدّات بذكر الله واسم الله وآية الله"<sup>١</sup>.

كانت هذه برامج عامّة للذّكر، وفيها الكثير من التفاصيل، نذكر منها على سبيل التّماذج والمصاديق لا الحصر:

#### ٥- نعماء الله تعالى

"من الأمور التي تُعين الإنسان . وبصورة كاملة . في مجاهدته للنفس والشيطان، والتي ينبغي للإنسان السّالك المجاهد الانتباه إليها جيّدًا هو "التذكّر". والذّكرى في هذا المقام، هي عبارة عن ذكر الله تعالى ونعمائه التي تلتطفّ بها على الإنسان"<sup>٢</sup>.

#### ٦- فقر الكائنات

"فإذا صار فقر الممكن وذلّته وعظمة الحقّ وكبرياؤه حلّت قدرته نصب عين السّالك ووصل التفكّر والذّكر إلى حدّ التّصاب، وحصل للقلب الأُنس والسّكينة، فيشاهد بعين البصيرة آثار جلال الحقّ وكبريائه في جميع الموجودات"<sup>٣</sup>. ف "لا بدّ للسّالك أن يذّكر قلبه وقواه بعجز نفسه وكبرياء الحقّ"<sup>٤</sup>.

#### ٧- الآيات الأواخر من سورة الحشر

"إذا عمد في وقت الفراغ من المشاغل النّفسيّة والخواطر، والواردات الدنيويّة مثل أواخر الليل أو ما بين الطّلوعين، إلى تلاوة الآيات الأواخر من سورة الحشر المباركة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهي الآية ١٨ من السورة إلى آخرها . وهي آيات تشتمل على التذكير ومحاسبة النّفس، وتتضمّن الإشارة إلى مراتب توحيد الله وأسمائه وصفاته . نقول إذا عمد على تلاوتها مع التّوجّه القلبيّ والتّدبّر فيها، فإنّ المرجوّ إن شاء الله أن يحصل نتائج طيبة"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٢٢٦.

<sup>٢</sup> الأبرعون حديثًا، ص ٣٢-٣٣.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ١٤١-١٤٢.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ١٤٠.

<sup>٥</sup> جنود العقل والجهل، ص ١١٠.

## ٨- رحمة الله المطلقة

"(على السالك) أن يدخل إلى قلبه بالطريقة نفسها العلم بسعة رحمة الحقّ تعالى ولطفه وشفقته ورأفته بعباده، وذلك بالتذكّر الشديد والتفكّر في رحمت الحقّ تعالى المحيطة به منذ ما قبل ولادته وإلى آخر الأبد، فيدرك قلبه، تدريجيًا، نموذجًا من المحبة الإلهية، وكلّما كان التذكّر أشدّ . خصوصًا في أوقات تفرّغ القلب . ازدادت هذه المحبة، حتّى يرى الحقّ تعالى أرحم به وأرف من كلّ موجود، ويشاهد بنور البصيرة القلبية حقيقة "أرحم الراحمين" . ويدخل بهذه الكيفية، أيضًا أركان التوكّل الآخر إلى قلبه، أي بشدّة التذكّر ورياضة القلب، حتّى يأنس القلب ويألف تلك الحقائق، وعندها تتجلّى مقتضيات ولوازم هذه المعارف في باطن قلبه".<sup>١</sup>

## ٩- يا حيّ يا قيوم

"إجمالاً فإنّ ذكر الله بالخصوص، كما قيل، اسمه المبارك "يا حيّ يا قيوم" بحضور القلب وتوجّهه، مفيد في إحياء القلب".<sup>٢</sup>

## ١٠- لا إلّا أنت سبحانك إنّني كنت من الظالمين

"ينقل عن بعض أهل الذّكر والمعرفة والإكثار من القول: "لا إله إلّا أنت سبحانك إنّني كنت من الظالمين" في سجدة واحدة مرّة كلّ يوم وليلة مفيدة في الرقيّ الروحيّ. وتُقل عن بعض سالكي طريق الآخرة أنّه لما سمع قول أستاذه الشّيخ الجليل بشأن فائدة هذا العمل كان يسجد مرّة في اليوم واللييلة ويكرّر هذا الذّكر ألف مرّة، وتُقل عن آخر أنّه كان يكرره ثلاثة آلاف مرّة".<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٩٣.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٢٤.

<sup>٣</sup> (ن.م).

## بعض خصائص الذكر

يقول الإمام قدس سره: "ويكون التذکر للآيات والأسماء والصفات وتذکر الحقّ وجماله وجلاله باعناً على حدّة في البصيرة وإزاحة الحجب"<sup>١</sup>.

و"عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ الَّتِي لَمْ تُغَيَّرْ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ فَقَالَ: يَا رَبِّ أَقْرَبُ أَنْتَ مِنِّي فَأُنَاجِيكَ، أَمْ بَعِيدٌ فَأُنَادِيكَ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: يَا مُوسَى أَنَا جَلِيسٌ مَن ذَكَرَنِي. فَقَالَ مُوسَى: فَمَنْ فِي سِتْرِكَ يَوْمَ لَا سِتْرَ إِلَّا سِتْرُكَ. فَقَالَ: الَّذِينَ يَذْكُرُونِي فَأَذْكُرُهُمْ وَيَتَحَابُّونَ فِيَّ فَأُحِبُّهُمْ فَأَوْلِيكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ أَنْ أُصِيبَ أَهْلَ الْأَرْضِ بِسُوءٍ ذَكَرْتُهُمْ فَدَفَعْتُ عَنْهُمْ بِهِمْ". يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ، أَنَّ لَذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّحَابِّ بَيْنَ الْأَشْخَاصِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، خِصَائِصٌ: إِحْدَاهَا . وَهِيَ الْأَهَمُّ . أَنَّ ذِكْرَ الْعَبْدِ لِلَّهِ، يَبْعَثُ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، كَمَا نَطَقَتْ بِهَذَا الْمَضْمُونِ أَحَادِيثٌ أُخْرَى أَيْضًا. وَيَقَابِلُ هَذَا الذِّكْرَ النَّسِيانَ، قَدْ قَالَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ النَّاسِي فِي الْقُرْآنِ ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾<sup>٢</sup>. فَكَمَا أَنَّ نَسِيانَ الْآيَاتِ وَالْعَمَى الْبَاطِنِيَّ عَنْ رُؤْيَةِ مَظَاهِرِ جَمَالِ الْحَقِّ وَجَلَالِهِ يَسَبِّبُ عَمَى فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ، يَكُونُ التَّذَكُّرُ لِلْآيَاتِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالتَّذَكُّرُ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ وَجَمَالَهُ وَجَلَالَهُ بَاعْتِانًا عَلَى حِدَّةٍ فِي الْبَصِيرَةِ، وَإِزَاحَةً لِلْحَجَبِ، بِقَدْرِ قُوَّةِ التَّذَكُّرِ وَنُورَانِيَّتِهِ. هَذَا وَإِنَّ تَذَكُّرَ آيَاتِ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ، وَصِيورَتِهِ . هَذَا التَّذَكُّرُ . مَلَكَةٌ . رَاسِخَةٌ . فِي الْإِنْسَانِ يَجْعَلُ لِبَصِيرَتِهِ قُوَّةً، فَيَرَى مِنْ خِلَالِ الْآيَاتِ، جَمَالَ الْحَقِّ سَبْحَانَهُ، وَإِنَّ تَذَكُّرَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ يَبْعَثُ عَلَى مَشَاهِدَةِ الْحَقِّ فِي تَجَلِّيَاتِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. وَإِنَّ تَذَكُّرَ الدَّاتِ عَزَّ شَأْنَهُ مِنْ دُونَ حِجَابِ الْآيَاتِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، يُوَجِّبُ رَفْعَ الْحَجَبِ بِأَسْرَافِهَا وَمَشَاهِدَةَ الْحَبِيبِ مِنْ دُونَ غَشَاءِ وَحِجَابِ. وَيَعْتَبَرُ هَذَا . التَّفْسِيرُ . وَاحِدًا مِنْ التَّوَجِيهَاتِ وَالتَّفْسِيرَاتِ لِلْفَتْوحَاتِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي هِيَ قِرَّةُ عَيْنِ الْعُرْفَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَهِيَ: الْفَتْحُ الْقَرِيبُ . الْفَتْحُ الْمَبِينُ . الْفَتْحُ الْمَطْلُوقُ . الَّذِي هُوَ فَتْحُ الْفَتْوحِ"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٣٢٣.

<sup>٢</sup> سورة طه، الآية ١٢٦.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثًا، ص ٣٢٣-٣٢٤.

## المفاهيم الرئيسة

١- عندما يكون الحديث عن الأعمال والعبادات الذكرية فإنّ الذكر يشير إلى ما ينبغي أن نقوم به من أجل الوصول إلى هذا المقام الشامخ.

٢- حقيقة الذكر والتذكّر هي الذكر القلبي. أمّا الذكر اللساني بدون الذكر القلبي فهو بلا لبّ وساقط عن درجة الاعتبار تمامًا.

٣- إنّ الذكر القلبيّ إذا وصل إلى نصابه وبلغ حدّه المطلوب سرى من القلب إلى جميع مراتب النفس.

٤- الحقيقة الوحيدة التي يؤدّي تذكّرها إلى تلك الآثار العظيمة في النفس حاضرًا ومستقبلاً هي حقيقة الألوهية. فيكون الذكر الوحيد هو ذكر الله تعالى.

٥- هدف الذكر ربط الإنسان بمصدر الكمال والاستعادة الأوحد، ويكون تذكّر ما سواه نافعًا ومفيدًا في هذا المجال إذا نُظر إليه بمنظار الإسميّة والمظهرية.

٦- غاية إقامة الصلاة هي ذكر الله، وبعد التذكّر الشّدِيد يُفتح لقلب العارف طريق آخر من المعارف ويُجذب إلى عالم الوحدة.

٧- لا شكّ بأنّ أعظم الذكر هو القرآن بل القرآن هو الذكر، وهو المقصد الأعلى للذكر أيضًا. وقد بلغ أهل بيت العصمة والطّهارة مرتبة صاروا فيها أهل الذكر.

٨- أمور أخرى تساهم في تصفية القلب وأن يكون الإنسان من الذاكرين:

- التّظنر إلى العالم التكويني.
- تذكّر العبودية.
- تذكّر نعماء الله وأسمائه وصفاته.
- تذكّر عجز نفسه وفقر الكائنات وكبرياء الحقّ.
- تلاوة الآيات الأواخر من سورة الحشر مع تدبّر.
- تذكّر أحوال النفس وما ينفعها من أعمال صالحة لتغييرها.
- وذكر اسم "يا حيّ يا قيوم" والإكثار من قول "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين".

دعاء:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إلهي لَوْلَا الْوَاجِبُ مِنْ قُبُولِ أَمْرِكَ لَنَزَهْتُمْكَ مِنْ ذِكْرِي إِيَّاكَ عَلَى أَنْ ذِكْرِي لَكَ بِعَدْرِي لَا بِعَدْرِكَ وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مِقْدَارِي حَتَّى أُجْعَلَ مَحَلًّا لِتَقْدِيرِكَ وَمِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ عَلَيْنَا جَرِيَانُ ذِكْرِكَ عَلَيَّ أَلَسْتِنَا وَإِذْنُكَ لَنَا بِدُعَائِكَ وَتَنْزِيهِكَ وَتَسْبِيحِكَ إلهي فَأَلْهَمْنَا ذِكْرَكَ فِي الْخَلَاءِ وَالْمَلَأِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْإِعْلَانِ وَالْإِسْرَارِ وَفِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَأَنْسَنَا بِالذِّكْرِ الْحَقِّيِّ وَاسْتَعْمَلْنَا بِالْعَمَلِ الرَّكِّيِّ وَالسَّعْيِ الْمَرْضِيِّ وَجَازِنَا بِالْمِيزَانِ الْوَفِيِّ، إلهي بِكَ هَامَتِ الْقُلُوبُ الْوَاهِتَةُ وَعَلَى مَعْرِفَتِكَ جُمِعَتِ الْعُمُومُ الْمُتَبَايِنَةُ فَلَا تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ إِلَّا بِذِكْرِكَ وَلَا تَسْكُنُ النُّفُوسُ إِلَّا عِنْدَ رُؤْيَاكَ ... إلهي أَنْتَ قُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وَقُلْتَ وَقَوْلُكَ الْحَقُّ فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ فَأَمَرْتَنَا بِذِكْرِكَ وَعَدَدْتَنَا عَلَيْهِ أَنْ تَذْكُرْنَا تَشْرِيفًا لَنَا وَتَفْخِيمًا وَإِعْظَامًا وَهَا نَحْنُ ذَاكِرُوكَ كَمَا أَمَرْتَنَا فَأُنْجِزْ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا يَا ذَاكِرَ الذَّاكِرِينَ وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ<sup>١</sup>.

الروايات الشريفة:

١ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مِنْ أَشَدِّ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ ذِكْرُ اللَّهِ كَثِيرًا، ثُمَّ قَالَ: لَا أَعْنِي سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لَهُ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَإِنْ كَانَ مِنْهُ، وَلَكِنْ ذَكَرَ اللَّهُ عِنْدَ مَا أَحَلَّ وَحَرَّمَ فَإِنْ كَانَ طَاعَةً عَمِلَ بِهَا وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً تَرَكَهَا"<sup>٢</sup>.

٢ - عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي حَمَزَةَ قَالَ: "سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: شِيعَتُنَا الرَّحْمَاءُ بَيْنَهُمُ الَّذِينَ إِذَا خَلَوْا ذَكَرُوا اللَّهَ إِنَّ ذِكْرَنَا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ إِنَّا إِذَا ذُكِرْنَا ذُكِرَ اللَّهُ وَإِذَا ذُكِرَ عَدُونَا ذُكِرَ الشَّيْطَانُ"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، مناجاة الذاكرين.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٨٠.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ص ١٨٦.

٣- عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ فِي حَدِيثٍ يَقُولُ فِي آخِرِهِ تَسْبِيحُ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ: "مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ الْكَثِيرِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ"<sup>١</sup>.

٤- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِنَّ لِلذِّكْرِ أَهْلًا أَحَدُهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ وَ يَهْتَفُونَ بِهِ فِي آذَانِ الْغَافِلِينَ"<sup>٢</sup>.

٥- عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهَ وَإِنْ قَلَّتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتَلَاوُثُهُ لِلْقُرْآنِ، وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فَقَدْ نَسِيَ اللَّهَ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصِيَامُهُ وَتَلَاوُثُهُ لِلْقُرْآنِ"<sup>٣</sup>.

٦- قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي السِّرِّ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَلَانِيَةً وَ لَا يَذْكُرُونَهُ فِي السِّرِّ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾"<sup>٤</sup>.

٧- عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "إِنَّ إبْلِيسَ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ يَبِثُ جُنُودَ اللَّيْلِ مِنْ حَيْثُ تَغِيبُ الشَّمْسُ وَتَطْلُعُ فَأَكْثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَاتَيْنِ السَّاعَتَيْنِ وَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ إبْلِيسَ وَجُنُودِهِ وَتَعَوَّدُوا صِغَارَكُمْ فِي تِلْكَ السَّاعَتَيْنِ فَإِنَّهُمَا سَاعَتَا غَفْلَةٍ"<sup>٥</sup>.

٨. عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَائِمًا كَانِ أَوْ جَالِسًا أَوْ مُضْطَجِعًا إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾"<sup>٦</sup>.

٩. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ لِمُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ: "يَا مُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِمٍ لَا تَدْعَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ وَلَوْ سَمِعْتَ الْمُنَادِيَ يُنَادِي بِالْأَذَانِ وَأَنْتَ عَلَىٰ الْخَلَاءِ فَادْكُرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَقُلْ كَمَا يَقُولُ الْمُؤَدَّنُ"<sup>٧</sup>.

<sup>١</sup> وسائل الشريعة، ج ٦، ٤٤٢.

<sup>٢</sup> غرر الحكم، ١٨٨.

<sup>٣</sup> مستدرک الوسائل، ج ٥، ص ٤٠٣.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ٢، ص ٥٠١.

<sup>٥</sup> (ن)، ص ٢٥٥.

<sup>٦</sup> وسائل الشريعة، ج ٧، ص ١٥٠.

<sup>٧</sup> من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٨٨.



## الدرس الحادي عشر: الذكر (٢) - أهمية الذكر ودوره

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرف إلى أهمية الذكر وتأثيره على حياتنا ومصيرنا.
- ٢- يشرح دور الذكر في إصلاح النفس وتهذيبها والخروج من الحجب.
- ٣- يفهم دور الذكر في الوصول إلى الغاية التي خلقنا لأجلها.



## تمهيد

عندما نتأمل في التأثيرات العظيمة للذكر على مستوى بناء الشخصية ومصيرها، ندرك أننا أمام كنز عظيم لا شبيه له. بل نتعرف إلى البعد الجوهرى في برنامج الإسلام في صناعة الإنسان الكامل. كيف لا! والذكر عبارة عن الحضور في محضر الحق المتعال. وهل يمكن لمثل هذا الحضور إلا أن يبدل هوية الإنسان الطبيعية إلى الهوية الربانية. أليس الذكر تلك الصبغة التي تصبغ وجود الإنسان فتحوله إلى مخلوق ملكوتي.

فما أحوجنا إلى التأمل والتفكير في هذه الآثار التي يجعل كل واحد منها الإنسان أمام مشهد عظيم للنعم الإلهية بحيث لا يستبدل به شيئاً.

## أهمية الذكر وعظمته

يقول الإمام الخميني قدس سره: "في الكافي بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنِ الْفَضِيلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَا مِنْ مَجْلِسٍ يَجْتَمِعُ فِيهِ أِبْرَارٌ وَفُجَارٌ فَيَقُومُونَ عَلَى غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا كَانَ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>١</sup>. من الواضح أنّ الإنسان عندما تنكشف عليه يوم القيامة النتائج العظيمة لذكر الله، ويرى نفسه بعيداً عنها، ويعلم بأنه قد حُرِمَ من نعمٍ كثيرة، ولا يستطيع تداركها، تستولي عليه الحسرة والتندامة. فيجب على الإنسان أن يغتنم الفرصة ولا يُخْلِي مجالسه ومحافله من ذكر الله"<sup>٢</sup>.

إنّ عظمة الذكر وأهميته تُعرف من خلال التأمل في آثاره الكثيرة والعميقة وفي أدواره العديدة ومساهمته في تهذيب النفس وتكميلها. وقد نقلنا عن الإمام الخميني قدس سره مجموعة مهمة من الشواهد التي تدلّ على هذا المطلب، ندرجها ضمن العناوين التالية:

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٤٩٦.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٣٢٨-٣٢٩.

## الوصول إلى الكمال المطلق

"لو أنّ حقيقة الذكر تحوّلت إلى صورة باطنية للقلب، وانفتحت مملكة القلب على يديه . الذكر . لجرى حكمه في كلّ الممالك والأقاليم . القوى الجسميّة الظاهرية والباطنية . ولكانت حركة وسكون العين واللسان واليد والرجل، وأفعال كلّ القوى والجوارح مع ذكر الحقّ . ولم تقم . القوى الظاهرية والباطنية في جسم الإنسان . بإنجاز ما يخالف الوظائف الشرعيّة المقرّرة . فتكون حركاتها وسكناتها مبدّوة ومختومة بذكر الحقّ، وتنفّذ ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾<sup>١</sup> في جميع أطراف المملكة . جسم الإنسان بما فيه القوى الظاهرية والباطنية .

وفي النتيجة يتحوّل الإنسان إلى حقيقة الأسماء والصفات، بل إلى صورة اسم الله الأعظم، ومظهره . وهذه هي الغاية القصوى لكمال الإنسان ومنتهى رجاء أهل الله . وكلّما حصل انخفاض عن هذا المستوى الرفيع، وقلّ نفوذ الذكر . في الإنسان . انتقص وبنفس النسبة من كمال الإنسان، وأثر نقصان كل من الظاهر والباطن، في الآخر، لأنّ نشأت وجود الإنسان مترابطة ومتأثّرة ببعضها ببعض"<sup>٢</sup> .

و"من عوّد نفسه على قراءة الآيات والاسماء الالهية من كتاب التكوين والتدوين الالهيين يصير قلبه بالتدريج على صورة الذكرى والآية ويتحقق باطن الذات بذكر الله واسم الله وآية الله"<sup>٣</sup> .

## زيادة الإيمان

"يقول تبارك وتعالى في الآية الثانية من سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>٤</sup> إلى أن يقول: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ . فهو تبارك وتعالى يصرّح . وعلى نحو الحصر . بأنّ المؤمنين هم الذين يتحلّون بهذه الصفات، أي أنّ غيرهم ليسوا بمؤمنين: ثمّ يختم هذا الوصف بتأكيد الأمر والتّصريح بأنّ الذين تتوفّر فيهم هذه الصفات هم وحدهم المؤمنون حقّاً . وصفاتهم

<sup>١</sup> سورة هود، الآية ٤١ .

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٣٢٧ .

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٢٢٦ .

<sup>٤</sup> سورة الأنفال، الآية ٢ .

المذكورة في الآية قد لاحظتموها، وأنتم تدعون الإيمان، وقد أدركتم عقلياً جميع أركانه ولديكم دليل عقلي وأوجدتم دليلاً لكلّ منها، فارجعوا إلى أنفسكم وتدبروا فيها ولاحظوا أي من تلك الصفات موجودة في قلوبكم! تسمعون أو تردّدون كل هذا الذّكر لله تعالى ولكن أين "وجل القلوب" الذي يظهر على المؤمن عند ذكر الله؟ لا ريب في أنّ القلب الذي يدرك وجدانيّاً عظمة الحقّ تعالى وجلاله، ولم يتجلّ فيه كبرياؤه تعالى وعلوّه، لا يوجل من ذكره عزّ وجلّ".<sup>١</sup>

### إصلاح النفوس وتهذيبها

"إنّ الارتباط المذكور بين الرّوح والقوى الظّاهرة، يؤدّي إلى تأثير الأعمال والأحوال الظاهرية على الرّوح وترك آثار واضحة عليها، فالأعمال الصّالحة الحسنة، والأعمال السيّئة والقبیحة، تؤدّي إلى ظهور الملكات الحسنة والفاضلة والملكات السيّئة والخبیثة، وبالتالي تتشكّل بها حقيقة الباطن، وتتهيأ أرضية التّسخ المملوكويّ. من هنا يتّضح سرّ التدبّ إلى تكرار الأذكار والأعمال الصّالحة، فهذا التّكرار يؤدّي إلى ظهور الملكات الفاضلة في الرّوح والمملوكوت. أمّا الأعمال القبیحة والسيّئة فهي شديدة التّأثير في النّفس لأنّها تتلائم عادةً مع اللذات والشّهوات النفسية، لذلك فإنّ القيام بها يكون بتوجّه قلبيّ ونفسيّ فيشتدّ تأثيرها، من هنا فقد شدّدت الشرائع الإلهية في التّهي عنها ومنعها، ودعت إلى الإعراض عن جميع شؤون الطّبيعة، في حين أنّها دعت إلى عدم القناعة بالقيام بالأعمال الحسنة وصالحات الأذكار والأفعال مرّة واحدة أو بضع مرّات".<sup>٢</sup>

### فتح أبواب المملوكوت

"بالذّكر الحقيقيّ تُخرق الحجب بين العبد والحقّ تعالى، وتُزال موانع الحضور، وقسوة القلب وغفلته، وتُفتح في وجه السّالك أبواب المملوكوت الأعلى والألطف والرّحمة الإلهية".<sup>٣</sup> "فإذا أنست القلب بالتدكّر، تشملك العنايات الأزلية بالتدريج ويفتح على قلبك أبواب المملوكوت".<sup>٤</sup>

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٦-٩٧.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٤٩-٣٥٠.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ١٢٣-١٢٤.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ٢٢٩.

## غاية آمال العارفين

"إنَّ تذكّر الحقِّ جل وعلا والخلوة والمناجاة مع المحبوب وإظهار العبودية والذلّ أمام عظمة الكامل المطلق، غاية آمال العارفين وغمرة سلوك السالكين"<sup>١</sup>. "أما الكَمَل والأولياء والعارفاء فإنَّ تذكّر الحبيب في نفسه، غاية آمالهم وفي ظلّه يبلغون جمال حبيبهم. هَنِيناً لَهُمْ"<sup>٢</sup>.

## الإعانة التامة على الجهاد الأكبر

"ومن الأمور التي تُعين الإنسان . وبصورة كاملة . في مجاهدته للنفس والشيطان، والتي ينبغي للإنسان السالك المجاهد الانتباه إليها جيّداً هو "التذكّر". والتذكّر في هذا المقام، هي عبارة عن ذكر الله تعالى ونعمائه التي تلطّف بها على الإنسان"<sup>٣</sup>.

## ذكر الله له

"مقام الذّكر من المقامات العالية الجليلة التي لا يسع المجال لبيانها وهو فوق حدود التقرير والتّحرير، وتكفي لأهل المعرفة والجدبة الإلهية وأصحاب المحبة والعشق الآية الشريفة الإلهية ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكَرُكُمْ﴾. وقال الله تعالى لموسى: "يا موسى أنا جليس من ذكركي" .. وفي رواية الكافي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "من أكثر ذكر الله أحبّه الله". وفي الوسائل بإسناده إلى الصادق عليه السلام قال: قال الله عزّ وجلّ: "يا بن آدم اذكرك في نفسك أذكرك في نفسي، يا بن آدم اذكرك في خلاء أذكرك في خلاء، يا بن آدم اذكرك في ملاء أذكرك في ملاء خير من ملئك". وقال: "ما من عبد ذكر الله في ملاء من الناس إلّا ذكره الله في ملاء من الملائكة"<sup>٤</sup>.

## معالجة الأمراض القلبيةّة

"إذا صار فقر الممكن وذلته وعظمة الحقّ وكبرياؤه حلّت قدرته نصب عين السالك ووصل التّفكّر والذّكر إلى حدّ التّصاب، وحصل للقلب الأّنس والسّكينة، فيشاهد بعين البصيرة آثار جلال الحقّ وكبرياته في جميع الموجودات، وتعالج العلل والأمراض القلبيةّة، فيجد لذّة

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٩٦.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٢٥-٣٢٦.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٢-٣٣.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ٢٢٧.

المناجاة وحلاوة ذكر الله، ويصير القلب مقرًا لسلطان كبرياء الحقّ جلّ جلاله وتظهر آثار الكبرياء في ظاهر المملكة وباطنها ويوافق القلب اللسان والسرّ العلن، فتكبر جميع قوى الباطن والظاهر والملك والملكوت، ويرتفع أحد الحجب الغليظة، ويتقدم مرحلةً إلى حقيقة الصلاة التي هي معراج القرب"<sup>١</sup>.

### ترك المعاصي

"إذا عاش الإنسان مع الحقّ سبحانه وتعالى في جميع الأحوال وكافة المستجدّات، وشاهد نفسه أمام الذات المقدّس عزّ شأنه، لأحجم عن الأمور التي تسخط الله، وردع نفسه عن الطغيان. إنّ المشاكل والمصائب المنبثقة من النفس الأمّارة والشيطان الرجيم قد نشأت عن الغفلة عن ذكر الحقّ وعذابه وعقابه. إنّ الغفلة عن الحقّ تضاعف كدورة القلب، وتمكّن النفس والشيطان من التحكّم في الإنسان وتسبّب زيادة المفساد على مرّ الأيام. وإنّ التذكّر للحقّ جلّ شأنه يبعث على صفاء النفس وصلتها، ويجعلها مظهرًا للمحبوب ويوجب صفاء الرّوح ونقاؤها، ويجرّر الإنسان من أغلال الأسر، ويخرج حبّ الدنيا الذي هو رأس الخطايا ومصدر السيئات من القلب، ويجعل المهموم همًّا واحدًا، والقلب نظيفًا وظاهرًا"<sup>٢</sup>.

### فتح العين الباطنية

"التذكّر التام لحضرة الحقّ والتوجّه المطلق بباطن القلب إلى تلك الذات المقدّسة موجب لفتح العين الباطنية للقلب الذي به يحصل لقاء الله وهو قرّة عين الأولياء ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾"<sup>٣</sup>.

### إزالة الحجب وقسوة القلب

"بالتذكّر الحقيقيّ تخرق الحجب بين العبد والحقّ تعالى، وتنزل موانع الحضور، وقسوة القلب وغفلته، وتفتح في وجه السالك أبواب الملكوت الأعلى الألفاظ والرحمة الإلهية"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ١٤١-١٤٢.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٥١.

<sup>٣</sup> سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ٣٥١.

<sup>٥</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٢٣-١٢٤.

## الإعراض عن الدنيا

"ذكر الله تعالى يجعل القلب مُعرضًا عن جميع منازل الطبيعة ومناظرها، بل ويجعل كلَّ العالم بكلِّ ما فيه عدماً لا قيمة له في عينه، فلا يتعلَّق بشيءٍ منه، بل ينحصر تعلقه بالحقِّ تعالى وحده، حتَّى تبلغ همَّته مرتبةً من العلوِّ لا يقيم معها وزناً لجميع عوالم الوجود، وعندها لا تضعف همَّته بسبب الواردات القلبيَّة مهما كانت، فلا يستشعر الكِبَر في نفسه بسبب هذه الواردات بل إنَّه يستصغر كلَّ شيءٍ غير الحقِّ تعالى وآثار جماله وجلاله"<sup>١</sup>.

## عمارة الآخرة

"إنَّ لكلَّ من الأعمال الحسنة والأفعال العباديَّة صورة باطنيَّة ملكوتيَّة، وأثر في قلب العابد، أمَّا الصوِّرة الباطنيَّة فهي التي تعمِّر العوالم البرزخيَّة والجنَّة الجسمانيَّة، لأنَّ أرض الجنَّة قاع خالية من كلِّ شيءٍ كما ورد في الحديث، وإنَّ الأذكار والأعمال موادَّ إنشاء وبناء لها"<sup>٢</sup>.

## التخلُّص من الغضب

"الغضب أشبه بالنار، فهو يزداد شيئاً فشيئاً ويشتدُّ، حتَّى يتعالى لهيبه، وترتفع حرارته ويفلت العنان من يد الإنسان، ويخمد نور العقل والإيمان، ويطفئ سراج الهداية، فيصبح الإنسان ذليلاً مسكيناً. فعلى الإنسان أن يأخذ حذره قبل أن يزداد اشتعاله ويرتفع سعيره... فإذا كان جالساً فلينهض واقفاً، وإذا كان واقفاً فليجلس، أو أن يشغل نفسه بذكر الله تعالى. بل هناك من يرى وجوب ذكر الله في حال الغضب"<sup>٣</sup>.

## نبيل الشَّفاعة

"نرى ذكر الأولياء ومقاماتهم دخيلاً في تصفية القلوب وتخليصها وتعميرها. لأنَّ ذكر خير أصحاب الولاية والمعرفة يوجب المحبة والتواصل والتناسب، وهذا التناسب يوجب التجاذب وهذا التجاذب يؤدي إلى الشَّفاعة الذي ظاهره الإخراج من ظلمات الجهل إلى أنوار الهداية والعلم، وباطنه الظهور بالشَّفاعة في عالم الآخرة، لأنَّ شَّفاعة الشَّافعين لا تكون من دون تناسب وتجاذب باطني ولا تكون من الجزاف والباطل"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٤.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٧١.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ١٦٦.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ٢٣٢.

## المفاهيم الرئيسة

١- عندما تنكشف على الإنسان يوم القيامة النتائج العظيمة لذكر الله، ويرى نفسه بعيداً عنها، ويعلم بأنه قد حُرِم من نعمٍ كثيرة، ولا يستطيع تداركها، تستولي عليه الحسرة والتّدامة. فيجب على الإنسان أن يغتنم الفرصة ولا يُخلى مجالسه ومحافله من ذكر الله.

٢- إنّ عظمة الذّكر وأهميته تُعرف من خلال التأمل في آثاره الكثيرة والعميقة وفي أدواره العديدة ومساهمته في تهذيب النّفس وتكميلها.

٣- بعض الشواهد على آثار الذكر وأدواره: الوصول الى غاية آمال العارفين، إصلاح النّفوس وتهذيبها، فتح أبواب الملكوت، الوصول الى الكمال المطلق، زيادة الايمان، الإعانة التامة على الجهاد الأكبر، عمارة الآخرة، ذكر الله له، فتح العين الباطنية، إزالة الحجب وقسوة القلب، الإعراض عن الدّنيا، معالجة الأمراض القلبية، ترك المعاصي، التخلص من الغضب، إحياء القلب، ونيل الشّفاة.

٤- تكرار الأذكار والأعمال الصّالحة يؤدّي إلى ظهور الملكات الفاضلة في الرّوح والملكوت.

٥- بالذّكر الحقيقي تُخرق الحجب بين العبد والحقّ تعالى، وتُزال موانع الحضور، وقسوة القلب وغفلته، وتُفتح في وجه السّالك أبواب الملكوت الأعلى والألطف والرّحمة الإلهية.

٦- الغاية القصوى لكمال الإنسان ومنتهاى رجاء أهل الله هي أن يتحوّل الإنسان إلى حقيقة الأسماء والصفات بل إلى صورة اسم الله الأعظم ومظهره.

٧- لا ريب في أنّ القلب الذي يدرك وجدانيّاً عظمة الحقّ تعالى وجلاله، ولم يتجلّ فيه كبرياؤه تعالى وعلوّه، لا يوجل من ذكره عزّ وجلّ.

٨- التذكّر - بإحدى مقاماته - عبارة عن ذكر الله تعالى ونعمائه التي تلطفّ بها على الإنسان.

٩- إنّ التذكّر للحقّ جلّ يجعل النّفس مظهرًا للمحبوب ويحرّر الإنسان من أغلال الأسر، ويجعل المهموم همًّا واحدًا والقلب نظيفًا وطاهرًا لورود صاحبه. الحقّ جلّ وعلا.

دعاء:

يَا مَنْ ذَكَرُهُ شَرَفٌ لِلذَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ شَكَرُهُ فَوُزٌّ لِلشَّاكِرِينَ، وَيَا مَنْ طَاعْتُهُ نَجَاةٌ لِلْمُطِيعِينَ، صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَاشْعَلْ قُلُوبَنَا بِذِكْرِكَ عَنْ كُلِّ ذِكْرٍ، وَالسِّتْنَا بِشُكْرِكَ عَنْ كُلِّ شُكْرٍ، وَجَوَارِحَنَا بِطَاعَتِكَ عَنْ كُلِّ طَاعَةٍ فَإِنْ قَدَرْتَ لَنَا فَرَاغًا مِنْ شُغْلٍ فَاجْعَلْهُ فَرَاغَ سَلَامَةٍ لَا تُدْرِكُنَا فِيهِ تَبِعَةٌ، وَلَا تُلْحِقُنَا فِيهِ سَأْمَةٌ، حَتَّى يَنْصَرِفَ عَنَّا كُتَابُ السَّيِّئَاتِ بِصَحِيفَةٍ خَالِيَةٍ مِنْ ذِكْرِ سَيِّئَاتِنَا، وَيَتَوَلَّى كُتَابَ الْحَسَنَاتِ عَنَّا مَسْرُورِينَ بِمَا كُتِبُوا مِنْ حَسَنَاتِنَا<sup>١</sup>.

الروايات الشريفة:

١ - عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: طُوبَى لِمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ الْعِبَادَةَ وَالِدُعَاءَ وَلَمْ يَشْعَلْ قَلْبُهُ بِمَا تَرَى عَيْنَاهُ وَلَمْ يَنْسَ ذِكْرَ اللَّهِ بِمَا تَسْمَعُ أُذُنَاهُ وَلَمْ يَخْزَنْ صَدْرُهُ بِمَا أُعْطِيَ غَيْرُهُ"<sup>٢</sup>.

٢ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مِثْلُهُ وَقَالَ مَنْ أَكْفَرَ ذَكَرَ اللَّهُ أَظْلَمَ اللَّهُ فِي جَنَّتِهِ"<sup>٣</sup>.

٣ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا وَلَهُ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ إِلَّا الذِّكْرَ فَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْفَرَائِضَ فَمَنْ أَذَاهُنَّ فَهُوَ حَدُّهُنَّ وَشَهْرَ رَمَضَانَ فَمَنْ صَامَهُ فَهُوَ حَدُّهُ وَالْحَجَّ فَمَنْ حَجَّ فَهُوَ حَدُّهُ، إِلَّا الذِّكْرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَرْضَ مِنْهُ بِالْقَلِيلِ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا \* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، فَقَالَ: لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ حَدًّا يَنْتَهِي إِلَيْهِ"<sup>٤</sup>.

٤ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "كَانَ أَبِي عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرَ الذِّكْرِ لَقَدْ كُنْتُ أَمْشِي مَعَهُ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللَّهَ وَآكُلُ مَعَهُ الطَّعَامَ وَإِنَّهُ لَيَذْكُرُ اللَّهَ وَلَقَدْ كَانَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَمَا يَشْعَلُهُ ذَلِكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَكُنْتُ أَرَى لِسَانَهُ لَا يَفْصِحُ إِلَّا بِحُكْمِهِ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ يَجْمَعُنَا فَيَأْمُرُنَا بِالذِّكْرِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَيَأْمُرُ بِالْقِرَاءَةِ مَنْ كَانَ يَقْرَأُ مِنَّا وَمَنْ كَانَ لَا يَقْرَأُ مِنَّا أَمَرُهُ بِالذِّكْرِ"<sup>٥</sup>.

٥ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "الْبَيْتُ الَّذِي يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ وَيُذَكَّرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ تَكْثُرُ بَرَكَتُهُ وَتَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَهْجُرُهُ الشَّيَاطِينُ وَيُضِيءُ لِأَهْلِ السَّمَاءِ كَمَا يُضِيءُ الْكَوْكَبُ الدَّرِّيُّ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَالْبَيْتُ الَّذِي لَا يُقْرَأُ فِيهِ الْقُرْآنُ وَلَا يُذَكَّرُ اللَّهُ فِيهِ تَقَلُّ بَرَكَتُهُ وَتَهْجُرُهُ الْمَلَائِكَةُ وَتَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ"<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام بخواتيم الخير.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٦.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ١٢٢.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٤٩٨.

<sup>٥</sup> (ن.م) الكافي، ج ٢، ص ٤٩٨.

<sup>٦</sup> (ن.م).

٦- عن أبي عبد الله عليه السلام: "عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ لَكُمْ أَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَأَرْزَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَخَيْرِ لَكُمْ مِنَ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَقْتُلُوهُمْ وَيَقْتُلُوكُمْ؟ فَقَالُوا: بَلَى، فَقَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَثِيرًا"<sup>١</sup>.

٧- عن أبي عبد الله عليه السلام قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الْمَسْجِدِ؟ فَقَالَ: أَكْثَرُهُمْ لِلَّهِ ذِكْرًا، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنْ أُعْطِيَ لِسَانًا ذَاكِرًا فَقَدْ أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"<sup>٢</sup>.

٨- قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَنَا الرَّاعِي رَاعِي الْأَنْامِ أَ فَتَرَى الرَّاعِيَ لَا يَعْرِفُ غَنَمَهُ (فَقِيلَ لَهُ) مَنْ غَنَمَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ صَفْرُ الْوُجُوهِ دُبُلُ الشَّفَاهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ"<sup>٣</sup>.

٩- عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لِكُلِّ شَيْءٍ صَفَالَةٌ وَصَفَالَةُ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللَّهِ"<sup>٤</sup>.

١٠- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "أَكْثَرُ ذِكْرِ اللَّهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ وَالْخَوْفَ مِنْهُ يَكْفِيكَ مَا أَهَمَّكَ وَيُعِينِكَ عَلَى مَا وَلاَكَ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> (ن.م).

<sup>٢</sup> (ن.م).

<sup>٣</sup> وسائل الشيعة، ج ٧، ص ١٥٧.

<sup>٤</sup> مستدرک الوسائل، ج ٥، ص ٢٨٥.

<sup>٥</sup> بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٥٥٦.



## الدرس الثاني عشر: الذكر (٣) - تحصيل مقام الذكر وأهم موانعه

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يشرح الكيفيّة التي نصح فيها من الذاكرين.
- ٢- يبيّن دور التفكّر في تحصيل حالة الذكر.
- ٣- يتعرّف إلى أهم موانع الذكر وكيفية إزالتها.



## تمهيد

يتصور الكثيرون أن الذكر عبارة عن جريان الألفاظ الجميلة على اللسان. وقد درج العديد من الناس على التوقف عند الذكر اللساني باعتبار أنه يحقق الغرض من الذكر. لكن أدنى تأمل في معنى الذكر كفيل بإيقاظ الإنسان وفتح أبواب عظمة للحقائق الكبرى.

ومن هنا يدرك من عرف المعنى الواقعي للذكر أن الوصول إلى هذا المقام وتحصيل هذه الفضيلة الكبرى ليس بالأمر القليل. إن أولياء الله تعالى جعلوا ذكر الله تعالى هدفاً سامياً لحياتهم، وعرفوا أن غاية العبادة التحقق بهذه المنزلة الرفيعة. فما هي الطرق التي سلكوها لجعل قلوبهم وبواطنهم وسرائرهم ذاكرة ومستغرقة في ذكر الله الأعز الأجل؟

## كيف نصبح من الذاكرين

يذكر الإمام الخميني قدس سره مجموعة من الوصايا التي هي بمنزلة الشروط اللازمة والأعمال المفيدة للوصول إلى مقام الذكر الحقيقي. منها:

### ١- التفكر

إنّ خزائن الأفكار هي منابع الأذكار. فكلما اشتدّ الفكر في النفس وقوي، اشتدّ الذكر في القلب وتفعّل. ولا يمكن تحقيق حالة الذكر الدائم إلا بعد استكمال شروط الفكر.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "فلا بدّ للسالك أن يُحكّم أولاً بالبرهان الحكيم حقيقة لا مؤثّر في الوجود إلا الله ولا يفتر من المعارف الإلهية التي هي غاية بعثة الأنبياء ولا يعرض عن تذكّر الحقّ والشؤون الداتية والصفاتية. فإنّ منبع جميع السعادات هو تذكّر الحقّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾<sup>١</sup>. وإذا وصل بقدّم التفكر والبرهان إلى

<sup>١</sup> سورة طه، الآية ١٢٤.

حقيقة هذه اللطيفة الإلهية التي هي منبع المعارف الإلهية وباب أبواب الحقائق الغيبية، عليه أن يؤنس القلب بما بالتذكّر والرياضة حتى يؤمن بما. وهذا هو أول مرتبة لصدق مقالته، وعلامته الانقطاع إلى الحقّ وغضّ بصر الطمع والرّجاء عن جميع الموجودات. ونتيجته التوحيد الفعليّ الذي هو من أجلّ مقامات أهل المعرفة<sup>١</sup>.

## ٢- التفهيم

وهو حاصل التّفكّر. ويأتي بعده ويشبه التّلقين. يقول الإمام قدس سره: "ومن الآداب القلبية للعبادات . وخصوصا العبادات الذكّرية . التفهيم، وكيفيته: أن يعتبر الإنسان قلبه في أول الأمر كطفلٍ ما انفتح لسانه، وهو يريد أن يعلمه كألاً من الأذكار والأوراد والحقائق وأسرار العبادات بكمال الدقّة والعناية، ويفهمه الحقيقة التي أدركها في أيّ مرتبة كان فيها.

فإذا لم يكن من أهل فهم معاني القرآن والأذكار وليس له نصيب من أسرار العبادات، فيفهم القلب المعنى الإجماليّ وهو أنّ القرآن كلام الله والأذكار مذكّرات بالحقّ تعالى والعبادات إطاعة لأمر الربّ. ويفهم القلب هذه المعاني الإجمالية. وإن كان أهل فهم المعاني الصورية للقرآن والأذكار، فيفهم القلب المعاني الصورية من الوعد والوعيد والأمر والتّهي وعلم المبدأ والمعاد بالمقدار الذي أدركه. وإن كُشفت له حقيقة من حقائق المعارف، أو كُشف له سرّ من أسرار العبادات، فيعلم القلب ذلك المكشوف بجهدٍ واجتهاد.

ونتيجة هذا التفهيم هو أنّه بعد مدّة من المواظبة، يفتح لسان القلب ويصبح القلب ذاكرًا ومتذكّرًا. ففي أول الأمر كان القلب متعلّمًا واللسان معلّمًا، وكان القلب ذاكرًا بذكر اللسان وتابعا له في الذّكر. وأما بعدما انفتح لسان القلب يصبح الأمر معكوسًا، فيكون القلب ذاكرًا أولاً ويتبعه اللسان في الذّكر والحركة...

وبالجملة، ففي أول الأمر لا بدّ أن يلاحظ الإنسان هذا الأدب: أي التفهيم، حتى يفتح لسان القلب الذي هو المطلوب الحقيقيّ. وعلامة انطلاق لسان القلب أن يرتفع تعب الذّكر ومشقّته ويحصل النّشاط والفرح، ويرتفع الملل والألم، كشأن الإنسان إذا أراد أن يعلم طفلاً لم يشرع في التكلّم، فما دام الطّفل لم يتعلّم التّطق، فإنّ المعلّم يكون في تعب وملالة، فإذا انفتح لسان الطّفل وأدّى الكلمة التي علّمه إياها ارتفعت ملالة المعلّم. بل نجد المعلّم يؤدّي

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ١٤٤-١٤٥.

الكلمة تبعًا لأداء الطفل من دون ألم وتعب.

فالقلب أيضًا في أول الأمر طفل ما انفتح لسانه بالكلام، ولا بد له من التعلّم وتلقّن الأذكار والأوراد. فإذا انفتح لسان القلب، يكون تابعًا له وترتفع مشقة الذكر وتعب التعليم وملاحة الذكر. وهذا الأدب بالنسبة إلى المبتدئين ضروري جدًا<sup>١</sup>.

### ٣- العزم

"وحيث أنّ بلوغ المقامات وتحصيل الكمالات مبني على الاختيار والسعي والاستقبال والمحافظة فإنّ للعزم دورًا أساسيًا في تحقيق مقام الذكر. ولهذا، يقول الإمام مقدس سره: "ينبغي التنبّه إلى أنّ على السالك أنّ يعقد العزم على إدخال حقائق أركان التوكّل إلى قلبه بعد أن أدركها عقله استناداً إلى العلم البرهاني، ولا يتحقّق ذلك إلّا بأن ينتخب المجاهد لنفسه ساعةً من ليله ونهاره، يقلّ فيها اشتغال النفس بعالم الطبيعة والكثرة، ويكون قلبه فيها فارغ البال، فيشتغل فيها بذكر الحقّ تعالى مقرونًا بحضور القلب وتوجّهه وبالتفكير في الأذكار والأوراد المأثورة"<sup>٢</sup>.

### ٤- طهارة القلب من الرجس

"فإذا تطهّر القلب من الرجس استعدّ لذكر الله وتلاوة كتابه، ولكن ما دامت فيه قذارة ورجس عالم الطبيعة فلن تيسّر له الاستفادة من ذكر الله وتلاوة القرآن الكريم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في سورة الواقعة المباركة: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ \* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ \* لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، وقوله تعالى في سورة المؤمن: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾<sup>٣</sup>.

### ٥- الذكر اللساني

صحيح أنّ الذكر اللساني ليس بالذكر أصلاً لكنّه قد يكون نافعًا جدًا ومفيدًا لتحقيقه. بل يمكن عدّه بالنسبة للمحجوبين طريقًا أساسيًا. ويقدم الإمام الخميني قدس سره طريقة

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٤٣-٤٤.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٩٢.

<sup>٣</sup> سورة غافر، الآية ١٣.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٠٩.

الدُّكْر اللسانيّ، فيقول: "إنّ ذكر الحقّ بالنطق واللسان الذي يُعدّ من أقلّ مراتب الدُّكْر، يكون مجدّيًا ونافعًا أيضًا لأتسه:

أولًا: قام اللسان بوظيفته بواسطة ذكره وإن كان هذا الدُّكْر قالبًا لا روح له.

وثانيًا: يمكن أن يصير هذا الدُّكْر باللسان سببًا لتفتّح لسان القلب أيضًا بعد فترة من المواظبة على ذكر اللسان والاستمرار عليه بشروطه.

قال شيخنا الكامل العارف الشّاه آبادي . روحي فداه . يجب أن يكون الإنسان الدّاكر مثل المعلّم الذي يريد أن يعلم الطّفل الصّغير الذي لم ينطق بعد الكلمات، حيث يكرّر الكلمة، حتّى ينفّتح لسان الطّفل وينطق الكلمة، ثمّ نرى المعلّم يداعب الطّفل ويردّد الكلمة بمثل ما سمعها من الطّفل فيزول تعب المعلّم وكأنّ مددًا يبلغه من الطّفل. كذلك الدّاكر يجب أن يعلم قلبه الدُّكْر إذا لم ينفّتح لسانه . القلب . على الدُّكْر . وسبب تكرار الدُّكْر هو انفتاح لسان القلب على الدُّكْر . وآية انفتاحه . لسان القلب . أنّ لسان الفم يتبع القلب، فيزول نصب تكرار الدُّكْر وعناقه . في البدء كان اللسان ذاكرًا والقلب استمدّ الدُّكْر منه، وبعد انفتاح لسان القلب بالدُّكْر، يتبعه لسان الفم، ويستمدّ اللسان منه . القلب . الدُّكْر، أو من الغيب" <sup>١</sup>.

## ٦- التّكرار

لا شكّ بأنّ المطلوب هو مقام الدُّكْر لا حالته . لأنّ الأحوال تزول ولا تبقى . والمقامات هي كمالات النّفس التي تبقى . ولأجل تحقيق هذا الأمر ينبغي تكرار الرّياضات الرّوحيّة والمعنويّة . يقول الإمام مقدس سره: "يستحب تكرار الأذكار والأوراد والعبادات والمناسك . والسبب الرئيسيّ هو تعويد النّفس وترويضها . فلا تضجر عزيزي من التّسكّر . واعلم أنّه ما دام الإنسان يريزح في قيود النّفس والشّهوات، وما دامت سلاسل الشّهوة والغضب الطّويلة على رقبتة لا يستطيع أن يبلغ المقامات المعنويّة والروحانيّة، ولا تظهر فيه السّلطة الباطنيّة للنّفس وإرادتها الثّاقبة، ولا يحصل له مقام استقلال النّفس وعزّتها، الذي هو أرقى مقام لكمال الرّوح، بل إنّ هذا الأسر والرقّ يقيدده ولا يسمح له بالتّمرد على النّفس في جميع الأحوال" <sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الأريعون حديثًا، ص ٣٢٧-٣٢٨.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٢٩٢.

## ٧- التلقين

"وبعد أن يجعل القلب مؤهلاً لذكر الله وتلاوة كتابه، عليه أن يلقنه آيات التوحيد والتنزيه (والتسبيح) الشريفة مع حفظ حضور القلب وحال طهارته، على النحو التالي: أن يفرض أنّ حال قلبه كطفلٍ لم يتعلّم التّلقين بعد، ويريد أن يعلمه الكلام، فيلقنه الكلمة الواحدة ويكررها له حتّى يتعلّمها، وبهذا النحو يلقن قلبه كلمة التوحيد بطمأنينة وتوجّه، ويكررها له حتّى ينفث لسانه القلبي بالتّلقين بها، ولو خصّص أواخر الليل أو ما بين الطلوعين بعد فريضة الفجر لهذا العمل فهو أفضل للغاية، فيعمد في هذا الوقت إلى توجيه القلب بطهارة شطر القرآن الكريم وذكر الله، ويتلو قلبه، على نحو التلقين والتذكير، الآيات القرآنية الكريمة مشتملة على التذكير والتوحيد".<sup>١</sup>

## ٨- الطمأنينة

وهي عبارة عن تأمين وضعيّة الثبات النفسيّ حتّى تحقّق العبادات الذكريّة هدفها. لهذا، يقول الإمام قدس سره: "من الآداب القلبية المهمة للعبادات. وخصوصاً العبادات الذكريّة. الطمأنينة... وهي عبارة عن أن يأتي السالك بالعبادة مع سكون القلب واطمئنان خاطر، لأنّ العبادة إذا أُتي بها حال اضطراب القلب وتزلزله، فلا ينفعل القلب بها، ولا يحصل أثر منها في ملكوت القلب ولا تصير حقيقة العبادة صورة باطنية له. في حين أنّ من إحدى نكات تكرار العبادات وتكثير الأذكار والأوراد أن يتأثر القلب بها وينفعل حتّى يتشكّل باطن السالك شيئاً فشيئاً من حقيقة الذكر والعبادة، ويتحد قلبه بروح العبادة. وطالما لم يكن للقلب اطمئنان وسكون وطمأنينة ووقار، لا يكون للأذكار والتسك فيه تأثير، ولا يسري أثر العبادة من ظاهر البدن وملكه إلى ملكوته وباطنه ولا يؤدي إلى القلب حظوظه من العبادة... فمثلاً، إذا قال أحد الذّكر الشّريف: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" بسكينة القلب واطمئنانه، وراح يعلم القلب هذا الذّكر الشريف، فإنّ لسان القلب ينطق بالتدريج، حتّى يصبح لسان الظاهر تابعاً لسان القلب. ففي البداية يكون القلب ذاكراً ثم يتبعه اللسان، وإلى هذا المعنى أشار الإمام الصادق عليه السلام، على ما في رواية مصباح الشريعة قال: "فاجعل قلبك قبلة لسانك لا تحركه إلا بإشارة القلب وموافقة العقل ورضى الإيمان".<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٠٩.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٣٢.

## ٩- التّشاط والبهجة

"إنّ من أسرار العبادات والرياضات ونتائجهما أن تكون إرادة النّفس في ملك البدن نافذة... وتُساق جنود النّفس من الإيمان إلى التّسليم ومن التّسليم إلى الرّضا ومن الرّضا إلى الفناء. وفي هذه الحالة تجد النّفس رائحة من أسرار العبادة، ويحصل لها شيء من التحلّيات الفعلية. وما ذكرنا لا يتحقّق إلا بأن تؤدّي العبادات عن نشاطٍ وبهجة ويحتز فيهما من التكلّف والتعسّف والكسل احترازًا تامًّا، كي تحصل للعايد حالة المحبّة والعشق لذكر الحقّ ولمقام العبوديّة، ويحصل له الأُنس والتّمكّن".<sup>١</sup>

## ١٠- اختيار الأوقات المناسبة

"إذا عمد في وقت الفراغ من المشاغل التّفسيّة والخواطر، والواردات الدّنيويّة مثل أواخر الليل أو ما بين الطّلوعين، إلى تلاوة الآيات الأواخر من سورة الحشر المباركة من قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهي الآية ١٨ من السّورة إلى آخرها. وهي آيات تشتمل على التّدكير ومحاسبة النفس، وتتضمّن الإشارة إلى مراتب توحيد الله وأسمائه وصفاته. نقول إذا عمد على تلاوتها مع التوجّه القلبي والتدبر فيها، فإنّ المرجوّ إن شاء الله أن يحصل نتائج طيّبة، وكذلك الحال مع الأذكار الشّريفة بحضور قلبيّ، فليعمد إلى الذّكر الشّريف "لا إله إلاّ الله"، هو أفضل الأذكار وأجمعها، فالمرجوّ أن يأخذ الله تعالى بيده، (ببركة هذا الذكر المبارك)<sup>٢</sup>.

## موانع الذّكر

### ١- الإعراض عن الحقّ

قد يدخل الإنسان في أجواء الفكر، ويعيش في قلب الحقائق والمعارف الإلهية العظيمة، ولكنّه لا يصبح من الذّاكرين ولا تتبدّل تلك الأفكار الرائعة إلى أذكار للقلب، وذلك لأنّه لم يصدق النّيّة في عمله ذلك. بل كان همّه مثلاً أن يكون من المعروفين بالعلم والمشهورين بالعرفان. يقول الإمام قدس سره: "الإنسان إذا لم يبتغ من وراء طلب العلم، الوصول إلى الحقّ،

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٣٨.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١١٠.

والتحقّق بأسماء الله وصفاته، والتخلّق بأخلاق الله، سيحوّل كلّ واحدٍ من إدراكاته إلى دركات، وحجب مظلمة، تسوّد قلبه وتعمي بصيرته، ويصبح من مصاديق الآية المباركة التي تقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى \* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا \* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمِ تَنْسَى﴾<sup>١</sup>.

## ٢- الاغترار بوعود إبليس

"إنّ ذلك الملعون هو الذي يسعى دائماً إلى تّهوين أمور الآخرة في أعيننا، ويتذكّرنا لرحمة الله ولشفاعة الشّافعين يريد أن ينسينا ذكر الله وطاعته"<sup>٢</sup>. "فلا بدّ أن نعلم بأنّ تأخّرنا عن هذا السّير الملكوتيّ والسلوك الإلهيّ بسبب إغواء الشّيطان والوقوع تحت السلطنة الشّيطانيّة من قصورنا أو من تقصيرنا، حيث لم نقم بأدابه المعنويّة وشرائطه القلبيّة، كما أنّ عدم نيلنا في جميع الأذكار والأوراد والعبادات نتائجها الرّوحية والآثار الظاهريّة والباطنيّة فهو بسبب هذه المسألة الدّقيقة"<sup>٣</sup>.

## ٣- اللغو

"فيما يرتبط بخصوص آثار اللغو والكلام القبيح فينبغي الالتفات إلى شدّة إضراره على الرّوح، فهو يسلب النّفس الصّلاح والصّفاء والسّلامة والوقار والطّمأنينة والسّكينة، ويلوثها بالخلافة والكدر والقسوة والغفلة والإدبار عن ذكر الله، ويسلب الرّوح حلاوة عبادة الله وذكره، ويضعف الايمان ويوهنه، ويميت القلب"<sup>٤</sup>. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: "لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوّ القلب، إنّ أبعد الناس من الله القلب القاسي"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الأريعون حديثاً، ص ٤٢٥.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٧٨.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٢٣٠.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٥٠.

<sup>٥</sup> وسائل الشّيعيّة، ج ١٢، ص ١٩٤.

<sup>٦</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٥٢-٣٥٣.

#### ٤ - الإخلاق إلى الأرض

"إنَّ حرمان قلوبنا المسكينة من حلاوة ذكر الحقِّ تعالى، وإنَّ عدم وصول لذة مناجاة تلك الدَّاتِ المقدَّسة إلى ذائقة أرواحنا ونحن محتجبون عن الوصول إلى قرب الجناب ومحرومون من تجلّيات الجمال والجلال، لأنَّ قلوبنا علييلة ومريضة، وقد حجبتنا الإخلاق إلى الأرض والاحتجاب بالحجب المظلمة للطبيعة عن معرفة كبرياء الحقِّ وأنوار الجمال والجلال".<sup>١</sup>

ويقول قدس سره في مكانٍ آخر: "من الحجب الغليظة التي هي ستر سميكة بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه: حجاب حبِّ الدنيا، فيصرف القلب بواسطة تمام همته في الدنيا وتكون وجهة القلب تمامًا إلى الدنيا ويغفل القلب بواسطة هذه المحبة عن ذكر الله، ويعرض عن الذِّكر والمذكور، وكلِّما ازداد التعلُّق بالدنيا وأوضاعها ازداد حجاب القلب وساتره ضخامة، وربما تغلب هذه العلاقة على القلب ويتسلَّط سلطان حبِّ الجاه والشرف على القلب بحيث يطفىء نور فطرة الله تمامًا، وتغلق أبواب السعادة على الإنسان".<sup>٢</sup>

#### ٥ - السقوط في مستنقع العقائد الباطلة

"الذي أوجب أن تكون استفادتنا من هذا الكتاب العظيم (القرآن) قليلة جدًا هو هذا الفهم. فإمَّا ألا ننظر إليه نظر التعليم والتعلُّم كما هو الغالب علينا، ونقرأه للثواب والأجر فقط، فينصبَّ جهدنا على تجويده فقط والقراءة الصحيحة حتى ننال الثواب، ونحن واقفون عند هذا الحدِّ وقانعون بهذا.. ها قد قرأنا القرآن لأكثر من أربعين سنة ولم تحصل الاستفادة منه بوجه إلا الأجر وثواب القراءة. وإمَّا أن نشغل. إن كان هدفنا التعليم والتعلُّم. بالنكات البديعية والبيانية ووجوه إعجازها، أو أعلى من هذا بقليل، بالجهات التاريخية وسبب نزول الآيات وأوقات النزول، وكون الآيات والسور مكيّة أو مدنيّة، واختلاف القراءات واختلاف المفسِّرين من العمامة والخاصة وسائر الأمور العرضية الخارجة عن المقصد حتّى صارت هذه الأمور بنفسها سببًا للاحتجاب عن القرآن والغفلة عن الذِّكر الإلهي".<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ١٤١.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٤٧.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٢٠٢-٢٠٣.

## المفاهيم الرئيسة

١- إنّ ما تعشقه الفطرة السليمة هو المعرفة على نحو المشاهدة الحضورية، لذا فإنّ أول عمل ينبغي أن نلتفت إليه إذا أردنا أن نصبح من الذاكرين هو إزالة الحجب عن القلب لاستقبال أنوار الفطرة الإلهية وللسمّاح لها بالسريان في كلّ مملكة وجودنا.

٢- من الشّروط اللازمة والأعمال المفيدة للوصول إلى مقام الذاكر الحقيقي: التفكّر، العزم، الذكر اللساني، التكرار وتلقين القلب، طهارة القلب من الرّجس، الطمأنينة.

٣- الفكر هو مقدّمة للذاكر، فكلّما اشتدّ الفكر في النّفس وقوي، اشتدّ الذاكر في القلب وتفعّل. ولا يمكن تحقيق حالة الذاكر الدائم إلّا بعد استكمال شروط الفكر.

٤- أوّل مرتبة لصدق مقالة السّالك هي تذكّر الحقّ، وعلامته الانقطاع إلى الحقّ وغيضّ بصر الطّمع والرّجاء عن جميع الموجودات.

٥- يمكن أن يصير الذاكر باللسان سبباً لتفتحّ لسان القلب وسبب تكرار الذاكر هو انفتاح لسان القلب على الذاكر وآية انفتاحه أنّ لسان الغم يتبع القلب، فيزول نصب تكرار الذاكر وعناؤه.

٦- لا شكّ بأنّ المطلوب هو مقام الذاكر لا حالته. لأنّ الأحوال تزول ولا تبقى. ولأجل تحقيق هذا الأمر ينبغي تكرار الرياضات الروحية والمعنوية.

٧- حتّى يؤثّر الذاكر في ملكوت القلب وتصير حقيقة العبادة صورة باطنية للقلب ينبغي أن يؤدّى في حال من الطمأنينة.

٨- أهمّ موانع الذاكر هي: عدم صدق النية، الاغترار بوعود إبليس، اللغو، احتجاب الفطرة بعالم الطبيعة، الإدعاء، الإخلاد إلى الأرض وجعل وجهة القلب تمامًا إلى الدنيا، السّقوط في مستنقع العقائد الباطلة، ومدح أهل الدنيا.

٩- ما لم يتبع الإنسان الوصول إلى الحقّ من وراء طلب العلم، والتحقّق بأسماء الله وصفاته، والتخلّق بأخلاق الله، سيتحوّل كلّ واحدٍ من إدراكاته إلى دركات وحجب مظلمة.

دعاء:

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَنَبِّهْنِي لِذِكْرِكَ فِي أَوْقَاتِ الْعُمَلَةِ، وَاسْتَعْمِلْنِي بِطَاعَتِكَ فِي أَيَّامِ الْمُهَلَّةِ، وَانْهَجْ لِي إِلَى مَحَبَّتِكَ سَبِيلًا سَهْلَةً، أَكْمِلْ لِي بِهَا خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ<sup>١</sup>.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلَا تَجْعَلْنِي نَاسِيًا لِذِكْرِكَ فِيمَا أَوْلَيْتَنِي، وَلَا غَافِلًا لِإِحْسَانِكَ فِيمَا أُنْبَلَيْتَنِي، وَلَا آيِسًا مِنْ إِحَابَتِكَ لِي وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنِّي، فِي سَرَاءٍ كُنْتُ أَوْ ضَرَاءٍ، أَوْ شِدَّةٍ أَوْ رَخَاءٍ، أَوْ عَافِيَةٍ أَوْ بَلَاءٍ، أَوْ بُؤْسٍ أَوْ نَعْمَاءٍ، أَوْ جَدَّةٍ أَوْ لَأْوَاءٍ، أَوْ فَقْرٍ أَوْ غِنَى... اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَفَرِّغْ قَلْبِي لِمَحَبَّتِكَ، وَاشْعَلْهُ بِذِكْرِكَ، وَانْعَشْهُ بِخَوْفِكَ وَبِالْوَجَلِ مِنْكَ، وَقَوِّهِ بِالرَّغْبَةِ إِلَيْكَ، وَأَمِلْهُ إِلَى طَاعَتِكَ، وَأَجْرِ بِهِ فِي أَحَبِّ السُّبُلِ إِلَيْكَ، وَذَلِّلْهُ بِالرَّغْبَةِ فِيمَا عِنْدَكَ أَيَّامَ حَيَاتِي كُلِّهَا<sup>٢</sup>.

الآيات الكريمة:

١- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>٣</sup>.

٢- ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾<sup>٤</sup>.

الروايات الشريفة:

١- قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَا يَتَمَكَّنُ الشَّيْطَانُ بِاللُّوسُوسَةِ مِنَ الْعَبْدِ إِلَّا وَقَدْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَاسْتَهَانَ بِأَمْرِهِ وَسَكَرَ إِلَى نَهْيِهِ وَنَسِيَ إِطْلَاعَهُ عَلَى سِرِّهِ... إِذَا أَتَاكَ الشَّيْطَانُ مُوسِسًا لِيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ الْحَقِّ وَيُنْسِيكَ ذِكْرَ اللَّهِ فَاسْتَعِذْ مِنْهُ بِرَبِّكَ وَرَبِّهِ فَإِنَّهُ يُؤَيِّدُ الْحَقَّ عَلَى الْبَاطِلِ وَيَنْصُرُ الْمَظْلُومَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾"<sup>٥</sup>.

٢- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "من ذكر الله سبحانه أحيا الله قلبه ونور عقله ولبيته"<sup>٦</sup>.

٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "سامع ذكر الله ذاكر"<sup>٧</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق.

<sup>٢</sup> (ن.م)، دعاؤه عليه السلام إذا أحزنه أمر واهتمته الخطايا.

<sup>٣</sup> سورة النحل، الآية ٤٣.

<sup>٤</sup> سورة الكهف، الآية ٢٨.

<sup>٥</sup> مستدرک الوسائل، ج ١، ص ١٧٨ . ١٧٩.

<sup>٦</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ١٨٩.

<sup>٧</sup> (ن.م)، ص ١٨٨.

٤- عَنْ أَبِي أُسَامَةَ قَالَ: "زَامَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: فَقَالَ لِي اقْرَأْ فَأَنْتَحْتُ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَرَأْتُهَا فَرَقَّ وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا أُسَامَةَ اذْعُوا قُلُوبَكُمْ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَاحْذَرُوا النَّكْتَ فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَى الْقَلْبِ تَارَاتٌ أَوْ سَاعَاتٌ الشَّنْكَ مِنْ صَبَاحٍ لَيْسَ فِيهِ إِيمَانٌ وَلَا كُفْرٌ شَبَهَ الْحَزْفَةَ الْبَالِيَةَ أَوْ الْعَظْمَ النَّجْرِيَّ، يَا أَبَا أُسَامَةَ أَلَسْتَ زَيْمًا تَفَقَدْتَ قَلْبَكَ فَلَا تَذْكُرُ بِهِ خَيْرًا وَلَا شَرًّا وَلَا تَدْرِي أَيْنَ هُوَ، قَالَ: قُلْتُ بَلَى، إِنَّهُ لِيُصِيبُنِي وَأَرَاهُ يُصِيبُ النَّاسَ، قَالَ: أَجَلٌ، لَيْسَ يَعْرِى مِنْهُ أَحَدٌ، قَالَ: فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَادْكُرُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاحْذَرُوا النَّكْتَ فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ بَعْدَ خَيْرٍ نَكْتَ إِيمَانًا وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ نَكْتَ غَيْرَ ذَلِكَ"<sup>١</sup>.

٥- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ وَ اللَّهُ إِنَّ ذَكَرَ اللَّهُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعُدَاةِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ أَسْرَعُ فِي طَلَبِ الرَّزْقِ مِنَ الصَّرَبِ فِي الْأَرْضِ"<sup>٢</sup>.

٦- مِصْبَاحُ الشَّرِيعَةِ، قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "وَ افْطَعْ عَمَّنْ يُنْسِيكَ وَصَلُّهُ ذَكَرَ اللَّهُ وَتَشَعَّلَكَ أَلْفُتُهُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ وَ أَعْوَانِهِ وَ لَا يَحْمِلُنكَ رُؤْيَتُهُمْ إِلَى الْمُدَاهَنَةِ عِنْدَ الْحَقِّ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ خُسْرَانًا عَظِيمًا نَعُودُ بِاللَّهِ"<sup>٣</sup>.

٧- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَيْسَ فِي الْمَعَاصِي أَشَدَّ مِنْ اتِّبَاعِ الشَّهْوَةِ فَلَا تَطِيعُوهَا فَيَشْغَلْكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> وسائل الشريعة، ج ٧، ص ١٦٦.

<sup>٢</sup> مستدرک الوسائل، ج ٥، ص ٥٨.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ج ٨، ص ٣٥٢.

<sup>٤</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ١٩٠.



## الدرس الثالث عشر: الطمأنينة

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

١. يتعرف إلى المعنى الدقيق للطمأنينة وأهم علامتها في النفس.
٢. يتعرف إلى أهمية الطمأنينة ودورها في ترسيخ الفضائل الأخلاقية في النفس.
٣. يبيّن كيفية تحصيل الطمأنينة وأهم الموانع التي تحول دون ذلك.



## تمهيد

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً \* فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾<sup>١</sup>.

كثيرة هي مواقف الحياة ومواردها وفرصها التي تزلزل الإنسان، فتمنعه من الاستفادة الصحيحة والتوجه المركز والثبات واتخاذ الموقف المناسب، لهذا احتاج العاقل إلى الطمأنينة لكي يثبت وعاء وجوده أمام نزول الفيوضات الرحمانية، فتستقر في قلبه ثم تتحد مع نفسه فتصبح عنوان هويته وبصمة شخصيته.

ما أحوج المجاهد إلى الطمأنينة في ساحات الوعى. والأحوج منه ذلك الذي تحيط به مغريات الدنيا فتسلبه لبه من شدة هزاهزا. وفي مجالس العلم وفي العبادة وفي كل عمل نقوم به، تكون الطمأنينة عاملاً أساسياً في تحصيل الفوائد والوصول إلى النتائج. فما هي الطمأنينة؟ ومن أين تنشأ؟ وكيف يمكننا تحصيلها؟

## ما هي الطمأنينة؟

لا تحتاج الطمأنينة إلى تعريف علمي لأنها من الأمور التي يدركها الوجدان نظراً لتحققها في عالم الأبدان. فالجسد المطمئن شرط في الصلاة، ويقابلها الاضطراب والتزلزل والحركة العشوائية التي لا تعرف وجهة، وما ينبغي أن نعرفه أنّ الطمأنينة هي ثبات الإيمان واستقراره في القلب، وتمركز التوجه والتخيّل في الخيال. ولها حضور وتجلّ في جميع مراتب النفس.

<sup>١</sup> سورة الفجر، الآيات ٢٧ - ٣٠.

لكنّ الأصل في بحثنا هذا هو طمأنينة القلب وسكونه التي ينبغي أن تنعكس في عالم المثال بصورة اطمئنان الخاطر، يقول الإمام قدس سره: "من الآداب القلبية المهمة للعبادات . وخصوصاً العبادات الذكرية . الطمأنينة . وهي غير الطمأنينة التي اعتبرها الفقهاء رضوان الله عليهم في خصوص الصلاة . وهي عبارة عن أن يأتي السالك بالعبادة مع سكون القلب واطمئنان الخاطر، لأنّ العبادة إذا أُتي بها حال اضطراب القلب وتزلزله، فلا ينفعل القلب بها، ولا يحصل أثر منها في ملكوت القلب ولا تصير حقيقة العبادة صورة باطنية له"<sup>١</sup>.

وبهذا البيان يُعلم أنّ طمأنينة الخاطر من أعظم أسباب استقرار الفضائل ورسوخها في النفس.

وإذا انعكست الطمأنينة القلبية في عالم الخيال والمثال ظهرت في عالم الملك والظاهر وتجلّت في حركة الأعضاء والجوارح، فلا يزيغ البصر ولا تتذبذب الأذن ولا تتحرّك الأيدي ولا ترجف الأرجل ما دامت مطمئنة.

إنّ الطمأنينة في المراتب المختلفة علامة ودليل على استقرار الفيض الإلهي وقرب اتّحاده بالنفس الذي يُعدّ عنوان الكمال الحقيقي. إنّ أكثر الناس يتمتّعون من حينٍ لآخر بفيوضات رحمانية قد تصل إلى حدّ المكاشفات والمشاهدات. لكنّ الكمال الحقيقي في صيرورة هذه الكمالات أو الأنوار والفيوضات حالة راسخة وهيئة ثابتة في النفس، الأمر الذي يحصل بفضل الطمأنينة.

فلو أراد الله بعبديّ خيرًا، منحه الطمأنينة قبل أن يفيض عليه بأنوار الكمالات المختلفة. يقول الإمام الخميني قدس سره: "الطمأنينة واليقين والثبات والإخلاص وأمثالها من الإفاضات الرّحمانية والإلقاءات المُلْكِيَّة"<sup>٢</sup>.

ويقول قدس سره: "مقام الاطمئنان وطمأنينة النفس، وهو في الحقيقة المرتبة الكاملة من الإيمان. قال تعالى مخاطبًا خليله: ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٣١.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ٤٣٣.

<sup>٣</sup> سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ٢٦.

والطمأنينة علامة إلهية على التّكامل حيث يقول الإمام قدس سره: "أمّا أهل الآخرة، فإنهم كلّما ازدادوا قرباً من دار كرم الله، ازدادت قلوبهم سروراً واطمئناناً".<sup>١</sup>

## آثار الطمأنينة

للمطمأنينة آثار لا عدّها لها ولا حصر، ونحن نقل منها أهم ما جاء في كلمات الإمام الخميني قدس سره.

### ١- العصمة

"إنّ نفي الشكّ يستلزم نفي العيوب القلبية والقالبية، بل يستلزم العصمة، لأنّها . العصمة . أمر على خلاف الإرادة والاختيار، وإنّما لا تكون من الأمور الطبيعية والجبليّة، بل هي حالة نفسية، وأنوار باطنية تتفجّر من نور اليقين الكامل والاطمئنان التام".<sup>٢</sup>

### ٢- سبب لتأثير العبادة والذكر

"من إحدى نكات تكرار العبادات وتكثير الأذكار والأوراد أن يتأثر القلب بها وينفعل حتى يتشكّل باطن السالك شيئاً فشيئاً من حقيقة الذكر والعبادة، ويتحد قلبه بروح العبادة. وطالما لم يكن للقلب اطمئنان وسكون وطمأنينة ووقار، لا يكون للأذكار والنسك فيه تأثير، ولا يسري أثر العبادة من ظاهر البدن وملكه إلى ملكوته وباطنه ولا يؤدي إلى القلب حظوظه من العبادة. وهذا من الأمور الواضحة التي لا تحتاج إلى بيان، ويعلم بأدنى تأمل".<sup>٣</sup>

### ٣- التغلب على جنود الشيطان

"إنّ طمأنينة النّفس واستقامتها هي التي تجعل الغلبة للإنسان في مواجهة جنود الجهل، وتحفظه في مجاهدة حزب الشيطان، وتجعله يسيطر على قوّتي الغضب والشهوة، فلا يستسلم لهما، بل هي التي تُسخر لطاعته جميع قواه الباطنية والظاهرة".<sup>٤</sup>

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ١٥٦.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٥٨١.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٣١-٣٣.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٢٤.

#### ٤ . التَّقْوَى التَّامَّة

"إن الإنسان يستطيع القيام بجميع الواجبات الفردية والاجتماعية، فلا ينحرف ولا يسقط في المعاصي في أي مرحلة من مراحل حياته المادية والروحية، وذلك ببركة التحلي بهذه القوة الروحانية العظيمة، أي ملكة الاستقامة والطمأنينة"<sup>١</sup>.

#### ٥ - عدم الخوف من الأعداء

"فبها (أي الطمأنينة) قام زعماء الدين في وجه الملايين من الجاهلين دون أن يسمحوا لكثرة هؤلاء بأن توجد فيهم أدنى وهن، وهذه الروح العظيمة هي التي جعلت الأنبياء العظام ينهضون فرادى لمواجهة العقائد الجاهلية الباطلة التي سيطرت على العالم، دون أن يدخلهم أدنى خوف أو رهبة بسبب وحدتهم وكثرة مخالفيهم، وبها تغلبوا على تلك العقائد الجاهلية وغيروا العادات التي أوجدتها في الناس، واستبدلوها بصيغتهم التوحيدية"<sup>٢</sup>.

#### ٦ - سبب للقوة العظيمة

"لَمَّا سَأَلَ عُمَرُ (أمير المؤمنين عليه السلام) فَقَالَ: "يَا أَبَا الْحَسَنِ لَقَدْ افْتَلَعْتَ مَنِيْعًا وَأَنْتَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَمِيصًا، فَهَلْ قَلَعْتَهَا بِقُوَّةٍ بَشَرِيَّةٍ؟ فَقَالَ: مَا قَلَعْتُهَا بِقُوَّةٍ بَشَرِيَّةٍ وَلَكِنْ قَلَعْتُهَا بِقُوَّةِ إِلَهِيَّةٍ وَنَفْسٍ بِلِقَاءِ رَبِّهَا مُطْمَئِنَّةٍ رَضِيَّةٍ"<sup>٣</sup>.

#### أسباب الطمأنينة

إن جميع الكمالات والكرامات وإفاضات إلهية ومن ربانية. لكن على الإنسان أن يحفظ لها في نفسه الوعاء والاستعداد. ومن جملة الأسباب التي تمهد لحصول الطمأنينة في النفس حسبما جاء في كلمات الإمام الخميني قدس سره:

#### ١ - ترك حبّ الجاه والمقام

"إن هدوء النفس والطمأنينة الحاصلة من ترك حبّ الجاه والمقام وسائر تفرعاته، تمنع النفس من أن تخطو خطوات تخالف العدالة والروية. إن الإنسان البسيط غير المتكلف

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٢٥.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٢٥.

<sup>٣</sup> بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٤٠.

يتحمّل المنعصّات ولا تتقطع حبال صبره، فلا يستولي عليه الغضب المفرط في غير وقته. أمّا إذا اقتلع جذور حبّ الدنيا من قلبه اقتلاعاً، فإنّ جميع المفاسد تحجر قلبه وتحلّ محلّها الفضائل الأخلاقية السّامية<sup>١</sup>.

## ٢- التوجّه إلى تعمير الآخرة وعالم الغيب

"إذا كانت وجهة القلب نحو تعمير الآخرة، والمعارف الحقّة، وعالم الغيب، لحصل له وئام مع الملكوت الأعلى، الذي هو عالم الملائكة وعالم النفوس الطيبة السعيدة، والذي يكون هذا العالم بمثابة الظل النوراني لعالم الطّبيعة، واعتبر العلوم التي تفاض عليه من العلوم الرّحمانية الملكيّة والعقائد الحقّة وغدت الخواطر من الإلقاءات والخواطر الإلهيّة، ويتطهّر من الشكّ والشرك ويتنزّه منهما، وحصلت الاستقامة والطمأنينة في النّفس، وصارت أشواقها أيضاً على ضوء تلك العلوم، وإرادتها على ضوء تلك الأشواق"<sup>٢</sup>.

## ٣- شرح الصدر

"فالمتحلي بشرح الصدر لا يولي أهميّة لما يراه في نفسه من كمال وجمال ومال ونفوذ وحشمة ولا يستعظمه، لأنّ سعته الوجودية كبيرة إلى درجة تجعله يتغلّب على جميع الوردات القلبية، فلا يضيق وعأؤهُ الوجودي بشيء. وهذه السّعة في الصدر وليدة معرفة الحقّ تعالى، وهي التي توصل قلوب المتألهين للأنس بالله إلى مقام الاطمئنان والسكينة والطمأنينة"<sup>٣</sup>.

## ٤- إشراقه نور التوحيد

"إنّ القلب الذي أشرق فيه نور التوحيد ومعرفة الكمال المطلق يتحلّى بالطمأنينة والثبات والتأني والاستقرار، وإنّ القلب الذي تنوّر بمعرفة الحقّ جلّ وعلا يرى عياناً أنّ مجاري الأمور بيد قدرته تعالى، ويرى نفسه واجتهاده وحركته وسكونه هو، وكذلك حركات وسكنات جميع الموجودات صادرة منه تبارك وتعالى، لأنّ زمام أمورها ليس بيده بل بيده عزّ وجلّ، مثل هذا القلب لا يعتريه اضطراب أو تسرّع أو تذبذب"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الأريعون حديثاً، ص ١٦٧-١٦٨.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٤٣٤.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٤.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٣٢٦.

## ٥- الحلم

"الحلم من شَعَبِ اعتدال القوّة الغضبية، وهو ملكةٌ تُوَدِّي إلى حصول الطمأنينة في النفس، فلا تهيح فيها القوّة الغضبية بسرعة أو في غير الموارد المناسبة، ولا تفقد زمام أمرها إذا واجهت ما لا ترغب فيه أو ما تكرهه أو ما لا يلائمها"<sup>١</sup>.

## كيفية تحصيل الطمأنينة

إنّ الاتصال بالأسباب المذكورة هو العنصر المحوريّ في تحصيل الطمأنينة وجعلها ملكة نفسانيّة راسخة. ويذكر الإمام الخميني قدس سره مجموعة من النصائح المفيدة في هذا المجال، يمكن أن تشكل برنامجاً مهماً.

## ١- مخالفة الشيطان

"من الواضح بمكان أنك إذا خالفت الشيطان فترة من الزمان، ولم تلقَ بالألّ لوساوسه، لانقطع طمعه عنك، وعادت الطمأنينة والسكون إلى نفسك"<sup>٢</sup>.

## ٢- العلم الصحيح

"عبّر الإمام عليه السلام عن العلم بـ (المحكمة)<sup>٣</sup> لأجل أنّ العلم الصحيح لنورانيته وضيائه في القلب، يوجب الاطمئنان، ويدحض الريب والشك"<sup>٤</sup>.

## ٣- إزالة حبّ الدنيا

"وبصورة عامة، فإنّ العلاج الجذريّ لمعظم المفاسد إنما يتحقّق بمعالجة حبّ الدنيا وحبّ النفس، وبذلك تتحلّى النفس بالسكينة والطمأنينة، فيهدأ القلب حينئذٍ ويصبح الاطمئنان قوّة وملكة فيه، فيتساهل بشأن الأمور الدنيوية ولا يهتم بأيّ مأكّل ومشرب،

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٢٩.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٤١.

<sup>٣</sup> قال المؤمنون عليه السلام يقول: "يا طالب العلم إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حشش النية، وعقله معرفة الأشياء والأمور، ويده الرحمة، ورجله زيارة العلماء، وهنئه السلامة، وحكمته الورع، ومستقره النجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة، وسيفه الرضا، وقوسه المداراة، وحيشته محاوره العلماء، وماله الأدب، وذخيره اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، ومأوه المواعظ، ودليله الهدى، وزينه حبه الأخيار" الكافي، ج ١، ص ٤٨.

<sup>٤</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٢٧.

ويتعامل بحدوءٍ وتساهل مع من يزاحمه في أيّ أمر من أمور الدنيا، لأنّ محبوبه ليس طعمة أهل الدنيا لكي يهيج من أجلها".<sup>١</sup>

"إنّ أهل الدنيا دائماً في تعب ونصب، وإثم لم يتمتّعوا باطمئنان في الروح واستقرار في الجسم، وإذا حلّت بهم مصيبة، خارت قواهم وحيويّتهم وزال جلدّهم وصبرهم أمام الحوادث التي تداهمهم. وهذا لا يكون إلاّ نتيجة شكّهم وعدم إيمانهم بالقضاء الإلهيّ وعدله، فتكون هذه الأمور من الحزن والهّم والتعب. نتيجة لهذا التزلزل".<sup>٢</sup>

## موانع الاطمئنان

### ١- طلب الشهوات

"حال القلب المحتجب، المحروم من معرفة الله، الواقع في حجب التوجّه للنفس والشهوات واللذات الحيوانية، فهو مضطربٌ لخوفه فوات اللذات الحيوانية، فصاحبه فاقد للطمأنينة يقوم بأعماله بعجلةٍ وتسرع".<sup>٣</sup>

### ٢- اللغو والكلام القبيح

"فيما يرتبط بخصوص آثار اللغو والكلام القبيح ينبغي الالتفات إلى شدّة اضراره على الرّوح، فهو يسلب النّفس الصّلاح والصّفاء والسّلامة والوقار والطمأنينة والسّكينة".<sup>٤</sup>

### ٣- الرّكون إلى الأسباب وعدم إرجاعها إلى الله

"إنّ المحتجب عن الحقّ تعالى، والمتوجّه إلى الأسباب العاديّة ويراها مستقلّة في فاعليّتها، يتشبّه بها . عملياً وقلبيّاً . فينقطع عن الحقّ، وتزول الطمأنينة والثقة بالله من نفسه، ويحل محلّها الاضطراب والتزلزل: ولأنّ الأسباب العاديّة لا تحقّق له ما يطمح إليه ولا تطفئ نار حاجته، لذا فإنّ حال الاضطراب والتوقان، والتمسك والتشبّه بالدنيا وأهلها تشتد فيه كل يوم حتّى تغرقه بالكامل في بحر الدنيا".<sup>٥</sup>

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٣٥ .

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٩٤-٥٩٥ .

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٢٦ .

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٣٥٠ .

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ٢٠٥ .

## المفاهيم الرئيسة

- ١- الطمأنينة هي ثبات الإيمان واستقراره في القلب. ولها حضور وتجلّ في جميع مراتب النَّفس.
- ٢- إنّ طمأنينة الخاطر من أعظم أسباب استقرار الفضائل ورسوخها في النَّفس.
- ٣- إنّ الطمأنينة في المراتب المختلفة علامة ودليل على استقرار الفيض الإلهيِّ وقرب اتّحاده بالنَّفس الذي يُعدّ عنوان الكمال الحقيقيِّ.
- ٤- آثار الطمأنينة: العصمة، سبب لتأثير العبادة والذكر، التغلّب على جنود الشَّيطان، التَّقوى التَّامة، عدم الخوف من الأعداء، سبب للقوّة العظيمة.
- ٥- أسباب الطمأنينة: ترك حبّ الجاه والمقام، التوجّه إلى تعمير الآخرة وعالم الغيب، شرح الصدر، إشراقه نور التّوحيد، الحلم.
- ٦- كيفة تحصيل الطمأنينة: مخالفة الشَّيطان، العلم الصَّحيح، إزالة حبّ الدُّنيا.
- ٧- موانع الاطمئنان: طلب الشَّهوات، اللغو والكلام القبيح، الرُّكون إلى الأسباب العاديّة وعدم إرجاعها إلى السبب الأوحد.

دعاء:

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَارْزُقْنِي الْحَقَّ عِنْدَ تَقْصِيرِي فِي الشُّكْرِ لَكَ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فِي الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ وَالصَّحَّةِ وَالسَّقَمِ، حَتَّى أَتَعَرَّفَ مِنْ نَفْسِي رُوحَ الرِّضَا وَطُمَأْنِينَةَ النَّفْسِ مِنِّي بِمَا يَجِبُ لَكَ فِيمَا يَخْدُثُ فِي حَالِ الْخَوْفِ وَالْأَمْنِ وَالرِّضَا وَالسُّخْطِ وَالضَّرِّ وَالنَّفْعِ<sup>١</sup>.

الآيات الكريمة:

١- ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ \* وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>٢</sup>.

٢- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾<sup>٣</sup>.

الروايات الشريفة:

١- قَالَ الْإِمَامُ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ أَعْطَى الْمُؤْمِنَ الْبَدَنَ الصَّحِيحَ وَاللِّسَانَ الْفَصِيحَ وَالْقَلْبَ الصَّرِيحَ وَكَلَّفَ كُلَّ غُضُوٍّ مِنْهَا طَاعَةً لِدَانِيهِ وَلِنَبِيِّهِ وَلِخَلْفَائِهِ فَمَنْ الْبَدَنَ الْخِدْمَةَ لَهُ وَكَلَّمَ مِنَ اللِّسَانِ الشَّهَادَةَ بِهِ وَبِهِمْ وَمِنَ الْقَلْبِ الطَّمَأْنِينَةَ بِذِكْرِهِ وَبِذِكْرِهِمْ فَمَنْ شَهِدَ بِاللِّسَانِ وَأَطْمَأَنَّ بِالْجَنَانِ وَحَدَّمَ بِالْأَرْكَانِ أَنْزَلَهُ اللَّهُ الْجَنَانَ"<sup>٤</sup>.

٢- مِنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّ الْقَلْبَ لَيَتَحَلَّجُلُ فِي الْخَوْفِ يَطْلُبُ الْحَقَّ فَإِذَا أَصَابَهُ اطمَأَنَّ وَقَرَّ ثُمَّ تَلَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ سره<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في يوم عرفة.

<sup>٢</sup> سورة الأنفال، الآيات ٩-١٠.

<sup>٣</sup> سورة الحج، الآية ١١.

<sup>٤</sup> بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٣٠٣.

<sup>٥</sup> الكافي، ج ٢، ص ٤٢١.



## الدرس الرابع عشر: اليقين

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن المعنى الدقيق لليقين.
- ٢- يشرح أهمية اليقين ودوره في سعادة الإنسان.
- ٣- يتعرّف إلى أهم مظاهر اليقين وعلاماته موانع تحقّقه.



## تمهيد

إنّ اليقين وإن كان من درجات الإدراك ومراتبه إلا أنّه خلقٌ فاضلٌ ومملكة نفسانيّة محمودة كما جاء في الحديث الذي نقله الإمام الخمينيّ قدس سره في "الأربعون حديثاً" عن كتاب من لا يحضره الفقيه: "بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "إنّ الله خصّ رسولَهُ صلى الله عليه وآله وسلم بمكارم الأخلاقِ فامتحنُوا أنفُسَكُم، فإن كانت فيكُم فأحمدوا الله وأرغبوا إليه في الرّيادة منها، فذكرها عشرة: اليقينُ والقناعةُ والصبرُ والشكرُ والحلمُ وحسنُ الخلقِ والسخاءُ والغيرةُ والشجاعةُ والمروءة"<sup>١</sup>. وإنّ بعض الأخلاق يكون أفضّلها إلى المجاهدة أقرب. وبعضها الآخر يكون أفضّلها إلى الثّمار والنتائج أقرب. واليقين هو من الصّنف الثّاني، ولهذا، قال الإمام قدس سره: "إنّ الطمأنينة واليقين والثبات والإخلاص وأمثالها من الإفاضات الرّحمانية والإلقاءات الملكيّة"<sup>٢</sup>.

فما هي حقيقة اليقين وموقعه في عالم المعنويّات؟ وما هو دوره في بناء الإنسان وتكميله؟

## التعريف العلمي

يعلم من جعل الشكّ ضدّاً لليقين في حديث جنود العقل والجهل أنّ اليقين عبارة عن رسوخ المعرفة في النّفس بحيث يزول معه أيّ احتمال مخالف مهما كان ضئيلاً.

ولا شكّ بأنّ هذه المعرفة التي لا تزلزلها الشكوك عبارة عن إدراك الواقع كما هو. وليس الواقع في حقيقة الأمر سوى ظهور التّوحيد الذي ملأت آياته أركان السّماوات والأرض. ولهذا، قال الإمام الخمينيّ قدس سره: "إنّ اليقين في الحقيقة هو ثمرة التّوحيد ومحفوظٌ ومحدودٌ به"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٥٥٤.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٣٣.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢١٠.

إنّ تحديد الملكات النفسانية بآثارها أو ظهوراتها أمرٌ شائعٌ في الأخلاق، ولهذا أشار الإمام الخميني قدس سره عند نقل حديث الإمام الصادق عليه السلام: "ليس شيء إلا وله حدّ. فقلت: وما حدّ التوكّل؟ قال: اليقين. قلت: فما حدّ اليقين؟ قال: أن لا تخاف مع الله شيئاً"<sup>١</sup>. وحدّ الشّيء هو منتهاه، ولعلّ المقصود هنا هو أنّ التوكّل ينتهي إلى اليقين، فيصير المتوكّل صاحب مقام اليقين، كما أنّ اليقين ينتهي إلى التّوحيد الفعليّ فلا يرى الإنسان حينئذٍ ضارّاً ولا نافعاً ولا مؤثراً ولا مقدّراً سوى الحقّ تعالى. أو لعلّ المقصود أنّ التوكّل محفوفٌ ومحدودٌ باليقين"<sup>٢</sup>.

## علامات اليقين

لليقين علامات كثيرة في الحياة والسلوك نذكر بعضها بحسب ما ورد في كلمات الإمام الخميني قدس سره:

### ١- الأانس بذكر الله

"نحن الضّعفاء في الإيمان لسنا من أصحاب اليقين، وإلا لما كنّا نستمرّ في غفلتنا، ونعانق النّوم حتّى الصباح. لو أنّ يقظة الليل تكشف للإنسان حقيقة الصّلاة وسرّها، لأنس بذكر الله والتفكّر في الله، ولجعل الليالي مركّبة للعروج إلى قربه تعالى، ولما كان ثمة ثواب له إلا جمال الحقّ الجميل وحده"<sup>٣</sup>.

### ٢- مجانية رضا الناس ولومهم

"عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "من صحّ يَقيِن المرء المسلم أن لا يُرضي النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، ولا يَلومُهُمْ على ما لم يؤتِه اللهُ، فإنَّ الرِّزْقَ لا يَسوفُهُ جِرْصُ حَرِيصٍ، ولا يَرُدُّه كراهيةُ كارِهٍ، ولو أنَّ أحدكم فرَّ من رزقه كما يفرُّ من الموتِ لأدركه رزقه كما يُدركه الموتُ. ثمَّ قال: إنّ الله بعُدليه وقسطه جعل الرّوحَ والرّاحةَ في اليقين والرّضا، وجعل الهمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخطِ..." فالإنسان الذي يتمتّع بيقينٍ صحيح، والذي يكون واقفاً

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٥٧.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢١٠.

<sup>٣</sup> الأريعون حديثاً، ص ٢٣٨.

على مجاري الأمور، يجب عليه في اللحظة التي لا يفتر فيها عن طلب الرزق، بل ينهض بوظائفه العقلية والشرعية في الاكتساب، ولا يوصد أبواب الطلب على نفسه، يعرف أنّ كلّ شيء من الذات المقدّس الحقّ المتعالى، وأنّه لا يؤثّر موجوداً آخر في الوجود ولا في كمالات الوجود. إنّ الطالب والطلب والمطلوب، منه سبحانه... جعل الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث الشريف، علامتين على صحّة اليقين وسلامته، أحدهما: لا يُرضى الناس بسخط الله. والآخر: "لا يلوم الناس على ما لم يؤتّه الله. وهاتان العلامتان من نتائج كمال اليقين. كما أنّ ما يقابلهما يكون من آثار ضعف اليقين وسقم الإيمان ومرضه"<sup>١</sup>.

### ٣- الرضا بحكم الله وقضائه

"الناس ينقسمون في هذه الدّنيا إلى هاتين الطبقتين: إمّا يقودهم يقينهم إلى الاعتقاد بأنّ الأسباب الظاهرية، والمؤثّرات الشّكلية مسخّرة تحت الإرادة الإلهية الكاملة الوجودية، فلا يجدون دوراً لغير الحقّ، ولا يلتسمون من غيره شيئاً. فهم آمنوا بأنّه المالك والمؤثّر في الدّنيا والآخرة، واعتنقوا بكلّ إيمان ويقين غير مشوب بالتقصّ والتّرديد، آية من الآيات المباركة القرآنية وهي: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾<sup>٢</sup>. حيث يرون بأنّ الله سبحانه هو مالك ملك الوجود، وأنّ جميع العطايا من ذاته المقدّس، وأنّ القبض والبسط في الوجود وكمالاته منه سبحانه حسب ترتيب النّظام والمصالح الكامنة. ومن البديهي أنّ أبواب المعارف تفتح على هؤلاء الأشخاص، وتتحوّل قلوبهم إلى قلوب إلهية، لا يعبؤون برضا الناس ولا بسخطهم، ولا يرومون إلّا رضا الحقّ المتعالى، ولا يطمعون إلّا فيه ولا يطلبون إلّا منه، ولا تترتم قلوبهم إلّا بهذا الكلام: إلهي إنّ أعطيتني فمن ذا اللّذي يمنّني؟ وإنّ منعتني فمن ذا اللّذي يُعطيني. إنهم يغمضون أعينهم عن الناس وعطاياهم ودنياهم، ويحدّقون في الحقّ جلّ جلاله بكلّ حاجة وفقر، وهؤلاء الأشخاص لا يبيعون رضا العالم بأسره، بسخط الحقّ المتعالى. كما قال أمير المؤمنين عليه السلام. وفي نفس الوقت الذي لا يعبؤون بأحد غير الحقّ المتعالى، ويرون أنّ الكائنات بأسرها فقيرة إلى

<sup>١</sup> الأربعة حديثاً، ص ٥٨٩ - ٥٩٠.

<sup>٢</sup> سورة آل عمران، الآية ٢٦.

الله، ينظرون إلى كل شيء بعين ملؤها العظمة والرّحمة والحنان، ولا يلومون أحدًا على شيء إلا من أجل إصلاح وضعه وترتيبه. كما أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا كذلك، لأنهم يعتبرون الناس من المرتبطين بالحقّ ومن مظاهر جماله وجلاله، ولا يسمحون لأنفسهم إلا بالنظر إلى عباد الله بكلّ لطف ومحبة. ولا يؤنّبون في قلوبهم أحدًا على نقصه أو فتوره، وإذا لاموا أحدًا بأنفسهم فالأجل المحافظة على المصالح العامّة وإصلاح أحوال العائلة البشرية. وهذا من نتائج وثمرات الشجرة الطيبة لليقين والإيمان، والمعرفة بالحدود والشريعة الإلهية<sup>1</sup>.

#### ٤ - الروح والراحة في الدنيا

"الحقّ المتعالي قد جعل الرّوح والرّاحة في اليقين والرّضا، والهمّ والحزن في الشكّ والسخط، وذلك على أساس القسط والعدل. ولا بدّ أن نعرف أن الرّوح والراحة وكذلك الهمّ والحزن تعود إلى الأمور الدنيويّة وكسب العيش، وطلب الرزق، نتيجة وقوعها إثر تقدير الأرزاق وتقسيمها. وإن كان إرجاعهما إلى الأمور الأخرويّة على أساس بيان آخر، أيضًا صحيحًا... وعليه اعلم أنّ الإنسان الذي يعتقد بالحقّ وتقديره اعتقادًا يقينيًّا، ويعتمد على الركن الركين الذي يتمتّع بالقدرة المطلقة، والذي يقرّر الأمور بأسرها على ضوء المصالح الغيبيّة، والذي له الرّحمة الكاملة المطلقة والوجود المطلق، من المعلوم أنّ يمثل هذا اليقين تتدبّل الصّعاب عنده وتكون أمامه المصائب، ويختلف كثيرًا في طلبه لمعيشته عن أهل الدّنيا وأهل الشكّ والشكّ.

إنّ الذين يعتمدون على الأسباب الظاهرية، يعيشون دائمًا عند طلب الرزق في حالة من القلق والاضطراب، ولو اصطدموا بمشكلة، لعظمت عندهم وضائق الحياة في أعينهم لأنهم لا يجدونها مخفوفة بالمصالح الغيبيّة التي يعلمها الله ويجهلها الإنسان. وخلاصة الكلام إنّ من يرى سعادته، في تحصيل هذه الدّنيا، يواجه في طلبها هذا الآلام والعناء، وتُسلب عنه الرّاحة والبهجة، وتستنزف قواه وطاقاته في هذا الطّلب. كما نرى أنّ أهل الدنيا دائمًا في تعب ونصب، وأنهم لم يتمتّعوا باطمئنان في الرّوح واستقرار في الجسم، وإذا حلّت بهم مصيبة، خارت قواهم وحيويّتهم وزال جلدتهم وصبرهم أمام الحوادث التي تدهمهم. وهذا

<sup>1</sup> الأربعون حديثًا، ص ٥٩١-٥٩٢.

لا يكون إلا نتيجة شكهم وعدم إيمانهم بالقضاء الإلهي وعدله، فتكون هذه الأمور من الحزن والهم والتعب. نتيجة لهذا التزلزل".<sup>١</sup>

### كمال اليقين

إنّ اليقين كغيره من الكمالات المعنوية ذو مراتب ودرجات. وقد أشار الإمام قدس سره إلى أعلى درجاته، وهي المتحققة في الأنبياء: "إنّ مراتب اليقين والإيمان مختلفة على مستوى لا يمكن عدّها وبيانها. وإنّ اليقين الكامل للأنبياء والاطمئنان التام الذي يحظون به، الحاصلان من المشاهدة الحضورية هو الذي يعصمهم من الآثام. إنّ يقين الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام قد أبلغه إلى مستوى يقول "وَاللّٰهُ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاقِهَا عَلَيَّ أَنْ أَعْصَى اللَّهَ فِي نَمَلَةٍ أَسْبُهَا جَلْبُ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ"<sup>٢</sup>٣. و"إنّ مصدر جميع الخطايا والمعاصي التي تصدر من الإنسان، هو النقص في اليقين والإيمان"<sup>٤</sup>.

وفي شرحه لحديث الإمام الصادق عليه السلام الوارد في مصباح الشريعة يقول قدس سره "وكمال اليقين مشاهدة حضور المحبوب"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٩٤.

<sup>٢</sup> نهج البلاغة، ص ٣٤٧.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٨١.

<sup>٤</sup> (ن.م).

<sup>٥</sup> معراج السالكين، ص ٧٥.

## المفاهيم الرئيسة

- ١- اليقين عبارة عن رسوخ المعرفة في النفس بحيث يزول معه أي احتمال مخالف مهما كان ضئيلاً، وهو عبارة عن إدراك الواقع كما هو، والذي هو ظهور التوحيد الذي ملأت آياته أركان السماوات والأرض.
- ٢- من مظاهر اليقين التفكّر بالله والانس بذكره، وعدم الاستمرار بالغفلة، وإصلاح نمط العيش.
- ٣- من نتائج كمال اليقين أن لا يُرضي الناس بسخط الله ولا يلوم الناس على ما لم يؤتّه الله، فالإنسان الذي يتمتّع بيقينٍ صحيح يعرف أنّ كلّ شيء من الذّات المقدّس الحقّ المتعالي، وأنّه لا يؤثّر موجودٌ آخر في الوجود ولا في كمالات الوجود.
- ٤- اليقين أساس الطمأنينة والعصمة والسعادة والراحة والسرور، وفي المقابل فإنّ التزلزل وارتكاب الذنوب والتعاسة تنشأ من ضعف الإيمان ووهن اليقين والذي يتجلّى بالاعتماد على غير الحقّ سبحانه والالتفات إلى المخلوق.
- ٥- تتدلّل الصّعاب للشخصية الموقنة وتحمون عليها المصائب لأنّها قد اعتمدت على الركن الركين الذي يتمتّع بالقدرة والرحمة الكاملة المطلقة، واعتقدت بأنّ الحقّ هو الذي يقترّر الأمور بأسرها على ضوء المصالح الغيبية.
- ٦- لليقين درجات ومراتب، وكمال اليقين هو مشاهدة حضور المحبوب، وهي الدرجة المتحقّقة المتحقّقة في الأنبياء وهي التي تعصمهم عن الآثام.

دعاء:

اللَّهُمَّ إِنَّكَ ابْتَلَيْتَنَا فِي أَرْزَاقِنَا بِسُوءِ الظَّنِّ، وَفِي آخِلَانَا بِطُولِ الأَمَلِ حَتَّى التَّمَسَّنَا أَرْزَاقَكَ مِنْ عِنْدِ المَرزُوقِينَ، وَطَمِعْنَا بِأَمَالِنَا فِي أَعْمَارِ المُعَمَّرِينَ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَهَبْ لَنَا يَقِيناً صَادِقاً تَكْفِيناً بِهِ مِنْ مُؤُونَةِ الطَّلَبِ، وَالمُهْمَنَا ثِقَةً خَالِصَةً تُغْفِينَا بِهَا مِنْ شِدَّةِ النَّصَبِ وَاجْعَلْ مَا صَرَّحْتَ بِهِ مِنْ عِدَّتِكَ فِي وَحْيِكَ، وَأَتْبَعْتَهُ مِنْ قَسَمِكَ فِي كِتَابِكَ، قَاطِعاً لِإِهْتِمَامِنَا بِالرِّزْقِ الَّذِي تَكَلَّمْتَ بِهِ، وَحَسْماً لِلِإِشْتِعَالِ بِمَا ضَمَمْتَ الكِفَايَةَ لَهُ فُقُلْتَ وَقَوْلِكَ الحَقُّ الأَصْدَقُّ، وَأَقْسَمْتَ وَقَسَمْتَ الأَبْرُ الأَوْفَى وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعِدُونَ ثُمَّ قُلْتَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ والأَرْضِ إِنَّهُ لِحَقِّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تُنطِقُونَ<sup>١</sup>.

الآيات الشريفة:

١- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾<sup>٢</sup>.

٢- ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾<sup>٣</sup>.

٣- ﴿كَأَلَا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ \* لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ \* ثُمَّ لَتَرُوثُنَّهَا عِبَرٌ اليَقِينِ﴾<sup>٤</sup>.

الروايات الشريفة:

١- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "الإيمان على أربع دعائم: على الصبر، واليقين، والعدل، والجهد... واليقين منها على أربع شعب: على تبصرة الفطنة، وتأول الحكمة، وموعظة العبرة، وسنة الأولين: فمن تبصر في الفطنة تبين له الحكمة، ومن تبين له الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام إذا قرأ عليه رزقه.

<sup>٢</sup> سورة السجدة، الآية ٢٤.

<sup>٣</sup> سورة المجاثية، الآية ٤.

<sup>٤</sup> سورة التكاثر، الآيات ٥-٧.

<sup>٥</sup> تحج البلاغة، ٤٧٣.

٢- وقال أمير المؤمنين عليه السلام: "لَأَنْسِبَنَّ الْأِسْلَامَ نِسْبَةً لَمْ يَنْسِبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي: الْأِسْلَامُ هُوَ التَّسْلِيمُ، وَالتَّسْلِيمُ هُوَ الْيَقِينُ، وَالْيَقِينُ هُوَ التَّصَدِيقُ، وَالتَّصَدِيقُ هُوَ الْإِقْرَارُ، وَالْإِقْرَارُ هُوَ الْأَدَاءُ، وَالْأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ"<sup>١</sup>.

٣- عن الوشاء عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ: "سَمِعْتُهُ يَقُولُ: الْإِيمَانُ فَوْقَ الْإِسْلَامِ بِدَرَجَةٍ وَالتَّقْوَى فَوْقَ الْإِيمَانِ بِدَرَجَةٍ وَ الْبِقِينُ فَوْقَ التَّقْوَى بِدَرَجَةٍ وَ مَا قُسِمَ فِي النَّاسِ شَيْءٌ أَقْلُ مِنَ الْيَقِينِ"<sup>٢</sup>.

٤- عن الإمام الصادق عليه السلام: "الْمُؤْمِنُونَ أَيْضاً مُتَفَاوِثُونَ فِي قُوَّةِ الْيَقِينِ وَضَعْفِهِ فَمَنْ قَوِيَ مِنْهُمْ يَقِينُهُ فَعَلِمْتُهُ التَّبَرِّيَ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إِلَّا بِاللَّهِ وَالِاسْتِغَامَةَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا قَدْ اسْتَوَتْ عِنْدَهُ خَالَةُ الْعَدَمِ وَالْوُجُودِ وَالرِّيَادَةَ وَالتَّقْصَانَ وَالْمَدْحَ وَالذَّمَّ وَالْعِزَّ وَالذُّلَّ لِأَنَّهُ يَرَى كُلَّهَا مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ وَمَنْ ضَعُفَ يَقِينُهُ تَعَلَّقَ بِالسَّبَابِ وَرَخَّصَ لِنَفْسِهِ بِذَلِكَ وَاتَّبَعَ الْعَادَاتِ وَأَقَابِيلِ النَّاسِ بَعِيرَ حَقِيقَةٍ وَالسَّعْيِ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَجَمْعِهَا وَإِمْسَاكِهَا مُقَرَّرًا بِاللِّسَانِ أَنَّهُ لَا مَانِعَ وَلَا مُعْطِيَّ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ الْعَبْدَ لَا يُصِيبُ إِلَّا مَا رَزَقَ وَفُسِمَ لَهُ وَالْجَهْدُ لَا يَزِيدُ فِي الرِّزْقِ وَتُنَكَّرُ ذَلِكَ بِفِعْلِهِ وَقَلْبِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾"<sup>٣</sup>.

٥- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ صَلَاحَ أَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالزُّهْدِ وَالْيَقِينِ وَهَلَاكَ آخِرِهَا بِالشُّحِّ وَالْأَمَلِ"<sup>٤</sup>.

٦- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "عَلَيْكُمْ بِالزُّهْمِ الْيَقِينِ وَالتَّقْوَى فَإِنَّهُمَا يُبَلِّغَانِكُمْ جَنَّةَ الْمَأْوَى"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> نصح البلاغة، ص ٤٩١.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٥١.

<sup>٣</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ١٩٨.

<sup>٤</sup> من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤١٣.

<sup>٥</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٢٠٠.

## الدرس الخامس عشر: الشكر

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرّف إلى المعنى الحقيقي للشكر وكيف يصبح الإنسان شكورا.
- ٢- يبيّن أهمية الشكر وارتباطه بالعبودية والحياة المعنوية للإنسان.
- ٣- يشرح علامات الشكر التي تساعد على اكتشافها في أنفسنا.



## تمهيد

ليس الشكر سوى تعبير عن المعرفة والإيمان. وإنه خلق كريم لكنّه في حقيقته عبارة عن انفعال النفس تجاه حضور الله تعالى بإنعامه، أو كما يقول أهل الله "بالاسم المنعم". يستحيل أن يعيش الإنسان في هذه الحياة الدنيا ولا يكون محاطاً بنعمة الله التي لا تُحصى. ولهذا، كان الشكر أمراً بديهياً وضرورياً. فلماذا نجد أكثر الناس غير شاكرين؟ ولماذا قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾<sup>١</sup>؟ وهل يمكن أن يكون أحدنا من أولئك؟ وما الذي يمكن أن نفعله لكي نصبح من الشاكرين؟

## أهمية الشكر

قبل الخوض في تحديد المعنى للشكر ينبغي أن نلتفت إلى أهميته ودوره على صعيد مصير الإنسان.

### ١- من المسؤوليات الأساسية للعبودية

"اعلم أنّ شكر نعم الحقّ المتعال الظاهرية والباطنية من المسؤوليات الأساسية للعبودية، حيث يجب على كلّ إنسان أن يشكر ربه على حسب قدرته المتاحة، رغم أنّ لا أحد من المخلوقين يستطيع أن يؤدي حقّ شكره"<sup>٢</sup>.

### ٢- من العلامات الأساسية للإيمان

وبالإضافة إلى كونه من مسؤوليات العبودية، فإنّ الشكر يُعدّ من العلامات الأساسية للإيمان. عن سعدٍ، عن أبي جعفر عليه السلام قال: "إنّ القلوب أربعة: قلبٌ فيه نفاقٌ وإيمانٌ

<sup>١</sup> سورة سبأ، الآية ١٣.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٣٧٩.

وَقَلْبٌ مَّنْكَوسٌ، وَقَلْبٌ مَطْبُوعٌ، وَقَلْبٌ أَزْهَرُ أَجْرَدُ. فُقُلْتُ مَا الْأَزْهَرُ؟ قَالَ: فِيهِ كَهَيْئَةِ السَّرَاجِ، فَأَمَّا الْمَطْبُوعُ فَقَلْبٌ الْمَنَافِقِ، وَأَمَّا الْأَزْهَرُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَعْطَاهُ شُكْرًا وَإِنْ ابْتَلَاهُ صَبْرًا...<sup>١</sup>.

"تعرّض الحديث لخصوص صفتين من صفات المؤمن "إِنَّ أَعْطَاهُ شُكْرًا وَإِنْ ابْتَلَاهُ صَبْرًا" من أجل أنّ لهاتين الصفتين من صفات المؤمنين خصائص ومزايا لا تتواجد في غيرها من الصفات، فإتّهما من أتمّها من الصفات الجميلة، وتفرّغ منهما صفات جميلة أخرى... ومن أجل أنّ هاتين الصفتين . أيضًا . من صفات الجلال والجمال، القهر واللطف، المتجليّتان بالعطاء والابتلاء. فإنّ الابتلاء - وإن كان من صفات اللطف والجمال، ولكنّه حيث يكون ظاهرًا بالقهر، جعل منه. كما ذكرنا في بحث أسماء الحقّ وصفاته. والمؤمن ينهض دائمًا بالعبوديّة بين هذين التجليين"<sup>٢</sup>.

### ٣- دليل الحياة المعنويّة

"روى الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العامليّ في الوسائل عن محمّد بن ادريس، نقلًا عن العيون والمحاسن للمفيد . رحمه الله . قال: قال الباقر عليه السلام: "ما أنعم الله على عبد نعمة فشكرها بقلبه إلا استوجب المزيد قبل أن يظهر شكره على لسانه"<sup>٣</sup>. ويتّضح من هذا الحديث الشّريف أنّ الشّكر من واجبات القلب قبل أن يجري على اللسان، وفي الأحاديث الشّريفة إشارات كثيرة لهذا المعنى"<sup>٤</sup>.

### ٤- دليل بقاء الفطرة الإلهيّة

وكما سيّتضح لاحقًا فإنّ الشّكر يدلّ على وجود تلك الوصلة بيننا وبين الله وهي الفطرة. فمن لم يكن شاكراً كان كمن قطع ارتباطه بالله تعالى. ولهذا، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "اعلم أنّ من الأمور الفطريّة التي نقشها قلم القدرة الإلهيّة في فطرة كلّ إنسان، فكان جميع أفراد العائلة البشريّة متّفقين عليها، هو تعظيم المنعم وحمده، وكلّ من يرجع إلى فطرته الأصيلة

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٤٢٢.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ٥٦٣-٥٦٤.

<sup>٣</sup> وسائل الشريعة، ج ١٦، ص ٣١١.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٨٢.

يجد أنّ من الثابت المستقرّ في كتاب ذاته تعظيم المنعم وحبّه. وهذا الأمر الفطريّ هو منشأ كل حمد وثناء، وكل تعظيم يظهره أهل الدنيا لأولياء نعمهم الدنيويّة، وهو أيضاً منشأ الاحترام والثناء الذي يديه المتعلّمون تجاه العلماء والمعلّمين. وإذا كفر أحدٌ بنعمة أو أحجم عن حمد المنعم عليه، فقد تكلف ما يخالف الفطرة الإلهيّة، وخرج عن الغريزة والطبيعة الإنسانيّة، ولهذا فإنّ عموم البشر ينتقدون وينتقصون فعل الكافرين بالنعمة، ويرونهم خارجين عن الغريزة الذاتيّة الإنسانيّة. وما تقدّم على شكر المنعم بصورة عامّة، سواء أكان حقيقياً أو مجازياً، ولكن ينبغي التنبّه إلى أنّ ممّا تقرّه الفطرة السليمة وتقتضيه الفطرة المخمّرة غير المحتجبة، هو الشكر والحمد للذات المقدّسة، أي للمنعم على الإطلاق الذي بسط بساط رحمته في أرجاء دار التّحقّق، فجميع ذرّات الكائنات تتنعم بمائدة نعم ظلّ رزاقية ذاته المقدّسة.

وباختصار، فإنّ الفطرة السليمة التي لم تحتجب بأستار التعيّنات الخلقية، والتي تردّ الأمانة إلى صاحبها سالمة، تشكر الحقّ تعالى على كلّ نعمة، بل إنّ الفطرة غير المحجوبة ترى أنّ شكر كلّ شاكر وحمد كل حامد - بأي عنوان كان، ولأيّ شخصٍ وقع، وعلى أيّ نعمة كان - لا يرجع لغير الذات المقدّسة للحقّ جلّ وعلا، وإن كان المحجوبون يتصوّرون أنّهم يمدحون غيره ويحمدون سواه عزّ وجل. أجل، إنّ شكر المخلوق من الواجبات التي لا شكّ فيها، كما قالوا: "من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق"، ولكن هذا الشكر ينبغي أن يكون بعنوان أنّ هذا المخلوق هو وسيلة اتّخاذها الله لبسط نعمه ورحمته، لا أن يكون شكرك للمخلوق سبباً لحجب نفسك عن الخالق والرازق الحقيقيّ، فهذا هو عين الكفر بنعمة وليّ النعم. وملخص الكلام أنّه قد اتّضح أنّ الشكر من متقضيّات الفطرة"<sup>١</sup>.

### تعريف الشكر

"الشكر بحسب موارد استخدامه عبارة عن إظهار نعمة المنعم، أو هو الأمر الذي يُظهر به الشكر"<sup>٢</sup>. وفي موضع آخر يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "الشكر عبارة عن التّقدير لنعم المنعم، وهذا الأمر يظهر في القلب على نحو، وفي اللسان على نحو ثانٍ، وعلى الجوارح بنحو

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٧٨-١٨٠.

<sup>٢</sup> (ن)، ص ١٧٣-١٧٤.

ثالث. وهذا التقدير متقوم بمعرفة المنعم ومعرفة النعمة<sup>١</sup>.

ويلاحظ أنّ أكثر الأذهان تنصرف عند الحديث عن الشكر إلى نتائجه التي تظهر في الأعمال القلبية والقلبية، ولهذا، قال الإمام قدس سره مصححاً: "إنّ ما ذكره المحققون في الشكر مبني على المجاز والمسامحة، لأنّ الشكر لا يكون نفس المعرفة بالقلب، والإظهار باللسان، والعمل بالأعضاء والجوارح، بل هو حالة نفسية ناجمة عن معرفة المنعم والنعمة وأنّ هذه النعمة من المنعم، وتنتج من هذه الحال الأعمال القلبية القلبية . العمل بالجوارح. كما ذكر بعض المحققين معنى للشكر يقترب من هذا المعنى، رغم أنّ كلامهم أيضاً لا يخلو من المسامحة"<sup>٢</sup>.

فالشكر إذاً هو عرفان وتقدير ممتزج بشعور إنسانيّ بنوع من الفرح والامتنان. وهو لا يكون إلاّ في قلب المؤمن بالله. لأنّ المقصود فيه هو شكر المنعم الحقيقيّ.

### غاية الشكر

لا شكّ بأنّ هذه الصفة النفسانية العظيمة تابعة لمستوى الإنسانية وقوة حضور الفطرة في النفس والقلب. ولهذا، يكون الشكر درجات.

وأعلى درجات الشكر كما يقول الإمام الخميني قدس سره: "إنّ منتهى الشكر في معرفة الإنسان عجزه عن التهوض بحقّ شكره سبحانه. كما أنّ غاية العبودية تكون في معرفة الإنسان عجزه عن القيام بحقّ العبودية له تعالى. ومن هذا المنطلق اعترف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالعجز، مع أنّ شخصاً لم يشكر ربّه ولم يعبد، يمثل شكر ذلك الوجود المقدّس وعبوديته، لأنّ كمال الشكر ونقصه يتبعان التعرّف الكامل على المنعم وإحسانه، والتعرّف الناقص على المنعم وجميله. ولهذا لم يستطع أحد التهوض بحقّ شكره. لأنّ أحداً لم يعرفه حقّ معرفته. إنّما العبد يكون شكوراً، إذا علم ارتباط الخلق بالحقّ، وعلم انبساط رحمة الحقّ من أوّل ظهوره إلى ختامه، وعلم ارتباط النعم بعضها مع بعض وعلم بداية الوجود ونهايته على ما هو عليه. ومثل هذه المعرفة لا تحصل إلاّ للخُلص من أولياء

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٧٤-١٧٥.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٣٧٨.

الله الذين كان أشرفهم وأفضلهم، الذّات المقدّس خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم، وإنّ كافة التّاس محبوبون عن بعض مراتب هذه المعرفة بل عن أكثر مراتبها وأعظمها. بل ما دامت حقيقة سرّيان ألوهيّة الحقّ لم تنتقش في قلب العبد بعد ولم يؤمن بأنّه "لَا مُؤَثَّرٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللهُ" ولا تزال غيرة الشّرك والشكّ عالقة في قلبه، لا يستطيع أن يؤدّي شكر الحقّ المتعالي كما يجب أن يكون. ومن هنا يُعلم أنّ التّهوض بحقّ شكره لا يكون في مستطاع أيّ شخص، كما يقول الحقّ المتعالي جلّ جلاله ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾<sup>١</sup>. فإنّ القليل من العباد يعرفون كما ينبغي نعم الحقّ. ولهذا فإنّ القليل من العباد يؤدّون الشّكر للحقّ جلّ جلاله كما يستحقّ<sup>٢</sup>.

### مراتب الشكر

وإذا عرفنا غاية الشّكر ومنتهاه أدركنا الطّريق الموصل إليه، وعلمنا أنّ الله تعالى قضى أن يواتر علينا نعمه ويتدرّج بنا في آلائه حتّى نرتقي بذلك في مراتب الشّاكرين لنبلغ أعلى درجات الإنسانيّة. ولهذا، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "ولا بدّ من معرفة أنّه كما تختلف مستويات معرفة العباد، كذلك تختلف مراتب شكرهم. وأيضًا إنّ مراتب الشّكر مختلفة، لأنّ الشّكر هو الثّناء على النّعم التي وهبها المنعم. فإذا كانت النّعم من قبيل النّعم الظاهريّة كانت له مرتبة من الشّكر، وإذا كانت من نوع العلوم والمعارف كان شكرها من نوعٍ آخر، وإن كانت من تجلّيات الأسماء كان لها شكر، وإن كانت من قبيل التجلّيات الذاتيّة الأحديّة كان هناك شكرٍ آخر. وحيث أنّ جميع مراتب النّعم متوفّرة لقليلٍ من العباد، كان التّهوض بأداء الشّكر على جميع المستويات لقليلٍ من العباد، وهم الخُلص من الأولياء الجامعين لجميع الحضرات، والذين هم برزخ البرازخ، والحافظين لكلّ المراتب الظّاهرة والباطنة، ولهذا يكون شكرهم مع جميع الألسنة الظّاهرة والباطنة والسّريّة"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> سورة سبأ، الآية ١٣.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ٣٧٩-٣٨٠.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٨١.

## التواصل الإيجابي مع الناس

إنّ من أهم أسرار جريان نعم الله على أيدي الناس ووصولها إلينا عبرهم هو أن يتراحم الناس فيما بينهم وتشتدّ أواصر المحبة بينهم. فإنّ الله تعالى لا يعجزه أن يرسل إلينا نعمه دون وسيلة. لكنّه شاء أن تكون عبر المخلوقين. وفي الحديث قال أبو عبد الله عليه السلام: "من قصرت يده بالمكافأة فليطل لسانه بالشكر"<sup>١</sup>، وقال: "من حقّ الشكر لله، أن تشكر من أجرى تلك النعمة على يده"<sup>٢</sup>. ويتّضح من هذا الحديث الشريف ما تقدّمت إليه الإشارة في الفصل السابق من أنّ شكر المخلوق هو لكونه مجرّباً للنعمة الإلهية، وإلا فإنّ الذي يغفل عن وليّ نعمته الحقيقيّ، ويشكر المخلوق بعنوان كونه مستقلاًّ بالإنعام، هو من الكافرين بالنعمة الإلهية، وهذا ممّا لا يحتاج إلى مزيد توضيح واستشهاد، بل هو واضح بنفسه ومبرهنٌ بذاته"<sup>٣</sup>.

وفي الوسائل، عن مجالس الشيخ بإسناده عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: "يؤتى العبد يوم القيامة، فيوقف بين يدي الله عزّ وجل، فيأمر به إلى النار، فيقول: أي رب أمرت بي إلى النار وقد قرأت القرآن؟ فيقول الله: أي عبدي قد أنعمت عليك ولم تشكر نعمتي. فيقول: أي ربّ أنعمت عليّ بكذا، وشكرتك بكذا، وأنعمت عليّ بكذا وشكرتك بكذا، فلا يزال يحصي النعمة ويعدّد الشكر. فيقول الله تعالى: صدقت عبدي إلا أنّك لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه. وإنيّ قد آليت على نفسي أن لا أقبل شكر عبد لنعمة أنعمتها عليه حتّى يشكر من ساقها من خلقي إليه"<sup>٤</sup>.

## كيفية تحصيل فضيلة الشكر

قد علمنا أنّ الأصل في هذه المكرمة السامية هو وجود الفطرة واستواء الإنسانيّة في القلب. وبهذه الطّريقة لو قلنا بأنّ وظيفة الإنسان قبال هذه الصّفة المحمودة ليست سوى الحفاظ على إنسانيّته والعودة إلى فطرته التي فطره الله عليها لما كنّا مبالغين. يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "من الفطر الإلهية التي فطر جميع الخلق عليها، الشاء على الكامل وشكر المنعم وحمده"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> وسائل الشّيعيّة، ج ١٦، ص ٣١١.

<sup>٢</sup> (م.ن).

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٨٣.

<sup>٤</sup> وسائل الشّيعيّة، ج ١٦، ص ٣١٢.

<sup>٥</sup> معراج السالكين، ص ٢٥٨-٢٥٩.

فإذا كان الشكر عرفاناً، فإنّ تحصيله يعتمد على المعرفة وعلى المزيد من الخضوع والعبودية للذات الإلهية، وما علينا سوى أن نتوجه بفكرنا إلى مظاهر النعمة الإلهية في كلّ الوجود حتى ندرك بالدليل والبرهان، بل بالعيان والوجدان كم أنّ عظمة الحقّ المنعم قد ملأت أركان السماوات والأرض. بل نفذت فينا حتى تحلّت كلّ ذرّات وجودنا. فإذا رسخت هذه المعرفة وأبطلت ما كان فينا من جهل أو سوء ظنّ برّبنا، صار لزاماً أن ننقلها إلى مرحلة العمل من خلال ترسيخ العبودية في القلب حتى يستقرّ معها الشكر فيه ويصبح من خصائص شخصيتنا. لأن المطلوب في باب الفضائل هو أن تصبح ملكة راسخة متّحدة بالنفس.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "كما أنّك تعبد الله في الظاهر وتدعي العبودية فاعبده في السرّ أيضاً حتى تسري العبودية السرية القلبية إلى الأعمال الجوارحية أيضاً ويكون العمل والقول نقشاً على الباطن والسرّ، وتسري حقيقة العبودية إلى جميع أجزاء الوجود الظاهري منها والباطني، ويحظى كلّ من الأعضاء بحظّ من التوحيد ويوصل اللسان الذّاكر الذّكر إلى القلب وينقل القلب الموحد المخلص التوحيد والإخلاص إلى اللسان ويطلب العبد الربوبية من حقيقة العبودية ويخرج من عبادة النفس ويوصل ألوهية الحقّ إلى القلب.

وليعلم أنّ ناصية العباد بيد الحقّ تعالى ولا يقدر على التنفّس والتّظنر إلا بقدره الحقّ تعالى ومشيعته وهم عاجزون عن التصرف في مملكة الحقّ بجميع أنواع التصرفات وإن كان تصرفاً تافهاً إلا بإذن وإرادة ذاته المقدّسة كما قال تعالى: ﴿وَرُبُّكَ يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾<sup>١</sup>. فإذا أوصلت هذه اللطيفة إلى القلب يكون شكرك للحقّ على الحقيقة ويسري الشكر إلى أعضائك وأعمالك، فكما أنّ اللسان والقلب لا بدّ أن يكونا مترافقين في طريق العبودية، ففي هذا التوحيد الفعليّ أيضاً لا بدّ أن يكون صدق اللسان موصولاً بصفاء سرّ القلب لأنّ الحقّ جلّ وعلا هو الخالق ولا مؤثّر غيره. وجميع الإرادات والمشيعات ظلّ إرادته ومشيعته الأزليّة السابقة<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> سورة القصص، الآية ٦٨.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٣٦٢.

## المفاهيم الرئيسة

١- الشكر عبارة عن انفعال النفس تجاه حضور الله تعالى بإنعامه، وهو تعبير عن المعرفة والإيمان . معرفة المنعم والنعمة وأن هذه النعمة هي من المنعم - وينتج عن هذه الحالة الأعمال القلبية والقالبية وحالة من التقدير الممتزج بنوع من الفرح والامتنان.

٢- لا يكون الشكر إلا في قلب المؤمن بالله، لأنّ المقصود فيه هو شكر المنعم الحقيقي. أما من لم يشكر الله أو شكر المخلوق لا بعنوان أنه وسيلة اتخذها الله لبسط نعمه ورحمته، فهو الكفور.

٣- من علامات الشكر: استعمال النعم في مورها، اجتناب المحارم، الحديث عن النعم، القول باللسان الحمد لله رب العالمين.

٤- أهمية الشكر هو أنه من المسؤوليات الأساسية للعبودية، ومن العلامات الأساسية للإيمان، ودليل الحياة المعنوية، فهو يدل على وجود تلك الصلة بيننا وبين الله وهي الفطرة، فمن لم يكن شاكرًا كان كمن قطع ارتباطه بالله تعالى.

٥- الشكر درجات، وأعلى درجاته معرفة الإنسان عجزه عن النهوض بحق شكره سبحانه وتعالى.

٦- تختلف مراتب الشكر باختلاف مراتب المعرفة بنعم الحق، وبما أنّ الذين يعرفون نعم الحق كما ينبغي قلّة، فإنّ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾.

٧- الذين ينهضون بأداء الشكر على جميع المستويات هم الخالص من الأولياء الجامعين لجميع الحضرات.

٨- وظيفة الإنسان تجاه الشكر هي الحفاظ على إنسانيته والعودة إلى فطرته التي فطره الله عليها.

٩- إنّ إدراك عظمة الحق المنعم التي ملأت أركان السماوات والأرض يحصل بالتوجّه إلى مظاهر النعمة الإلهية في كلّ الوجود، وهذا ما يؤدي إلى الخضوع والعبادة.

١٠- إنّ من أهم أسرار جريان نعم الله على أيدي الناس ووصولها إلينا عبرهم هو أن يتراحم الناس فيما بينهم وتشتدّ أواصر المحبة بينهم.

اللَّهُمَّ إِنَّ أَحَدًا لَا يَبْلُغُ مِنْ شُكْرِكَ غَايَةَ إِلَّا حَصَلَ عَلَيْهِ مِنْ إِحْسَانِكَ مَا يُلْزِمُهُ شُكْرًا وَلَا يَبْلُغُ مَبْلَغًا مِنْ طَاعَتِكَ وَإِنْ اجْتَهَدَ إِلَّا كَانَ مُقْصِرًا دُونَ اسْتِحْقَاقِكَ بِفَضْلِكَ، فَأَشْكُرُ عِبَادَكَ عَاجِزٌ عَنْ شُكْرِكَ، وَأَعْبُدُهُمْ مُقْصِرٌ عَنْ طَاعَتِكَ لَا يَجِبُ لِأَحَدٍ أَنْ تَغْفِرَ لَهُ بِاسْتِحْقَاقِهِ، وَلَا أَنْ تَرْضَى عَنْهُ بِاسْتِحْقَابِهِ فَمَنْ غَفَرْتَ لَهُ فِطْوَلِكَ، وَمَنْ رَضَيْتَ عَنْهُ فَبِفَضْلِكَ تَشْكُرُ يَسِيرَ مَا شَكَرْتَهُ، وَتُثِيبُ عَلَى قَلِيلٍ مَا تُطَاعُ فِيهِ حَتَّى كَأَنَّ شُكْرَ عِبَادِكَ الَّذِي أُوجِبْتَ عَلَيْهِ ثَوَابَهُمْ وَأَعْظَمْتَ عَنْهُ جَزَاءَهُمْ أَمْرٌ مَلَكَوا اسْتِطَاعَةَ الْإِمْتِنَاعِ مِنْهُ دُونَكَ فَكَافَيْتَهُمْ، أَوْ لَمْ يَكُنْ سَبَبُهُ بِيَدِكَ فَحَازَتْهُمْ بَلْ مَلَكَتْ يَا إِلَهِي أَمْرَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَمْلِكُوا عِبَادَتَكَ، وَأَعَدَدْتَ ثَوَابَهُمْ قَبْلَ أَنْ يُفِيضُوا فِي طَاعَتِكَ، وَذَلِكَ أَنَّ سُنَّتَكَ الْإِفْضَالُ، وَعَادَتَكَ الْإِحْسَانُ، وَسَيِّلَكَ الْعَفْوُ<sup>١</sup>.

### الآيات الكريمة:

١- ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾<sup>٢</sup>.

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>٣</sup>.

٣- ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾<sup>٤</sup>.

٤- ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾<sup>٥</sup>.

٥- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾<sup>٦</sup>.

### الروايات الشريفة:

١- عن أمير المؤمنين عليه السلام: قال: "إذا قدرت على عدوك فأجعل العفو شكرًا للقدرة عليه"<sup>٧</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه إذا اعترف بالتقصير عن تأدية الشكر.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ١٥٢.

<sup>٣</sup> سورة المائدة، الآية ٦.

<sup>٤</sup> سورة الأعراف، الآية ٥٨.

<sup>٥</sup> سورة الإسراء، الآية ١٩.

<sup>٦</sup> سورة المؤمنون، الآية ٧٨.

<sup>٧</sup> تحج البلاغة، ص ٤٧٠.

٢- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "فِيَمَا أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا مُوسَى اشْكُرْنِي حَقَّ شُكْرِي، فَقَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ وَلَيْسَ مِنْ شُكْرِ أَشْكُرُكَ بِهِ إِلَّا وَأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ، قَالَ: يَا مُوسَى الْآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي" <sup>١</sup>.

٣- قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "إِذَا أَصْبَحْتَ وَأَمْسَيْتَ فَقُلْ عَشْرَ مَرَّاتٍ: "اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحْتُ بِكَ مِنْ نِعْمَةٍ أَوْ عَافِيَةٍ مِنْ دِينٍ أَوْ دُنْيَا فَمِنْكَ وَحَدِّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ بِهَا عَلَيَّ يَا رَبِّ حَتَّى تَرْضَى وَبَعْدَ الرِّضَا"، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ كُنْتَ قَدْ أَدَيْتَ شُكْرَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ" <sup>٢</sup>.

٤- عَنْ الرَّسُولِ الْأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "أَنَّهُ إِذَا رَأَى مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُتَبَتَّلِي قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاهُ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا"، وَقَالَ: مَنْ قَالَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي تِلْكَ الْحَالِ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ الْعَافِيَةِ" <sup>٣</sup>.

٥- قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "شُكْرُ الْعَالَمِ عَلَى عِلْمِهِ أَنْ يُبَدِّلَهُ لِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ" <sup>٤</sup>.

٦- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "شُكْرٌ مِنْ دُونَكَ بِسَبَبِ (بِسَبَبِ) الْعَطَاءِ" <sup>٥</sup>.

٧- وَعَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "شُكْرٌ مِنْ فَوْقِكَ بِصَدَقِ الْوَلَاءِ" <sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٩٨.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٩٩.

<sup>٣</sup> مستدرک الوسائل، ج ٥، ص ٣١٥.

<sup>٤</sup> بحار الأنوار، ج ٢، ص ٨١.

<sup>٥</sup> غرر الحكم، ص ٢٧٩.

<sup>٦</sup> (ن.م).

## الدرس السادس عشر: الصبر (١) - حقيقة الصبر ومراتبه

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرّف إلى معنى الصّبر وحقيقته.
- ٢- يشرح العلاقة الحاكمة بين الصّبر بالإيمان.
- ٣- يعدّد أنواع الصّبر ودرجاته.



## تمهيد

لا يخفى ما للصبر في الثقافة الإسلامية من منزلة رفيعة وقيمة عظيمة. فهو من أحب السبل إلى الله ومن أرقى الكمالات النفسية ومن أهم علائم الإيمان. به يبلغ المؤمن مقامات المقربين ومراتب الصديقين. ومع ذلك فقد تم تفسيره في أحيان كثيرة بطرق جعلته من عوامل الخمول والتكوص، فحرم الكثيرون من معرفة عظمته ودوره المحوري في بناء النفس وتكميلها.

فما هو الصبر؟ وكيف نكون من الصابرين الذين يوفون أجورهم بغير حساب؟

## تعريف الصبر

يذكر الإمام الخميني قدس سره أنّ للصبر تعاريف عديدة. وعند التأمل فيها جميعاً يتبين لنا أنّ المكاره على جميع أنواعها هي المطروحة في القضية. وهي عبارة عن الأمور التي تخالف طبع النفس وما تحواه أو تطلبه سواء كانت النفس طبيعية أو مجردة، نورانية أو ظلمانية. وفي هذا المجال، فالصبر هو الذي يتحمل هذه المكاره من أجل التقدم على طريق الله طريق الكمال.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "للصبر تعاريف عدّة، نكتفي بذكر بعضها، قال المحقق العارف الأنصاري: "الصبر: حبس النفس على جزع كامن عن الشكوى". وبناءً على هذا التعريف فإنّ الصبر هو الامتناع عن إظهار الجزع الباطني وعن الشكوى من الأمور غير الملائمة. وقد عرّف الصبر بما يقارب هذا المضمون الحكيم الجليل الخواجة الطوسي قدس سره. فالصبر، إذًا، يشتمل على أمرين يتقوم بهما: الأول: وجود كراهية باطنية لما يرد على الإنسان من أمور لا يرغب فيها. الثاني: الامتناع عن الشكوى وإظهار الجزع بسبب تلك الأمور.

وقد قال الشيخ العارف عبد الرزاق الكاشاني: "المراد بالشكوى، الشكاية إلى غير الحق، لأن الشكوى إلى الله في باب الصبر محمودة، ألا ترى أيوب عليه السلام كيف شكى إلى ربه بقوله: ﴿...أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، مع أن الله تعالى مدحه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾"¹.

وبهذا المعنى، يذكر الإمام قدس سره: "أن الصبر يُعتبر من مقامات المتوسّطين، لأنّ النفس ما دامت تكره المصائب والبلبات، وتخرج منها، يكون مقام معرفته ناقصاً، كما أنّ مقام الرضا بالقضاء، والابتهاج من إقبال المصائب عليه، مقام أرقى من مقام الصبر، رغم كون مقام الرضا من مقامات المتوسّطين أيضاً. وهكذا يكون الصبر على المعصية والطاعة، من جزاء نقص المعرفة بأسرار العبادة وصور المعاصي والطاعات. فإنّ الإنسان إذا أدرك حقيقة العبادة وآمن بصورها البهيّة البرزخيّة، وكذلك آمن بالصّور البرزخيّة الموحشة للمعاصي لما كان للصبر على الطاعة أو المعصية وقع. بل الأمر يغدو معكوساً"².

### صبر الأنبياء

"وما ورد في أئمة الهدى أو الأنبياء العظام من نعمتهم بالصبر، فمن المحتمل أنّه من الصبر على الآلام الجسديّة التي تسبّب الانفعال والتأثر. حسب طبيعة الإنسان. أو من الصبر على فراق الأحبة وهو حينئذٍ من المقامات الكبيرة للمحبّين فيصحّ الحديث عنه في تراجم حياتهم. وأمّا الصبر على الطاعات أو المعاصي أو التوائب عدا ما ذكرنا. الآلام الجسمية. فلا معنى لها في حقّهم ولا في حقّ شيعتهم"³.

### صبر الأولياء

"إنّ فراق الحقّ الذي يكون بالنسبة للكامل من أولياء الله عبارة عن مفارقة مقامات القرب فهو مكروه جداً لأنفسهم المطهرة الشريفة، فيكون تحمّله شاقاً وصعباً عليهم ويستلزم الصبر، فالمولي أمير المؤمنين يقول في دعاء: كميل: "فهني

### صبرت علي

¹ جنود العقل والجهل، ص ٣٦٣.

² الأربعمون حديثاً، ص ٢٩٤.

³ (ن.م).

عذابك فكيف أصبر على فراقك". ويدنا عن الوصول إليه قاصرة. فمن حصل له هذا المقام فهو عبد الله على الحقيقة ويقع تحت قباب الربوبية ويكون الحق تعالى متصرفاً في مملكته ويخرج من ولاية الطاغوت. وهذا المقام من أعزّ مقامات الأولياء وأخصّ مدارج الأصفياء وليس لسائر الناس منه حظ، بل لعلّ القلوب القاسية للجاحدين والتفوس الصلبة للمجادلين البعيدة عن هذه المرحلة بمراحل، تنكر هذه المقامات ويحسبون الكلام في أطرافها باطلاً، بل ينسبون . والعياذ بالله . هذه الأمور، التي هي فترة عين الأولياء والكتاب والسنة مشحونة بها، إلى اختراعات الصوفية وأراجيف الحشوية<sup>١</sup>.

"أولئك الأولياء حتى لو طلبوا شيئاً فهم يطلبون أمثال النظر إلى كرامة الحبيب، تأمل فيما يقوله المحب الحقيقي، والمجنون المطلق، علي بن أبي طالب عليه السلام في دعاء: كميل: "فهني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرتُ على عذابك، فكيف أصبرُ على فراقك؟ وهني يا إلهي صبرتُ على حرّ نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك"<sup>٢</sup>.

### علاقة الصبر بالإيمان

إنّ من علامات فقدان التّحمّل انبعاث الشّكاية من النّفس تجاه المكاره. فيكون الصّبر ها هنا في الحقيقة عبارة عن "الامتناع عن الشّكوى على الجزع الكامن"<sup>٣</sup>.

عندما يشكو الإنسان ما تعرّضت له نفسه من مكروه فكأته في هذه الحالة يعترض على تدبير الله تعالى وهو يعلم أنّ كلّ شيء من عند الله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾<sup>٤</sup>. ومن كان مؤمناً حقّاً يؤمن بأنّ الله تعالى هو الحكيم اللطيف، وإنّ كلّ تدبيراته هي لمصلحة العبد وغبطته، فكيف يعترض حينها؟!

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٢٣٢.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٢٧-٣٢٨.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٩٥.

<sup>٤</sup> سورة النساء، الآية ٧٨.

ولهذا، تمّ، في الكثير من الأحاديث، ربط الصبر بالإيمان، كما جاء في الكافي، عن الإمام الصادق عليه السلام: قال: "الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ فَإِذَا ذَهَبَ الرَّأْسُ، ذَهَبَ الْجَسَدُ، وَكَذَلِكَ إِذَا ذَهَبَ الصَّبْرُ، ذَهَبَ الْإِيمَانُ"<sup>١</sup>.

وفي حديث آخر عن الإمام السَّجَّاد علي بن الحسين عليهما السلام، قال: "الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ وَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ"<sup>٢</sup>.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: "إِنَّ الْقُلُوبَ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ فِيهِ نِفَاقٌ وَإِيمَانٌ وَقَلْبٌ مُنْكَوسٌ، وَقَلْبٌ مَطْبُوعٌ، وَقَلْبٌ أَزْهَرُ أَجْرُدٌ. فَقُلْتُ مَا الْأَزْهَرُ؟ قَالَ: فِيهِ كَهَيْئَةِ السَّرَاجِ، فَأَمَّا الْمَطْبُوعُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ، وَأَمَّا الْأَزْهَرُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، إِنْ أَعْطَاهُ شَكَرَ وَإِنْ ابْتَلَاهُ صَبَرَ..."<sup>٣</sup>. "تمّ إن تعرّض الحديث لخصوص صفتين من صفات المؤمن (إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر) من أجل أنّ لهاتين الصفتين من صفات المؤمنين خصائص ومزايا لا تتواجد في غيرها من الصفات، فإنهما من أمّهات الصفات الجميلة، وتتفرّع منهما صفات جميلة أخرى"<sup>٤</sup>.

أما الشكاية إلى الله، فإنّها تعبّر عن استجابة إيمانية للمكروه الذي نزل به من عند الله تعالى. فالعبد هنا فهم أنّ الله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَا هُمْ بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾<sup>٥</sup>، وعلم أنّ الله تعالى يريد منه أن يجأر إليه ويشكو عنده قائلاً: "قَدْ نَزَلَ بِي يَا رَبِّ مَا قَدْ تَكَادَنِي ثِقَلُهُ، وَأَلَمَّ بِي مَا قَدْ بَهَظَنِي حَمَلُهُ"<sup>٦</sup>.

"وقد قال الشيخ العارف عبد الرزاق الكاشاني: "المراد بالشكوى، الشكاية إلى غير الحق، لأنّ الشكوى إلى الله في باب الصبر محمودة، ألا ترى أيوب عليه السلام كيف شكّا إلى ربّه بقوله: ﴿...أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَدَابٍ﴾، مع أنّ الله تعالى مدحه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾... "انتهى. وينبغي التنبيه إلى أن الصبر - بهذه المرتبة المذكورة - هو من مقامات المتوسّطين، لأنّ نفس الإنسان ما دامت تكره ما يردّها من الحقّ تعالى، وما

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٨٧.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٨٩.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٤٢٢.

<sup>٤</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٦٣.

<sup>٥</sup> سورة الأنعام، الآية ٤٢.

<sup>٦</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام إذا عرضت له مهمّة أو نزل به ملّة وعند الكرب.

دام الإنسان يجد في باطنه جزءًا من تلك الواردات، فإنّ مقام معارفه وكمالاته ناقص، والمقام الأعلى من هذا المقام من الصّبر، مرتبة الرّضا بالقضاء، حيث يكون الصّابر راضيًا مستبشرًا بما ينزل عليه من بليّات وضراء، فيستقبلها بكلّ وجوده لأنّها تنزل عليه من حبيبه سبحانه وتعالى<sup>١</sup>.

فاتّضح من هذا الكلام أنّ حسن الصّبر يرجع بالدرجة الأولى إلى الإيمان. فمن كان مؤمنًا صبر على كلّ ما يرده من الله، سواء كان تكليفًا شاقًا، أو نهيًا مانعًا من رغبة، أو مصيبة نازلة. وعندما نستحضر معنى الإيمان بالله وتجليّات حضوره تعالى في حياتنا فلن نجد صعوبة في إدراك أهمّية الصّبر وعلاقته بالإيمان.

### مراتب الصّبر

إذا كان الصّبر تحمّل المكاره، فإنّ درجاته ومراتبه ستكون بحسب درجات المكاره وشدّتها. وكلّما اشتدّ المكروه عظم عنده الصّبر وارتفع. يقول الإمام الخميني قدس سره في شرحه لحديث رسول الله: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة، كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على المعصية، كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش"<sup>٢</sup>. يتّضح من هذا الحديث الشّريف ثلاث مراتب للصّبر هي مبادئ وأمهات صبر المتوسّطين:

### المرتبة الأولى: الصبر على البليّات والمصائب

"بمعنى أن لا يشكو ولا يجزع بسببها، ولكنّ الجزع منها في محضر الخالق جلّ وعلا ليس نقصًا، بل إنّ تركه عيبٌ عند أهل المعرفة، لأنّه من التجلّد في محضر الحبيب، وهذا عيبٌ كبيرٌ في مذهب العشق والمحبة، فالمطلوب هو إظهار العجز والفقر في هذا المحضر المقدّس:

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٦٤.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٩١.

كما أنّ التجلُّد إثباتٌ للنفس، وإظهارٌ لوجودها، وهذا من أقبح المنكرات والجنائيات عند أهل المعرفة. ويذكر الحديث الشريف للصبر على المصائب ثلاثمائة درجة من الثواب ما بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض<sup>١</sup>.

#### المرتبة الثانية: الصبر على الطاعة

"أي أن يتحلّى الإنسان بالتحمل في العمل بالأوامر الإلهية، ولا يسمح للنفس الأتارة بالسوء أن تصدّه عن ذلك وأن تطغى، وهذا الطغيان يقع في مقامين يكون الصبر في أحدهما أصعب بكثير من الآخر. أمّا المقام الأول الذي يسهل فيه الصبر، فهو الصبر على طغيان النفس في نزوعها لترك الطاعات... والمقام الثاني: وهو الذي يصعب فيه الصبر، فهو الصبر على طغيان النفس بعد قيامها بالطاعة، وذلك بأن يحفظ الإنسان نفسه من أن يؤدّي القيام بالطاعة بأدائها الظاهرية والباطنية إلى وقوعها في العجب والكبر ونظائرها من الآفات. فرّبما دعا الشيطان والنفس الأتارة بالسوء الإنسان سنين طويلة للقيام بالأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة وأتباع الشريعة المطهرة على أمل أن يوقعه بعد ذلك في العجب بنفسه، فيسقط بعد كل ما تحمّله من مشاق ورياضات، إذ إنّ الغرور العلمي والعملّي وحبّ النفس والإعجاب بها من المهلكات التي تسوق الإنسان إلى الشقاء... ويذكر الحديث الشريف للصبر على الطاعات ستمائة درجة بين كلّ درجة ودرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، فهذه المرتبة من الصبر تزيد على سابقتها في عدد الدرجات، وفي سعة كلّ درجة كما بين تخوم كلّ منها. إنّ للصبر على الطاعات مقامات أخرى لعلّ الحديث لم يتعرّض لها، ويمكن التعرّف إليها عندما ننظر إلى الطاعة بمعناها الواسع الذي يشمل أيضًا حقائق التوحيد وأسراره، وحينئذٍ لا يمكن حصر ثواب وأجر صاحب هذه المقامات بأيّ معيار وميزان<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٦٥-٣٦٦.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٣٦٦-٣٦٧.

### المرتبة الثالثة: الصبر عن المعصية

"أي الصبر على صعاب مجاهدة النفس وحنود الشيطان، بالصبر والاستقامة طريق الانتصار عليهم. ولهذه المرتبة مقامات وحقائق كثيرة، والصبر في كلّ درجة منها أصعب وأدقّ من الصبر على الطاعات، بل إنّ الموفق في الصبر في هذه المرتبة يسهل عليه الصبر على الطاعات. لذا فالصبر عن المعصية أهم من كل شيء، بالنسبة للسالك إلى الله".<sup>١</sup>

ثمّ يذكر الإمام مراتب أخرى للصبر نوكل الحديث عنها إلى الكتاب الثالث لأنّها ترتبط بمعرفة مقامات السالكين. والملفت فيما ذكره الإمام في المقام الثاني الذي يصعب فيه الصبر هو أنّ النفس تكره أن تُحبس عن الاشتهار ممّا يستدعي صبراً خاصّاً يمنعها من أن تتظاهر بالطاعات والحسنات. ويبدو أنّ هذا الحبس أو الحفظ سيكون شديداً جداً ممّا يستدعي درجة عالية من الصبر.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٦٨-٣٦٩.

## المفاهيم الرئيسة

- ١- الصّبور هو الذي يتحمّل المكاره من أجل التّقدّم على طريق الله طريق الكمال.
- ٢- صبر الأنبياء من المحتمل أنّه من الصّبر على الآلام الجسديّة التي تسبّب الانفعال والتأثّر. حسب طبيعة الإنسان . أو من الصّبر على فراق الأحبّة وهو حينئذٍ من المقامات الكبيرة للمحبّين.
- ٣- صبر الأولياء هو الصّبر على فراق الحقّ الذي يكون بالنّسبة للكامل من أولياء الله عبارة عن مفارقة مقامات القرب فهو مكروه جدًّا لأنفسهم المطهّرة الشّريفة، فيكون تحمّله شاقًّا وصعبًا عليهم ويستلزم الصّبر.
- ٤- إنّ حسن الصّبر يرجع بالدّرجة الأولى إلى الإيمان. فمن كان مؤمنًا صبر على كلّ ما يرده من الله، سواء كان تكليفًا شاقًّا، أو نهيًا مانعًا من رغبة، أو مصيبة نازلة، لإيمانه بأنّ الله تعالى هو الحكيم اللطيف، وإنّ كلّ تدبيراته هي لمصلحة العبد وغبطته.
- ٥- تختلف درجات الصّبر ومراتبه باختلاف درجات المكاره وشدّتها. فكلّما اشتدّ المكروه عظم عنده الصّبر وارتفع.
- ٦- من مراتب الصّبر:
  - الصبر على البليّات والمصائب: بمعنى أن لا يشكو ولا يجزع بسببها، ولكنّ الجزع منها في محض الخالق جلّ وعلا ليس نقصًا، بل إنّ تركه عيبٌ عند أهل المعرفة، لأنّه من التجلّد في محض الحبيب، فالمطلوب هو إظهار العجز والفقر في هذا المحض المقدّس.
  - الصّبر على الطّاعة: أي أن يتحلّى الإنسان بالتحمّل في العمل بالأوامر الإلهيّة، ولا يسمح للنفس الأتّارة بالسّوء أن تصدّه عن ذلك وأن تطغى.
  - الصّبر عن المعصية: الموقّف في الصّبر في هذه المرتبة يسهل عليه الصّبر على الطّاعات. لذا فالصّبر عن المعصية أهم من كل شيء، بالنسبة للسّالك إلى الله.

فَصَلِّ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَيِّدْنِي مِنْكَ بِنَيْتِهِ صَادِقَةٍ وَصَبْرٍ دَائِمٍ وَأَعِزَّنِي مِنْ سُوءِ الرَّغْبَةِ وَهَلَعِ أَهْلَ الْحِرْصِ، وَصَوِّرْ فِي قَلْبِي مِثَالَ مَا ادَّخَرْتَ لِي مِنْ ثَوَابِكَ، وَأَعِدِّدْ لِحِصْمِي مِنْ حَزَائِكَ وَعِقَابِكَ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ سَبَبًا لِقَنَاعَتِي بِمَا قَضَيْتَ، وَثِقْنِي بِمَا تَخَيَّرْتَ آمِينَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ<sup>١</sup>.

الروايات الشريفة:

١- "عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "قَالَ رَأْسُ طَاعَةِ اللَّهِ الصَّبْرُ وَالرِّضَا عَنِ اللَّهِ فِيمَا أَحَبَّ الْعَبْدُ أَوْ كَرِهَ أَوْ لَا يَرْضَى عَبْدٌ عَنِ اللَّهِ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ"<sup>٢</sup>.

٢- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِيَّيَّ جَعَلْتُ الدُّنْيَا بَيْنَ عِبَادِي قَرْضًا فَمَنْ أَقْرَضَنِي مِنْهَا قَرْضًا أُعْطِيَتْهُ. بِكُلِّ وَاحِدَةٍ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ وَ مَا شِئْتُ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ لَمْ يُقْرِضْنِي مِنْهَا قَرْضًا فَأَخَذْتُ مِنْهُ شَيْئًا قَسْرًا فَصَبَرَ أُعْطِيَتْهُ ثَلَاثَ حِصَالٍ لَوْ أُعْطِيَتْ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ مَلَائِكَتِي لَرَضُوا بِهَا مِنِّي، قَالَ: ثُمَّ تَلَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ فَهَذِهِ وَاحِدَةٌ مِنْ ثَلَاثِ حِصَالٍ، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ائْتِنَانِ، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ثَلَاثٌ ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَذَا لِمَنْ أَخَذَ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا قَسْرًا"<sup>٣</sup>.

٣- عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مُرُوءَةُ الصَّبْرِ فِي حَالِ الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ وَالتَّعَفُّفِ وَالْغِنَى أَكْثَرُ مِنْ مُرُوءَةِ الْإِعْطَاءِ"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام إذا اعتدى عليه ورأى من الظالمين ما لا يحب.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٠.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ص ٩٣.

<sup>٤</sup> (م.ن).

٤- عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرَحُّكَ اللَّهُ مَا الصَّبْرُ الْجَمِيلُ؟ قَالَ: "ذَلِكَ صَبْرٌ لَيْسَ فِيهِ شَكْوَى إِلَى النَّاسِ"<sup>١</sup>.

٥- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "إِنَّا صَبْرٌ وَشِيعَتُنَا أَصْبَرُ مِنَّا، قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ كَيْفَ صَارَ شِيعَتُكُمْ أَصْبَرَ مِنْكُمْ؟ قَالَ: لِأَنَّا نَصِيرُ عَلَى مَا نَعْلَمُ وَشِيعَتُنَا يَصْبِرُونَ عَلَى مَا لَا يَعْلَمُونَ"<sup>٢</sup>.

٦- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "إِنَّ الْخُلُقَ مَنِحَةً يَمْنَحُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُ فَمِنْهُ سَجِيَّةٌ وَمِنْهُ نِيَّةٌ، فَقُلْتُ: فَأَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: صَاحِبُ السَّجِيَّةِ هُوَ مَجْبُولٌ لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرَهُ، وَصَاحِبُ النِّيَّةِ يَصْبِرُ عَلَى الطَّاعَةِ تَصَبُّرًا فَهُوَ أَفْضَلُهُمَا"<sup>٣</sup>.

٧- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "الصرير أن يحتمل الرجل ما ينوبه و يكظم ما يفضبه"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٩٣.

<sup>٢</sup> (ن.م).

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ١٠١. تصنيف غرر الحكم، ص ٢٨١.

<sup>٤</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢٨١.

## الدرس السابع عشر: الصبر (٢) - آثار الصبر وكيفية تحصيله

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرف إلى أهم آثار الصبر وثماره.
- ٢- يشرح من أين ينشأ الصبر.
- ٣- يبين السبيل لتقوية الصبر لدينا وكيفية تحصيل هذه الفضيلة.



## تمهيد

لا يمكن للإنسان أن يسعى نحو أية فضيلة أو يتجه لتحقيق أي كمال ما لم يؤمن بأهميته وضرورته. ولأنّ الصبر مخالف لطبيعة النفوس ولما اعتادت عليه ونشأت، فإنّ تحصيله غير ممكن إلا لمن جعله أولوية في حياته.

ما يعين النفوس الضعيفة على تحصيل الصبر والرغبة به هو أنّ تطّلع على بعض آثاره وثماره التي لا تُعدّ ولا تُحصى. وكيف يكون لهذه الفضيلة من حدّ وهي ميزة الكاملين وصفة الواصلين وعلاقة المقربين، بل هي صفة ربّ العالمين.

فعلى طريق التخلّق بهذا الخلق الربّانيّ يحتاج السالك إلى استحضار عظمته ليُقبل على طيّ طريقه ومجاهدة نفسه.

## آثار الصبر

يذكر الإمام الخمينيّ قدس سره مجموعة من الآثار الطيبة للصبر على مستوى الدّات في الدّنيا والآخرة. منها:

### ١- يهون الصعاب

أنّ الصبر يروّض النّفس ويمنحها قوّة إضافية، ومنها أنّه من أهمّ مفاتيح السّعادة والغبطة، فيقول الإمام قدس سره: "إنّ الصبر مفتاح أبواب السّعادات، وباعث للنّجاة من المهالك بل الصبر يهون المصائب، ويخفّف الصعاب، ويقوّي العزم والإرادة، ويبعث على استقلالية مملكة الرّوح"<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٩٧.

## ٢- ترويض النفس وتربيتها

"اعلم أنّ للصبر نتائج كثيرة التي منها ترويض النفس وتربيتها: إذا صبر الإنسان حيناً من الوقت على المفاجآت المزعجة ونوائب الدهر، وعلى مشاق العبادات والمناسك وعلى مرارة ترك الملذّات النفسية امتثالاً لأوامر وليّ النعم، وتحمل الصعاب مهما كانت شديدة ومؤلمة، تروّضت النفس شيئاً فشيئاً، واعتادت وتحلّت عن طغيانها، وتدلّلت صعوبة تحمّل المشاق عليها، وحصلت للنفس ملكة راسخة نورية، بما يتجاوز الإنسان مقام الصبر ليلبغ المقامات الأخرى الشامخة. بل إنّ الصبر على المعصية يبعث على تقوى النفس، والصبر على الطاعة يسبب الاستيناس بالحق عز وجل، والصبر على البلايا يوجب الرضا بالقضاء الإلهي، وكل ذلك من المقامات الشامخة لأهل الإيمان، بل لأهل العرفان".<sup>١</sup>

## ٣- السعادة والغبطة

عَنْ أَبِي الْحَسَنِ . عَلَيْهِ السَّلَام . قَالَ : قَالَ لِي : " مَا حَبَسَكَ عَنِ الْحَجِّ ؟ قَالَ : قُلْتُ : جَعَلْتُ فِدَاكَ ، وَقَعَ عَلَيَّ دَيْنٌ كَثِيرٌ وَذَهَبَ مَالِي ، وَدَيْنِي الَّذِي قَدْ لَزَمَنِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَهَابِ مَالِي ، فَلَوْلَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِنَا أَخْرَجَنِي مَا قَدَرْتُ أَنْ أَخْرُجَ ، فَقَالَ لِي : إِنْ تَصَبَّرْتَ تَغْتَبَطُ وَإِلَّا تَصَبَّرْ يُنْفِذِ اللَّهُ مَقَادِيرَهُ رَاضِيًا كُنْتَ أَمْ كَارِهًا".<sup>٢</sup>

## ٤- بلوغ مقام الصديقين

في الكافي الشريف مستنداً إلى الإمام الصادق عليه السلام قال: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُنَالُ فِيهِ الْمُلْكُ إِلَّا بِالْقَتْلِ وَالتَّجْبِيرِ، وَلَا الْغِنَى إِلَّا بِالْغَضَبِ وَالْبُخْلِ، وَلَا الْمَحَبَّةُ إِلَّا بِاسْتِخْرَاجِ الدَّيْنِ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ فَصَبَرَ عَلَى الْفَقْرِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْغِنَى وَصَبَرَ عَلَى الْبِغْضَةِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْمَحَبَّةِ وَصَبَرَ عَلَى الذُّلِّ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى الْعِزِّ أَتَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ خَمْسِينَ صَدِيقًا مِمَّنْ صَدَّقَ بِي".<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> الأربعة حديثاً، ص ٢٩٦.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٩٠.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ص ٩١.

"وقال الله تعالى: عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلا جعلته خيراً له، فليرضَ بقضائي وليصبر على بلائي وليشكر نعمائي أكتبه . يا محمد . من الصديقين عندي". من هذا الحديث يتضح أنّ مقام الصديقين . وهو من أعلى مراتب المقامات الإنسانية . يحصل بالرضا والصبر والشكر، ولا يخفى أنّ مقام الرضا أعلى من مقام الصبر والشكر".<sup>١</sup>

## ٥- الوصول إلى الله

"فالذين أنست قلوبهم بالدنيا وجعلوها وزينتها مطلوبهم، تفجرت أمانيتهم وتأسفوا حسرةً على عدم امتلاكهم لما عند قارون، لما رأوه خارجاً في زينته، أما الذين أوتوا العلم وتفصّل الله عليهم بالعلم بغيب هذا الظاهر، فلم تؤثر فيهم زينة الدنيا وقارون، لأنهم كانوا يطلبون ثواب الله، وقد عرفوا أنّ سبيلهم إليه الصبر عن الزخارف الدنيوية".<sup>٢</sup>

"والأحاديث الشريفة في مدح العفو عن الظالم وكظم الغيظ كثيرة منها ما روي في مدح كظم الغيظ في الكافي الشريف مسنداً إلى الإمام السجاد عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من أحب السبيل إلى الله عز وجلّ جرعتان: جرعة غيظ تردّها بحلم، وجرعة مصيبة تردّها بصبر".<sup>٣</sup>

## ٦- الشفاعة

"عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "إذا دخل المؤمن في قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبرّ مطلاً عليه ويتنحى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبرّ دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فأنا دونه". وهذا الحديث الشريف رواه في الكافي الشريف بطريقتين ورواه الشيخ الصدوق رحمه الله في ثواب الأعمال".<sup>٤</sup>

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٧٠-١٧١.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٨٠.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ١٧.

## ٧. الحياة البرزخية البهية

"وأما الصبر والجلادة فلهما الثواب الجزيل والأجر الجميل والصورة البهية البرزخية الشريفة، كما ورد في ذيل الحديث الشريف الذي نحن بصدد شرحه حيث يقول: "وَكَذَلِكَ الصَّبْرُ يُعَقَّبُ خَيْرًا فَاصْبِرُوا وَوَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الصَّبْرِ تَوَجَّرُوا"<sup>١</sup>. فعاقبة الصبر إلى الخير في هذه الدنيا كما يُستفاد من التمثيل بالنبي يوسف عليه السلام. في الحديث المذكور - يبعث على الأجر والثواب في يوم الآخرة. وفي الحديث الشريف المنقول في الكافي بسنده إلى أبي حمزة الثمالي - رحمه الله - قال: "مَنْ ابْتَلِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِبَلَاءٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ أَلْفِ شَهِيدٍ". وأما أن للصبر صورة بهية برزخية، فمضافاً إلى أنها تتطابق مع بعض الأدلة نجد الأحاديث الشريفة أيضاً تتحدث عنها. كما في الكافي الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام قال: "إِذَا دَخَلَ الْمُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ كَانَتْ الصَّلَاةُ عَنْ يَمِينِهِ وَالزُّكَاةُ عَنْ يَسَارِهِ وَالْبِرُّ مُطْلَقًا عَلَيْهِ وَيَتَنَحَّى الصَّبْرُ نَاحِيَةً، فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ يَلْيَانِ مُسَاءَلَتَهُ قَالَ الصَّبْرُ لِلصَّلَاةِ وَالزُّكَاةِ وَالْبِرِّ: دُونَكُمْ صَاحِبِكُمْ فَإِنْ عَجَزْتُمْ مِنْهُ فَأَنَا دُونُهُ"<sup>٢</sup>٣.

## ٨- الإعفاء من الحساب

روي في الكافي الشريف مسنداً عن الصادق عليه السلام قال: "إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس فيأتون باب الجنة فيضربونه. فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر.

فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله، ونصبر عن معاصي الله. فيقول الله عز وجل صدقوا، أدخلوهم الجنة، وهو قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾<sup>٤</sup>.

كانت هذه بعض الآثار الجميلة للصبر، ولو أردنا أن نستقصي كل الآثار لاحتاج الأمر إلى كتاب مفصل.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٨٩.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٩٠.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ٣٠١.

<sup>٤</sup> سورة الزمر، الآية ١٠.

<sup>٥</sup> الكافي، ج ٢، ص ٧٥.

## عوامل تقوية الصبر

لا شك بأن فطرة الله التي فطر الناس جميعاً عليها هي منشأ جميع الخيرات والبركات وأصل كل الفضائل والكمالات، فالصبر وإن كان في مواجهة النفس فيما تحبّ إلا أنّ ذلك فيما يتعلّق بالنفس لا الفطرة، وبعبارة أخرى، فالنفس تشير إلى التوجّه إلى عالم الدنيا والكثرات، والفطرة هي التوجّه والانجذاب إلى الحقّ تعالى والوحدة التامة.

### ١- الفطرة الصافية

"إنّ الرجل الروحانيّ الحافظ لسلامة فطرته الإلهية الأصلية يصبرُ على كلّ حالٍ ولا يفقد السيطرة على نفسه، فتتغلّب قوّة روحه على ما تطلبه طبيعته، ولا ينهار في الحوادث ولا يهتزّ لفقدان الدنيا والطّموحات النفسية لأنّه متحرّرٌ من حبّ الدنيا والنفس، وهذا الحبّ هو منشأ كلّ انحراف وخطيئة، والاحتجاب بحجبه منشأ كلّ احتجاب، فالحجب الظلمانية المذكورة في الحديث الشريف ما هي إلاّ حجب حبّ الدنيا والنفس. إذاً، إذا احتجبت الفطرة المجبولة على حبّ الكمال المطلق بحجب الطبيعة والنفس، توهمت أنّ الكمال في ما تطلبه الطبيعة والنفس، ولذلك فهي تجزع لفقدان المطلوبات الطبيعية والنفسانية. فإذا خرجت من هذه الحال من الاحتجاب، لم تتأدّ إلاّ لفقدانها وصال محبوبها الأصلي، فلا تجزع إلاّ على فراق حبيبها الحقيقيّ، فيكون الصبر عن الله أصعب الأمور عليها. والله الهادي"<sup>١</sup>.

### ٢- استقامة القوّة الغضبية

"من لا تكون فيه هذه القوّة الشريفة (القوة الغضبية). التي هي تجلّي الغضب والانتقام الإلهي في جانب التفريط، يكون ناقصاً، لأنّ التفريط فيها يوقعه في الكثير من الملكات الخبيثة والأخلاق الذميمة، مثل الخوف والجبن، والضعف والكسل، وجموح النفس، وقلة الصبر"<sup>٢</sup>.

### ٣- الانعتاق والتحرّر من الشهوات

"من النتائج الكبيرة والثمار العظيمة لتحرّر الإنسان من عبودية النفس، الصبر في البلياء والنوائب"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٧٤.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٢٥.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٩٤.

## كيفية تحصيل فضيلة الصبر

للإمام الخميني قدس سره بعد ذكر العوامل المساعدة على تقوية الصبر مجموعة من التوصيات العملية المهمة التي تؤدي إلى وصول النفس إلى امتلاك هذه الفضيلة الرائعة. منها:

### ١- الإقبال على الالتزام بالتقوى

"المقام الأول الذي يسهل فيه الصبر، فهو الصبر على طغيان النفس في نزوعها لترك الطاعات، والصبر هنا يتحقق بمقاومة النفس والشيطان والعمل بالأوامر الإلهية وفق حدودها الشرعية وشروطها وآدابها القلبية، والالتزام بهذه الآداب والشروط من الأمور الصعبة"<sup>١</sup>.

### ٢- المراقبة الكاملة الدقيقة

"المقام الثاني: وهو الذي يصعب فيه الصبر، فهو الصبر على طغيان النفس بعد قيامها بالطاعة، وذلك بأن يحفظ الإنسان نفسه من أن يؤدي القيام بالطاعة بآدابها الظاهرية والباطنية إلى وقوعها في العجب والكبر ونظائرها من الآفات... لذلك فبدون المراقبة الكاملة الدقيقة، وبدون التعامل مع النفس تعامل الطبيب الحاذق والممرض المخلص الذي يحفظ الإنسان من نفسه ويجذره باستمرار من عيوبها، تسوق هذه الأعمال الصالحة والعبادات الظاهرية الإنسان إلى التهلكة وتصير سبباً لسقوطه. ولا يخفى أن هذه المراقبة الكاملة للنفس وحفظها من أيّ تزلزل وانحراف من أصعب الأمور، لذلك يجب على الإنسان أن يستعيد بالله ويستعين به، جلت قدرته، على ذلك، فإن مكائد النفس والشيطان تكون أحياناً دقيقة وخفية إلى درجة يستحيل كشفها من غير توفيق الله وعونه، مهما كانت درجة التدقيق"<sup>٢</sup>.

### ٣- الإعراض عن طلب حظوظ النفس دنيا وآخرة

"مثلما أنّ الصبر في مجاهدة قوى الشهوة والغضب والشيطنة. وهذه هي منشأ المعاصي الظاهرية - هو من أشقّ الأمور على الإنسان، وأصعب من القيام بالطاعات الظاهرية، كذلك

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٦٦.

<sup>٢</sup> (ن.م).

الحال في مجاهدة الشيطان الأكبر والنفس - وهما منشأ المعاصي القلبية والباطنية، فالصبر فيها من أصعب المجاهدات، إذ الواجب فيها على السالك الإعراض عن الكونين ورفض النشاطين، وسحق النفس وتحطيم وثن عبادتها العظيم واسقاطه عن كعبة القلب بيد التمسك بالولاية، لكي يصل السالك بذلك إلى حقائق الإخلاص ويجد سرائر الخلوص. وهذا ما لا يمكن الفوز به إلا بالمعونة الإلهية والتوفيق الربانية<sup>١</sup>.

#### ٤- الترويض النفسي المشروط

"إن الابتعاد عن المحرمات الإلهية، لا يستدعي جهداً جبّاراً، بل الإنسان مع قليل من الترويض النفسي والعمل، يستطيع أن يترك جميع المحرمات، شريطة إرادته على أن يكون من أهل السعادة والنجاة، ومن أهل الولاية للأئمة الأطهار وكرامة الحق المتعال. وإذا لم يكن له صبر على المعصية، بهذا المقدار، لما تحقّق له البعد عن المعصية. إنّه يجب أن يتمتّع بقدر من الجلادة والإصرار والترويض النفسي"<sup>٢</sup>.

#### موعظة للإمام

"فيا أيها العزيز إنّ الموضوع خطير، والطريق مخوف بالمخاطر، فابذل من كلّ وجودك الجهد واجعل الصبر والثبات من طبيعتك، أمام حوادث الأيام، وانفض أمام النكبات والرزايا، ولقّن النفس بأنّ الجزع والفرح مضافاً إلى أهمّ عيبان فادحان، لا جدوى من ورائهما للقضاء على المصائب والبلبات، ولا فائدة من الشكوى على القضاء الإلهي وعلى إرادة الحقّ عزّ وجلّ أمام المخلوق الضعيف الذي لا حول له ولا قوة"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٦٩.

<sup>٢</sup> الأبرعون حديثاً، ص ٥٠٧.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ص ٢٩٨.

## المفاهيم الرئيسة

١- إذا صبر الإنسان حيناً من الوقت على المفاجآت ونواب الدهر، وعلى مشاق العبادات والمناسك وعلى مرارة ترك الملذات النفسية امتثالاً لأوامر وليّ النعم، تروّضت النفس شيئاً فشيئاً، وحصلت للنفس ملكة راسخة نورية، بما يتجاوز الإنسان مقام الصبر ليبلغ المقامات الأخرى الشائخة.

٢- من آثار الصبر: السعادة والغبطة، بلوغ مقام الصديقين، الوصول إلى الله، الشفاعة، الحياة البرزخية البهية، الإعفاء من الحساب.

٣- من عوامل تقوية الصبر:

- الحفاظ على الفطرة الصافية: الرجل الروحاني الحافظ لسلامة فطرته الإلهية الأصلية يصبر على كل حال ولا يفقد السيطرة على نفسه.

- استقامة القوة الغضبية: التفريط بهذه القوة يوقع الإنسان في الكثير من الملكات الخبيثة والأخلاق الذميمة ومنها قلة الصبر.

- الانعتاق والتحرر من الشهوات.

٤- تحصيل الصبر يكون ب:

- بالعمل بالأوامر الإلهية وفق حدودها الشرعية وشروطها وآدابها القلبية.

- بالمراقبة الكاملة والدقيقة للنفس: فبدون المراقبة الكاملة الدقيقة، تسوق هذه الأعمال الصالحة والعبادات الظاهرية الإنسان إلى التهلكة وتصير سبباً لسقوطه.

- بالإعراض عن الكونين ورفض النشاطين، وسحق النفس وتحطيم وثن عبادتها العظيم واسقاطه عن كعبة القلب بيد التمسك بالولاية، لكي يصل السالك بذلك إلى حقائق الإخلاص ويجد سرائر الخلوص.

- الترويض النفسي المشروط: الإنسان مع قليل من الترويض النفسي والعمل، يستطيع أن يترك جميع المحرمات، شريطة إرادته على أن يكون من أهل السعادة والنجاة، ومن أهل الولاية للأئمة الأطهار وكرامة الحق المتعال.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

"اللَّهُمَّ إِنَّكَ كَلَّمْتَنِي مِنْ نَفْسِي مَا أَنْتَ أَمْلِكُ بِهِ مَعِي، وَقَدَّرْتَنكَ عَلَيْهِ وَعَلَيَّ أَغْلَبَ مِنْ قُدْرَتِي، فَأَعْطِنِي مِنْ نَفْسِي مَا يُرْضِيكَ عَنِّي، وَخُذْ لِنَفْسِكَ رِضَاهَا مِنْ نَفْسِي فِي عَافِيَةِ اللَّهِ لَمْ لَا طَاقَةَ لِي بِالْجُهْدِ، وَلَا صَبْرَ لِي عَلَى الْبَلَاءِ، وَلَا قُوَّةَ لِي عَلَى الْفَقْرِ، فَلَا تَحْظُرْ عَلَيَّ رِزْقِي، وَلَا تَكْلِنِي إِلَى خَلْقِكَ، بَلْ تَفَرِّدْ بِحَاجَتِي، وَتَوَلَّ كِفَايَتِي وَأَنْظُرْ إِلَيَّ وَأَنْظُرْ لِي فِي جَمِيعِ أُمُورِي، فَإِنَّكَ إِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى نَفْسِي عَجَزْتُ عَنْهَا وَلَمْ أَقْمِ مَا فِيهِ مَصْلَحَتُهَا، وَإِنْ وَكَلْتَنِي إِلَى خَلْقِكَ تَجَهَّمُونِي، وَإِنْ أَلْجَأْتَنِي إِلَى قَرَابَتِي حَزَمُونِي، وَإِنْ أَعْطُوا أَعْطُوا قَلِيلًا نَكِدًا، وَمَنُّوا عَلَيَّ طَوِيلًا، وَذَمُّوا كَثِيرًا فَبِضْلِكَ، اللَّهُمَّ، فَأَغْنِنِي، وَبِعَظَمَتِكَ فَانْعَشْنِي، وَبِسَعَتِكَ، فَابْسُطْ يَدِي، وَمَا عِنْدَكَ فَارْحَمْنِي".<sup>١</sup>

الآيات الكريمة:

١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾<sup>٢</sup>.

٢- ﴿وَلْيَبْلُغُوا شَيْءًا مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾<sup>٣</sup>.

٣- ﴿إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾<sup>٤</sup>.

٤- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عند الشدة والجهد وتعسر الأمور.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ١٥٣.

<sup>٣</sup> سورة البقرة، الآية ١٥٥.

<sup>٤</sup> سورة آل عمران، الآية ١٢٠.

<sup>٥</sup> سورة السجدة، الآية ٢٤.

٥- ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾<sup>١</sup>.

٦- ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾<sup>٢</sup>.

الروايات الشريفة:

١- قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَمَرَ النَّاسُ بِخَصَلَتَيْنِ فَضَيَّعُوهُمَا فَصَارُوا مِنْهُمَا عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ الصَّبْرِ وَالْكِتْمَانِ"<sup>٣</sup>.

٢- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "عليكم بدوام الشكر ولزوم الصبر فإنهما يزيدان النعمة ويزيلان المحنة"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> سورة آل عمران، الآية ١٤٦.

<sup>٢</sup> سورة فصلت، الآية ٣٥.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٢، ص ٢٢٢.

<sup>٤</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢٧٨.



## الدرس الثامن عشر: الرهبة من الله (١) - معنى الرهبة، درجاتها وعلاماتها

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن الفهم الصحيح للرهبة.
- ٢- يميّز بين الرهبانية المذمومة والخلوة الممدوحة مع الحقّ تعالى.
- ٣- يتعرّف إلى درجات الرهبة وعلاماتها.



## تمهيد

عند مطالعة أحاديث الفضائل والكمالات نتوقف عند مصطلح الرّهبة، ونجد أنّ أهل بيت العصمة يعدّونها من الصّفات المحمودة. لكن ما نحمله من أفكار حول الرّهبة والرّهبانّيّة لا يساعدنا في فهم القضية أو في التعرّف على ما تستبطنه من خيرٍ وكمال. فتارة نقول أنّه لا رهبانيّة في الإسلام، وأنّ الرّهبة بدعة مصطنعة من قبل بعض أهل الملل، وأخرى نقول أنّ الله تعالى رؤوفٌ بعباده وعطوفٌ، فما معنى أن نخاف منه ونرهبه؟!

وفي لجة هذه الأفكار نصيغ على أنفسنا فرصة معرفة كمالٍ معنويّ عظيم هو منشأ لخيرٍ كثير. فكيف سيتجاوز الإمام الخمينيّ قدس سره بنا هذا الضياع ويرشدنا إلى الحقيقة مفسّرًا هذه الفضيلة وأهمّ أسرارها، هذا ما سنتعرّف عليه عبر الصّفحات التّالية.

## ما هي الرّهبة؟

قبل تقديم المعنى الدّقيق لمقام الرّهبة وأهميّة صيرورة السّالك راهبًا، يتعرّض الإمام قدس سره إلى المعنى اللغويّ الذي ينقله إلى مصطلح آخر ويسمح له بتقديم تفسير واسع وشامل لهذه الفضيلة. وأثناء كلّ ذلك يمرّ على بعض الأفكار الخاطئة ويعالجها من أجل إيصالنا إلى نقاء المعنى وحقيقته.

يقول الإمام قدس سره: "الرّهبة تعني الخوف، يُقال: رَهَبَ . بكسر عين الفعل (الماء) وفتحها . رهبةٌ ورُهْباً ورُهْباً ورُهْباناً ورهباناً: أي خاف. ورهبان . بفتح الراء . مثل خشيان، من المبالغة في الخوف، ورهبان جمع راهب، وجمعها رهابين. والرهبانية: العزلة عن الخلق واعتزال اللذات الدنيويّة من أجل الاشتغال بالعبادة، وقد نهي عنها الإسلام، وفي الحديث: لا

رهبانية في الإسلام"<sup>١</sup>، وفي الحديث أيضًا أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أريد أن أتربّب. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تفعل! وإن ترهّب أمتي القعود في المساجد"<sup>٢</sup>.

فالرهبانية بمعنى العزلة عن الناس واعتزال النساء وتعطيل القوى الإلهية الكريمة التي أنعم الله بها على الإنسان، تُعبّر عن غاية الجهل، وتولد الكثير من المفسد، لذا لا يمكن أن تكون نتيجة للخوف من الحقّ تعالى، فهذا الخوف من جنود العقل ومن عوامل إصلاح النفوس، وهو يقابل الجرأة على الحقّ تعالى، بل إنّ "الخلوة" التي يذكرها أهل المعرفة لا تعني العزلة واعتزال الناس في الأصل، بل إنّ المراد منها هو عزل القلب عن الانشغال بغير الحقّ تعالى، أجل قد لا يتحقّق ذلك أحياناً إلاّ بمرتبة من الاعتزال وترك الاختلاط، ولكن هذا أيضاً ليس من الرهبانية، بل هو أمرٌ راجح عقلاً وشرعاً. وملخص القول هو أنّ الرهبنة التي هي من جنود العقل، تعني الخوف من الحقّ تعالى، وهذا الخوف لا ينابي الرجاء والأمل برحمة الله، فالرجاء هو أيضاً من جنود العقل يقابل القنوط. وقد تقدّم توضيح ذلك"<sup>٣</sup>.

### الرهبنة غير مختصرة بالدنيا

إنّ عمق هذه الفضيلة وأصلها وأسسها هو فيما يعود إلى رابطة العبد بالربّ المتعال ونظرته إليه وإيمانه به، بالإضافة إلى أحواله القلبية.

ولأنّ حقيقة الألوهية المتجلىة بأسماء الجمال والجلال لا تزول ولا تفتنى ولا تنحصر بهذه الحياة الدنيا، فإنّ كل انفعال صادق بما لن يكون محصوراً بهذه الحياة أيضاً. وإذا كانت الرهبنة والخوف من الله تعالى ناشئة من ملاحظة الجلال، فهي مقام سنيّ وكمال معنويّ وليس مجرد عمل مرتبط بهذه النشأة:

لهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "ولا انقطاع للخوف والرجاء وهما من التجليات الأسمائية. فلا يزولان بزوال دار الطبيعة ورحيل النفوس الشريفة لأصحاب تلك القلوب عن هذا العالم، أجل إنّ ظهورهما وآثارهما في كلّ نشأة تكون على نحو معين خاص بتلك

<sup>١</sup> مستدرک الوسائل، ج ١٤، ص ١٥٥.

<sup>٢</sup> التهذيب، ج ٤، ص ١٩١.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٥.

التشأة... لذا فإنّ ما ذكره الفيلسوف الإسلاميّ العظيم، والحكيم الإيمانيّ الجليل<sup>١</sup>. رضوان الله عليه. في شرحه لأصول الكافي في ذيل هذه الفقرة من الحديث الشّريف من أنّ الخوف ليس من الفضائل والكمالات العقليّة الباقية في التشأة الآخرة، وأنّه يزول بزوال دار العمل، لا يرتبط بهذا النوع من الخوف الذي هو من تجلّيات الجلال، وذلك لأنّ التجلّيات تكون أسمى وأكمل بعد ارتفاع الاشتغال بعالم الطبيعة، ولأنّ النفوس والأرواح كلّما توغّلت في غلاف الطبيعة اشتدّ حرمانها من هذه التجلّيات. كما أنّ هذا الخوف ليس من سنخ العذاب وجنس العقاب ليتعارض مع التشأة الآخرة. أجل، من المحتمل أن يتغلّب التجلّي باللطف والرّحمة على التجلّي بالجلال والرّحمة لجميع النفوس والأرواح الكاملة في عالم الآخرة فيزول عنها الخوف حينئذٍ، ولكن تحقيق الأمر هو أنّ من الثابت عند أولي القلوب الحيّة وأهل المعرفة أنّ في باطن كل اسم من أسماء الجمال جلالاً، وفي باطن كل اسم من أسماء الجلال جمالاً. لذلك فإنّ الأنس يحصل بعد التجلّيات الجلالية، وبالتالي فإنّ الخوف الحاصل من تجلّي العظمة يتبدّل إلى طمأنينة وسكينة، أي أنّ الخوف. وهو من التجلّيات الابتدائيّة لأسماء الجلال. ينقطع ويزول ويحل محله الأنس والطمأنينة والمحبة. والله العالم. (ولكن) ينبغي الالتفات إلى أنّ انقطاع الخوف المذكور هنا يختلف عن انقطاع الخوف الذي ذكره الفيلسوف المذكور وبعض الشّراح والمحدّثين الأجلاء، لأنّ الانقطاع هنا ليس على نحو الانقطاع الحقيقيّ، بل هو رجوع الظاهر إلى الباطن والصورة إلى المعنى، وتفصيل ذلك خارج عن مهمّة هذه الرّسالة<sup>٢</sup>.

### درجات الرّهبة

وبعد أن اتّضح معنى الخوف والرّهبة من الله، وحيث أنّ الأمر يرتبط بالمعرفة، فإنّ الخوف سيكون على درجات بحسب درجات المعرفة وشدّة حضورها في القلب، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "ينبغي إجمالاً معرفة أنّ اختلاف درجات الخوف ناتج من اختلاف درجات العبّاد والسّالّكين إلى الله. ومن اختلاف درجات المعرفة"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> هو الفيلسوف الإسلاميّ الكبير صدر الدين الشيرازي، المعروف بالملا صدرا.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٤٠-١٤١.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ص ٢٩٦.

## الدرجة الأولى: خوف العقاب والعذاب

"وهذا خوف العامة، وأكثر الخائفين هم من أهل هذه الدرجة. ويُلحق بها الخوف من فقدان الثواب واللذات المحبوبة، فلا ينبغي اعتبار هذه المرتبة خوفاً من الله تعالى، مثلما أنّ العبادة بدافع هذه المرتبة من الخوف ليست خالصة، وقد وصفها الأحاديث الشريفة بأنها عبادة العبيد، وعبادة الأجراء.

وما دام الإنسان في أسر النفس وشهواتها وحبها والعجب بها، أي ما دامت صبغته نفسانية، وهذه هي صبغة الشيطان، فلن تكون طاعته وعبادته عبادةً لله، ولن تكون رهبةً من الله ولا رغبته رغبة في الحقّ تعالى، بل تكون جميع أعماله الشكليّة والمعنويّة والظاهريّة والقلبيّة، أعمالاً للنفس مصطبغةً بالصبغة النفسانيّة الشيطانيّة"<sup>١</sup>.

## الدرجة الثانية: خوف الخاصّة

"وهو الخوف من العتاب فأصحابه يخافون الابتعاد عن ساحة المولى القدسية فيُعاتبون على ذلك ويُجرمون اللطف الإلهي بسببه. لقد تنزّه هؤلاء عن اللذات الحيوانيّة والشّهوات الطبيعيّة لكن أرواحهم ما تزال تتطّلع إلى اللذات المعنويّة، فهم يطلبون قرب المنزل والمقام، وما دام هذا الطّلب من أجل أنفسهم، فهو لا يخلص من دين الله الذي ينبغي أن يكون خالصاً من الشوائب: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾"<sup>٢</sup>.

## الدرجة الثالثة: خوف أخصّ الخواص

"وهو الخوف من الاحتجاب، وأصحابه لا يتطلّعون إلى العطايا، فالشّوق للحضور الإلهيّ ولذته، قطعهم عن كلا العالمين، ولكن ما تزال للصبغة النفسانيّة وللأنانيّة باقية فيهم، لأنهم يريدون المشاهدة والحضور من أجل أنفسهم، لذلك لا يمكن اعتبار طلبهم هذا معبّراً عن حبّ الله الحقيقيّ والإخلاص الحقيقيّ، ولكن ذلك مقام سامٍ عظيم لا يتيسّر الوصول إليه إلا للخُلص من أهل المعرفة، فلا سبيل أمامنا - نحن المحجوبين وأمثالنا - للطّمع في هذه الدرجة بل وفيما دونها"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٧.

<sup>٢</sup> سورة الزمر، الآية ٣.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٧.

<sup>٤</sup> (م.ن)، ص ٢٩٧-٢٩٨.

## الدرجة الرابعة: خوف الأولياء

"الذين تطهروا من صبغة الإثية والأنانية، واصطبغوا بصبغة الله ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾<sup>١</sup>، فالرهبة في هؤلاء نتيجة تجليات الجمال والجلال، التي تسطع على قلوبهم الصافية. ويجدر التنبيه هنا إلى أنّ في كلّ جمالٍ يكمن جلالٌ وعظمة، لذلك فإنّ التجلّي الجماليّ يولّد الرّهبة والخوف، وهذا الخوف من العظمة ينقسم بصورة عامّة إلى ثلاث مراتب لأنّه يتولّد من التجلّيات الأفعاليّة والأسمائيّة والذاتيّة... والرّهبة الحقيقيّة والخوف الحقيقيّ، عبارة عن هذه الدّرجة الخالصة من شوائب التّفسانيّة والأنانيّة"<sup>٢</sup>.

"وتقابل كلّ درجة من درجات الرّهبة، درجة من درجات الجرأة، فتقابل الدّرجة الأولى درجة الجرأة على المعاصي، وتقابل الثانية درجة الجرأة على الزلّات والأخطاء، وتقابل الثالثة الجرأة على الدّخول في الحجب طواعية، وتقابل الرابعة الجرأة على رؤية النفس والصبغة النفسانية الشيطانية ذاتاً وصفة وفعلاً"<sup>٣</sup>.

## علامات الخوف والرّهبة

لا شكّ بأنّ الرّهبة أمرٌ يدركه الوجدان، ولا يحتاج إلى دليل أو برهان. وأشهر علامات الرّهبة هي ما ذُكر في الأحاديث الشّريفة الصّادرة من معادن العلم والعرفان، وما بيّنه الإمام قدس سره:

### ١ - ارتعاد القلوب من نور عظمة الله

"إنّ الذين حرقوا هذه الحجب وظهرت لقلوبهم تجلّيات عظمة الحقّ - عَظَمَ شأنه - ترتعد قلوبهم ويُعشى عليهم من نور عظمته وسطوته وجلاله دونما التفات إلى النّفع والضّرر، ولا إلى جهنّم والجنة، وتصفّر ألوان هؤلاء الأولياء عليهم السلام عند الصّلاة التي هي ميعاد حضورهم ومعراج قريهم فيرتعدون ويذهلون عن كلّ شيءٍ"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> سورة البقرة، الآية ١٣٨.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٨.

<sup>٣</sup> (ن.م).

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٢٩٩.

## ٢- قيام الليل

ينقل الإمام الخميني قدس سره في كتاب الأربعون حديثًا، حديث عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ: "بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مَا مِنْ عَمَلٍ حَسَنٍ يَعْمَلُهُ الْعَبْدُ إِلَّا وَلَهُ ثَوَابٌ فِي الْقُرْآنِ إِلَّا صَلَاةَ اللَّيْلِ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُبَيِّنْ ثَوَابَهَا لِعَظِيمِ خَطَرِهَا عِنْدَهُ"، فَقَالَ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ \* فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>١</sup>.

## ٣- وجل القلوب

ويقول الإمام قدس سره: "مثلا يقول الله تعالى في سورة الانفال في الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>٢</sup>، فلا بد للسالك من أن يلاحظ هل هذه الاوصاف الثلاثة تنطبق عليه؟ وهل أن قلبه يوجل إذا ذكر الله ويخاف؟ وإذا تليت عليه الآيات الشريفة الالهية هل يزداد نور الايمان في قلبه؟ وكذلك اعتماده وتوكله على الحق تعالى؟ أم أنه عن كل هذه المراتب متأخر، ومن كل هذه الخصائص محروم؟ فإن أراد أن يفهم أنه من الحق تعالى خائف وقلبه من خوف الله وجل فلينظر إلى أعماله"<sup>٣</sup>.

## ٤- عدم التجاسر في محضر الحق

"الانسان الخائف لا يتجاسر في محضر الكبرياء على مقامه المقدس ولا يهتك الحرمات الإلهية في حضور الحق، واذا قوي الايمان بتلاوة الآيات الالهية يسري نور الايمان إلى المملكة الظاهرية أيضًا، فمن غير الممكن أن يكون القلب نورانيًا ولا يكون اللسان والكلام والعين والنظر والأذن والاستماع نورانيًا"<sup>٤</sup>.

فاتضح من هذه الشواهد أنّ للرهبنة علامات تظهر في الأعضاء والجوارح وفي التقوى والورع وفي صلاة الليل وغيرها.

<sup>١</sup> وسائل الشريعة، ج ٨، ص ١٦٣.

<sup>٢</sup> سورة الأنفال، الآية ٢.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٢١٧.

<sup>٤</sup> (م.ن)، ص ٢١٧.

١- إنّ الرّهبة من جنود العقل ومن عوامل إصلاح النفوس، وهي تعني الخوف من الحقّ تعالى، وهي بذلك تقابل الجرأة على الحقّ تعالى، إلّا أنّها لا تنافي الرجاء والأمل بالله تعالى.

٢- لا تُعدّ الرهبانيّة . بمعنى العزلة عن الناس وتعطيل القوى الإلهيّة الكريمة التي أنعم الله بها على الإنسان . من مظاهر الخوف من الحقّ تعالى، لأنّها تُعبّر عن غاية الجهل، وتولّد الكثير من المفاسد. أمّا "الخلوة" التي يذكرها أهل المعرفة فهي تعني عزل القلب عن الانشغال بغير الحقّ تعالى، لا اعتزال الناس.

٣- إنّ عمق هذه الفضيلة وأصلها هو فيما يعود إلى رابطة العبد بالربّ المتعال ونظرته إليه وإيمانه به، بالإضافة إلى أحواله القلبيّة، فهي ناشئة من ملاحظة الجلال، وهو مقامٌ سنّيّ وكمالٌ معنويّ وليس مجرد عمل مرتبط بهذه التّشأة، لأنّ حقيقة الألوهيّة المتجلّية بأسماء الجمال والجلال لا تزول ولا تنفى ولا تنحصر بهذه الحياة الدّنيا.

٤- تختلف درجات الرّهبة باختلاف عمق المعرفة القلبيّة بالله تعالى، ومن هذه الدّرجات:

- خوف العقاب والعذاب.

- خوف الخاصّة وهو الخوف من الابتعاد عن ساحة المولى القدسية فيُعاتبون على ذلك.

- خوف أخصّ الخواص وهو الخوف من الاحتجاب.

- خوف الأولياء وهو الخوف نتيجة تجلّيات الجمال والجلال التي تسطع على قلوبهم الصّافية.

٥- للرّهبة علامات منها: وجل القلب في محضر الحقّ واصفرار الوجه، قيام الليل، ازدياد الإيمان عند تلاوة الآيات الإلهيّة، التوكّل على الله، عدم التّجاسر في محضر الحقّ وهتك حرّماته.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَلَقْتَنِي سَوِيًّا، وَرَبَّيْتَنِي صَغِيرًا، وَرَزَقْتَنِي مَكْفِيًّا اللَّهُمَّ إِنِّي وَجَدْتُ فِيمَا أَنْزَلْتَ مِنْ كِتَابِكَ، وَبَشَّرْتَ بِهِ عِبَادَكَ أَنْ قُلْتَ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنِّي مَا قَدْ عَلِمْتَ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، فَيَا سَوَاتِنَا بِمَا أَحْصَاهُ عَلَيَّ كِتَابُكَ فَلَوْلَا الْمَوَاقِفُ الَّتِي أُؤَمِّلُ مِنْ غَفْوِكَ الَّتِي سَمِلَ كُلُّ شَيْءٍ لِأَلْقَيْتُ بِيَدِي، وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا اسْتَطَاعَ الْهَرَبَ مِنْ رَبِّهِ لَكُنْتُ أَنَا أَحَقُّ بِالْهَرَبِ مِنْكَ، وَأَنْتَ لَا تَخْفَى عَلَيْكَ خَافِيَةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَتَيْتَ بِهَا، وَكَفَى بِكَ جَازِيًّا، وَكَفَى بِكَ حَسِيبًا. اللَّهُمَّ إِنَّكَ طَالِبِي إِنْ أَنَا هَرَيْتُ، وَ مُدْرِكِي إِنْ أَنَا فَرَرْتُ، فَهَذَا أَنَا ذَا بَيْنَ يَدَيْكَ خَاضِعٌ ذَلِيلٌ رَاغِمٌ، إِنْ تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي لِدَلِكْ أَهْلٌ، وَهُوَ يَا رَبِّ مِنْكَ عَدْلٌ، وَإِنْ تَعْفُ عَنِّي فَقَدِيمًا سَمَلْتَنِي غَفْوِكَ، وَأَلْبَسْتَنِي عَافِيَتِكَ فَاسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِالْمَخْزُونِ مِنْ أَسْمَائِكَ، وَبِمَا وَارَتْهُ الْحُجُبُ مِنْ بَهَائِكَ، إِلَّا رَحِمْتَ هَذِهِ النَّفْسَ الْجُرُوعَةَ، وَهَذِهِ الرِّمَّةَ الْهَلُوعَةَ، الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ حَرَّ شَمْسِكَ، فَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ حَرَّ نَارِكَ، وَالَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ صَوْتَ رَعْدِكَ، فَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ صَوْتَ غَضَبِكَ فَارْحَمْنِي اللَّهُمَّ فَإِنِّي أَمْرٌ حَقِيرٌ، وَخَطَرِي يَسِيرٌ، وَلَيْسَ عَذَابِي بِمَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَلَوْ أَنَّ عَذَابِي بِمَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ لَسَأَلْتُكَ الصَّبْرَ عَلَيْهِ، وَ أَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لَكَ، وَ لَكِنْ سُلْطَانُكَ اللَّهُمَّ أَعْظَمُ، وَ مُلْكُكَ أَذْوَمُ مِنْ أَنْ تَزِيدَ فِيهِ طَاعَةُ الْمُطِيعِينَ، أَوْ تُنْقِصَ مِنْهُ مَعْصِيَةُ الْمُذْنِبِينَ فَارْحَمْنِي يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَ تَجَاوَزْ عَنِّي يَا ذَا الْجَلَالِ وَ الْإِكْرَامِ، وَ تُبِّ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ<sup>١</sup>.

#### الآيات الكريمة:

- ١- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّاي فَارْهَبُون﴾<sup>٢</sup>.
- ٢- ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْحَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْتَهَبُونَ﴾<sup>٣</sup>.

#### الروايات الشريفة:

- ١- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "إِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ وَإِنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللَّهَ شُكْرًا فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الإمام السجّاد، الصحيفة السجّادية، دعاؤه عليه السلام في الزهية.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ٤٠.

<sup>٣</sup> سورة الأعراف، الآية ١٥٤.

<sup>٤</sup> وسائل الشيعة، ج ١، ص ٦٣.

٢- وَقَالَ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "لَا تَجْتَمِعُ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ فِي قَلْبٍ إِلَّا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ فَإِذَا صَلَّيْتَ فَأَقْبِلْ بِقَلْبِكَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يُقْبَلُ بِقَلْبِهِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صَلَاتِهِ وَدُعَائِهِ إِلَّا أَقْبَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ بِقُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ وَأَيَّدَهُ مَعَ مَوَدَّتِهِمْ إِيَّاهُ بِالْجَنَّةِ"<sup>١</sup>.

٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "وَبِاللَّهِ لَوْ انَّمَا تَقْلُوبُكُمْ انَّمِيَانًا وَسَأَلْتَ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ وَرَهْبَةٍ مِنْهُ دَمًا ثُمَّ عَمَّرْتُمْ فِي الدُّنْيَا مَا كَانَتْ الدُّنْيَا بَاقِيَةً مَا جَزَتْ أَعْمَالُكُمْ وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئًا مِنْ جُهْدِكُمْ لِنَعْمِهِ الْعِظَامِ عَلَيْكُمْ وَهَدَاهُ إِيَّاكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ مَا كُنْتُمْ لَتَسْتَحِقُّوا أَبَدَ الدَّهْرِ مَا الدَّهْرُ قَائِمٌ بِأَعْمَالِكُمْ جَنَّتُهُ وَلَا رَحْمَتُهُ وَلَكِنْ بِرَحْمَتِهِ تُرَحَّمُونَ وَبِهَدَاهُ تَهْتَدُونَ وَبِهِمَا إِلَى جَنَّتِهِ تَصِيرُونَ"<sup>٢</sup>.

٤- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ وَآذَنْتْ بِوَدَاعٍ وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَ أَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعِهَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَدَاً السَّبَاقَ وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ... أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٠٩.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٥١٨.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٧١.

## الدّرس التاسع عشر: الرّهبة من الله (٢) - آثار الرّهبة وكيفية تحصيلها

### أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن علاقة الرّهبة في إصلاح النّفس والحدّ في العمل.
- ٢- يتعرّف إلى بعض نماذج الرّاهبين القدوة.
- ٣- يشرح السبيل لكيفيّة امتلاك هذه الفضيلة.



## تمهيد

الشخصية الزاهية تدرك مظاهر جلال الله وقاهرته في الحياة. فيمنعها ذلك من الغفلة والتوجه إلى سفاسف الأمور وسخائف الدنيا.

ففي قلب الزاهب الحقيقي تفور بحار الخوف من الله تعالى. هذا الخوف لا ينشأ من إدراك نقمة الله وشدته، بل في سطوة جلاله وهيبته جماله.

فكيف لا يهرب إلى الله من عرف شيئاً من الفرق بين الخالق والمخلوق. وهل يمكن لقلب أن يستقر ويركن إلى هذه الدنيا وهو يعلم ما ينتظره في الحياة الآخرة.

## ثمار الرهبة

### ١- الاجتهاد

"ثمره الخوف من الله الاجتهاد في القيام بأمر الله والمواظبة على طاعته"<sup>١</sup>. فلو لم يكن من ثمرة سوى هذه لكانت كافية لبلوغ أعلى مراتب القرب. "وقال بعض أن الخوف في بعض الأحيان أنفع للإنسان مثل أيام الصحة والعافية، حتى يجهد الإنسان نفسه في كسب الكمال والعمل الصالح"<sup>٢</sup>.

### ٢- الجنة

يروى الإمام الخميني قدس سره حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب معراج السالكين حيث يقول: "لا تجتمع الرغبة والرهبه في قلب إلا وجبت له الجنة، فإذا صليت فأقبل بقلبك إلى الله عز وجل فإنه ليس من عبد يقبل بقلبه على الله عز وجل في صلاته ودعائه إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين وأيده مع مودتهم إياه بالجنة"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٣٥.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٦٦.

<sup>٣</sup> من لا يحضره الفقيه، ج ١، ص ٢٠٩.

### ٣- إصلاح النفس وعلاجها

"إنَّ الانكسار والحزن مضافاً إلى أهما ينيران القلب ويجليانه، يكونان مبدءاً لإصلاح النفس، ومنشأً للنهوض بوظائف العبودية. ومن علامات هذا العالم الرّباني أنّه رغم قيامه الكامل بوظائف العبودية يعيش حالة الفزع، لأنّ نور العلم يهديه إلى أنّه كلّما أدّى وظائفه، يشعر بأنّه قاصر أو مقصّر، وأنه لا يستطيع أن يخرج من مسؤولية شكر نعمه وحقيقة عبادته. فيكون قلبه مملوءاً من الخوف والخشية. وقد قال الحقّ جلّ جلاله فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>٢</sup>."

"الخوف من الحقّ جلّ وعلا من المنازل التي قلّما نستطيع أن نجد للعوام من الناس منزلة فضيلة في مستوى منزلة الخوف من الحقّ سبحانه. وهذا الخوف مضافاً إلى أنّه يكون من الكمالات المعنوية، يُعتبر منشأً لكثيرٍ من الفضائل النفسية، وعملاً هاماً لإصلاح النفس، بل مصدر جميع الإصلاحات للنفس، ومبدأً لعلاج جميع الأمراض الروحية. ويجب على الإنسان المؤمن بالله، السّالك والمهاجر إلى الله، أن يهتم كثيراً بهذه المنزلة، وأن يُقبل بوجهه أكثر فأكثر على ما يبعث الخشية من الله في القلب، ويعمّق جذوره فيه، مثل التفكّر في العذاب والعقاب وشدة أهوال الموت وبعد الموت من عالم البرزخ والقيامة، والصراط والميزان والحساب وألوان عذاب جهنّم، ومثل التذكّر لعظمة الحقّ المتعالى وجلاله وقهره وسلطانه ومكره وسوء العقاب وأمثال ذلك"<sup>٣</sup>.

### ٤- التقوى

"الخوف من الحقّ المتعالى يوجب خشية النفس وتقواها وهي بدورها تؤدّي إلى قبول الأعمال"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> سورة فاطر، الآية ٢٨.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤١٢.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٥١٣.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٣٥٨.

## نماذج للزاهبين

لقد طرح البعض فكرة "محبّة الله" لينفي بذلك أن يكون هناك معنى للخوف من الله تعالى. لكن هناك من يتمسك بأفكار أخرى لكي يجعل الرّهبة فاقدة للأهميّة في النفوس. وبعض هذه الأفكار ناشئ من التّفسير الخاطئ أو التّاقص للشّفاة، ويرون أنّ الشّفاة كفيلة بإنقاذ الإنسان من تبعات آثامه طالما أنّه محبّ لأهل البيت عليهم السلام. ثمّ نجدهم يسترسلون إلى ما هو أبعد من ذلك قائلين: إذا كان الشّفيع منقذاً فلا شكّ بأنّه أعظم الآمنين من سطوة الله وعقابه. وإمّا نشأت مثل هذه الفكرة بسبب الجهل بمقام الربّ المتعال وعظيم شأنه من جهة، وحصر الخوف بمعانٍ محدودة ضيّقة. وإليكم بعض التّمادج أو الشّواهد حول مقامات خوف الكاملين ورهبة الواصلين. يقول الإمام الخميني قدس سره: "في ليلة المعراج كان الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يُغشى عليه عند مشاهدة كل جلوة من جلوات العظمة، ثمّ يفيق بجلوة من جلوات الأنس والرّحة في كلّ مرة. ولا سبب للخوف في ذلك المقام سوى مشاهدة العظمة فلا اسم ولا صورة للخوف من العذاب والعقاب، بل إنّ الحاكم على وجوده صلى الله عليه وآله وسلم كان فطرة العشق والمحبة بتمام حقيقتها، وفطرة الرّهبة والرّغبة بكلّ معناها خالية بالكامل من شوائب الاحتجاب، وحكم الفطرة لا يفترق عن حكم الحقّ جلّ وعلا".<sup>١</sup>

"إن أولياء الله لم يخلدوا إلى الرّاحة أبداً، وكانوا دائمي الخوف من هذه الرّحلة المحفوفة بالمخاطر. إنّ حالات عليّ بن الحسين عليه السلام، الإمام المعصوم، تشير الحيرة. وأنّين أمير المؤمنين علي عليه السلام، الوليّ المطلق، تبعث على الدهشة. ما الذي جرى لنكون على هذا القدر من الغفلة؟ من الذي جعلنا نطمئن؟ إنّّه لا يغرينا أحد بتأجيل عمل اليوم إلى الغد إلّا الشّيطان. إنّّه يريد أن يزيد من أعداد أنصاره وأعوانه، وأن يجعلنا نتخلّق بأخلاقه حتى نُحشر مع أتباعه".<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٩-٣٠٠.

<sup>٢</sup> الأربعة حديثاً، ترجمة محمد الغروي، دار التعارف للمطبوعات، الطبعة الخامسة، ١٩٩٦م، ص ١٧٨.

"تفكّر في حالات عليّ بن الحسين ومناجاته مع الحقّ تعالى وأدعيته اللطيفة التي تعلّم عباد الله آداب العبودية. لا أقول أنّ مناجاتهم عليهم السلام كانت لتعليم العباد، فإنّ هذا الكلام الأجوف الباطل يصدر من الجهل بمقام الرّبوبيّة ومعارف أهل البيت، فإنّ خوفهم وخشيتهم كانت أكثر من جميع الناس، وقد تجلّت عظمة الحقّ وجلاله في قلوبهم أكثر من الكلّ، ولكي أقول: لا بدّ أن يتعلّم عباد الله منهم كيفيّة العبوديّة والسّلوک إلى الله تعالى. فإذا قرؤوا أدعيّتهم ومناجاتهم فلا تكون القراءة لقلقة لسان، بل يتفكّروا في كيفيّة تعاملهم مع الحقّ وإظهارهم التذللّ والعجز والحاجة للذّات المقدّسة".<sup>١</sup>

"ماذا حدث لنا لكي نبقى إلى هذا الحدّ في نوم الغفلة والجهالة؟! أنزلت علينا مثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجبرائيل الملائكة أعطتنا الأمان من عذاب الله؟! في حين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأولياء الله، لم يقرّ لهم قرار إلى آخر أعمارهم من خوف الله، لم يكن لهم نومٌ ولا طعام؟! عليّ بن الحسين وهو إمام معصوم، يقطع القلوب بنحيبه وتضرعه ومناجاته وعجزه وبكائه، فماذا دهانا وصرنا لا نستحي أبداً فنهتكت في محضر الربوبية كل هذه المحرمات والنواميس الإلهية؟ فويل لنا من غفلتنا، وويل لنا من شدة سكرات الموت، وويل لحالنا في البرزخ وشدائده، وفي القيامة وظلماتها ويا ويل لحالنا في جهنم وعذابها وعقابها. إذا كانت أعمال الإنسان لأجل رضا الله فقط أو لإستحصال رحمته أو خوفاً من النار وشوقاً إلى الجنة، فلماذا يرغب في أن يمدحه الناس على كلّ عمل من أعماله؟"<sup>٢</sup>

### كيفيّة تحصيل مقام الرّهبة

قد علمنا أنّ الخوف من الله ينشأ من إدراك عظمة الحقّ تعالى وجلاله بشرط وجود الاستعداد القلبيّ، وإنّ الله تعالى قد مألأ أركان الوجود بآيات عظمته وجلاله، وما على الإنسان سوى أن يتفكّر فيها عسى أن يقذف الله في قلبه أنوار معرفته.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ١٦٣.

<sup>٢</sup> الأرعون حديثاً، ص ٤٨.

## ١ - تصفية الفطرة

إذا كانت الجرأة ضدّ الرّهبة، وكانت "الجرأة على الله لا تحدث في أيّ مرتبة من مراتبها إلا بسبب احتجاب الفطرة"<sup>١</sup>، فإنّ الرّهبة تُنال بتصفية النّفس لتصبح مستعدّة لتلقّي أنوار الفطرة، يقول الإمام الخميني قدس سره: "اعلم، أنّ التعظيم والرّهبة منه (من الله)، من الأمور الفطريّة المخمّرة في جبلّة جميع أفراد العائلة البشريّة، ولو فُتشتّ قلوبهم جميعاً لما وُجدَ مَنْ شدّد عنها فهم - وإن اختلفوا في تشخيص الموارد والمصاديق - إلاّ أنّهم متّفقون على أصل هذه الحقيقة الفطريّة. وتحصل الرّهبة والخوف من المقتدرين والسّلاطين والجبابة حتّى عند الأمن من الضّرر، وهذه الحال ناشئة من فطرة تعظيم العظيم، ولذلك يستولي على من يحضر مجلس السّلاطان العادل الشّعور بالصّعر والرّهبة والخوف حتّى لو لم تصدر منه أيّة معصية، بل إنّ الذين يشعرون بعظمة أحد العلماء تسيطر عليهم فطريّاً الرّهبة والخوف عند حضوره، رغم أنّهم يأمنون بالكامل الضّرر منه"<sup>٢</sup>.

ويقول قدس سره: "أمّا ما نراه في قلوبنا نحن المحجوبين من انعدام الخوف والرّهبة من الحقّ - جلّت عظمته، فهو نتيجة عدم إدراكنا لعظمته، ونحن نتجرّأ على المولى جلّ وعلا لأنّ الفطرة فينا محجوبة بحجب الطّبيعة الغليظة"<sup>٣</sup>.

## ٢ - امتلاك الاستعداد القلبيّ

"القلوب الخوفيّة (إشارة إلى الاستعداد القلبيّ) يتجلّى لها سلطان العظمة وتغلب عليها جذبة القهاريّة وتجعلها في حالة الصّعق ويذوّبها الخوف والخشية، ويمنعها عن كلّ شيء القصور الذاتيّ واستشعار ذلّة نفسها وعجزها"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٠.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٩٨-٢٩٩.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٠٠.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ١٣٦.

### ٣- طلب العلم

"إنَّ نور العلم يبعث على الخشية والحزن، وصاحبه رغم إقباله على إصلاح نفسه لا يقترّ له قرار من جرّاء خوفه من يوم القيامة، ويدفعه نحو الطلّب من الله في أن يصلحه، ويحدّره من الانشغال بغير الحقّ، ويبعده عن أهل زمانه، ويجعل حاجسه الخوف من أنّ أهل الدنيا قد يمنعونه من السير إلى الله، والسفر إلى عالم الآخرة، ويزيّنون الدنيا ولذائدها في عينه. والحقّ سبحانه يؤيّد مثل هذا الإنسان، ويقوّي وجوده وينعم عليه بالأمان يوم القيامة"<sup>١</sup>.

### ٤. مشاهدة القصور والتقصير الذاتي

"إذا رأينا الضّعف والفتور والمسكنة والفقر والذلّة في أنفسنا، والعظمة والأبهة والجلال والكبرياء في الذات المقدسة، فنقع في الخوف والخشية من خطر هذا المقام، وإذا وجدنا الرّحمة والعطوفة والألطف غير المتناهية والكرامات اللانهائية نكون راجين وآملين"<sup>٢</sup>.

"والسالك لا يبدّ له أن يفهم قلبه في جميع فصول الأذان والاقامة عظمة المحضّر والحضور والحاضر ويجعل ذلّ نفسه وعجزها وقصورها نصب عينيه حتى يحصل الخوف والخشية، ومن الجانب الآخر لا يبدّ أن يريه الرّحمة الواسعة والألطف الكريمة حتى يحصل له الرّجاء والشوق"<sup>٣</sup>.

### ٥- التفرغ لله

ينقل الإمام قدس سره في كتاب الأربعون حديثاً، حديث عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: "في التّوراة مكتوبٌ يا بَنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلاً قَلْبِكَ غِنًى، وَلَا أَكِلْكَ إِلَى طَلْبِكَ، وَعَلَيَّ أَنْ أَسُدَّ فَاقَتَكَ وَأَمْلاً قَلْبِكَ خَوْفاً مِنِّي. وَإِنْ لَا تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلاً قَلْبِكَ شُغْلاً بِالدُّنْيَا ثُمَّ لَا أَسُدُّ فَاقَتَكَ وَأَكِلْكَ إِلَى طَلْبِكَ"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤١٣.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ١٣٢.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ١٣٦.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ٢، ص ٨٢.

## ٦- إدخال حَقَائِبِة القرآن إلى القلب

"نحن جميعًا نعلم أنّ القرآن الشّريف، تنزّل من معدن الوحي الإلهيّ بهدف تكميل الإنسان وتخليصه من سجن الطّبيعة والدّنيا المظلم، وأنّ وعده ووعيدة هما جميعًا حقٌّ صريحٌ وحقيقة ثابتة، وليس فيه أيّة شائبة من الباطن وما يخالف الواقع، ولكن رغم ذلك، فإنّ تأثير هذا الكتاب الإلهيّ العظيم في قلوبنا القاسية لا يبلغ تأثير كتاب قصّة فيها، فلا تتعلّق قلوبنا شوقًا بمواعيده الصّادقة لنخرج بذلك من التعلّق بهذه الدّنيا الدّنيّة والنشأة الفانية، ونتطلّع إلى تلك الدّار الخالدة، ولا يصل فيها خوف وخشية من الوعيد والإنذار القرآنيّ، فنرتدع عن الدّنوب، ونتورّع عن معصية وليّ نعمتنا. ولا علّة لكلّ ذلك سوى أنّ حقيقة وحقائبة القرآن لم تدخل قلوبنا، ولم نعتقد عليها أفعدتنا. والإدراك العقليّ المحرّد قليل التأثير جدًّا".<sup>١</sup>

### موعظة للإمام

"فيا أيّها الإنسان المسكين، الذي لم تجنّ من عبادتك ومناسكك إلّا البعد عن ساحة الله المقدّسة، والاستحقاق للعتاب والعقاب، علامّ اعتمادك؟ ولماذا لا يقلقك ولا يزعجك الخوف من شدّة بأس الحقّ؟ أعندك متكأ تتكئ عليه؟ أتثق بعملك وتطمئن إليه؟ إذا كان الأمر كذلك فالويل لك من معرفتك بحالك وحال مالك الملوك!"<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٥.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ٢٦١.

## المفاهيم الرئيسة

- ١- ثمار الرّهبة:
  - الاجتهاد في القيام بأمر الله.
  - دخول الجنة.
  - إصلاح النفس: فالخوف من الله مبدأ لعلاج جميع الأمراض الروحانية.
  - التقوى وقبول الأعمال.
- ٢- هناك من يتمسك بأفكار لكي يجعل الرّهبة فاقدة للأهميّة في النفوس، كالتفسير الخاطيء أو الناقص للشفاة والاعتقاد بأنّ الله محبة، وقد نشأت هذه الأفكار بسبب الجهل بمقام الربّ المتعال وعظيم شأنه من جهة، وحصر الخوف بمعانٍ محدودة ضيقة.
- ٣- نماذج الرّاهبين: الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام.
- ٤- كيفية تحصيل مقام الرّهبة:
  - التّفكّر بآيات عظمة الله وجلاله.
  - امتلاك الاستعداد القلبيّ: غلبة الجذبة القهّارية على القلب التي تجعل الإنسان يستشعر القصور ودلّة النفس.
  - طلب العلم: الذي يبعث على الخوف والحشية ويدفع بالإنسان لإصلاح نفسه.
  - مشاهدة القصور والتّقصير الذاتيّ.
  - التفرّغ لله: تفرّغ القلب للعبادة.
  - تصفية الفطرة: الرّهبة من العظيم أمر فطريّ، فإذا صفت الفطرة وأدركت العظمة فإنّ الإنسان تلقائيًا سوف يستشعر الرّهبة.
  - إدخال حقانيّة القرآن إلى القلب.

دعاء:

اللَّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى التَّابِعِينَ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَعَلَى أَزْوَاجِهِمْ وَعَلَى ذُرِّيَّتِهِمْ وَعَلَى مَنْ أَطَاعَكَ مِنْهُمْ صَلَاةً تَعْصِمُهُمْ بِهَا مِنْ مَعْصِيَتِكَ، وَتَنْفَسِحَ لَهُمْ فِي رِيَاضِ جَنَّتِكَ، وَتَمْنَعُهُمْ بِهَا مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَتُعِينُهُمْ بِهَا عَلَى مَا اسْتَعَانُوكَ عَلَيْهِ مِنْ بَرٍّ، وَتَقِيَهُمْ طَوَارِقَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ وَتَبْعُهُمْ بِهَا عَلَى اعْتِقَادِ حُسْنِ الرَّجَاءِ لَكَ، وَالطَّمَعِ فِيمَا عِنْدَكَ وَتَرْكِ التَّهَمَةِ فِيمَا تَحْتَوِيهِ أَيْدِي الْعِبَادِ لِتَرْدَهُمْ إِلَى الرَّغْبَةِ إِلَيْكَ وَالرَّهْبَةِ مِنْكَ<sup>١</sup>.

الآيات الكريمة:

١ - ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيتَايَ فَارْهَبُونِ﴾<sup>٢</sup>.

٢ - ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾<sup>٣</sup>.

الروايات الشريفة:

١ - عن أمير المؤمنين عليه السلام: "إِنْ اسْتَطَعْتُمْ عِبَادَ اللَّهِ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَيَحْسَنَ بِهِ ظَنُّكُمْ فَافْعَلُوهُ فَإِنَّ الْعِبْدَ إِنَّمَا تَكُونُ طَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ وَإِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ لِلَّهِ طَاعَةً أَشَدَّهُمْ لَهُ خَوْفٌ"<sup>٤</sup>.

٢ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ خَوْفُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ هَوَى مُتَّبَعٌ وَشَحٌّ مُطَاعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الإمام السجّاد، الصحيفة السجّادية، دعاؤه عليه السلام في الصلاة على أتباع الرسل.

<sup>٢</sup> سورة النحل، الآية ٥١.

<sup>٣</sup> سورة الأنبياء، الآية ٩٠.

<sup>٤</sup> بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٥٤٧.

<sup>٥</sup> وسائل الشريعة، ج ١، ص ١٠٥.

٣- قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَنْ عَرَفَ اللَّهَ خَافَ اللَّهَ وَمَنْ خَافَ اللَّهَ سَخَتْ نَفْسُهُ عَنِ الدُّنْيَا"<sup>١</sup>.

٤- عن الإمام الصادق عليه السلام: "نَجْوَى الْعَارِفِينَ تَدُورُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصُولٍ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالْحُبِّ فَالْخَوْفُ فَرَعُ الْعِلْمِ وَالرَّجَاءُ فَرَعُ الْيَقِينِ وَالْحُبُّ فَرَعُ الْمَعْرِفَةِ فَدَلِيلُ الْخَوْفِ الْهَرَبُ وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ الطَّلَبُ وَدَلِيلُ الْحُبِّ إِثَارُ الْمَحْبُوبِ عَلَى مَا سِوَاهُ فَإِذَا تَحَقَّقَ الْعِلْمُ فِي الصَّدْرِ خَافَ وَإِذَا خَافَ هَرَبَ وَإِذَا هَرَبَ نَجَا"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٨.

<sup>٢</sup> مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ١٦٨.

## الدرس العشرون: الرجاء (١) - معنى الرجاء والفرق بينه وبين الغرور والطمع

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يوضّح المعنى الدقيق للرجاء.
- ٢- يشرح كيفية الجمع بين الخوف والرجاء.
- ٣- يبيّن الفرق بين الرجاء والغرور والرجاء والطمع.



## تمهيد

قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾<sup>١</sup>.

يعلم المؤمن الفقيه أنّ غاية الخلق معرفة الله. كيف لا وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَمَآوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾<sup>٢</sup>، ويدرك المؤمن المتين أنّ كلّ الكمالات تحصل في ظلّ معرفة الله بالقلب والروح. لأنّ هذه المعرفة هي عين الاتّصال بمنبع الفضائل والخيرات.

ومن كان له نصيب من معرفة تجليات الحقّ وأسمائه يُدرك أنّ رحمة الله وسعت كلّ شيء ولا يسعها شيء. فهي أوسع الأشياء وأعظمها قدرًا. ومثل هذه الرحمة مطلقة. فمهما بلغنا من إدراك مظاهرها نبقى عاجزين عن الإحاطة بها أو تحديدها.

ولا شكّ بأنّ لكلّ معرفة أثر في النفس. فأعظم آثار معرفة الرحمة وتجلياتها في قلب العبد حصول حالة الرجاء. فما هو الرجاء؟ وما هو دوره في تهذيب النفوس وتكميلها؟

## ما هو الرجاء؟

يقدم الإمام الخميني قدس سره، ومن أجل تعميق المفهوم وتمتينه، وصفاً دقيقاً لموقعيّة الرجاء في حركة الإنسان المعنويّة وعلاقته بالأسباب التي ينبغي أن تنتهي إلى السبب الأول سبحانه. وبهذه الطريقتة يميّز بين الرجاء الحقيقي والرجاء الكاذب. ولتشبيته المفهوم الدقيق يقارن الرجاء بما يُعرف بين الناس بالخوف، ولا شكّ بأنّ الرجاء أمرٌ مستحسن إذا تعلّق بالله مثلما أنّ الخوف من الله هو الممدوح والنافع. أما تعلّق الرجاء بما سوى الله فهو

<sup>١</sup> سورة الكهف، الآية ١١٠.

<sup>٢</sup> سورة الطلاق، الآية ١٢.

أمرٌ مذموم ويدلّ على فساد العقيدة وعدم وجود التّوحيد الحقيقيّ في القلب.

يقول الإمام قدس سره: "قال بعضهم: إنّ مثلاً من لا يعمل وينتظر رحمة ربّه ويرجو رضوانه مثلاً من يرجو المسبّب دون أن يُعدّ الأسباب، ومثلاً الفلاح الذي ينتظر الزّرع من دون أن يبذر الأرض أو يهتمّ بها ويأروائها أو يقضي على موانع الزرع. إن مثل هذا الانتظار لا يُسمّى بالرجاء، بل هو بلبه وحماقه. وإن مثلاً من لم يُصلح أخلاقه أو لم يبتعد عن المعاصي فينهض بأعمال راجياً تزكية نفسه، مثلاً من يودع البذر في أراضي سبخة، ومن الواضح أنّ هذا الزّرع لا يثمر النتيجة المتوخاة. فالرجاء المستحسن والمحبوب هو تهيئة كافة الأسباب التي يمتلكها الإنسان كما أمر الله بها واستغلالها حسب القدرة التي زوّده بها الحقّ المتعال بعنايته الكاملة، وحسب هدايته. عز وجل. إتياءه إلى طرق الصّلاح والفساد، ثمّ ينتظر ويرجو الحقّ المتعال أن يتمّ عنايته السّابقة تجاه الأسباب التي وقرها من قبل، ويحقّق الأسباب التي لا تدخل تحت إرادته واختياره من بعد، ويزيل الموانع والمفاسد".<sup>1</sup>

"فإذا نظّف العبد قلبه من أشواك الأخلاق الفاسدة وأحجار الموبقات وسباختها، وبذر فيها بذور الأعمال، وسقاها بماء العلم الصافي النافع والإيمان الخالص، وخلّصها من المفسدات والموانع مثل العجب والرياء وأمثالها التي تُعدّ بمثابة الأعشاب الضارة العائقة لنموّ الزّرع، ثمّ انتظر ربّه المتعالى ورجاه أن يثبتته على الحقّ، ويجعل عاقبة أمره إلى خير، كان هذا الرجاء مستحسنًا.

كما يقول الحقّ المتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>2</sup>.

### مقارنة الرجاء بالخوف

يظنّ أكثر النّاس أنّ الرجاء إذا وُجد في القلب منع الخوف من الدّخول إليه، وإنّ الخوف من الله يمنع حصول الرجاء به. لكنّ الذي يعرف حقيقة الكيان الإنسانيّ من جهة، وأصل عالم الوجود من جهة أخرى، يدرك أنّ اجتماعهما هو الأمر السليم. يقول الإمام قدس سره: "لا بدّ من تعادل الخوف والرجاء وعدم تفوّق أحدهما على الآخر، كما ورد هذا المضمون في

<sup>1</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٦٤.

<sup>2</sup> سورة البقرة، الآية ٢١٨.

<sup>3</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٦٤-٢٦٥.

مرسلة ابن أبي عمير عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً. إنّ الإنسان عندما يدرك منتهى قصوره في التّهوض بالعبودية، ويرى صعوبة وضيق طريق الآخرة، يتولّد فيه الخوف بأعلى درجة، وعندما يجد ذنوبه ويفكر في أناس كانت عاقبة أمرهم الموت من دون إيمان وعمل صالح، رغم حسن أحوالهم في بدء الأمر ولكنهم انتهوا إلى سوء العاقبة، يشتدّ فيه الخوف. ففي الحديث الشريف في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: قال: "المؤمن بين مخافتين ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك فهو لا يصح إلا خائفاً ولا يصلح إلا الخوف"<sup>١</sup>.

وعلى أي حال يرى الإنسان نفسه في منتهى النقص والتقصير، ويرى الحق في منتهى العظمة والجلال، وسعة الرحمة والعطاء، ويعيش العبد بين هاتين النظرتين دائماً في حال متوازنة بين الخوف والرجاء. وحيث أن الأسماء الجلالية والجمالية تتجليان في قلب السالك متعادلة لا يترجح كل من الخوف والرجاء على الآخر<sup>٢</sup>.

ولالإمام قدس سره في شرح حديث جنود العقل والجهل كلام مشابه نقله من باب تقوية المعنى: "وأما النحو الثاني للجمع بين الخوف والرجاء. ولعله هو المقصود غالباً في الأحاديث الشريفة والأدعية المأثورة. فهو أنّ على الإنسان أن يجمع دائماً بين رؤيتين، الأولى رؤيته لنقصه وقصوره وفاقته، ليعرف. من خلال هذه الرؤية. أنّه ناقص محض النقص، وقاصر صرف القصور، فليس له من ذاته أي قدرة أو قوة أو عزة، بل إنّ كل كمال وجمال وحسن وبهاء هو من الحقّ تعالى، وإلى ذاته المقدّسة ترجع كلّ المحامد والثناء، بل وإنّ النقص والقصور يعرض (عند تجلّيه وانعكاسه) في مرآة "الممكن" على الكمال والحسن الأزلي، مثلما أنّ المرآة المحدودة الكدرة تحدّد وتكدر نور الشمس. وبهذه الرؤية يحصل الخوف في العبادات والطاعات فضلاً عن الذنوب والمعاصي، بل إنّ معظم عباداتنا هي. عند أهل المعرفة. عبادة للنفس والشهوات، لأنّها من أجل المقاصد النفسانية، لذلك تظهر منها كدورة وظلمة، ومع هذه الرؤية يحصل في القلب منتهى الخوف. ولكن ينبغي أن تُضمّ هذه الرؤية إلى الرؤية الثانية وهي: رؤية سعة رحمة الحقّ تبارك وتعالى، وسعة نور

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٧١.

<sup>٢</sup> الأرعون حديثاً، ص ٢٦٥-٢٦٦.

رحمانيته ورحيميته ونعمه غير المتناهية وكراماته الدائمة، وهذه الرؤية تولد الرجاء.

والإنسان يجب أن يجمع دائماً بين هاتين الرؤيتين، رؤية ذلّه وفقره الإمكانيّ، ورؤية رحمة الواجب تعالى ونعمه، فبذلك يجمع بين الخوف والرجاء الكاملين، كما يشير إلى ذلك الحديث الشّريف المرويّ في كتاب الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول بشأن وصيّة لقمان الحكيم: "... وكان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله عزّ وجل خفيّة لو جئته ببرّ الثقلين لعذبك، وارح الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك. ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: "كان أبي يقول: إنه ليس من عبدٍ مؤمنٍ إلّا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا"<sup>١</sup>،<sup>٢</sup>

### ما الفرق بين الرجاء والطّمع؟

قد علمنا أنّ الطّمع بالدنيا من جنود الشيطان ومن الخصال المذمومة. بيد أنّ هناك طمعٌ آخر يرتبط بوعود الله ورحماته، فما هو الفرق بين الرجاء والطّمع؟ وماذا يكشف لنا هذا التمييز فيما يتعلّق بالرجاء. يجيب الإمام الخميني قدس سره على هذا السؤال قائلاً: "يُحتمل أن يكون الحديث (جنود العقل والجهل) قد ميّز بين الرجاء والطّمع، بكون الرجاء هو الأمل بالرحمة مع العمل في حين أنّ الطمع هو الأمل مع فقدان العمل أو عدم رؤيته. ولكن من البعيد أن يُعدّ الطّمع بدون العمل من جنود العقل لما ورد في الأحاديث الشريفة من التّكذيب والذمّ له، لذا ففعل المقصود هو الأمل مع عدم رؤية العمل وعدم الاتّكال عليه، وهذا من مقامات العارفين بالله الذين تركوا أنفسهم وأعمالهم وهاجروا من منزل كيانهم وبين الأنا والأنانيّة، وداسوا على رأس مملكة وجودهم، وتحرّروا من كلا النشأتين فتطلّعت عيونهم للحبيب وعميت عن نفوسهم وأعمالهم، فأحيت تجلّيات الرحمة الإلهيّة قلوبهم، فكسروا قدم السّير والسلوك، ومدّوا أيدي طمعهم إلى الحقّ تعالى ورحمته، وانقطعوا عن كلّ ما سواه وتعلّقوا به.... ويحتمل وجود فرق آخر بين الرجاء والطّمع، وهو أن يكون المراد بالطّمع الأمل بغفران المعاصي أو غفران وجران عموم النّقائص، نظير ما يحكيه الله تعالى من قول خليل

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٧.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٤٢-١٤٣.

الرَّحْمَانِ، فِي آيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾<sup>١</sup>، فِي حِينَ يَكُونُ مَعْنَى الرَّجَاءِ الْأَمَلُ فِي ثَوَابِ اللَّهِ وَالتَّطَلُّعِ إِلَى رَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ عَلَى الْعَكْسِ وَيَتَمَايَزُ ضِدَّاهُمَا بِحَسَبِ الْمَقَابِلَةِ<sup>٢</sup>.

### ما الفرق بين الرجاء والغرور؟

وَمِنْ جَمَلَةِ الْأُمُورِ الَّتِي تَسَاهِمُ فِي مَعْرِفَةِ الرَّجَاءِ تَمْيِيزُهُ عَنِ الْغُرُورِ الَّذِي هُوَ شَكْلٌ مِنْ أَشْكَالِ الرَّجَاءِ. وَقَدْ يَغْفُلُ الْإِنْسَانُ عَنِ الْفَارِقِ بَيْنَهُمَا وَيُوقِعُهُ جَهْلُهُ فِي أخطاءٍ كَبِيرَةٍ، لِهَذَا يَقُولُ الْإِمَامُ قَدَسَ سِرُّهُ: "اعْلَمْ، أَنَّ الْإِنْسَانَ يَغْفُلُ عَنِ حَقِيقَةِ نَفْسِهِ بِسَبَبِ الْوُقُوعِ فِي حَبِّهَا وَالْعَجَبِ بِهَا وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهَا، وَرَبَّمَا وَقَعَ فِي الْخَلْطِ فَاعْتَبِرْ نِقَائِصَهَا وَعِيُوبَهَا كَمَا لَأَ وَمَحَاسِنَ. وَمِثْلُ هَذَا الْخَلْطِ فِي صِفَاتِ النَّفْسِ كَثِيرٌ جَدًّا، وَيَنْدُرُ وَجُودُ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى التَّمْيِيزِ الصَّحِيحِ. وَهَذَا مِنْ مَرَاتِبِ نَسِيَانِ النَّفْسِ النَّاتِجِ مِنْ نَسِيَانِ الْحَقِّ جَلِّ وَعَلَا الْمَشَارِإِ إِلَيْهِ فِي آيَةِ ١٩ مِنْ سُورَةِ الْحَشْرِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.. وَمِنْ الْأُمُورِ الَّتِي يَقَعُ الْخَلْطُ بِشَأْنِهَا وَيُجْدَعُ فِيهَا الْإِنْسَانُ بِسَبَبِ مَحْجُوبِيَّتِهِ، هِيَ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْغُرُورِ وَالْأَمَانِيِّ، وَبَيْنَ الرَّجَاءِ وَالثَّقَّةِ بِالْحَقِّ تَعَالَى، وَمِنْ الْوَاضِحِ لِلْغَايَةِ أَنَّ الْغُرُورَ هُوَ مِنْ أَكْبَرِ جُنُودِ إِبْلِيسَ، فِي حِينَ أَنَّ الرَّجَاءَ مِنْ جُنُودِ الرَّحْمَانِ وَالْعَقْلِ، فَهَمَا مَتَمَايِزَانِ، إِذَا، فِي الْمَبْدَأِ وَفِي الْآثَارِ. إِذْ أَنَّ مَبْدَأَ الرَّجَاءِ هُوَ الْعِلْمُ بِسَعَةِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْإِيمَانُ بِبَسْطِ الْفَيْضِ وَالْكَمَالِ وَتَجَلِيَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ. فِي حِينَ أَنَّ مِنْ مَنَبَعِ الْغُرُورِ هُوَ التَّهَوُّونُ فِي الْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ، وَالْجَهْلُ بِعَوَالِمِ الْغَيْبِ وَالصُّورَةِ الْغَيْبِيَّةِ لِأَفْعَالِ النَّفْسِ، وَاللُّوْازِمِ الْمَلَكُوتِيَّةِ لِصِفَاتِهَا: وَلِذَلِكَ فَإِنَّ آثَارَهُمَا مَتَمَايِزَةٌ أَيْضًا، لِأَنَّ الْعَارِفَ بِسَعَةِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَشُمُولِيَّةِ النِّعَمِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالْمُؤْمِنَ بِمَا تُحْصَلُ عِنْدَهُ حَالِ الرَّجَاءِ، وَتَدْعُوهُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ وَالْإِيمَانُ إِلَى تَزْكِيَةِ الْأَعْمَالِ وَتَصْفِيَةِ الْأَخْلَاقِ، وَالْجَدِّ فِي طَاعَةِ أَمْرِ الْمَوْلَى وَوَلِيِّ النِّعَمِ. أَمَّا الْغُرُورُ فَهُوَ وَاقِعٌ فِي شَبَاكِ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، لِذَلِكَ فَهُوَ مَتَحَلِّفٌ عَنِ كَسْبِ الْمَعَارِفِ وَاِكْتِسَابِ الْأَخْلَاقِ

<sup>١</sup> سورة الشعراء، الآية ٨٢.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٨٤-١٨٥.

"ولكن أيها العزيز كن على حذر، لئلا تخلط بين الرجاء والغرور. فقد تكون مغترًا وتحسب نفسك من أهل الرجاء. إن من السهل التمييز بين الحالين في مباديهما. انظر إلى هذه الحال التي فيك والتي تظن نفسك بها بأنك من أهل الرجاء. فهي إما أن تكون ناشئة من التهاون في أوامر الحق سبحانه والتقليل منها، وإما أن تكون ناجمة عن الاعتقاد بسعة رحمة الله وعظمة ذاته المقدسة. وإذا عسر عليك التمييز بينهما أيضًا، أمكنك التمييز من خلال الآثار. فإذا كان الإحساس بعظمة الله في القلب، وكان قلب المؤمن محاطًا برحمة ذاته المقدسة وعطاياه، لقام القلب بواجب العبودية والطاعة. لأن تعظيم العظيم المنعم وعبادته من الأمور الفطرية التي لا خلاف فيها. وإذا لم تكن في أداء واجبات العبودية، وفي بذل الجهد والجد في الطاعة والعبادة، معتمدًا على أعمالك، ولم تحسب لها حسابًا، وكنت أملًا برحمة الله وفضله وعطائه، ووجدت نفسك مستحقًا للوم والذم والسخط والغضب بسبب أعمالك، ولم تعتمد إلا على رحمة الجواد المطلق، فأنت من أهل الرجاء. فاشكر الله تبارك وتعالى، واطلب من ذاته المقدسة أن يثبت ذلك في قلبك، ويمحك أعلى منه مقامًا. أما إذا كنت لا سمح الله. متهاونًا في أوامر الحق تعالى ومستحقًا ومستهيًا لتعاليمه، فاعلم أنه الغرور الحاصل في قلبك وأنه من مكائد الشيطان، ومن نفسك الأمانة بالسوء. فلو آمنت بسعة الله ورحمته وعظمته. لظهر أثر ذلك فيك. إن المدعي الذي يخالف عمله دعواه، يكذب نفسه بنفسه. والشواهد على هذا في الأحاديث المعتمدة كثيرة<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٣٠.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ٢٦٣-٢٦٤.

## المفاهيم الرئيسة

١- إنّ النفوس الرّاجية هي التي تطيع الأوامر الإلهية، لكنّها في الوقت نفسه لا تتكل على طاعتها وأحوالها، لأنّها أدركت عظمة الحقّ جل وعلا، وعرفت أنّ كلّ شيء صغير، وكلّ كمال حقير في قبال هذه العظمة.

٢- أعظم آثار معرفة الرّحمة وتجلياتها في قلب العبد حصول حالة الرّجاء فيه.

٣- إنّ نور الرّجاء هو الذي يوصل الإنسان إلى كمال سعادته.

٤- إذا تعلّق الرّجاء بما سوى الله فهو أمرٌ مدموم ويدلّ على فساد العقيدة وعدم وجود التّوحيد الحقيقيّ في القلب.

٥- لا بدّ من تعادل الخوف والرّجاء عند الإنسان فلا يتفوّق أحدهما على الآخر، ويتحقّق ذلك عندما يرى الشخص نفسه في منتهى التقصير والتّقصير من جهة، ويرى الحقّ في منتهى العظمة والجلال وسعة الرّحمة والعطاء من جهة أخرى.

٦- الفرق بين الرجاء والطّمع هو أنّ الرّجاء هو الأمل بالرّحمة مع العمل في حين أنّ الطّمع هو الأمل مع فقدان العمل أو عدم رؤيته.

٧- الفرق بين الرّجاء والغرور هو أنّ مبدأ الرّجاء هو العلم بسعة الرّحمة الإلهية والإيمان ببسط الفيض والكمال وتجليات الأسماء والصفات الإلهية، في حين أنّ منبع الغرور هو التّهاون في الأمر الإلهي، والجهل بعوالم الغيب والصّورة الغيبية لأفعال النّفس، واللوازم الملكوتية لصفاتها.

دعاء:

اللَّهُمَّ مَنْ تَهَيَّأَ وَتَعَبَّأَ وَأَعَدَّ وَاسْتَعَدَّ لِرَفَادَةِ إِلَى مَخْلُوقٍ رَجَاءَ رَفْدِهِ وَنَوَافِلِهِ وَطَلَبَ نَيْلِهِ وَجَائِزَتِهِ، فَإِلَيْكَ يَا مُؤَلِّي كَانَتِ  
الْيَوْمَ تَهَيَّيْتِي وَتَعَبَّيْتِي وَإِعْدَادِي وَاسْتِعْدَادِي رَجَاءَ عَمَلِكَ وَرَفْدِكَ وَطَلَبَ نَيْلِكَ وَجَائِزَتِكَ<sup>١</sup>.

الروايات الشريفة:

١- عن علي بن الحسين عليه السلام: "إِيَّاكَ وَالرَّجَاءَ الْكَاذِبَ فَإِنَّهُ يُوقِعُكَ فِي الْخَوْفِ الصَّادِقِ"<sup>٢</sup>.

٢- عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: "حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ أَنْ لَا تَرْجُوَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تَخَافَ إِلَّا ذَنْبَكَ"<sup>٣</sup>.

٣- وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "حُسْنُ الظَّنِّ أَنْ تُخْلِصَ الْعَمَلَ وَتَرْجُوَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَعْفُوَ عَنِ الرَّئِلِ"<sup>٤</sup>.

٤- عن أبي عبد الله عليه السلام: "يَا ابْنَ جُنْدَبٍ يَهْلِكُ الْمُتَكَلِّفُ عَلَى عَمَلِهِ وَ لَا يَنْجُو الْمُجْتَرِي عَلَى الدُّنُوبِ  
الْوَائِقُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ قُلْتُ فَمَنْ يَنْجُو قَالَ الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ كَأَنَّ قُلُوبَهُمْ فِي مَخْلَبٍ طَائِرٍ شَوْقًا إِلَى  
الثَّوَابِ وَ خَوْفًا مِنَ الْعَذَابِ"<sup>٥</sup>.

٥- عن الإمام الصادق عليه السلام: "دَلِيلُ الرَّجَاءِ الطَّلَبُ"<sup>٦</sup>.

٦- عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "قَالَ وَجَدْنَا فِي كِتَابِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ عَلَى مَنبَرِهِ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا أُعْطِيَ مُؤْمِنٌ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِحُسْنِ ظَنِّهِ بِاللَّهِ وَرَجَائِهِ  
لَهُ وَحُسْنِ خُلُقِهِ وَالْكَفِّ عَنِ اغْتِيَابِ الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يُعَذِّبُ اللَّهَ مُؤْمِنًا بَعْدَ الْإِسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ إِلَّا  
بِشَوْءٍ ظَنَّهُ

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه يوم الأضحى ويوم الجمعة.

<sup>٢</sup> بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٦٢.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٢، ص ٧٢.

<sup>٤</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٢٥٢.

<sup>٥</sup> بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢٧٩.

<sup>٦</sup> مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ٧٠.

بِاللَّهِ وَ تَقْصِيرٍ مِنْ رَحَائِهِ اللَّهُ وَ سُوءِ خُلُقِهِ وَاعْتِيَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا يَخْسُرُ ظَنُّ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ إِلَّا  
كَانَ اللَّهُ عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ لِأَنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ بِيَدِهِ الْخَيْرَاتُ يَسْتَحْيِي أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ الْمُؤْمِنُ قَدْ أَحْسَنَ بِهِ الظَّنَّ وَ  
الرَّجَاءَ ثُمَّ يُخْلِفُ ظَنَّهُ وَ رَجَاءَهُ فَأَحْسِنُوا بِاللَّهِ الظَّنَّ وَ ارْغَبُوا إِلَيْهِ" <sup>١</sup>.

---

<sup>١</sup> مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ١٦٨.



## الدرس الواحد والعشرون: الرجاء (٢) - منشأ الرجاء وكيفية تحصيله

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن العلاقة الحاكمة بين الرجاء والعمل وبين التوحيد والرجاء.
- ٢- يشرح دور العقل والفطرة في ترسيخ فضيلة الرجاء في النفس.
- ٣- يبيّن كيف أنّ حبّ الدنيا والاتكال على الأعمال يوقع الإنسان في اليأس والقنوط.



## تمهيد

إنَّ رجاء رحمة الله وترقيتها دوماً يُعدّ من صفات المؤمنين الذين عرفوا الله وأدركوا أنّ رحمته وسعت كلّ شيء، وأحاطت بجميع الموجودات والكائنات والحوادث.

ومن كان كذلك علم أنّ كلّ ما سيحدث في حياته يندرج ضمن هذه التربية الإلهية والتدبير الرباني الذي يأخذ بيد كلّ موجود إلى غايته.

هناك سيتوجّه الإنسان نحو المستقبل المشرق المليء بالفرص التي تساهم في تكامله ووصوله إلى سعاده الأبدية. وكلّ ذلك لا يمكن أن يحصل إلّا بالعقل المتورّ والنفس الطاهرة من أدناس التعلّق بهذه الدنيا الدنّية.

## علاقة الرجاء بالعمل

ينقل الإمام الخميني قدس سره في كتاب الأربعون حديثاً، حديث عن الكافي: "عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "قُلْتُ لَهُ: قَوْمٌ يَعْمَلُونَ بِالْمَعَاصِي وَيَقُولُونَ نَرْجُو فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمُ الْمَوْتُ. فَقَالَ: هَؤُلَاءِ قَوْمٌ يَتَرَجَّحُونَ فِي الْأَمَانِيِّ. كَذَبُوا لَيْسُوا بِرَاجِينَ، إِنَّ مَنْ رَجَا شَيْئاً طَلَبَهُ وَمَنْ خَافَ مِنْ شَيْءٍ هَرَبَ مِنْهُ"<sup>١</sup>. وبهذا المضمون رواية أخرى في كتاب الكافي الشريف: وَبِإِسْنَادِهِ عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي سَارَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: "لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِناً حَتَّى يَكُونَ خَائِفاً رَاجِياً وَلَا يَكُونُ خَائِفاً رَاجِياً حَتَّى يَكُونَ عَامِلاً لِمَا يَخَافُ وَيَرْجُو"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٨.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٧١.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "إنّ النفوس الرّاجية هي التي تطيع الأوامر الإلهية، لكنّها في الوقت نفسه لا تتكل على طاعتها وأحوالها، لأنّها أدركت عظمة الحقّ جل وعلا، وعرفت أنّ كلّ شيء صغير، وكلّ كمال حقير في قبال هذه العظمة، لذا فهي لا ترى لجميع أعمالها الصّالحة أيّ قيمة في حضرة جلالته كبريائه تعالى، فيكون اتّكّالها على رحمة ذاته المقدّسة ونزول فيضها القدسيّ. أمّا النفوس المغرورة فقد تخلّفت عن جميع الكمالات، ودخلت في صفّ أراذل الحيوانات، وأعرضت غافلةً عن الحقّ تعالى ورحمته، لكنّها تقول بقلقلة اللسان وحده إنّ الله أرحم الرّاحمين وإنّه كريم عظيم"<sup>١</sup>.

"إنّ الرّاجين لا يتهاونون عن العمل بل هم أكثر جدية من غيرهم فيه، ولكنّهم . في الوقت نفسه . لا يتكلمون على عملهم، بل يتكلمون على الحقّ تعالى وهم يعملون، لأنّهم يرون قصورهم وسعة الرّحمة الإلهية معاً. في حين أنّ حال المغرورين كحال الذين ينشغلون باللهو واللعب في أيّام بذر البذور والحراث والزراعة، ويقضون هذه الأيّام بالكسل والدعة، ثمّ يقولون: الله كريم عظيم وهو يعطي المحصول حتّى دون بذر البذور، أمّا الرّاجون فحال المزارع الذي يقوم جاداً بعمل الزراعة في أيّامه المناسبة فيحراث ويذر البذور ويسقي لكنّه يطلب نموّ البذور وظهور الثّمار والمحصول من الحقّ تعالى ويراهما منه عزّ وجل"<sup>٢</sup>.

#### من أين ينشأ الرّجاء؟

لطالما تحدّث الإمام قدس سره عن الفطرة أو العقل الفطريّ، وقد شرحنا في العديد من الفصول ما يتعلّق بمعانيها المتناسبة مع الأبحاث الأخلاقية. ومع كلّ خُلُقٍ جديد أو فضيلة محمودة تتجلّى لنا الفطرة أكثر، وكأنّ كلّ كمال معنويّ ليس سوى بُعد من أبعاد الفطرة. كما أنّ العقل الذي يميّز بين الكمال والتّقص من لوازم الفطرة. وبدونها تغدو التّوجّهات الفطريّة عمياء لا تحتدي إلى مصاديق الكمال أبداً.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٣٠-١٣١.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٣١-١٣٢.

## ١ - الإيمان

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "ثلاث من كنّ فيه فقد أكمل الإيمان العدل في الغضب والرّضا والقصد في الفقر والغنى واعتدال الخوف والرّجاء"<sup>١</sup>.

## ٢ - العقل المنوّر

"اعلم أنّ الرجاء الوثيق والأمل الكامل بالحقّ تعالى ورحمته الواسعة نتيجة حتميّة لإدراك العقل - بنور فطرته وصفاء طينته ومعرفته الذوقية المعنوية العرفانية . حقيقة أنّ الحقّ جلّ وعلا كامل مطلق، فلا سبيل للتّحديد والتقييد . وهي من النقائص الإمكانية . إلى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله، لذا فإنّ مجاري تجلّيات رحمة ذاته المقدّسة لا يحدّها حدّ، ولا يقيدها قيد"<sup>٢</sup>.

## ٣ - الفطرة الصّافية

"لأنّ الفطرة تدعو العقل إلى الكامل المطلق والرّحمة الواسعة على الإطلاق، فإنّها توصله إلى الرّجاء الكامل، وإذا احتجبت الفطرة عن نورانيّتها الأصليّة، حجبت عن الحقّ تعالى وكمالاته الذاتيّة والصّفاتيّة وسعة رحمة ذاته المقدّسة، وقد يصل الاحتجاب أحياناً درجة اليأس من رحمة الحقّ تعالى. إذن اتّضح أنّ الرّجاء من الأمور الفطريّة في حين أنّ القنوط ناتج من الاحتجاب عن الفطرة المخمّرة، فهو خلاف ما تقضيه هذه الفطرة. ومبدأ الرّجاء حسن الظنّ بالله تعالى. في حين أنّ مصدر القنوط من رحمة الله هو سوء الظنّ بذاته المقدّسة جلّ وعلا. وإن كان مصدر حسن الظنّ العلم بسعة الرّحمة الإلهيّة، والإيمان بالكمال الأسمائي والصّفاقي الفعليّ. ومصدر سوء الظنّ والجهل بذلك، فهما يرجعان بالتّالي إلى معرفة الدّات المقدّسة، والجهل بها"<sup>٣</sup>.

إدّاً، "فإنّ الرّجاء والطّمع بالدّات المقدّسة والانقطاع عن الخلق والتعلّق بالحقّ تعالى، من لوازم الفطرة المخمّرة السليمة، وقد مدحهما الله والمعصومون عليهم السلام: قال الله

<sup>١</sup> تصنيف غرر الحكم، ٨٨.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٢٨.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ص ١٢٨-١٢٩.

تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>١</sup>. وقال في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾<sup>٢</sup>.

#### ٤ - معرفة الله وتوحيده

"إنَّ الرَّجَاءَ بِالْحَقِّ تَعَالَى وَالطَّمَعِ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ وَالتَطَلُّعِ إِلَى يَنَابِيعِ فَيْضِ ذَاتِهِ الْمَقْدَّسَةِ، هِيَ مِنْ شَعْبِ التَّوْحِيدِ، وَمِنْ مَقْتَضِيَّاتِ الْفِطْرَةِ الْمُخَمَّرَةِ إِلَهِيًّا"<sup>٤</sup>. فالتَّوْحِيدُ، الَّذِي هُوَ حِصْنُ اللَّهِ الْأَكْبَرِ، يَتَجَلَّى بِالرَّجَاءِ.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "إنَّ الرَّجَاءَ بِالْحَقِّ تَعَالَى وَالطَّمَعِ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ وَالتَطَلُّعِ إِلَى يَنَابِيعِ فَيْضِ ذَاتِهِ الْمَقْدَّسَةِ، هِيَ مِنْ شَعْبِ التَّوْحِيدِ، وَمِنْ مَقْتَضِيَّاتِ الْفِطْرَةِ الْمُخَمَّرَةِ إِلَهِيًّا"<sup>٥</sup>.

#### أهم موانع الرجاء

##### ١ - التوجّه إلى الدنيا

يقول الإمام الخميني قدس سره: "أمّا إذا توجّه (الإنسان) إلى الشجرة الخبيثة المنهي عنها، حصل عنده بمقدار هذا التوجّه تقييد وتحديد في الأسماء والصفات والأفعال الإلهية، وبالتالي أصابه الجهل بسعة الترجمة الإلهية، إلى أن يصل به الحال (مع اشتداد التوجّه هذا) إلى الخروج بالكامل عن الفطرة، وغلبة أحكام الحجاب عليه، فتستولي الكدورات والظلمة، على مرآة قلبه إلى حدّ حرمانه من عوالم الغيب وتجليات الأسماء والأفعال الإلهية، فيحتجب عن انعكاس التجليات الرحمانية، ويغلب عليه حكم اليأس والقنوط إلى درجة يعزل نفسه معها عن رحمة الحقّ تعالى الواسعة، وهذه هي غاية الخذلان. نعوذ بالله منه"<sup>٦</sup>.

##### ٢ - الاعتماد على الأعمال لنيل التّوابع

يقول الإمام قدس سره: "وفي الكافي الشريف: أيضاً مستنداً عن الإمام الباقر عليه السلام

<sup>١</sup> سورة الأعراف، الآية ٥٦.

<sup>٢</sup> سورة السجدة، الآية ١٦.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٨٥-١٨٦.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ١٨٦.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ١٨٦.

<sup>٦</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٢٩.

قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله تبارك وتعالى: لا يتكلم العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم أعمارهم في عبادتي كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواربي، ولكن برحمتي فليثقوا وفضلني فليرجحوا وإلى حسن الظنّ بي فليطمئنوا فإنّ رحمتي عند ذلك تدرّكهم ومني يبلغهم رضواني ومغفرتي تلبسهم عفوي فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسمّيت<sup>١</sup>".

### في كيفية تحصيل الرّجاء

#### ١- الاستئان بسنة رسول الله

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾<sup>٢</sup>، فالأسوة حسنة هي لمن كان يرجو الله لا لكل إنسان.

#### ٢- الاطلاع على الآيات والأخبار

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ملاحظة الآيات والأخبار التي تنبئ عما وعد الله تعالى عباده، مما يُحيي كامل الأمل والرّجاء"<sup>٤</sup>.

"فتفكر الآن في الآية الشريفة: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ \* فقولاً له قولاً لئنا لعلّه يتذكّر أو يخشى<sup>٥</sup> فإنها تشقّ طرقاً من المعرفة وأبواباً من الرّجاء والأمل لقلب الانسان"<sup>٦</sup>.

#### ٣- التوجّه إلى الله تعالى

"إذا لم يحجب الإنسان نفسه عن الحقّ تعالى بالتوجّه إلى شجرة الطّبيعة الخبيثة، تجلّت فيه بهذا الصّفاء الباطني انعكاسة حضرات الأسماء دون تحديد أو تقييد، وهذا التّجلي يثمر التعلّق القلبي والأنس والأمل، وهذا هو في الواقع الرّجاء الوثيق والأمل المستقرّ"<sup>٧</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٧١.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٣٣.

<sup>٣</sup> سورة الأحزاب، الآية ٢١.

<sup>٤</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٦٢.

<sup>٥</sup> سورة طه، الآيات ٤٣ - ٤٤.

<sup>٦</sup> معراج السالكين، ص ٢٤٦.

<sup>٧</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٢٩.

#### ٤- الاطلاع على مظاهر الرحمة

"والسالك لا بد له أن يفهم قلبه في جميع فصول الأذان والإقامة عظيمة المحضر والحضور والحاضر ويجعل ذل نفسه وعجزها وقصورها نصب عينيه حتى يحصل الخوف والخشية، ومن الجانب الآخر لا بد أن يريه الرحمة الواسعة والألطف الكريمة حتى يحصل له الرجاء والشوق".<sup>١</sup>

#### موعظة

عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَرَأَ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: "وَعَزَّيْتِي وَجَلَّالِي وَجَلَّادِي وَارْتَفَاعِي عَلَى عَرْشِي لَأَقْطَعَنَّ أَمَلَ كُلِّ مُؤْمِلٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِي بِالنَّاسِ وَلَا كَسُونَهُ تَوْبَ الْمَدَلَّةِ عِنْدَ النَّاسِ وَلَا تُحَيِّنُهُ مِنْ قُرْبِي وَلَا تُبَعِّدَنَّهُ مِنْ فَضْلِي أَيْؤَمِّلُ غَيْرِي فِي الشَّدَائِدِ وَالشَّدَائِدُ بِيَدِي وَيَرْجُو غَيْرِي وَيَقْرَعُ بِالْفِكْرِ بَابَ غَيْرِي وَبِيَدِي مَفَاتِيحَ الْأَبْوَابِ وَهِيَ مُعَلَّقَةٌ وَبَابِي مَفْتُوحٌ لِمَنْ دَعَانِي فَمَنْ ذَا الَّذِي أَمَلَنِي لِنَائِبَةٍ فَقَطَعْتُهُ دُونَهَا؟! وَمَنْ الَّذِي رَجَانِي لِعَظِيمَةٍ فَقَطَعْتَ رَجَاءَهُ مِنِّي؟! جَعَلْتُ آمَالَ عِبَادِي عِنْدِي مَحْفُوظَةً فَلَمْ يَرْضَوْا بِحَفْظِي، وَمَلَأْتُ سَمَاوَاتِي مِمَّنْ لَا يَمَلُّ مِنْ تَسْبِيحِي وَأَمْرْتُهُمْ أَنْ لَا يُعْلَمُوا الْأَبْوَابَ بِنَبِيٍّ وَبَيْنَ عِبَادِي فَلَمْ يَتَّقُوا يَقُولِي، أَلَمْ يَعْلَمْ مَنْ طَرَفْتَهُ نَائِبَةً مِنْ نَوَائِبِي أَنَّهُ لَا يَمَلُّكَ كَشْفَهَا أَحَدٌ غَيْرِي إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِي فَمَا لِي أَرَاهُ لَاهِبًا عَنِّي؟! أَعْطَيْتُهُ بِجُودِي مَا لَمْ يَسْأَلْنِي ثُمَّ انْتَزَعْتُهُ عَنْهُ فَلَمْ يَسْأَلْنِي رَدَّهُ وَسَأَلَ غَيْرِي، أَفْتَرَانِي أَوَّلًا بِالْعَطَاءِ قَبْلَ الْمَسْأَلَةِ ثُمَّ أَسْأَلُ فَلَا أُجِيبُ سَائِلِي؟! أُنْجِلُ أَنَا فَيُخَلِّعُنِي عَبْدِي؟! أَوْلَيْسَ الْجُودُ وَالْكَرَمُ لِي؟ أَوْلَيْسَ الْعَفْوُ وَالرَّحْمَةُ بِيَدِي؟ أَوْلَيْسَ أَنَا مَحَلَّ الْأَمَالِ؟ فَمَنْ يَقْطَعُهَا دُونِي أَفَلَا يَحْشَى الْمُؤْمَلُونَ أَنْ يُؤْمَلُوا غَيْرِي فَلَوْ أَنَّ أَهْلَ سَمَاوَاتِي وَأَهْلَ أَرْضِي أَمَلُوا جَمِيعًا ثُمَّ أَعْطَيْتُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِثْلَ مَا أَمَلَ الْجَمِيعَ مَا انْتَفَصَ مِنْ مُلْكِي عُضُو ذَرَّةٍ وَكَيْفَ يَنْقُصُ مُلْكُ أَنَا قِيَمُهُ فَيَا بُؤْسًا لِلْقَانِطِينَ مِنْ رَحْمَتِي وَيَا بُؤْسًا لِمَنْ عَصَانِي وَمَ يَرِاقَتِي!"<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ١٣٦.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٦، وسائل الشيعة ج ١٥، ص ٢١٥.

## المفاهيم الرئيسة

١- إنّ أهميّة الرجاء تكمن في أنّه أهم سلاح لمواجهة الشيطان، فغاية ما يريده الشيطان من غواية الإنسان وتزيين المعاصي له هو إيصاله إلى اليأس من رحمة الله، لهذا يُعدّ الحفاظ على رجاء الله وتقويته في النفس من أقوى أسلحة مواجهة الشيطان.

٢- يوجد علاقة حقيقية بين الرجاء والعمل الصالح، فالنفوس الراجية حقاً هي التي تطيع الله حقاً.

٣- التوحيد، الذي هو حصن الله الأكبر، يتجلّى بالرجاء.

٤- ينشأ الرجاء من:

- معرفة الله وتوحيده والإيمان به.

- العقل: الرجاء الوثيق والأمل الكامل بالحقّ تعالى ورحمته الواسعة نتيجة حتميّة لإدراك العقل حقيقة أنّ الحقّ جلّ وعلا كامل مطلق.

- الفطرة: لأنّ الفطرة تدعو العقل إلى الكامل المطلق والرحمة الواسعة على الإطلاق، فإنّها توصله إلى الرجاء الكامل.

٥- إنّ السبيل لتحصيل الرجاء يكون بـ:

- الاستئنان بسنة رسول الله.

- الاطلاع على الآيات والأخبار: التي تنبئ بما وعد الله عباده.

- التوجّه إلى الله تعالى: إذا لم يحجب الإنسان نفسه عن الحقّ تعالى، تجلّت فيه بهذا الصفاء الباطني انعكاسة حضرات الأسماء دون تحديد أو تقييد، وهذا التجلّي يثمر التعلّق القلبي والأنس والأمل، وهذا هو الرجاء الوثيق والأمل المستقر.

- الاطلاع على مظاهر رحمته.

٦- أهم موانع الرجاء:

- التوجّه إلى الدّنيا: حيث يحصل عند الإنسان بمقدار هذا التوجّه تقييد وتحديد في الأسماء والصفات والأفعال الإلهيّة، وبالتالي الجهل بسعة الرحمة الإلهيّة الذي يوقع الإنسان في اليأس والقنوط.

- الاعتماد على الأعمال.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا مَنْ إِذَا سَأَلَهُ عَبْدٌ أَعْطَاهُ وَإِذَا أَمَلَ مَا عِنْدَهُ بَلَغَهُ مُنَاهُ وَإِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ قَرَّبَهُ وَأَذْنَاهُ وَإِذَا جَاهَرَهُ بِالْعَصِيَانِ سَتَرَ عَلَيْهِ وَعَطَّاهُ وَإِذَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَبَهُ وَكَفَّاهُ، إِلَهِي مَنْ الَّذِي نَزَلَ بِكَ مُلْتَمِسًا قِرَاكَ فَمَا قَرَّبْتَهُ وَمَنْ الَّذِي أَنْحَا بِبَابِكَ مُرْتَجِيًا نَدَاكَ فَمَا أَوْلَيْتَهُ أَيُّخَسُنُ أَنْ أَرْجِعَ عَنْ بَابِكَ بِالْحَيْبَةِ مَصْرُوفًا وَلَسْتُ أَعْرِفُ سِوَاكَ مَوْلَى بِالْإِحْسَانِ مَوْصُوفًا كَيْفَ أَرْجُو غَيْرَكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدِكَ وَكَيْفَ أُوْمَلُّ سِوَاكَ وَالْخَلْقُ وَالْأَمْرُ لَكَ أَفْقَطُ رَحَائِي مِنْكَ وَقَدْ أَوْلَيْتَنِي مَا لَمْ أَسْأَلْهُ مِنْ فَضْلِكَ أَمْ تُفْقِرُنِي إِلَى مِثْلِي وَأَنَا أَعْتَصِمُ بِحَبْلِكَ، يَا مَنْ سَعَدَ بِرَحْمَتِهِ الْقَاصِدُونَ وَلَمْ يَشَقَّ بِنِعْمَتِهِ الْمُسْتَغْفِرُونَ كَيْفَ أَنْسَاكَ وَلَمْ تَزَلْ ذَاكِرِي وَكَيْفَ أَلْهُو عَنْكَ وَأَنْتَ مُرَاقِبِي، إِلَهِي بِذَيْلِ كَرَمِكَ أَعْلَقْتُ يَدِي وَلِنَيْلِ عَطَائِكَ بَسَطْتُ أَمْلِي فَأَخْلَصْنِي بِخَالِصَةِ تَوْجِيدِكَ وَاجْعَلْنِي مِنْ صَفْوَةِ عِبِيدِكَ يَا مَنْ كُلُّ هَارِبٍ إِلَيْهِ يَلْتَجِي وَكُلُّ طَالِبٍ إِلَيْهِ يَرْجُو يَا خَيْرَ مَرْجُوٍّ وَيَا أَكْرَمَ مَدْعُوٍّ وَيَا مَنْ لَا يُرَدُّ سَائِلُهُ وَلَا يُحْيَبُ أَمَلُهُ يَا مَنْ بَابُهُ مَفْتُوحٌ لِدَاعِيهِ وَحِجَابُهُ مَرْفُوعٌ لِرَاجِعِهِ أَسْأَلُكَ بِكَرَمِكَ أَنْ تَمَنَّ عَلَيَّ مِنْ عَطَائِكَ بِمَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنِي وَمِنْ رَحَائِكَ بِمَا تَطْمَئِنُّ بِهِ نَفْسِي وَمِنْ الْيَقِينِ بِمَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيَّ مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا وَتَجْلُو بِهِ عَنْ بَصِيرَتِي غَشَاوَاتِ الْعَمَى بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ<sup>١</sup>.

### الآيات الكريمة:

١- ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾<sup>٢</sup>.

٢- ﴿وَلَوْ يُعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِي إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَبَدَّرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْجَهُونَ﴾<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الإمام السجّاد، الصحيفة السجّادية، مناجاة الراجين.

<sup>٢</sup> سورة النساء، الآية ١٠٤.

<sup>٣</sup> سورة يونس، الآية ١١.

٣- ﴿وَإِذَا تُنذِرَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّمَا يَنْتَظِرُونَ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلٌ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِي إِنَّ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَِّّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾<sup>١</sup>.

٤- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾<sup>٢</sup>.

### الروايات الشريفة:

١- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "أعظم البلاء انقطاع الرجاء"<sup>٣</sup>.

٢- عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: "كُنْ لِمَا لَا تَرْجُو أَرْجَىٰ مِنْكَ لِمَا تَرْجُو فَإِنَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَهَبَ لِيَقْتَبِسَ لِأَهْلِهِ نَارًا فَأَنْصَرَفَ إِلَيْهِمْ وَهُوَ نَبِيُّ مُرْسَلٍ"<sup>٤</sup>.

٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "من يكن الله أمله يدرك غاية الأمل والرجاء (ونهاية الرجاء)"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> سورة يونس، الآية ١٥.

<sup>٢</sup> سورة الإسراء، الآية ٥٧.

<sup>٣</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٨٣.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ٥، ص ٨٣.

<sup>٥</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٨٣.



## الدرس الثاني والعشرون: التوكل (١) - حقيقة التوكل وأركانه

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرف إلى المعنى الدقيق للتوكل.
- ٢- يميز التوكل عن الرضا والثقة والتفويض.
- ٣- يشرح أركان التوكل.



## تمهيد

لما كان الإيمان بالله تعالى روح الارتباط التسليم به وأساس كلّ الخيرات فذلك لأنّه بالإضافة إلى قيامه على المعرفة التي تُعدّ هدفاً لسلوك الإنسان فإنّه مصحّح لعمل الإنسان وسعيه أيضاً.

إنّ الوسيلة الوحيدة التي يحتاج إليها المخلوق في هذه الحياة الدّنيا هي ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾<sup>١</sup>. فهنا أرض العمل، ولا يمكن نيل أيّ كرامة إلّا به.

الكثير من النّاس يحبط عملهم ولا يصلون إلى أيّ نتيجة لأنهم لم يعرفوا الأعمال المطلوبة، ف ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾<sup>٢</sup>.

إنّ الإيمان هو الذي يدلّ الإنسان على الأعمال التي يحتاج إليها للوصول إلى الغاية المنشودة وهي السعادة الأبدية والكمال الحقيقي. وإنّ من أركان الإيمان وعلائمه المؤكّدة والتي لها صلة وثيقة بتصحيح مساره: التوكّل على الله. فما هو التوكّل؟ وكيف نصبح من المتوكّلين.

## ما هو التوكّل؟

إنّ كلّ من يتدبّر النصوص الإسلامية في الكتاب والسنة يلتفت إلى عظمة التوكّل وشدّة الاهتمام به، وكفاه أهميّة أنّه جعل من علامات الإيمان الذي لا قبول للأعمال إلّا به. بيد أنّ التوكّل قد تعرّض للكثير من التحريف لأسباب عديدة:

<sup>١</sup> سورة التّجم، الآية ٣٩.

<sup>٢</sup> سورة الكهف، الآية ١٠٤.

منها: رغبة الظالمين وحكومات الجور بإخماد النشاط الإنسانيّ البناء لكي لا يصطدم مع مآربها وأهدافها المشؤومة. فسعى هؤلاء من خلال عملائهم من وعاظ السلاطين إلى تفسير التوكّل بطريقة تنتهي إلى القعود والجمود والاكتفاء بالحدّ الأدنى من السعي والنشاط.

ومنها: دقة أمر التوكّل وابتناؤه على المعرفة العميقة والأصيلة، الأمر الذي لا يتوفّر إلا في ظلّ الارتباط بالمفسّرين الحقيقيين للإسلام.

وقد منّ الله علينا في هذا الزمان بشخصية ورثت علوم الأولياء وقدمتها لنا بصورة رائعة استطاعت أن تخترق حواجز التعقيد والغربة والتسطيح الفكريّ، وامتلكت الشجاعة الكافية لعرض المفاهيم العميقة بأسلوبٍ مبسّط وسهل، وكان منها قضية التوكّل التي سنستمع إلى أهمّ أبعادها على لسان وبيان الإمام الخمينيّ قدس سره.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "اعلم أنّ التعاريف المذكورة للتوكّل في كتب اللغة وأخبار العلماء وآثارهم وكلماتهم، متقاربة المعاني، فلا حاجة لصرف الوقت في تتبع الكثير منها، لذا نكتفي بالإشارة إلى بعضها. والظاهر أنّ معناه . كما تدلّ عليه مشتقاته . تولية الأمر لمن يعتمد عليه المرء لأنّه يرى عجزه عن القيام به، ومنه الوكالة والتوكيل . من هنا فلعلّ ما ذكره علماء اللغة مثل الجوهريّ في الصحاح وغيره من أنّ "التوكّل إظهار العجز والاعتماد على غيرك"، هو من باب تفسير الأمر بمقتضاه، ويمكن أن يكون أصله بمعنى العجز، مثل قولهم: "رجلٌ وكيّلٌ . بالتحريك . وكيّلةٌ مثل همزة: أي عاجز يكلّ أمره إلى غيره"، وإيكال الأمر إلى الغير مقتضى العجز عنه. ويقول بعض أهل المعرفة: "التوكّل كلة الأمر كلّه إلى مالكه والتعويل على وكالته"، وقال بعضهم "التوكّل على الله: انقطاع العبد إليه في جميع ما يأمله من المخلوقين"، وقال بعض العرفاء: "التوكّل طرح البدن في العبوديّة وتعلّق القلب بالربوبية"<sup>1</sup>.

### الفرق بين التوكّل والرضا

ولأجل توضيح معنى التوكّل أكثر يقارنه الإمام قدس سره مع غيره من المفاهيم المتقاربة كالرضا والتفويض والثقة، فيقول: "اعلم أنّ مقام "الرضا" غير مقام "التوكّل"، وهو أسمى

<sup>1</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٨٨-١٨٩.

منه وأرفع. وذلك لأنّ المتوكّل يطلب الخير والصّلاح لنفسه، فيوكل الحقّ تعالى، بصفته فاعل الخير، للحصول على الخير والصّلاح. أمّا الشّخص "الراضي" فيكون قد أفنى إرادته في إرادة الله، فلا يختار لنفسه شيئاً<sup>١</sup>.

### الفرق بين التوكّل والتفويض

"اعلم أنّ "التفويض" أيضاً غير التوكّل، وأنّ "الثقة" غيرهما. ولذلك فقد أشير إليهما في مقامات السّالكيين بصورة منفصلة. يقول الخواجة عبد الله الأنصاري: "التّفويضُ الطّفُ إشارةٌ وأوسعُ معنىٌ مِنَ التوكّلِ ثُمَّ قَالَ: التوكّلُ شُعْبَةٌ مِنْهُ".

وذلك لأنّ التفويض هو أن لا يرى العبد في نفسه حولاً ولا قوّة، ولا يجد أنّ له التصرف في شيء، ويرى الحقّ تعالى هو المتصرف في كلّ الأمور.

أمّا في التوكّل فليس الأمر كذلك، لأنّ المتوكّل يجعل الحقّ سبحانه قائماً مقامه في التصرف واحتلاب الخير والصّلاح. وأمّا أنّ التفويض أوسع، لأنّ التوكّل فرعٌ منه، لأنّ التوكّل يكون في المصالح والتفويض يكون في الأمور كافّة. ولأنّ التوكّل لا يكون إلّا بعد وقوع سبب يستوجبه، أي عند وجود أمر يتوكّل فيه العبد على الله، مثل توكّل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه على الله في أن يحفظهم من المشركين، حينما قيل لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

وأما التفويض فيكون قبل وقوع السبب، كما جاء في الدعاء: المرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، وَقَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ"، وقد يكون بعد وقوع السبب، مثل تمثيل مؤمن آل فرعون. إنّ ما ذكرناه يكون حاصل ترجمة شرح العارف المعروف "عبد الرزاق الكاشاني" للتوكّل والتفويض مأخوذاً من كلام العارف الكامل "الخواجة عبد الله" مع شيء من الاختصار وفي كلام الخواجة ما يدلّ على ذلك. ولكن في اعتبار التوكّل شعبة من التفويض يستدعي التّطرّف. كما أنّ جعل التفويض من التوكّل مسامحة واضحة. وكذلك ليس ثمة دليل على أنّ التوكّل يقع بعد وقوع السبب. إذ في كلتا الحالتين قبل وبعد وقوع السبب يصحّ معنى التوكّل<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٥١.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٢٥١-٢٥٢.

## الفرق بين التوكّل والثقة

"أما "الثقة" فهي غير "التوكّل" و"التفويض"، كما يقول الخواجة: "الثقة سواد عَيْن التوكّل، ونُقْطَةُ دَائِرَةِ التَّفْوِيضِ، وَسُوْدَاءُ قَلْبِ التَّسْلِيمِ". أي أنّ المقامات الثلاثة لا تحصل من دون "ثقة"، بل إنّ روح تلك المقامات هي الثقة بالله تعالى. فما لم يثق العبد بالحقّ تعالى، لا يمكن أن ينالها. فتبين السرّ في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بعد التوكّل والتفويض، "ثِقْ بِهِ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا"<sup>١</sup>.

## أركان التوكّل

وسوف يتعمّق معنى التوكّل ويزداد تبلوره عند الحديث عن أركانه ودرجاته ويذكر الإمام للتوكّل أركاناً منها:

١- أنّ الحقّ تعالى عالمٌ بحاجات العباد.

٢- وأنه قادر على تلبية تلك الحاجات.

٣- وأنه ليس في ذاته المقدّسة بخل.

٤- وأنه رحيم بالعباد ورؤوف بهم<sup>٢</sup>.

"إذًا، فالتوكّل قائمٌ على هذه الأركان الأربعة. ولا يكفي هنا مجرد الاعتقاد والعلم بها، بل المطلوب هو الإيمان بها ولذلك قلنا: إنّ الإيمان . (وليس العلم) . بهذه الأركان الأربعة هو باب التوكّل"<sup>٤</sup>.

"وروي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، قال الراوي: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾<sup>٥</sup>، فقال: "التوكّل على الله درجات، منها أن تتوكّل على الله في أمورك كلّها، فما فعل بك كنت عنه راضيًا، تعلم أنّه لا يألوك خيرًا وفضلًا، وتعلم أنّ الحكم في ذلك له، فتوكّل على الله بتفويض ذلك إليه، وثق به فيها وفي غيرها"<sup>٦</sup>.

١ الكافي، ج ٢، ص ٦٥.

٢ الأربعون حديثًا، ص ٢٥٣.

٣ (ن.م)، ص ٢٥٠.

٤ جنود العقل والجهل، ص ١٩٠.

٥ سورة الطلاق، الآية ٣.

٦ الكافي، ج ٢، ص ٦٥.

ذكر عليه السلام في هذا الحديث الشريف ركنين من أركان التوكل يصعب الاعتقاد بهما:

**الأول:** أن يعرف الإنسان أنّ الله تعالى لا يقصّر في إيصال الفضل والخير إليه.

**الثاني:** أن يفوض زمام أموره جميعًا إلى الحقّ تعالى إيمانًا منه بأنّه جلّ وعلا صاحب القدرة الكاملة المحيطة وبيده مجاري جميع الأمور.

بل ولعلّه عليه السلام قد أشار بذلك، بل صرّح بجميع أركان التوكل، لأنّ مقتضى الإيمان بأنّ مجاري الأمور جميعًا بيده جلّ وعلا، هو الإيمان بأنّه عالم بها جميعًا، ومقتضى الإيمان بأنّه لا يقصّر في حقّ عبده، الإيمان بأنّه تبارك وتعالى منزّه عن البخل والمنع<sup>١</sup>.

"ولا يتحقّق التوكل والاعتماد على الوكيل، إذا احتلّ الإيمان بأحد هذه الأمور كأنّ يحتمل الموكل الجهل في الوكيل وعدم معرفته بما يحتاجه، أو أن يطمئنّ إلى علمه بذلك لكنّه يحتمل عجزه عن تلبية حاجاته، أو أن يطمئنّ إلى علمه وقدرته لكنّه يحتمل فيه البخل، أو أن يطمئنّ إلى علمه وقدرته وعدم بخله ولكن لا يطمئنّ إلى شفقتة ورحمته ومحبتة له، فلا يعتمد عليه حينئذٍ أيضًا"<sup>٢</sup>.

### التوكل والسعي

تظهر الثمرة الكبرى للتوكل في السعي والتكسب. هذا وبالرغم من أنّ التوكل قد جعل على أيدي الجاهلين والمغرضين سببًا للتقصير والتكاسل. وقد سمّاه البعض هنا بالتواكل لا التوكل، يقول الإمام الحميني قدس سره: "إنّ المقولة القائلة بأنّ التوكل لا يتنافى مع العمل والتكسب، صحيحة، بل هي مطابقة للبرهان وللنقل، ولكن الاحتجاج عن ربويّة الحقّ وتصريفه للأمور واعتبار الأسباب مستقلة، يتنافى والتوكل"<sup>٣</sup>.

"ينبغي التنبّه إلى أنّ التوكل لا ينافي الكسب، بل إنّ ترك الكسب والتصرّف بعلّة التوكل هو من التقصان والجهل، لأنّ التوكل ترك الاعتماد على الأسباب وإرجاعها إلى مسببها، لذلك فهو لا ينافي الوقوع في الأسباب. وما ذكره بعضهم من أنّ إحدى درجات التوكل التي

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٠٨.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٠٩.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثًا، ص ٢٤٩.

هي درجة توكل الخاصة، هي أن يسيح الإنسان في البراري دون زاد ولا راحلة معتمداً على الله لكي يصحح مقام التوكل، وما نقلوه من أنّ الحسين بن منصور لقي إبراهيم الخواص وهو في بعض طرق البوادي فسأله عن حاله فقال: "أدور في الصحاري وأطوف في البراري حيث لا ماء ولا شجر ولا روض ولا مطر، هل يصحّ حالي في التوكل أم لا؟" فقال الحسين: إذا أفنيت عمرك في عمران باطنك، فأين الفناء في التوحيد؟ نقول إنّ هذا القول يكشف عن جهل هذين الرجلين بمقامي التوحيد والتوكل، لأنهما خلطوا بين السياحة في البوادي والدروشة، ومقام التوكل وعدلاً ترك السعي وتعطيل القوى التي حبا الحقّ تعالى الإنسان بها، زعم أنّ التوحيد والتوكل يقتضيان ذلك. وهذا ناشئ من الجهل بمقامي التوحيد والتوكل، لأنّ حقيقة التوحيد هي الإدراك الشهودي لكون جميع التصرفات الخلقية هي من الحقّ جلّ وعلا، ومشاهدة جماله الجميل جلّ وعلا، في مرآة الكثرة، أجل الاحتجاب بالكثرة مخالف للتوحيد، وهذا لا يؤثّر عليه الطواف في البراري أو عدم الطواف<sup>1</sup>.

## علاقة الناس بالتوكل

### ١- مدعو التوكل

يقول الإمام قدس سره: "إنّ الناس في معرفة الربوبية مختلفون متباينون إلى حدّ كبير: فالموحدون عموماً يعرفون أنّ الحقّ تعالى هو خالق مبادئ الأمور، وكليات الجواهر، وعناصر الأشياء، ويرون بأنّ تصرفه محدود، ولا يقولون بإحاطته بالربوبية. فهؤلاء تراهم تارة يقولون: مقدّر الأمور حقّ؟ وهو المتصرف في كلّ شيء، فما من كائن يكون إلا بإرادته المقدّسة. ولكنهم ليسوا أصحاب هذا المقام، لا علماء، ولا إيماناً، ولا شهوداً، ولا وجداناً.

إنّ هذا الفريق من الناس. والظاهر أنّنا منهم. ليس لهم علم كامل بربوبية الله بل يكون توحيدهم ناقصاً، حيث حجبت عنهم ربوبية الحقّ وسلطنته لعلل وأسباب ظاهرة، وليس لهم مقام التوكل وهو ما يدور كلامنا عليه إلا لفظاً وادعاءً. لهذا، فإنهم في الأمور الدنيوية لا يعتمدون على الحقّ سبحانه بأيّ شكل من الأشكال، ولا يتشبّهون إلا بالأسباب

<sup>1</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٠١-٢٠٢.

الظاهريّة والمؤثّرات الكونيّة، وإذا ما اتّفق أحياناً أن توجّهوا إلى الحقّ تعالى وطلبوا منه حاجة أو رجوا منه رجاءً، فذلك من باب التّقليد أو من باب الاحتياط، لأنّهم لا يرون في ذلك ضرراً عليهم، بل ربّما يحتلمون فيه الفائدة. وفي هذه الحال توجد رائحة التوكّل. ولكنّهم إذا رأوا الأسباب الظّاهرة ملائمة ومطابقة لأهوائهم، غفلوا كليّاً عن الله تعالى وعن تصريفه للأمر.

إنّ هؤلاء الذين لا يتمسّكون حتّى بأدنى درجات التوكّل في أعمالهم الدنيويّة، يتحدّثون فيما يتعلّق بالأمر الأخرويّة عن التوكّل بزهوٍ ومباهاة، وإذا ما ظهر منهم أيّ تهاون وضعف وكسل في العلم أو في تهذيب النفس والعبادات والطّاعات، بادروا إلى إظهار اعتمادهم وتوكّلهم على الحقّ تعالى وفضله، وكأنّهم يريدون بمجرّد تلقّظهم بأنّ "الله عظيم" و"إننا متوكّلون على فضل الله" أن ينالوا الدّرجات الأخرويّة! فإنّهم يقولون في الشّؤون الدنيويّة: إنّ السّعي والعمل لا يتنافيان مع التوكّل على الله، وفي الأمور الأخرويّة يرون السّعي والعمل ينافيان الاعتماد والتوكّل عليه. وما هذا إلّا من مكائد النفس والشيطان. فهؤلاء ليسوا متوكّلين على الله، لا في الأمور الدنيويّة ولا في الأمور الأخرويّة، ولا هم يعتمدون عليه في أيّ أمر من الأمور. ولكنّهم، لاهتمامهم بالأمر الدنيويّة يتشبّهون بالأسباب، دون الاعتماد على الحقّ تعالى وتصريفه للشّؤون في العالم. وعلى العكس من ذلك، فهم، لعدم اهتمامهم بأمر الآخرة، وعدم إيمانهم إيماناً صادقاً بيوم المعاد وتفصيله، يصطنعون لذلك الأعذار. فمِرّة يقولون: "الله عظيم" ومِرّة يظهرون الاعتماد على الله وعلى شفاعته الشّفاء، مع أنّ هذا كلّه ليس سوى لقلقة لسان لا أساس لها من الحقيقة في شيء<sup>١</sup>.

## ٢- المعتقدون عقلياً بالتوكّل

"وثمة فريق آخر من النّاس اقتنعوا، إمّا بالبرهان وإمّا بالنقل، وصدّقوا بأنّ الحقّ تعالى هو مقدرّ الأمور، ومسبّب الأسباب، والمؤثّر في الوجود، ولا حدود لقدرته وتصرفه. هؤلاء يتوكّلون على الله سبحانه عن طريق العقل، أي أنّ أركان التوكّل تامّة عندهم، بحسب الأدلة العقليّة والنقليّة ولهذا فهم يرون أنفسهم من المتوكّلين، ويقيمون الدليل أيضاً على لزوم

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٤٨-٢٤٩.

التوكل، لأنهم أثبتوا أركان التوكل... إذاً، يجب التوكل على عالمٍ قديرٍ كريمٍ رحيمٍ بالعباد قائمٍ بمصالحهم، لا يفوت عليهم شيئاً فيها، حتى وإن لم يميزوا هم بين ما ينفعهم وما يضرهم. هؤلاء وإن كانوا من المتوكلين عملياً، إلا أنهم لم يبلغوا مرتبة الإيمان. فهم لهذا مضطربون في اتخاذ أمر من أمورهم، وعقولهم مغلوبة في الصراع مع قلوبهم، لأنهما بالأسباب متعلّقة، وعن تصرف الحق سبحانه في الأشياء محجوبة<sup>١</sup>.

### ٣- المعتقدون قلبياً بالتوكل

"أما الطائفة الثالثة، فهم الذين توصلوا بقلوبهم إلى معرفة تصرف الحق تعالى في الكائنات، فأمنت تلك القلوب بأن مقدر الأمور، والسّلطان ومالك الأشياء، هو الحق تعالى، وكتبوا بقلم العقل على ألواح القلوب أركان التوكل. هؤلاء هم أصحاب مقام التوكل. غير أنّ هؤلاء أيضاً يختلفون من حيث مراتب الإيمان ودرجاته اختلافاً كبيراً، قبل أن يصلوا إلى درجة الاطمئنان الكامل. وعند ذاك تظهر في قلوبهم درجة التوكل الكاملة، ولا تتعلّق بالأسباب، بل تتشبّه بمقام الربوبية، فتطمئن إليه وتعتمد عليه، وكلّ ما قلناه يعود إلى ما إذا كان القلب في مقام الكثرة الأفعالية، وإلا فإنه يتجاوز مقام التوكل ويخرج عن المقصود"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٤٩-٢٥٠.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٢٥٠.

## المفاهيم الرئيسة

١- التَّوَكَّلُ من علامات الإيمان الذي لا قبول للأعمال إلا به.

٢- الفرق بين الرّاضي والمتوكِّل هو أنّ المتوكِّل يطلب الخير والصّلاح لنفسه فيوكِّل الحقّ تعالى بصفته فاعل الخير للحصول على الخير والصّلاح. أمّا الشّخص "الراضي" فيكون قد أفنى إرادته في إرادة الله، فلا يختار لنفسه شيئاً.

٣- الفرق بين التفويض والتوكِّل هو أنّ في التفويض لا يرى العبد في نفسه حولاً ولا قوّة، ولا يجد أنّ له التصرّف في شيء، ويرى الحقّ تعالى هو المتصرّف في كلّ الأمور، في حين أنّ في التوكِّل الأمر ليس كذلك. والتوكِّل يكون في المصالح والتفويض يكون في الأمور كافّة.

٤- إنّ التوكِّل والتفويض والتسليم مقامات لا تحصل من دون "ثقة"، بل إنّ روح تلك المقامات هي الثقة بالله تعالى.

٥- الإيمان بالأركان الأربعة التالية هو باب التوكِّل: ١. أنّ الحقّ تعالى عالمٌ بحاجات العباد، ٢. وأنّه قادر على تلبية تلك الحاجات، ٣. وأنّه ليس في ذاته المقدّسة بخل، ٤. وأنّه رحيم ورؤوف بالعباد.

٦- ما يتنافى مع التوكِّل هو الاحتجاب عن ربوبيّة الحقّ وتصريفه للأمور واعتبار الأسباب مستقلّة، لا العمل والتكسّب.

٧- النّاس ثلاثة أصناف: ١. مدّعو التوكِّل وهم الذين لا علم كامل لهم بربوبيّة الله، فتوحيدهم ناقص وليس لهم مقام التوكِّل. ٢. المعتقدون بالتوكِّل هؤلاء هم الذين اعتقدوا إمّا بالبرهان وإمّا بالنقل، وصدّقوا بأنّ الحقّ تعالى هو مقدّر الأمور. ٣. أصحاب مقام التوكِّل وهم الذين توصّلوا بقلوبهم إلى معرفة تصرّف الحقّ تعالى في الكائنات.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

يَا مَنْ إِذَا سَأَلَهُ عَبْدٌ أَعْطَاهُ وَإِذَا أَمَّلَ مَا عِنْدَهُ بَلَّعَهُ مِنْهُ وَإِذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ قَرَّبَهُ وَأَذْنَاهُ وَإِذَا جَاهَرَهُ بِالْعَصِيَانِ سَتَرَ عَلَيْهِ وَعَظَّمَهُ وَإِذَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَبَهُ وَكَفَاهُ<sup>١</sup>.

الآيات الكريمة:

١- ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾<sup>٢</sup>.

٢- ﴿قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾<sup>٣</sup>.

٣- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>٤</sup>.

الروايات الشريفة:

١- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا وَلَهُ حَدٌّ، قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَمَا حَدُّ التَّوَكُّلِ؟ قَالَ: الْيَقِينُ؟ قُلْتُ: فَمَا حَدُّ الْيَقِينِ؟ قَالَ: أَلَّا تَخَافَ مَعَ اللَّهِ شَيْئًا"<sup>٥</sup>.

٢- سَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جَبْرَائِيلَ عَنْ تَفْسِيرِ التَّوَكُّلِ، فَقَالَ: "الْيَأْسُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ"<sup>٦</sup>.

٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "التوكل التبري من الحول والقوة وانتظار ما يأتي به القدر"<sup>٧</sup>.

٤- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: "حُسْنُ ظَنِّ الْعَبْدِ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ قَدْرِ رَجَائِهِ لَهُ حُسْنُ تَوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ عَلَىٰ قَدْرِ ثِقَتِهِ"<sup>٨</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، مناجاة الراجين.

<sup>٢</sup> سورة آل عمران، الآية ١٧٣.

<sup>٣</sup> سورة الأعراف، الآية ٨٩.

<sup>٤</sup> سورة الأنفال، الآية ٢.

<sup>٥</sup> الكافي، ج ٢، ص ٥٧.

<sup>٦</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٢١٨.

<sup>٧</sup> غرر الحكم، ص ١٩٦.

## الدرس الثالث والعشرون: التوكل (٢) - منشأ التوكل، آثاره وكيفية تحصيله

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن منشأ التوكل.
- ٢- يشرح العلاقة الحاكمة بين التوكل والإيمان.
- ٣- يتعرّف إلى بعض السبل لتحصيل التوكل.

---

<sup>١</sup> مستدرك الوسائل، ج ١١، ص ٢٥٢.



## تمهيد

بالرغم من كلِّ ما يُقال عن التوكُّل، فإنَّ قارئ القرآن الكريم لا يشكُّ لحظ بآئته من أهمِّ علامات المؤمنين وصفاتهم. وبالرغم من التفسيرات المغلوطة للتوكُّل في الفكر وفي العمل، فإنَّ نوره لم ينطمس في قلب سماء الفضائل والقيم الإسلامية.

ولهذا يسعى المؤمن لمعرفة حقيقة التوكُّل من خلال إدراك منشئه، فيميِّزه عن التواكل والتكاسل والغفلة والبلادة. ويعلم أنَّ التوكُّل من أهمِّ صفات أهل الفهم والعقل.

هناك سيدرك أعظم ما فيه من راحة النفوس وطمأنينة القلب والعزِّ الذي يناله بإدراك فقر المخلوقين وعجزهم.

## من أين ينشأ التوكُّل؟

### ١- الفطرة

"اعلم أنَّ إحدى الحقائق اللطيفة المسجَّلة بقلم القدرة الأزليَّة في فطرة كلِّ إنسان أيُّ أمَّا من مقتضيات الفطرة المخمَّرة السليمة هي فطرة الافتقار، ومعناها أنَّ كلَّ إنسان . دون استثناء، ودون مخالفة أيُّ صاحب رأي من الآراء بهذا الخصوص . يرى نفسه محتاجًا ومفتقرًا، ويرى حقيقته الوجودية متعلِّقة ومرتبطة بغيره، وكلِّ ذلك بحسب الهوية الذاتية وبحسب أصل الوجود وكمال الوجود... ولو فصلنا الحديث في هذه الحقيقة الفطرية وبيَّنا أحكامها ومقتضياتها، لتَّضح ثبوت جميع الأسماء والصفات الموجودة في دار التحقُّق . والتي هي من الكمالات المطلقة للذَّات المقدَّسة . للغني المطلق عزَّ وجل، فيتَّضح حينئذٍ أنَّ من مقتضيات هذه الحقيقة الفطرية الرِّجاء والخوف، والتوكُّل والتسليم، والثقة بهذه الذات المقدَّسة، ونظائر هذه المقامات: إذًا، اتَّضح أنَّ توجَّه الناقص للكمال المطلق بمهدف رفع

التقصّ وسدّ الاحتياج هو من الأمور الفطريّة والجلبّيّة، وعليه فإنّ التّوكّل من جنود العقل ومقتضيات الفطرة المخمّرة<sup>١</sup>.

## ٢- الإيمان

"قال تعالى في سورة الأنفال في صفة المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، (إلى أن قال) ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾. يصرّح الله تعالى في هذه الآيات وعلى نحو الحصر بأنّ المؤمنين هم الذين تتوقّف فيهم الصّفات المذكورة في هذه الآيات، أي أنّ من لم تتوقّف فيهم ليسوا بمؤمنين، ومن هذه الصّفات أنّهم يثقون برّبهم، ويتوكّلون عليه في أعمالهم، وتتعلّق به قلوبهم. وعليه يتّضح أنّ الذين تتوجّه قلوبهم إلى غيره ويعتمدون على غير ذاته المقدّسة جلّ وعلا، ويتطلّعون في أمورهم إلى سواه، ويطلبون الفرج من غيره تعالى، هم فاقدون لحقيقة الإيمان، محرومون من نور الإيمان. فهذه الآية الكريمة والآيات الأخرى المشتملة على المضمون نفسه، تشهد بصحّة ما قلناه من أنّ الإنسان لا يصل إلى مقام التّوكّل وحقيقته إذا لم يصل إلى مرتبة الإيمان"<sup>٢</sup>.

## ٣- العلم والمعرفة

يقول الإمام قدس سره: "اعلم أنّ اختلاف درجات التّوكّل ناشئ من اختلاف مراتب المعرفة بأركانه، فإذا عرفها الإنسان بوسيلة العلم حكم. علمًا وبرهانًا. بوجوب التّوكّل، وقد اتّضح سابقًا أنّ هذه المرتبة لا يمكن أن يصدق عليها معنى التّوكّل، ولكن إذا آمن بالأركان المذكورة فاز بمقام التّوكّل في مرتبته الأولى"<sup>٣</sup>.

"وإذا عرف المؤمن أنّ جميع الأشياء مخلوقة له، وهو مخلوق للحقّ تعالى، وهذا ما يشهد له مقام جامعّيّة الإنسان نفسه الذي تدلّ عليه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ \* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾<sup>٤</sup>، وكذلك الآية الكريمة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾<sup>٥</sup>،

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٠٣-٢٠٤.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٠٥-٢٠٦.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٢٠٠.

<sup>٤</sup> سورة التين، الآيات ٤ و ٥.

<sup>٥</sup> سورة البقرة، الآية ٣١.

وكذلك قول الإمام عليّ عليه السلام في الأشعار المنسوبة إليه: أتزعم أنك جرّمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبر . فجميع موجودات عوالم الغيب والشهادة مخلوقة لإيصال هذا الموجود الشّريف إلى مقامه، وقد ورد في الأحاديث القدسيّة: "يا بن آدم! خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي"<sup>١</sup>، نقول: إذا عرف المؤمن ذلك، وعرف كيف يستفيد من المخلوقات في إصلاح نفسه وإيصالها إلى الكمال اللائق بها، وأدرك أنّ الحقّ جلّ وعلا هو العالم بكيفيّة تسخير المخلوقات في إصلاحه، وعرف بقية أركان التوكّل بنور الإيمان، حينئذٍ يتوكّل على الحقّ تعالى ويتّخذة وكيلاً عنه للوصول إلى هذه الغاية السامية"<sup>٢</sup>.

## ثمار التوكّل

### ١ - الإيمان

مثلما أنّ التوكّل ينشأ من الإيمان، فإنّه يزيد الإيمان أيضاً، يقول الإمام مقدس سره: "وفي مستدرك الوسائل عن كتاب الجعفریات مسنداً لأمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: "الإيمان له أركان أربعة: التوكّل على الله، تفويض الأمر إلى الله، والرّضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله تعالى"<sup>٣</sup>. ينبغي التنبّه إلى أنّ الإيمان هو من جهة ركّنٍ مثل هذه الملكات النفسانيّة والأحوال القلبيّة الفاضلة، كما تقدّم توضيح ذلك، كما أنّ هذه الملكات والأحوال هي من جهة أخرى أركان للإيمان الذي تبقى حقيقته محفوظة بها، أي أنّ الإيمان . في إحدى مراتبه . يثمر هذه الملكات والفضائل، فإذا ظهرت في النفس وترسّخت فيها، نقلته إلى مرتبة إيمانيّة أكمل، تثمر بدورها مرتبة أكمل من تلك الملكات والفضائل، وهكذا فإنّ كل مرتبة تستند إلى المرتبة الأخرى"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> راجع الجواهر السنّيّة في الأحاديث القدسيّة، الحر العامليّ، ص ٧١٠.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٠٠-٢٠١.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٢، ص ٤٧.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٠٩.

## ٢- الغنى والعزة

"ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: "إِنَّ الْغِنَى وَالْعِزَّ يَجُولَانِ فَإِذَا ظَفِرَا بِمَوْضِعِ التَّوَكُّلِ أُوْطِنَا"<sup>١</sup>. أجل، إنَّ الغنى والاستغناء وعزة النفس وكما لها إنما يتحققان بالتوكل على الحق تعالى والثقة به. فالذي يتوجه إلى باب الغنى المطلق لسد فقره، ويتعلق قلبه به تعالى، ويقطع طمعه عن المخلوق الفقير، يحل الاستغناء والغنى عن المخلوق في قلبه ويستوطنان فيه. في حين أن كل فقر وذلة وعجز وممة ناتجة من الحرص والطمع بما في أيدي المخلوق الضعيف، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، أي يقطع عن الطمع بما عند المخلوق، وفي ذلك منتهى عزة النفس وعظمتها وغناها عن الآخرين. ورؤى أيضًا بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: "من أُعطي الشكر أُعطي الزيادة، ومن أُعطي التوكل أُعطي الكفاية". ثم قال عليه السلام: "أتلوت كتاب الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾"<sup>٣</sup>٢.

"إذا توكل أحد على الله تعالى واعتمد عليه فيقطع الطمع عمًا في أيدي الآخرين ويحط رحل حاجته وفقره عند باب الغنى المطلق، ولا يرى سائر الذين هم مثله - فقراء ومساكين - حلالين لمشاكله"<sup>٤</sup>. وقد علمت أن أهم ثمار التوكل تصحيح المنهج العلمي للإنسان في الحياة وتصويب مساره.

## ٣- الشهود

"يقول تعالى في سورة التغابن المباركة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، ونلاحظ هنا أن الآية الكريمة قد ذكرت أولاً كلمة التوحيد الشريفة، ثم أمرت وبصورة مؤكدة بأن يتوكل المؤمنون على الله تعالى. ويمكن أن تكون في ذلك إشارة إلى مرتبة أسمى من المقام الأول، ولهذا فالآية السابقة ذكرت أن من صفات المؤمنين التوكل على الله، في حين أمرت هذه الآية بالتوكل، فلعل في تقديم ذكر كلمة التوحيد إشارة

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٥.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٥.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٠٧-٢٠٨.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ٢١٧.

إلى ما ذكرناه سابقاً من أنه . وبعد تحقّق مرتبة الإيمان وكمال الإيمان . يظهر في قلب السّالك التّجلّي التّوحيديّ الفعليّ فيدرك به السّالك أن لا ألوهية ولا تأثير لأيّ موجود من الموجودات في مملكة الحقّ تعالى، فهو عزّ وجل المتصرّف والمؤثّر الوحيد فيها وفي الأمور جميعاً، فلا يوجد ضارّ أو نافع في العالم غيره تعالى، وبذلك يصل السّالك إلى مرتبة أعلى من التّوكل<sup>١</sup> .

و"عندها تتحلّى مقتضيات ولوازم هذه المعارف في باطن قلبه، ويشعّ في ملكوت النّفس نور التّوكل والتفويض والثّقة بالله تعالى ونظائرها، فينظم الطفل القلبيّ الفتيّ، وينفصل عن ثدي الطبيعة وهي أمه الرضاعية، ويتأهل لتناول الأطعمة الروحيّة المعنويّة غير الطبيعيّة، ثمّ يترقى من منزل المعاملات . والتّوكل منها . إلى منازل آخر، ويقوى كل يوم انفصاله عن الطبيعة ومنزل الدنيا واتّصاله بالحقيقة ومنزل الأنس والقدس والعقبي، ويتحلّى في قلبه أولاً نور التوحيد الأفعاليّ ثمّ يتحلّى قبس من التّوحيد الأسمائيّ والصّفاييّ، وكلّما اشتدّت تجلّيات هذا النور اشتدّ أيضاً اندكاك وانهايار جبل حبّ النّفس والعجب والأناييّة والإنيّة، إلى أن يندك وينهار هذا الجبل بالكامل، ويتحقّق الصّعق الكلّيّ وذلك بالتّجلى التام لربّ الإنسان: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾<sup>٢</sup> .

## في كيفة تحصيل التّوكل

### ١- إدخال أركان التّوكل إلى القلب

"إذن فعلى طالب الوصول إلى مقامات التّوكل والتفويض والثّقة والتّسليم وغيرها من قسم المعاملات - حسب اصطلاح أهل المعرفة . أن يتجاوز مرتبة العلم إلى مرتبة الإيمان، ولا يقنع بالعلوم الرّسميّة الصّرفة، بل عليه أن يدخل إلى قلبه أركان ومقدّمات حصول تلك الحقائق لكي تحصل له تلك المقامات والحالات، وقد بيّنا سابقاً سبيل اكتساب تلك المعارف وإيصالها إلى لوح القلب على نحو الإجمال، ونكز هنا ذكره مجملاً: (فتقول): ينبغي التنبّه إلى أنّ على السّالك أن يعقد العزم على إدخال حقائق أركان التّوكل إلى قلبه بعد أن أدركها

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٠٦ .

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ١٩٣ .

عقله استنادًا إلى العلم البرهانيّ، ولا يتحقّق ذلك إلّا بأن ينتخب المجاهد لنفسه ساعةً من ليله ونهاره، يقلّ فيها اشتغال النفس بعالم الطّبيعة والكثرة، ويكون قلبه فيها فارغ البال، فيتشغل فيها بذكر الحقّ تعالى مقرونًا بحضور القلب وتوجّهه وبالتفكير في الأذكار والأوراد المأثورة. فيتلو . مثلاً بإقبال قلبيّ تامّ في تلك الساعة التي يتفرّغ فيها القلب . الذّكر الشّريف "لا إله إلاّ الله" وهو أعظم الأذكار وأشرف الأوراد ويكون هدفه أن يعلم القلب حقيقة هذا الذّكر الشّريف، فيكرّره عليه بطمأنينة وتفكير، ويوقظه به حتّى يوجد فيه حال التذكّر والرّقة، عندئذٍ ينطق القلب . بوسيلة المدد الغيبي . بهذا الذّكر الشّريف ويتبعه اللسان . وما أكثر ما تؤدّي المداومة على هذا العمل الشّريف . مع التزام شروطه وآدابه الظاهرية والباطنية . في أوقات تفرّغ النفس، إلى تذكّر القلب . مبادرة دون تذكير . فيتبعه اللسان فيلهج بهذا الذّكر الشّريف حتّى والإنسان نائم أحيانًا، بل ويبلغ مرتبة تذكّر النفس التّوحيد والتّفريد في حال انشغالها بالكثرة والطّبيعة، بل وما أكثر ما تؤدّي شدّة الاشتغال بهذا العمل مع طهارة النّفس وإخلاص النّيّة إلى أن يبلغ العبد مرتبة لا يمنعه أيّ شاغل معها عن الذّكر، فتغلب نورانيّة التّوحيد على جميع أموره"<sup>١</sup>.

## ٢- إدخال العلم بسعة رحمة الحقّ ولطفه إلى القلب

"تمّ عليه أن يدخل إلى قلبه بالطريقة نفسها العلم بسعة رحمة الحقّ تعالى ولطفه وشفقته ورأفته بعباده، وذلك بالتذكّر الشّديد والتفكير في رحمت الحقّ تعالى المحيطة به منذ ما قبل ولادته وإلى آخر الأبد، فيدرك قلبه، تدريجيًا، نموذجًا من المحبّة الإلهية، وكلّما كان التذكّر أشدّ . خصوصاً في أوقات تفرّغ القلب . ازدادت هذه المحبّة، حتّى يرى الحقّ تعالى أرحم به وأرف من كلّ موجود، ويشاهد بنور البصيرة القلبية حقيقة "أرحم الراحمين".

ويدخل بهذه الكيفية، أيضًا، أركان التوكل الآخر إلى قلبه، أي بشدّة التذكّر ورياضة القلب، حتّى يأنس القلب ويألف تلك الحقائق"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٠٦.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٩٣.

### ٣- ترك الاعتماد على الأسباب الظاهرية

"فعلى السالك إلى الله . ومن أجل تصحيح التوكل - أن ينقطع . بنور المعرفة- عن الأسباب الظاهرية فلا يطلب منها حاجة، لا أن يترك العمل أصلاً! بل ويمكن القول: إن هذا هو مراد الخواجة العارف الأنصاري من قوله: "والدرجة الثانية: التوكل مع إسقاط الطلب وعضّ العين عن السبب اجتهاداً في تصحيح التوكل".<sup>١</sup>

#### أهم موارد التوكل

وبعد التأمل فيما ذكره الإمام من كلمات نورانية توقظ القلب الغافل وتحرض الطالب التاكل، يتضح لنا أنّ الحاجة إلى التوكل تبرز بصورة أساسية في حياتنا العملية وخصوصاً عندما نعيش القلق تجاه الرزق. ففي أكثر الأحيان يُعرض علينا عمل ما يمكن أن يكون وسيلة لكسب بعض المال، لكنّ هذا العمل قد يكون محلاً بأعمال أخرى واجبة ترتبط بجهدنا ومقاومتنا. هنا بالذات سيكون للتوكل أعظم الأثر في صدنا عن سلوك طريق ينتهي بنا إلى الخسران المبين، كما قال عليّ أمير المؤمنين عليه السلام: "لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَصْرٌ مِنْهُ"<sup>٢</sup>.

فبالتوكل على الله نمضي في جهادنا بالرغم من القلق الذي نعيشه تجاه الرزق ونكل أمره كله لله. ولا شك بأنّ الذي يتوكل على الله سوف يكفيه الله تعالى كما جاء في الحديث: "من أُعطي التوكل أُعطي الكفاية"<sup>٣</sup>، ويجب أن نعلم أنّ طريق الكفاية وكيفية أمرٌ يحدده الله تعالى لا نحن. فإذا كنّا نحصر كفاية أمورنا بشيء محدد ربّما لن ندرك الكفاية أبداً.

أمّا إذا كان هذا السبب المفتوح غير متعارض مع جهادنا وتكليفنا ولا يؤدي إلى إرهاب الجسد إلى حدّ التلّف ولا يصرفنا عن مهمّة تربية أبنائنا والاعتناء بهم وفق ضوابط التربية ومستلزماتها، فإنّ تركه عندئذٍ لا دخل له بالتوكل، بل هو نوع من الحمافة المدعومة بالكسل. والله الموفق.

<sup>١</sup> (ن.م)، ص ٢٠٢.

<sup>٢</sup> نهج البلاغة، ص ٤٨٧.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٥.

## موعظة للإمام

"نحن جميعًا نعلم أنّ لا أحد يستطيع التصرف بشيء في مملكة الحقّ تعالى من غير الإذن القيوميّ والإشارة الإشراقية لذاته المقدّسة جلّ وعلا، ولا يمكن أن تغلب إرادة أيّ مخلوق إرادته القويمة عزّ وجلّ ولكننا مع ذلك نطلب الحاجات من أهل الدّنيا وأصحاب الثروة ونغفل عنه تعالى! وتوكّلنا على الطّبيعة وأوضاعها وأمورها يزيد بمئات الأمثال على توكّلنا عليه تبارك وتعالى، والسّرّ في ذلك هو - ولا غيره - أنّ حقيقة التوحيد الأفعاليّ لم تدخل قلوبنا. الحكيم الفلسفيّ يقول: "لا مؤثّر في الوجود إلاّ الله"، لكنّه يطلب حاجته من غيره تعالى! والمتعبّد المنتسك يجعل ورده ذكر: "لا حول ولا قوّة إلاّ بالله" و: "لا إله إلاّ الله"، ورغم ذلك فإنّه يمدّ عينه إلى أيدي الآخرين، ولا علّة لذلك سوى أنّ برهان ذلك لم يخرج من دائرة العقل والإدراك العقليّ ولم يدخل القلب، وذكر هذا لم يتجاوز لقلقة اللسان ولم يتذوّقه القلب".<sup>١</sup>

"لقد عرفنا أركان التوكّل بالعلم الاستدلاليّ والبراهين المقنعة، ولم يبقَ لدينا شكّ ولا ريب بشأنها، ورغم ذلك لم يشرق في قلوبنا من نور التوكّل شعاع، ولم يظهر فينا أثر لصفاء الانقطاع عن الخلق، والانقطاع إلى الحقّ جلّ وعلا، فهذه الخصوصيّة الإيمانية أيضًا مسلوّبة منّا، وإذ فقدت علائم الإيمان في شخص فالإيمان نفسه مفقود فيه أيضًا".<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٩٤-٩٥.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٩٩.

## المفاهيم الرئيسة

### ١- مناقش التوكّل:

- الفطرة: كل إنسان يرى نفسه محتاجًا ومفتقرًا، ويرى حقيقته الوجودية متعلّقة ومرتبطة بغيره، من مقتضيات هذه الحقيقة الفطرية الرجاء والخوف، والتوكّل والتسليم، والثقة بهذه الذات المقدّسة.
- العلم والمعرفة: إذا عرف المؤمن أنّ جميع الأشياء مخلوقة له، وهو مخلوق للحقّ تعالى، وأدرك أنّ الحقّ جلّ وعلا هو العالم بكيفية تسخير المخلوقات في إصلاحه، وعرف بيقية أركان التوكّل بنور الإيمان، حينئذ يتوكّل على الحقّ.

### ٢- ثمار التوكّل:

- الإيمان: الإيمان هو ركّزٌ لمثل هذه الملكات النفسانية الفاضلة (كالتوكّل والتفويض والتسليم).
- الغنى والعزة: فالذي يتوجّه إلى باب الغني المطلق لسدّ فقره، ويتعلّق قلبه به تعالى، ويقطع طمعه عن المخلوق الفقير، يحلّ الاستغناء والغنى عن المخلوق في قلبه.

### ٣- كيف يحصل التوكّل:

- إدخال أركان التوكّل إلى القلب: ولا يتحقّق ذلك إلّا بأن ينتخب المجاهد لنفسه ساعةً من ليله ونهاره، يقلّ فيها اشتغال النفس بعالم الطبيعة والكثرة، ويكون قلبه فيها فارغ البال، فيتشغل فيها بذكر الحقّ تعالى مقرونًا بحضور القلب وتوجّهه والتفكير في الأذكار والأوراد المأثورة.
- إدخال العلم بسعة رحمة الحقّ ولطفه إلى القلب: وذلك بالتذكّر الشّدِيد والتفكير في رحمت الحقّ تعالى المحيطة به منذ ما قبل ولادته وإلى آخر الأبد، فيدرك قلبه، تدريجيًا، نموذجًا من المحبة الإلهية.
- ترك الاعتماد على الأسباب الظاهرية (لا ترك العمل).

- ٤- بالتوكّل على الله نمضي في جهادنا بالرّغم من القلق الذي نعيشه تجاه الرّزق ونكل أمره كلّ لله.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاقْبِضْ عَلَيَّ الصَّدَقِ نَفْسِي، وَاقْطَعْ مِنَ الدُّنْيَا حَاجَتِي، وَاجْعَلْ فِيمَا عِنْدَكَ رَغْبَتِي شَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ، وَهَبْ لِي صِدْقَ التَّوَكُّلِ عَلَيْكَ أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ كِتَابٍ قَدْ خَلَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كِتَابٍ قَدْ خَلَا، أَسْأَلُكَ خَوْفَ الْعَابِدِينَ لَكَ، وَعِبَادَةَ الْخَاشِعِينَ لَكَ، وَيَقِينَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ، وَتَوَكُّلَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْكَ<sup>١</sup>.

الآيات الكريمة:

- ١- ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾<sup>٢</sup>.
- ٢- ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِعَافٍ لِمَا تَعْمَلُونَ﴾<sup>٣</sup>.
- ٣- ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ \* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>٤</sup>.

الروايات الشريفة:

- ١- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "مَنْ فَنِعَ لَمْ يَغْتَمَّ مَنْ تَوَكَّلَ لَمْ يَهْتَمَّ"<sup>٥</sup>.
- ٢- عَنِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ لَا يُغْلَبُ"<sup>٦</sup>.
- ٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "من توكل على الله أضاءت له الشبهات وكفي المونات وأمن التبعات"<sup>٧</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في استكشاف الموم.

<sup>٢</sup> سورة إبراهيم، الآية ١٢.

<sup>٣</sup> سورة هود، الآية ١٢٣.

<sup>٤</sup> سورة النحل، الآيات ٩٨ - ٩٩.

<sup>٥</sup> مستدرك الوسائل، ج ١٥، ص ٢٣٣.

<sup>٦</sup> (ن.م)، ج ١١، ص ٢١٧.

<sup>٧</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ١٩٧.

٤- عن الإمام الصادق عليه السلام: "فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ مُتَوَكِّلًا لَا مُتَعَلِّلًا فَكَبِّرْ عَلَى رُوحِكَ خَمْسَ تَكْبِيرَاتٍ وَوَدِّعْ أَمَانِيكَ كُلَّهَا تَوَدِّعِ الْمَوْتَ لِلْحَيَاةِ، وَأَدْنَى حَدِّ التَّوَكُّلِ أَنْ لَا تُسَابِقَ مَقْدُورَكَ بِالْهَمَّةِ وَلَا تُطَالِعَ مَقْسُومَكَ وَلَا تَسْتَشْرِفَ مَعْدُومَكَ فَيَنْتَقِضَ بِأَحَدِهَا عَقْدُ إِيْمَانِكَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ"<sup>١</sup>.

٥- عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ أَرَادَ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ فَلْيُحِبِّ أَهْلَ بَيْتِي، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْجُوَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَلْيُحِبِّ أَهْلَ بَيْتِي، وَمَنْ أَرَادَ الْحِكْمَةَ فَلْيُحِبِّ أَهْلَ بَيْتِي، وَمَنْ أَرَادَ دُخُولَ الْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسَابٍ فَلْيُحِبِّ أَهْلَ بَيْتِي فَوَاللَّهِ مَا أَحَبَّهُمْ أَحَدٌ إِلَّا رِيحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> مستدرك الوسائل، ج ١١، ص ٢١٨.

<sup>٢</sup> بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ١١٦.

## الدرس الرابع والعشرون: التسليم

### أهداف الدرس:

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن معنى التسليم وموقعه في سير وسلوك الإنسان.
- ٢- يتعرّف إلى أهم مظاهر التسليم وآثاره.
- ٣- يشرح كيفية تحقّق التسليم في القلب.

## تمهيد

"إنَّ التَّسْلِيمَ مِنَ الْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، يَتَوَسَّلُونَ بِهِ لَطَيِّ الْمَنَازِلِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْحَصُولِ عَلَى الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ. فَالَّذِي يَتَجَلَّى بِالتَّسْلِيمِ لِلْحَقِّ تَعَالَى وَأَوْلِيَاءَهُ، وَلَا يَنَاقِشُ لَهُمْ أَمْرًا، يَطْوِي سِيرَهُ الْمَلَكُوتِيَّ بِأَقْدَامِهِمْ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ يَصِلُ بِسُرْعَةٍ، إِلَى مَقْصَدِهِ. مِنْ هُنَا قَالَ بَعْضُ الْعُرَفَاءِ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ أَقْرَبَ لِلْمَقْصِدِ وَالْمَقْصُودِ مِنَ الْحُكَمَاءِ، لِأَنَّهُمْ يَضْعُونَ وَيَجْرِكُونَ أَقْدَامَهُمْ تَبَعًا لِخَطَى الْأَنْبِيَاءِ، فِي حِينِ أَنَّ الْحُكَمَاءَ يَسْعُونَ لِلسَّيْرِ عَلَى وَفْقِ فِكْرِهِمْ وَعَقُولِهِمْ"<sup>١</sup>.

عندما نسمع أمير المؤمنين عليًا عليه السلام يقول: "لأنسبَ الإسلامَ نسبةً لم ينسبها أحد قبلي الإسلام هو التَّسْلِيمُ"<sup>٢</sup>، فإننا نتوقَّف عند عظمة التَّسْلِيمِ باعتباره أفضل نسبة وتعريف للدين الذي ارتضاه الله لنا وجعله طريقًا إليه. فلو قيل عندئذٍ أنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ صِرَاطَ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ التَّسْلِيمُ لَمَا كَانَ فِي الْكَلَامِ آيَةٌ مَبَالِغَةٌ. فَالتَّسْلِيمُ عِنْوَانُ سِيرِنَا إِلَى اللَّهِ، وَعَلَى أَسَاسِهِ نَفْهَمُ بَرْنَامَجَ الْإِسْلَامِ فِي بِنَاءِ الْإِنْسَانِ وَتَكْمِيلِهِ.

## التعريف الدقيق للتَّسْلِيمِ

التَّسْلِيمُ مَعْنَى وَجْدَانِيٍّ يَفْهَمُهُ كُلُّ إِنْسَانٍ. فَعِنْدَمَا يَحَاصِرُ الْمَرْءَ وَلَا يَجِدُ أَيَّ مَقَرٍّ أَوْ حَلٍّ نَجْدَهُ يَلْجَأُ إِلَى الْإِسْتِسْلَامِ وَيَسَلِّمُ قِيَادَهُ لِلَّذِينَ حَاصِرُوهُ. فَهُوَ التَّعْبِيرُ عَنِ إِسْقَاطِ مَا فِي الْيَدِ وَالتَّخَلِّيِّ عَنِ التَّدْبِيرِ الْذَاتِيِّ وَتَرْكِ الْقِيَادِ لِلغَيْرِ. فَالتَّسْلِيمُ كَمَا يَشْرَحُهُ الْإِمَامُ قَدَسَ سِرُهُ: "التَّسْلِيمُ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِنْقِيَادِ الْبَاطِنِيِّ وَالْإِعْتِقَادِ الْقَلْبِيِّ فِي

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٥٨.

<sup>٢</sup> تحج البلاغة، ص ٤٩١.

مقابل الحقّ، وهو ثمرة سلامة النفس من العيوب، وخلوّها من الملكات الخبيثة<sup>١</sup>، وحقيقته انعدام إرادة العبد أمام إرادة الخالق: "إذا كان المقصود انعدام إرادة العبد في مقابل إرادة الحقّ تعالى، فهذا هو مقام التسليم"<sup>٢</sup>.

ولأجل أن نتعرّف على هذه الملكة النفسانيّة العظيمة أكثر يعرّفنا الإمام على ما يصادّها لأنّ الأشياء تُعرف بأضدادها أيضاً. فيقول قدس سره: "ويقابل التسليم "الشك" وعدم الخضوع للحقّ، وعدم القبول. والاعتقاد والتسليم للحقّ تعالى نتيجة لاحتجاب النفس والثمرة الخبيثة لعيوب الباطن ومرض القلب... جعل الشكّ ضدّاً للتسليم يرجع إلى كون عدم التسليم للحقّ مقترناً عادة بالشكّ. ولعلّ المراد من الشكّ هنا هو نقيض اليقين كما صرّح بذلك أئمة اللغة، والمقصود بنقيض اليقين، هو أعمّ من المعنى المتعارف للشكّ الذي يعني حالة التردد"<sup>٣</sup>.

ولما كان الاعتقاد والتسليم للحقّ من أهمّ أركان التسليم قال الإمام الخميني قدس سره: "ويقابل التسليم المطلق، الشكّ والتزلزل، وله مراتب عدّة، تصنّف بعضها ضمن مراتب الشكّ الجليّ، وبعضها الآخر ضمن مراتب الشكّ الخفيّ والشرك الأخرى. فالشكّ الجليّ هو التزلزل في العقائد الظاهرة الجليّة، والشكّ الخفيّ هو التزلزل في المعارف وأسرار التوحيد والتجريد والتفريد. والشكّ الأخرى، هو حال "التلوين" وعدم التمكن في المقامات المذكورة"<sup>٤</sup>.

#### أهميّة التسليم وآثاره

تُعرف أهميّة التسليم وموقعيته في نظام الكمال الإنسانيّ من خلال آثاره العظيمة التي تفوق أيّ تصوّر. وسنذكرها هنا بعضاً من هذه الآثار التي ذكرها الإمام الخميني قدس سره.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٥٧.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٥٨.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٥٧-٣٥٨.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٣٦٢.

## ١- تذوق حلاوة الإيمان

يقول الإمام الخميني قدس سره في شرحه لحديث جنود العقل والجهل: "في الآية ٦٥ من سورة النساء: ﴿قَالَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>١</sup>. أجل، إنّ روح الإنسان لا تذوق طعم الإيمان إلا بالتسليم لأحكام الله تعالى بدرجة لا يجد معها أي حرج في نفسه أو أذى في قلبه من القضاء الإلهي بل يستقبله برحابة صدر واستبشار. وقد روي في الكافي الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: "الإيمان له أربعة أركان: التوكّل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والرّضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله عزّ وجل"<sup>٢</sup>. فلا إيمان لمن لم تتوفّر فيه هذه الأركان الأربعة، بل هو محروم من حقيقة الإيمان بالله عزّ وجل"<sup>٣</sup>.

## ٢- يعالج أمراض الرّوح

"إنّ هذا التسليم للحضرة الإلهية القدسيّة هو بحدّ ذاته أحد العلاجات لأمراض الرّوح، وهو الذي يضيء على النّفس الصّفاء ويزيد نورانية الباطن"<sup>٤</sup>.

## ٣- بلوغ مقام الولاية

"إنّ جميع أشكال الشّرك والشكّ هي نتيجة لعدم تسليم الإنسان روحه للوليّ المطلق وهو الحقّ تبارك وتعالى، فإذا أسلم روحه له أسلمت معها ممالكه الوجوديّة الأخرى. فأسلمت أعضاؤه الظاهريّة وقواه الملكيّة، ومعنى تسليمها أن لا تكون أيّ من حركاتها وسكناتها بدافع من النّفس والأنانيّة، بل إنّ قبضها وبسطها بيد الإرادة الإلهيّة، أي يحصل فيه نموذج التقرّب بالنوافل: "كنتّ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به... إلى نهاية الحديث"<sup>٥</sup>.

ولا شكّ بأنّ مقام الولاية هو المقام الذي يستبدل فيه العبد إرادة نفسه بإرادة ربّه، فيصبح مظهرًا لأولئك الذين قيل فيهم أنّ لله عبادًا إذا أردوا أراد. يقول الإمام الخميني قدس سره:

<sup>١</sup> سورة النساء، الآية ٦٥.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٤٧.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٥٩-٣٦٠.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٣٥٩.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ٣٦٢.

"لا تكن محبًا لنفسك، سلّم إرادتك للحقّ تعالى، فإنّ الذات المقدّس يتفضّل عليك بجعلك مظهرًا لإرادته، ويجعلك متصرّفًا في كافّة الأمور. ويخضع لقدرتك لمملكة الإيجاد. وهذا هو غير التفويض الباطل، كما هو معلوم في محله"<sup>١</sup>.

#### ٤- نورانيّة القلب

يقول الإمام قدس سره: "والمرتبة الثالثة هي الطهور القلبيّ الذي هو عبارة عن تسليم القلب للحقّ. وبعد هذا التسليم يصبح القلب نورانيًا، بل يكون بذاته من عالم النور ودرجات النور الإلهي. وتسري نورانيّة القلب إلى سائر الأعضاء والجوارح والقوى الباطنة وتصيح كلّ المملكة نور، ونور على نور حتّى يصل الأمر إلى حيث يصبح القلب إلهيًا لاهوتيًا وتتجلّى حضرة اللاهوت في جميع مراتب الباطن والظاهر"<sup>٢</sup>.

#### ٥- استئصال جذور الشّرك والكفر والنّفاق

يقول الإمام الخميني قدس سره: "واعلم أنّ إرادة الله تعالى قاهرة لجميع الإرادات، وإذا اطمان قلبك بهذه الكلمة المباركة وسلّم لهذه العقيدة، فالأمل أن يُنجز عملك، وتستأصل جذور الشّرك والرياء والكفر والنّفاق من قلبك"<sup>٣</sup>.

#### ٦- الوصول إلى الكمال الإنساني

كانت هذه بعض آثار التسليم التي تشير إلى عظّمته. وتكتمل مشهديّة العظمة عندما نتعرّف على دور التسليم في هداية الإنسان إلى المقصد التّهائي. لهذا، قال الإمام قدس سره: "ولا شك في أنّ الذي يتحلّى بالتسليم للهداية الإلهية يصل إلى مقصده عبر الصّراط المستقيم. الذي هو أقرب الطرق. فلا يُعرّض نفسه للخطر، أمّا الذي يسير بقدمه هو، فربّما يقع في المهالك ويضيّع عليه الطريق"<sup>٤</sup>.

ويقول قدس سره أيضًا: "يجب على الإنسان أن يكون مستسلمًا لأقوال الأنبياء والأولياء عليهم السلام ولا يوجد شيء في سبيل تكامل الإنسان، أفضل من التسليم والطّاعة أمام أولياء الحقّ.

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٦٨.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٧١-٧٢.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثًا، ص ٧٦.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٥٨.

وخاصة في الأمور التي لا مجال للعقل في التطرق إليها ولا يوجد سبيل لإدراكها واستيعابها إلا بواسطة الوحي والرسالة"<sup>١</sup>.

وباختصار إنَّ التسليم هو سبيل سعادة الإنسان وتوفيقه كما ذكر الإمام في كتاب الأربعون حديثًا. "اعلم أنَّ الوهم والغضب والشهوة يمكن أن تكون من الجنود الرحمانية، وتؤدي إلى سعادة الإنسان وتوفيقه إذا سلّمتمها للعقل السليم ولأنبياء العظام. ومن الممكن أن تكون من الجنود الشيطانية إذا تركتها وشأنها، وأطلقت العنان للوهم ليتحكم في القوتين الأخريين: الغضب والشهوة"<sup>٢</sup>.

### ما هي منابع التسليم ومناشؤه

يذكر الإمام بعض العوامل التي تؤدي إلى تحقّق حالة التسليم في القلب وتسري إلى كلّ مملكة وجود الإنسان. منها:

#### ١ - سلامة القلب

يقول الإمام قدس سره: "إنَّ قلبَ الإنسان إذا سلم من الآفات والعيوب وجد الحقّ تعالى بفطرته السليمة، فإذا وجده أسلم له، وإذا أسلم له قلبياً إنقاد له في أعماله الظاهرية القالبية. إذن فالتسليم ثمرة سلامة القلب، والتسليم بدوره يُثمر الانقياد الظاهريّ أيضاً. وهذا هو "الاستسلام"<sup>٣</sup>.

#### ٢ - طهارة النفس

يقول الإمام قدس سره: "فالإنسان ما دام على فطرته الأصلية . وهي الفطرة السليمة التي هي من المواهب الإلهية في أصل طينة الخلقة . وما دام لم يتلوّث بآفات النفس وعيوبها واحتجابها وكدورتها الروحية، فإنّه يجد الحقّ تعالى ويحبّه بهذه الفطرة السليمة نفسها، فيخضع وينقاد ويسلم له فطرياً، فإذا حصل فيه هذا التسليم تحقّق فيه الاستسلام لله لا محالة"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٥١٧.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ٤٠.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٥٤.

<sup>٤</sup> (م.ن)، ص ٣٥٦.

ولا شكّ بأنّ العلم بمحققة الوجود ومعرفة نظام الحلقة تؤدّي بالتّفوس الطّاهرة إلى حالة الانتقياد والتّسليم التامّ لأصل الأشياء ومبدئها ومدبّرها. ومثل هذه المعرفة إنّما هي حصيلة إعمال العقل واستعماله في التّفكر في آيات الله السّارية في كلّ العوالم.

### كيفية تحصيل التّسليم

نستفيد ممّا ذكره الإمام في العديد من المناسبات . وخصوصاً مناسبة الحديث عن التّسليم . أنّ تحصيل هذه الملكة الفاضلة، بل المقام المنيع إنّما يكون برعاية الأمور التالية:

#### ١- الانتقال من العلم إلى الإيمان

يقول الإمام الخميني قدس سره: "فعلى طالب الوصول إلى مقامات التوكّل والتفويض والثقة والتسليم وغيرها من قسم المعاملات . حسب اصطلاح أهل المعرفة . أن يتجاوز مرتبة العلم إلى مرتبة الإيمان، ولا يقنع بالعلوم الرّسميّة الصّرفة، بل عليه أن يدخل إلى قلبه أركان ومقدّمات حصول تلك الحقائق لكي تحصل له تلك المقامات والحالات"<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٩٢.

## ٢- اتباع الولي الكامل

ومثل هذا الانتقال يتحقق في بعض وجوهه من خلال اكتشاف الطبيب الحاذق والإنسان الكامل الذي هو مظهر الغاية التي نصبو إليها. لهذا، قال الإمام قدس سره: "إنّ التسليم من الخصال الحميدة للمؤمنين، يتوسّلون به لطّي المنازل المعنويّة والحصول على المعارف الإلهيّة. فالذي يتجلّى بالتّسليم للحقّ تعالى ولأوليائه، ولا يناقش لهم أمراً، يطوي سيره الملكوتيّ بأقدامهم، ولذلك فهو يصل بسرعةٍ إلى مقصده. من هنا قال بعض العرفاء: إنّ المؤمنين أقرب للمقصد والمقصود من الحكماء، لأنهم يضعون ويحركون أقدامهم تبعاً لخطى الأنبياء، في حين أنّ الحكماء يسعون للسير على وفق فكرهم وعقولهم".<sup>١</sup>

"وعلى الإنسان أن يجتهد في البحث عن الطبيب الحاذق لكي يعالجه، فإذا وجد الطبيب الكامل ولم يسلم له، وعمد إلى مناقشته في العلاج الذي وصفه له، وأراد معالجة نفسه بعقله هو، فإنّه يعرضها بذلك للهلاك. وكذلك الحال في السير الملكوتيّ، فعلى الإنسان أن

<sup>١</sup> (م.ن)، ص ٣٥٨.

يجتهد من أجل العثور على الدليل الهادي له في هذا الطريق. فإذا وجدته وجب عليه التسليم له واتباعه في طريق السير والسلوك واقتفاء أثره خطوةً خطوة. وما دما قد عرفنا أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو الهادي في الطريق القويم والمطلع على جميع مراتب المعارف، لذا فقد وجب علينا أن نتبعه بتسليم محض في السير الملكوتي.

أما إذا أردنا معرفة فلسفة الأحكام بعقولنا الناقصة، فقد انحرفنا عن الطريق المستقيم وأخذنا طريق السير إلى الهلاك الأبدي، إذ أننا في هذه الحالة مثل المريض الذي يأتي أن يتناول الدواء إلا بعد الاحاطة بسر وصفة الطبيب له، فمثل هذا المريض لن يرى وجه الصحة والسلامة، لأن وقت العلاج سينقضي ويهلك نفسه قبل أن يتعرف على سر تلك الوصفة.

ونحن مرضى وضالون، فواجبنا أن نأخذ وصفات السير الملكوتي وعلاجات أمراضنا القلبية من هداة طريق الهدي وأطباء النفوس والأرواح، والعمل بما دون إقحام أفكارنا الناقصة وآرائنا الضعيفة في الأمر، لكي نصل إلى المقصد وهو معرفة حقائق التوحيد<sup>1</sup>.

### ٣- المحافظة على سلامة الفطرة

يقول الإمام الخميني قدس سره: "والإنسان ما دام محافظاً على سلامة فطرته الأصلية من الاحتجاب بحجب الطبيعة، فهو بعيد عن التمرد والعمل برأيه، وعن إضفاء النفسانية على أعماله، بل يكون مسلماً للحق تعالى بفضل سلامة فطرته، فيكون قلبه كالمرآة التي يتوجه طرفها النوراني إلى الحق تعالى، فهو يتلقى بالكامل ما يأتيه من عالم الغيب، فينطبع فيه بكماله، ويسلم للواردات الغيبية بدرجة يذهل عن نفسه بالكامل. وإذا وصلت هذه الحال القلبية فيه إلى كمالها واستولت على باطنه، فإنها قد توجد فيه حالة "المحو المطلق" و"الصق الكلي"، وحينئذ إذا وجد الله تعالى من أهل الطلب والمحبة خارجاً من أسر الأنانية والنفس، تفضل عليه بألطف رحمانية خاصة ونقله إلى مقام "الصق المطلق" بالتجلي الإلهي وبالجدوة الربانية، مثلما حصل لموسى الكليم: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ

<sup>1</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٥٨-٣٥٩.

جَعَلَهُ دُكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا<sup>١</sup>، وحتى لو كانت فيه نقائص، زالت بفضل هذا التجلّي الرّحمانيّ الصّادر من اللطف الإلهيّ الخاص. ولا يخفى أنّ هذا المقام من التّسليم أعلى من مقامي التوكّل على الله والرّضا بقضائه. يتّضح أنّ التّسليم من لوازم الفطرة المخمّرة إلهيًّا ومن جنود العقل والرحمان<sup>٢</sup>.

#### ٤- حضور القلب في العبادات

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "إنّ من أسرار العبادات والرياضات ونتائجها أن تكون إرادة النفس في ملك البدن نافذة، وتكون دولة النفس منقهرة ومضمحلّة في كبريائها، وتسيطر الإرادة على القوى المباشرة والجنود المنتشرة في ملك البدن وتمنعها من العصيان والتمرد والأنانيّة، وتكون القوى مسلّمة لملكوت القلب وباطنه، بل تصير جميع القوى بالتدرّج فانية في الملكوت، ويطبق أمر الملكوت في الملك وينفذ فيه، وتقوى إرادة النفس، ويفلت زمام المملكة من يد الشيطان والنفس الأمارة، وتساق جنود النفس من الإيمان إلى التّسليم ومن الرضا إلى الفناء"<sup>٣</sup>.

وفي كان آخر يقول قدس سره: "إنّ من أسرار العبادات وفوائدها المهمّة التي تكون بقية الفوائد مقدّمة لها، أن تكون ملكة البدن بجميعها، ظاهرها وباطنها، مسخّرة تحت إرادة الله ومتحرّكة بتحريك الله تعالى، وتكون القوى الملكوتية والملكوتية للنفس من جنود الله، وتكون كلّها كملأكة الله. وهذه من المراتب النازلة لفناء القوى والإرادات في إرادة الحقّ. ويترتّب على هذا بالتدرّج النتائج العظيمة ويصبح الإنسان الطّبيعيّ إلهيًّا، وتكون التّمسّك مرتاضة بعبادة الله، وتنهزم جنود ابليس بشكل نهائيّ وتنقرض، ويكون القلب مع قواه مسلّمًا للحقّ، ويبرز الإسلام ببعض مراتبه الباطنية في القلب، وتكون نتيجة هذا التّسليم لإرادة الحقّ في الآخرة أنّ الحقّ تعالى ينفذ إرادة صاحب هذا القلب في العوالم الغيبية، ويجعله مثلاً أعلى لنفسه"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٦٠-٣٦١.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٣٨.

<sup>٤</sup> (م.ن)، ص ٤٥-٤٦.

## المفاهيم الرئيسة

١- التسليم هو الانقياد الباطني للحق والاعتقاد القلبي به، والقلب السليم هو القلب الخالي من كل ما سوى الله تعالى والنقي من كل شرك وشك.

٢- يتحقق التسليم بتسليم القلب للحق وللعقل، وتسليم الأعضاء الظاهرة لله، فلا تكون أي من حركاتها وسكناتها بدافع من النفس.

٣- يؤدي التسليم إلى تذوق حلاوة الإيمان، فروح الإنسان لا تذوق طعم الإيمان إلا بالتسليم لأحكام الله تعالى بدرجة لا يجد معها أي حرج في نفسه أو أذى في قلبه من القضاء الإلهي.

٤- بالتسليم يبلغ الإنسان مقام الولاية، فجميع أشكال الشرك والشك هي نتيجة عدم تسليم الإنسان روحه للولي المطلق وهو الحق تبارك وتعالى، فإذا أسلم روحه له أسلمت معها ممالكه الوجودية الأخرى.

٥- من آثار تسليم القلب، حصول النورانية فيه، فيصبح نورانياً، بل يكون بذاته من عالم النور ودرجات النور الإلهي. وتسري نورانية القلب إلى سائر الأعضاء والجوارح والقوى الباطنة.

٦- التسليم كفيل باستئصال جذور الكفر والشرك والنفاق، وهو الطريق للهداية عبر الصراط المستقيم لأن سير المسلم يكون تبعاً لقدم الأولياء لا لقدمه هو.

٧- منشأ التسليم هو الفطرة، وسلامة القلب والنفس من العيوب، وخلوها من الملكات الخبيثة. فالعلم بحقيقة الوجود ومعرفة نظام الخلقة تؤدي بالنفوس الطاهرة إلى حالة الانقياد والتسليم التام لأصل الأشياء ومبدئها ومدبرها.

٨- يحصل التسليم ب: ١. الانتقال من العلم إلى الإيمان، فلا يقنع بالعلوم الرسمية بل يدخلها إلى قلبه. ٢. البحث عن الطبيب الحاذق لكي يعالجه، فإذا وجد الطبيب الكامل عليه بالتسليم له، وإلا يكون قد توجه نحو الهلاك. ٣. المحافظة على سلامة الفطرة الأصلية من الاحتجاب بحجب الطبيعة. ٤. حضور القلب في العبادات.

دعاء:

اللَّهُمَّ أَتَقِنِي خَيْرَ الْبَقَاءِ، وَأَقِنِّي خَيْرَ الْفَنَاءِ عَلَى مُوَالَاةِ أَوْلِيَائِكَ، وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْكَ وَالرَّهْبَةِ مِنْكَ، وَالْحُشُوعِ وَالْوَفَاءِ وَالتَّسْلِيمِ لَكَ، وَالتَّصَدِيقِ بِكِتَابِكَ، وَاتَّبَاعِ سُنَّةِ رَسُولِكَ. اللَّهُمَّ مَا كَانَ فِي قَلْبِي مِنْ شَكٍّ أَوْ رَيْبَةٍ أَوْ جُحُودٍ أَوْ فُتُوحٍ أَوْ فَرَحٍ أَوْ بَدْحٍ أَوْ بَطْرٍ أَوْ خِيَلَاءٍ أَوْ رِيَاءٍ أَوْ سُمْعَةٍ أَوْ شِقَاقٍ أَوْ نِفَاقٍ أَوْ كُفْرٍ أَوْ فُسُوقٍ أَوْ عِصْيَانٍ أَوْ عِظْمَةٍ أَوْ شَيْءٍ لَا تُحِبُّ فَأَسْأَلُكَ يَا رَبِّ أَنْ تُبَدِّلَنِي مَكَانَهُ إِيمَانًا يَوْعِدُكَ، وَوَفَاءً بَعْدَكَ، وَرِضًا بِقَضَائِكَ، وَزُهْدًا فِي الدُّنْيَا، وَرَغْبَةً فِيمَا عِنْدَكَ، وَأَنْتَرَةً وَطَمَئِينَةً وَتَوْبَةً نَصُوحًا، أَسْأَلُكَ ذَلِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ<sup>١</sup>.

الآيات الكريمة:

- ١- ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>٢</sup>.
- ٢- ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>٣</sup>.
- ٣- ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾<sup>٤</sup>.
- ٤- ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾<sup>٥</sup>.
- ٥- ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾

<sup>١</sup> مفاتيح الجنان، دعاء: آخر ليلة من شعبان.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ١١٢.

<sup>٣</sup> سورة البقرة، الآية ١٣٢.

<sup>٤</sup> سورة آل عمران، الآية ١٩.

<sup>٥</sup> سورة آل عمران، الآية ٨٥.

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١﴾

٦- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾<sup>٢</sup>.

٧- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾<sup>٣</sup>.

٨- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾<sup>٤</sup>.

#### الروايات الشريفة:

١- عن أبي عبد الله عليه السلام: "واعلموا أنَّ الإسلام هو التسليم والتسليم هو الإسلام فمن سلم فقد أسلم ومن لم يسلم فلا إسلام له"<sup>٥</sup>.

٢- وروي عن العالم عليه السلام قال: "ما نزل من السماء أجل ولا أعز من ثلاثة التسليم والبر واليقين"<sup>٦</sup>.

٣- عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "قُلْتُ لَهُ: بِأَيِّ شَيْءٍ يُعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ؟ قَالَ: بِالتَّسْلِيمِ لِلَّهِ وَالرِّضَا فِيمَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ سُرُورٍ أَوْ سَخَطٍ"<sup>٧</sup>.

٤- عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَقْتَرِفُ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، قال: "الاقتراف: التسليم لنا، والصدق علينا، وألا يكذب علينا"<sup>٨</sup>.

<sup>١</sup> سورة النحل، الآية ٨٩.

<sup>٢</sup> سورة فصلت، الآية ٣٣.

<sup>٣</sup> سورة النحل، الآية ٨١.

<sup>٤</sup> سورة يونس، الآية ٨٤.

<sup>٥</sup> الكافي، ج ٨، ص ١١.

<sup>٦</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ١٧٣.

<sup>٧</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٢.

<sup>٨</sup> (م.ن) ج ١، ص ٣٩١.

٥- وعن أبي جعفر عليه السلام قال: "أحقّ خلق الله أن يسلم لما قضى الله عزّ وجل. من عرف الله عزّ وجل، ومن رضي بالقضاء أتى عليه القضاء، وعظّم الله أجره. ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء وأحبط الله أجره"<sup>١</sup>.

٦- عن محمد بن مسلم قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: "كلّ شيء يجزّه الإقرار والتسليم فهو الإيمان، وكلّ شيء يجزّه الإنكار والجحود فهو الكفر"<sup>٢</sup>.

٧- عن الإمام الرضا عليه السلام: "والمسلم من يفي لله بما عهد إليه وليس المسلم من أجاب باللسان وخالف بالقلب"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٢.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٣٨٧.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ج ١، ص ٥٤٧.

## الدرس الخامس والعشرون: الرضا

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يفهم معنى الرضا وارتباطه بالإيمان.
- ٢- يتعرف إلى مراتب الرضا وارتباطها بمعرفة الله تعالى.
- ٣- يشرح منشأ الرضا وآثاره وكيفية تحصيل هذه الفضيلة.



## تمهيد

قد علمنا أنّ الإيمان بالله تعالى أساس كلّ الكمالات، لأنّه أفضل تعبير عن الارتباط الصحيح بمصدر الكمال وهو الله تعالى. المؤمن متوجّه إلى ربه، مقبلٌ عليه بقلبه، وهو بذلك مستعدٌّ لكلّ ما يصدر منه.

ولأنّ ربه حكيمته مطلقة ورحمته تسع كلّ شيء، فلن يكون منه سوى المصلحة والخير والصلاح. أمّا النّعمة والعقاب والبلاء فهي كلّها من أجل إيصال المزيد من الخير. فكيف لا يكون المؤمن بعد هذا الاعتقاد راضيًا. إنّ الرضا إذا استقرّ في النفس واستولى على القلب جعل صاحبه متعرّضًا لكلّ ما يصدر من الله، فيكون بذلك أوسع النّاس صدرًا. وليست سعة الصّدر سوى اتّساع وعاء الكمال إلى أبعد حدّ، بل فوق الحدّ. ولهذا، كان الرضا مقامًا معنويًا يستجلب جميع الكمالات كما سيّضح عمّا قريب.

## ما هو الرضا؟

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "الرضا عبارة عن سرور العبد بالحقّ تعالى شأنه وإرادته ومقدّراته، ومرتبته العليا، هي من أعلى مراتب الكمال الإنسانيّ وأسمى مقامات أهل الجذبة والمحبة. كما ستأتي الإشارة إلى ذلك لاحقًا إن شاء الله، وهو فوق مقام التّسليم ودون مقام الفناء... وعلى أيّ حال، فإنّ مقام الرضا عبارة عن فرح العبد وسروره بالحقّ تعالى ومراداته وقضائه وقدره، وهو يستلزم السرور العام بالخلق أيضًا"<sup>1</sup>.

وسوف يتّضح من خلال الحديث عن آثار الرضا وعلائمه، وكذلك عند الحديث عن درجاته ومراتبه عمق المعنى المستبطن في الرضا. إلّا أنّ المعيار الأوّل في الرضا هو

<sup>1</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٥٧-١٥٨.

الالتفات والوعي والعلم بمصدر أسباب الرضا. وهو الله تعالى، لهذا يكون الرضا في حقيقته رضا عن الله تعالى. قال الله تعالى بشأن أصحاب النعيم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾<sup>١</sup>، وقال عزّ من قائل بشأن النفس المطمئنة ومصيرها الأبدى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾<sup>٢</sup>.

## درجات الرضا

عند التأمل في درجات الرضا يتبين لنا أنّ هذا التدرج فيه يعود بالدرجة الأولى إلى ازدياد المعرفة بالله تعالى. ويقول الإمام الخميني قدس سره: "يجدر التنبيه إلى أنّ للرضا - وباقي الكمالات النفسية - مراتب كثيرة ودرجات متباينة، نذكر هنا بعضها:

### الدرجة الأولى: الرضا بالله رباً

"الرضا بالله رباً، يعني الرضا بمقام الحقّ تعالى، ويتحقّق بأن يُخضع العبد السالك نفسه لربوبية الحقّ تعالى شأنه ويخرجها من الحاكمية الشيطانية، ويكون راضياً مسروراً بربوبية الله تعالى له. ولا يخفى أنّه ما دام للشيطان تأثيرٌ على العبد. سواء في قلبه أو في نفسه أو ملك بدنه. فهو خارج عن دائرة الربوبية والتربية الإلهية، فلا يمكنه أن يقول: "رضيت بالله رباً". إذن فالمرتبة الأولى للرضا هي أن يكون العبد بعد خضوعه لربوبية الله راضياً بالتربية الإلهية، وعلامة ذلك. إضافة إلى عدم الشعور بمشقة التكليف. أن يكون فرحاً مسروراً بالأوامر الإلهية، ويلبّيها بكل وجوده، وأن يكون كارهاً للمناهي الشرعية وقد طاب قلبه لمقام العبودية ولأن يكون الحقّ مولاه. أمّا إذا لم يخضع الإنسان لربوبية وتربية الحقّ تعالى في هذا العالم، ولم يسلم نفسه لها، ولم يستخر قلبه وأعضائه جميعاً للسلطنة الإلهية، ولم يطهر نفسه من التأثيرات الشيطانية، فإنّه لن يكون مضموناً أنّه سيكون قادراً في عالم القبر والبرزخ على أن يقول: الله جلّ جلاله ربّي. ولعلّ اختصاص هذا الاسم بالذات (الرب) من بين الأسماء الإلهية يرجع إلى كون المطلوب هو خضوع الإنسان لتربية ربّ العالمين مثلما أنّه خاضع لها تكوينياً.

<sup>١</sup> سورة المجادلة، الآية ٢٢.

<sup>٢</sup> سورة الفجر، الآيات ٢٧ و ٢٨.

كما أنّ ادّعاء "رضيت بالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبياً ورسولاً، وبالقرآن كتاباً، وبعليّ أمير المؤمنين وأولاده المعصومين عليهم السلام أئمة"، يُعتبر . إذا لم يكن مقروناً، لا سمح الله، بحقيقة الرضا . من النفاق والكذب، فلا يمكن أن يدّعي هذا الرضا من لم يخضع للقواعد الدينية الإسلامية ويرضى بها، ويفرح بالأحكام الإسلامية حتى لو أضرت به أو بعائلته. بل ولا يمكن أن يدّعي هذا الرضا، من يعترض . في قلبه . على أحد الأحكام الإسلامية، أو يتأذى قلبياً منه أو يتمنى قلبياً تغييره إلى حكم آخر، أو يصرّح بذلك، فهذا ليس راضياً عن دين الإسلام أساساً، ولا عن سائر الأمور الأخرى. فالرضا بالنبوة والإمامة لا يتحقّق بمجرد سرورنا بمؤلاء القادة والهداة لطريق السعادة، دون أن نسلك سبل السعادة والكمال الإنسانيّ التي هدونا إليها ونعمل بمقتضاها، فجوهر ادّعاء الرضا حينئذٍ لن يكون سوى الاستهزاء. يا عزيزي، إنّ ادّعاء المقامات والمدارج سهل، ولكن ما أكثر ما يختلط الأمر على الإنسان نفسه، فيجهل حقيقة أنّه ليس أهلاً لهذا الادّعاء، فالإتصاف بهذه الحقائق وبلوغ تلك المقامات لا يكون بالادّعاء خاصّة مع مقام الرضا وهو من أشقّ المقامات<sup>1</sup>.

### الدّرجة الثانية: الرضا بقضاء الحقّ تعالى وقدره

"أي رضا العبد بالحوادث، ملائمة كانت له أو غير ملائمة، والفرح بما قدّره الحقّ تعالى له سواء كان بليّة أو مرضاً أو فقدان أحبّة أو ما يقابلها، فهي جميعاً عنده سواء، لأنّه يعتبرها كافّة عطايا إلهية فيرضى بها، كما تشير إلى ذلك رواية حوار الإمام الباقر عليه السلام، وهو يومئذٍ طفل، مع جابر بن عبد الله الأنصاريّ إذ سأله الإمام: "كيف تجد حالك؟ قال: أنا في حال الفقر أحبّ إليّ من الغنى، وفي حال المرض أحبّ إليّ من الصحّة، والموت أحبّ إليّ من الحياة. فقال الإمام عليه السلام: أمّا نحن . أهل البيت . فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والصحّة والسقم، والموت والحياة فهو أحبّ إلينا". وحصول هذا المقام لا يتحقّق إلّا بمعرفة رافة الحقّ تعالى ورحمته بالعبد، والإيمان بأنّ ما يتفضّل به الحقّ تعالى في هذا العالم، إنّما هو من أجل تربية العباد وحصولهم على الكمال النفسانيّة، ما هو كامن في الفطرة الأصليّة المخمّرة فيهم من مرحلة القوّة إلى مرحلة الفعل. فرمّا كان وصول الإنسان إلى

<sup>1</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٦٢-١٦٣.

مقام كماله الذاتي بالفقر والفاقة، أو يكون وصوله إلى السعادات الخالدة بالمرض والعجز. ولكن ذلك لا يتحقق إلا إذا كان العبد نفسه في أوائل مقامات السلوك إلى الله. أمّا إذا كان قد بلغ مقام المحبة والجذبة، وشرب كأس العشق، فإنّ كل ما يأتيه من المحبوب محبوب<sup>١</sup>.

### الدّرجة الثّالثة: مقام الرضا برضا الله

"ينبغي اعتبار هذا المقام . أي مقام المحبة والجذبة . بداية الدرجة الثالثة للرّضا، وهي المعرّب عنها بـ "الرضا برضا الله"، وهي أن لا يكون للعبد رضا من نفسه، فرضاه تابع لرضا الحقّ تعالى مثلما إرادته من إرادة الله. كما ورد في الحديث الشريف: "رضا الله رضانا أهل البيت". وإن كان من الممكن أن تكون في هذا إشارة إلى مقام أعلى، وهو عبارة عن مقام قرب الفرائض وهو البقاء بعد الفناء"<sup>٢</sup>.

ونلاحظ أنّ الدّرجة الثّالثة اعتُبرت بداية مقام المحبة، وإن كان الحبّ كغيره من الكمالات فيضاً إلهياً وموهبة ربّانية. لكن لكلّ مقام وكمال لا بدّ من وجود الاستعداد، ولا يوجد مثل الرّضا في تأمين الاستعداد لمقام الحبّ الإلهي.

### ما هي آثار الرّضا وثماره؟

بالإضافة إلى ما ذكرنا من كون الرّضا مقدّمة لمقام الحبّ، يذكر الإمام الخميني قدس سره الآثار العظيمة للرّضا حيث يقول: "إنّ خلق الرضا من الأخلاق الإنسانية الكمالية، وله تأثيرات كبيرة في تصفية النفس وتجليتها، ويجعل القلب موردًا للتجليات الإلهية الخاصّة، ويوصل الإيمان إلى كماله، وكمال الإيمان إلى الطمأنينة، والطمأنينة إلى كمالها، وكمالها إلى المشاهدة، والمشاهدة إلى كمالها، وكمالها إلى المعاشقة، والمعاشقة إلى كمالها، وكمالها إلى المرادة، والمرادة إلى كمالها، وكمالها إلى المواصلة، والمواصلة إلى كمالها، ويرتقي إلى ما لا يسعه وهمي ووهمك. وله في ملك البدن والآثار والأفعال الصّوريّة التي هي أغصان وأوراق تلك الشّجرة تأثيرٌ غريب، فيصير السّمع والبصر وسائر القوى والأعضاء إلهية، ويظهر سرّ "كنت سمعه وبصره" إلى حدّ ما"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٦٤-١٦٥.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٦٥.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٩٦.

ويقول قدس سره: "رُوي في الكافي، بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "رأس طاعة الله الصبر والرضا عن الله فيما أحبّ العبد أو كره: ولا يرضى عبداً عن الله فيما أحبّ أو كره إلا كان خيراً له فيما أحبّ أو كره"<sup>١</sup>. وعنه قال: "قال الله تعالى: عبدي المؤمن لا أصرّفه في شيء إلا جعلته خيراً له، فليرضَ بقضائي وليصبر على بلائي وليشكر نعمائي أكتبه . يا محمد . من الصديقين عندي"<sup>٢</sup>. من هذا الحديث يتّضح أنّ مقام الصديقين . وهو من أعلى مراتب المقامات الإنسانية . يحصل بالرضا والصبر والشكر، ولا يخفى أنّ مقام الرضا أعلى من مقامي الصبر والشكر"<sup>٣</sup>. فاتّضح أنّ تعداد آثار الرضا غير ميسور، لأنّها تشمل كلّ الكمالات والمقامات.

### من أين ينشأ الرضا؟

وإذا عرفت عظمة هذا المقام ودوره البناء الذي لا يمثله شيء توجّهت نفسك نحو تحصيله . وبداية تحصيله أن تعلم منشأ الرضا ومنبعه . وقد ذكر الإمام الخميني قدس سره ثلاثة مناشئ أساسية هي:

#### ١- الفطرة

يقول الإمام قدس سره: "الرضا من جنود العقل والرحمان، ومن مقتضيات الفطرة المخمّرة الأصلية"<sup>٤</sup>.

#### ٢- الإيمان

يُروى أنّ أحدهم سأل الإمام الصادق عليه السلام: بأيّ شيء يعلم المؤمن أنّه مؤمن؟ فقال: "بالتسليم لله، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط"<sup>٥</sup>.

وفي مستدرک الوسائل عن كتاب الجعفریات مسنداً لأمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قال: "الإيمان له أركان أربعة: التوكّل على الله، والتفويض إليه، والتسليم لأمر الله تعالى،

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٠.

<sup>٢</sup> م. ن، ج ٢، ص ٦١.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٧٠-١٧١.

<sup>٤</sup> (م. ن)، ص ١٦٨.

<sup>٥</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٣.

والرضا بقضاء الله<sup>١</sup>.

ويقول الإمام قدس سره: "وقد ذكرت الأحاديث الشريفة للمؤمنين مجموعة من الأوصاف والصفات يتحلون بها، مثل التوكل والتسليم والرضا والخوف والرجاء ونظائرها. ولا ريب في أنّ من لا يتحلّى بها لن يكون من أهل الإيمان، والعلّة في عدم التحلّي بها هو أنّ العلم والإدراك لم يتحوّلا فينا إلى الإيمان وإلا لظهرت فينا تلك الأوصاف النبيلة والأعمال الصالحة. والله العالم"<sup>٢</sup>.

### ٣- المحبّة

يقول الإمام قدس سره: "الإنسان بفطرته السليمة عاشقٌ للحقّ تعالى وهو الكمال المطلق وإن لم يشخص الإنسان مصداق الكمال المطلق بسبب احتجاب نور الفطرة. وعليه يتّضح أنّ الإنسان إذا لم يكن محتجّباً، يعرف أنّ الكمال المطلق هو الحقّ تعالى شأنه، فتكون لديه معرفة حضوريّة بالمقام المقدّس للكمال على الإطلاق، فيرى كلّ ما يصدر عنه كاملاً، أي أنّه يرى جمال الحقّ تعالى وكماله ظاهرين في جميع الموجودات. ومثلما أنّه يرى ذاته المقدّسة جلّ وعلا كاملةً مطلقة، فهو أيضاً يرى صفاته الجلالية والكمالية كاملةً، وكذلك الحال مع أفعاله تعالى يراها جميلةً كاملةً ويدرك عياناً وبالمشاهدة الحضوريّة حقيقة (لا يصدر عن الجميل المطلق غير مطلق الجميل). لذا فإنّ العشق والرضا الذي يتحلّى به تجاه ذات الحقّ المقدّسة يسري أيضاً على جميع نظام الوجود بحكم أنّه ملازم (صادر عن) الكمال المطلق، ولذلك فهو يرضى ويفرح بجميع الأنوار الوجوديّة بمقدار نورانيّتها الوجوديّة وكمالها الذاتي، كما قيل على لسان صاحب هذا المقام: مسرورٌ أنا بهذا العالم، لأنّ هذا العالم منه عاشقٌ لجميع العالم لأنّ جميع العالم منه.

ومقتضى هذا العشق الذاتي. والرضا الفطريّ. السخط وعدم الرضا من الجنبه السوائية (أي جنبه ما سوى الله)، أي من جهات النقص والظلمة والعدم، فمثل هذا العبد ينظر بعين السرور والرضا لكلّ ما يراه من الحقّ تعالى وما يصدر من ذاته المقدّسة تجاهه، فهو راض

<sup>١</sup> مستدرک الوسائل، ج ٢، ص ٤١٢، وراجع الكافي، ج ٢، ص ٤٧.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٠١.

ومسرور بالحقّ وأفعاله تعالى، ومتنقّر وساخط تجاه كل ما سواه وكل ما يرتبط بغيره"<sup>١</sup>.

"ولو تأمل الإنسان بدقّة في أحوال الأغنياء . غالبهم لا نواذرهم . لأدرك أنّ الغنى والثروة والصّحة والسّلامة والأمن والرّفاهيّة إذا اجتمعت في أيّ إنسان عجز . إلا ما ندر . عن حفظ قلبه من أشكال الفساد والأمراض النفسانيّة، وعن حفظ نفسه من العصيان، ولعلّ هذا هو سبب قول جابر بن عبد الله . قدّس سرّه . في جوابه عن سؤال الإمام باقر العلوم . صلوات الله عليه: "الفقر أحبّ إليّ من الغنى والمرض أحبّ إليّ من الصّحة"، فهو لم يكن واثقاً من قدرته على حفظ نفسه في المقام الذي يطلبه مع إحاطتها بالغنى والصّحة، فلم يكن واثقاً من عدم طغيانها بسبب ذلك، أمّا الإمام الباقر عليه السلام فمقامه فوق ما تدركه عقول البشر، لذلك فقد أظهر مقام الرّضا، وعرض جذوة من المحبّة الإلهيّة بما يتناسب وأفق جابر، وبهدف تعليمه وإعانتة في السلوك إلى الله، فبيّن له أنّهم عليهم السلام يحبّون كل ما يأتي من الحبيب من البليات والأمراض أو من أضدادها، فهي سواء في سنّة العاشقين ومذهب المحبّين"<sup>٢</sup>.

## في كفيّة تحصيل الرّضا

### ١ - الطريق العلمي

إنّ جميع الأخلاق الفاضلة تحصل وتكتسب بالعلم النافع والعمل الصّالح. لهذا، ذكر الإمام قدس سره العلم وكفيّته حيث قال: "اعلم أنّ حصول مقام الرّضا هو من آثار المعارف الإلهيّة، لا يختلف في ذلك عن سائر مقامات أهل الاختصاص، لذا فلا تخلو الإشارة إلى بعض مصادره من فائدة. فنقول: ما دامت معرفة العبد بحقيقة أنّ جميع أفعال الحقّ تعالى جميلة هي منشأ الرّضا عنه تعالى، فإنّنا نبيّن هنا مقام جمال الحقّ تعالى ذاتاً وصفةً وفعلاً.

ومراتب معرفة العبد بهذا الأمر:

### المرتبة الأولى: العلم بجمال الحقّ ذاتاً وصفةً وفعلاً

التي تحصل للعبد هي العلم بجمال الحقّ ذاتاً وصفةً وفعلاً، استناداً إلى البراهين العلميّة الفلسفيّة، وهذه المرتبة وإن كانت مفتاح أبواب المعارف طبقاً لما هو المتعارف،

<sup>١</sup> (ن.م)، ص ١٦٠-١٦١.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٦٩-١٧٠.

وإذا وصل أحدٌ إلى مقامات العرفان العالية من غير طريقها فهو من النوادر والاستثناء المخالف للقاعدة فلا يكون معياراً عاماً. ولكن الوقوف عند هذه المرتبة هو من الحجب الكبرى حتى قيل: إنَّ "العلم هو الحجاب الأكبر". ولا تحصل للإنسان الأخلاق النفسانية. وهي من آثار المعارف. من هذا العلم البرهاني الذي هو، نصيب العقل، ولهذا فرمّا بقي إلى النهاية في هذه الحجب العلمية حكماء كبار ذوو مراتب عالية في العلم البحثي من الذين لم يتحلّوا بمقام الرضا والتسليم وباقي المقامات الروحية والأخلاق النفسانية والمعارف الإلهية.

### المرتبة الثانية: إيصال حقائق المرتبة الأولى إلى القلب

أي أن يؤمن القلب بجمال الحق تعالى وكون جميع صفاته وأفعاله جميلة، والسبيل إلى ذلك هو التذكير المستمر للقلب بنعم الله وآثار جماله تبارك وتعالى حتى يقتر بها تدريجياً، وهذا هو مقام الإيمان، وإذا وصل العبد إليه وآمن قلبه بتلك (الحقائق) الإيمانية، ظهرت في قلبه جلوة لحقيقة الرضا النورانية وأحسن الظنّ برّبّه. وهذه أولى مراتب الرضا التي لم يكن لها أثر فيما مضى. ولهذا عدّ الرضا من أركان الإيمان في الأحاديث الشريفة نظير المروي في كتاب الكافي الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: "الإيمان أربعة أركان: الرضا بقضاء الله، والتوكّل على الله، وتفويض الأمر إلى الله، والتسليم لأمر الله"<sup>١</sup>.

### المرتبة الثالثة: الاطمئنان

وهي أن يصل العبد السالك درجة الاطمئنان، والاطمئنان كمال العبد السالك. فإذا تحققت طمأنينة النفس بجمال الحق تعالى، كانت مرتبة الرضا أكمل، ولعلّ هذا المعنى هو ما تشير إليه آية سورة الفجر المباركة حيث يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ \* ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً﴾<sup>٢</sup>. وهذا الرجوع إلى الربّ من المقامات الكاملة لأهل الإخلاص، جعله الله تعالى لأصحاب النفس المطمئنة الراضية المرضية، وقطع عنه طمع الساخطين<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٤٧.

<sup>٢</sup> سورة الفجر، الآيتان ٢٧ و ٢٨.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٦٥-١٦٧.

## ٢- طريق العملي

### أ. العبادة والرياضة الشرعية

لهذا، قال الإمام قدس سره: "إنّ من أسرار العبادات والرياضات ونتائجهما أن تكون إرادة النفس في ملك البدن نافذة، وتكون دولة النفس منقهرة ومضمحلة في كبرياتها، وتسيطر الإرادة على القوى المشوثة والجنود المنتشرة في ملك البدن وتمنعها من العصيان والتمرد والأنانية، وتكون القوى مسلّمة لملكوت القلب وباطنه، بل تصير جميع القوى بالتدريج فانية في الملكوت، ويطبق أمر الملكوت في الملك وينفذ فيه، وتقوى إرادة النفس، ويفلت زمام المملكة من يد الشيطان والنفس الأمارة، وتُساق جنود النفس من الإيمان إلى التسليم ومن التسليم إلى الرضا ومن الرضا إلى الفناء. وفي هذه الحالة تجد النفس رائحة من أسرار العبادة، ويحصل لها شيء من التحليلات الفعلية"<sup>١</sup>.

### ب- الصبر

يقول الإمام قدس سره: "بل إنّ الصبر على المعصية يبعث على تقوية النفس، والصبر على الطاعة يسبب الاستيناس بالحقّ عزّ وجل، والصبر على البلاء يوجب الرضا بالقضاء الإلهي، وكلّ ذلك من المقامات الشامخة لأهل الإيمان، بل لأهل العرفان"<sup>٢</sup>.

### موعظة الإمام

"يا عزيزي، إنّ الله تعالى سيجري قضاءه رضينا أم أبينا، فالتقدير الإلهي لا يرتحن برضانا أو سخطنا، بل إنّ ما يبقى لنا من سخطنا وغضبنا هذا هو النقصان في المراتب، والحرمان من الدرجات، والسقوط في أعين الأولياء والملكوتين، وذهاب الإيمان من القلوب: كما يشير إلى هذا حديث الإمام الصادق عليه السلام: "كيف يكون المؤمن مؤمناً وهو يسخط قسمه ويُخفّر منزلته والحاكم عليه الله"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٣٨.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٩٦.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٢، ص ٦٢.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٧٣.

## المفاهيم الرئيسة

- ١- الرضا عبارة عن سرور العبد بالحقّ تعالى شأنه وإرادته ومقدّراته، وهو يستلزم السرور العام بالخلق أيضاً.
- ٢- إنّ المعيار الأوّل في الرضا هو الالتفات والوعي والعلم بمصدر الرضا، وهو الله تعالى. لهذا يكون الرضا في حقيقته رضا عن الله تعالى.
- ٣- الرضا نابع من الإيمان بحكمة الله المطلقة ورحمته التي تسع كلّ شيء.
- ٤- إذا استقرّ الرضا في النفس واستولى على القلب يجعل صاحبه متعرّضاً لكلّ ما يصدر من الله، فيكون بذلك أوسع الناس صدرًا.
- ٥- الفرق بين الرضا والتوكّل هو أنّ المتوكّل يطلب الخير والصّلاح لنفسه، أمّا الشّخص "الراضي" فيكون قد أفنى إرادته في إرادة الله.
- ٦- للرّضا مراتب كثيرة ودرجات متباينة، منها: الرضا بالله ربًّا وبتربّيته، الرضا بقضاء الحقّ تعالى وقدره، والرّضا برضا الله (مقام المحبّة والجذب).  
٧- من يعترض في قلبه على أحد الأحكام الإسلامية، أو يتأذى قليلاً منه أو يتمنى قلبياً تغييره إلى حكم آخر لا يكون راضياً.
- ٨- للرّضا علامتان هما السرور العام بالخلق، والسّخّط وعدم الرضا من الجنبية السوائية.
- ٩- من آثار الرّضا: تصفية النفس وتجليتها، جعل القلب موردًا للتجليات الإلهية الخاصّة، وإيصال الإيمان إلى كماله، وهو مقدّمة لمقام الحبّ.
- ١٠- للرّضا ثلاثة مناشئ أساسية هي: الفطرة، الإيمان، والمحبّة.
- ١١- إنّ تحصيل الرّضا يكون بالعلم النّافع والعمل الصّالح.
- ١٢- إنّ الوقوف عند مرتبة العلم بجمال الحقّ هو من الحجب الكبرى.
- ١٣- الصّبر على البلايا من الأمور التي توجب الرّضا بالقضاء الإلهي.

١٤ - ما ينبغي أن نعلمه هو أنّ التقدير الإلهي لا يرتكز برضانا أو سخطنا، بل إنّ ما يبقى لنا من السخط والغضب هو النقصان في المراتب وذهاب الإيمان من القلوب.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رِضَى بِحُكْمِ اللَّهِ، شَهِدْتُ أَنَّ اللَّهَ قَسَمَ مَعَاشَ عِبَادِهِ بِالْعَدْلِ، وَأَخَذَ عَلَيَّ جَمِيعَ خَلْقِهِ بِالْفَضْلِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَلَا تَفْتِنِّي بِمَا أَعْطَيْتَهُمْ، وَلَا تَفْتِنَهُمْ بِمَا مَنَعْتَنِي فَأَحْسَدَ خَلْقَكَ، وَأَعْمَطَ حُكْمَكَ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَطَيِّبْ بِقَضَائِكَ نَفْسِي، وَوَسِّعْ بِمَوَاقِعِ حُكْمِكَ صَدْرِي، وَبِإِي الثَّقَةِ لِأَقْرَبِ مَعَهَا بِأَنَّ قَضَاءَكَ لَمْ يَجْرِ إِلَّا بِالْخَيْرَةِ، وَاجْعَلْ شُكْرِي لَكَ عَلَى مَا زُوِّتَ عَنِّي أَوْفَرَ مِنْ شُكْرِي إِيَّاكَ عَلَيَّ مَا حَوَّلْتَنِي...<sup>١</sup>.

### الآيات الكريمة:

١- ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَكِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾<sup>٢</sup>.

٢. ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>٣</sup>.

### الروايات الشريفة:

١- عن أبي عبد الله عليه السلام: "فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَفَلَمَا ﴿﴾ ﴿﴾ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَأْسَفُ كَأَسْفِنَا وَ لَكِنَّهُ خَلَقَ أَوْلِيَاءَ لِنَفْسِهِ يَأْسِفُونَ وَ يَرْضَوْنَ وَهُمْ مَخْلُوفُونَ مَرْبُوبُونَ فَجَعَلَ رِضَاهُمْ رِضَا نَفْسِهِ وَ سَخَطَهُمْ سَخَطَ نَفْسِهِ لِأَنَّهُ جَعَلَهُمُ الدَّعَاةَ إِلَيْهِ وَالْأَدْلَاءَ عَلَيْهِ فَلِذَلِكَ صَارُوا كَذَلِكَ"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الإمام السجّاد، الصحيفة السجّادية، دعاؤه عليه السلام في الرضا إذا نظر إلى أصحاب الدنيا.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ١٢٠.

<sup>٣</sup> سورة المجادلة، الآية ٢٢.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ١، ١٤٤.

٢- قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَنْ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا يُجْزِيهِ كَانَ أَيْسَرُ مَا فِيهَا يَكْفِيهِ"<sup>١</sup>.

٣- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مَنْ رَضِيَ بِدُونِ التَّشْرِيفِ مِنَ الْمَجْلِسِ لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يَقُومَ"<sup>٢</sup>.

٤- قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَنْ رَضِيَ مِنَ اللَّهِ بِمَا قَسَمَ لَهُ اسْتَرَاحَ بَدَنُهُ"<sup>٣</sup>.

٥- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَنْ رَضِيَ بِحَالِهِ لَمْ يَعْتَوِرْهُ الْحَسَدُ"<sup>٤</sup>.

٦- وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِقَضَائِي وَلَمْ يَشْكُرْ لِنِعْمَائِي وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَيَّ بَلَائِي فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَايَ"<sup>٥</sup>.

٧- عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "يَا هِشَامُ إِنَّ الْعَاقِلَ رَضِيَ بِالذُّونِ مِنَ الدُّنْيَا مَعَ الْحِكْمَةِ وَلَمْ يَرْضَ بِالذُّونِ مِنَ الدُّنْيَا فَلِذَلِكَ رِبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ"<sup>٦</sup>.

٨- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: "مَا نَاصَحَ اللَّهُ عَبْدًا فِي نَفْسِهِ فَأَعْطَى الْحَقَّ مِنْهَا وَ أَخَذَ الْحَقَّ لَهَا إِلَّا أُعْطِيَ خَصْلَتَيْنِ رِزْقًا مِنَ اللَّهِ يَسَعُهُ وَ رِضًا عَنِ اللَّهِ يُغْنِيهِ"<sup>٧</sup>.

٩- وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَنْ لَمْ يَرْضَ مِنْ أَخِيهِ بِحُسْنِ النِّيَّةِ لَمْ يَرْضَ مِنْهُ بِالْعَطِيَّةِ"<sup>٨</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٤٠.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٦٦١.

<sup>٣</sup> بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ١٣٩.

<sup>٤</sup> غرر الحكم، ٣٠٠.

<sup>٥</sup> بحار الأنوار، ج ٥، ص ٩٥.

<sup>٦</sup> وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٠٦.

<sup>٧</sup> (ن.م)، ص ٢٨٦.

<sup>٨</sup> بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٦٥.

## الدرس السادس والعشرون: التقوى

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرّف إلى معنى التّقوى وموقعها في سير وسلوك الإنسان.
- ٢- يبيّن مراتب التّقوى ودرجاتها.
- ٣- يفهم المانع الأكبر من تحقيق التّقوى وكيفية تحصيلها.



## تمهيد

يقول الإمام الخميني قدس سره: "لا بُدُّ أن نعرف أنّ التّقوى، وإن لم تكن من مدارج الكمال والمقامات، ولكنّه لا يمكن بدونها بلوغ أيّ مقام"<sup>١</sup>. فإذا كان الحديث عن المقامات المعنويّة التي هي مراحل السّير إلى الله تعالى، فلا يمكن إدراج التّقوى فيها. أمّا إذا كان الحديث عن النّفس، فلا شكّ بأنّ التّقوى من أهمّ علائم قوّة النّفس في السّير إلى الله، بالإضافة إلى كونها أعظم وسيلة لتقوية النّفس في العزم على الكمالات. وعندما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: "إنّما هي نفسي أروّضها بالتّقوى"<sup>٢</sup>، فهذا يعني أنّ التّقوى هي برنامج الرياضات الرّوحيّة التي تجعل النّفس في حالة تكامل مستمرّ.

## التّعريف العلميّ للتّقوى

إنّ جميع أحوال النّفس وملكاتهما يمكن التعرّف إليها من خلال الآثار التي تنشأ منها أو من خلال الدّرجات والمراتب التي تحصل فيها. أمّا التّحديد العلميّ فهو الخطوة الأولى على صعيد فهم حقيقة الفضيلة. ولدينا في هذا المجال مجموعة مهمّة من الكلمات الصّادرة عن الإمام الخميني قدس سره حول ماهيّة التّقوى. منها:

"قوله عليه السلام (الورع) بفتح الراء و(الرّعة) مصدران لورع يورع بكسر الراء فيهما. ومعناه التّقوى أو شدّة التّقوى ومنتهى الحذر. ومن المحتمل أن يكون المعنى مأخوذاً من ورعته توريعاً، أي كففته، لأنّ الورع في الحقيقة، كفّ النّفس، ومنعها من تخطّي حدود الشّرع والعقل. أو من ورّع بمعنى الرّدّ، يُقال ورّعت الإبل عن الماء إذا رددتها، لأنّ المؤمن يرّد نفسه عن الشّهوات والولوح فيها"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٤٠.

<sup>٢</sup> نصح البلاغة، ص ٤١٧.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٤٩٩.

ويقول قدس سره: "إنَّ التَّقْوَى، في كلِّ مرتبة من مراتبها، بمثابة الوقاية من الأمور المضرة للأمراض. ومن دون الحمية لا يمكن أن ينفع العلاج، ولا أن يتبدل المرض إلى صحة. قد يتغلب الدواء والطبيعة على المرض في الأمراض الجسمية حتى مع عدم الحمية جزئياً. وذلك لأنَّ الطبيعة هي نفسها حافظة للصحة ودواء لها. ولكنَّ الأمر في الأمراض النفسية صعب، وذلك لأنَّ الطبيعة قد تغلبت على النفس منذ البداية، فتوجهت هذه نحو الفساد والانتكاس ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾<sup>١</sup>، وعليه، فإنَّ من يتهاون في الحمية، تصرعه الأمراض، وتجد مناطق للتفوذ إليه، حتى تقضي على صحته قضاءً مبرماً. إذًا، فالإنسان الراغب في صحة النفس، والمترفق بحاله، إذا تنبه أنَّ وسيلة الخلاص من العذاب تنحصر في أمرين: الأول: الإتيان بما يصلح النفس ويجعلها سليمة. والآخر، هو الامتناع عن كلِّ ما يضرها ويؤلمها. ومن المعلوم أنَّ ضرر المحرمات أكثر تأثيراً في النفس من أيِّ شيءٍ آخر، ولهذا كانت محرمة، كما أنَّ الواجبات لها أكبر الأثر في مصلحة الأمور، ولهذا كانت واجبة وأفضل من أيِّ شيءٍ، ومقدمة على كلِّ هدف، وممهدة للتطور إلى ما هو أحسن. إنَّ الطريق الوحيد إلى المقامات والمدارج الإنسانيَّة يمرُّ عبر هاتين المرحلتين، بحيث أنَّ من يواظب عليهما يكون من الناجحين السعداء، وأهمهما هي التقوى من المحرمات، وإنَّ أهل السلوك يحسبون هذه المرحلة مقدّمة على المرحلة الأولى، إذ يتّضح من الرجوع إلى الأخبار والروايات وخطب "نهج البلاغة" أنَّ المعصومين عليهم السلام كانوا يعتنون كثيراً بهذه المرحلة"<sup>٢</sup>.

والتقوى غير الورع كما يظهر من كلام الإمام قدس سره: "اعلم أن التقوى من "الوقاية" بمعنى المحافظة. وهي في العرف وفي مصطلح الأخبار والأحاديث تعني: "وقاية النفس من عصيان أوامر الله ونواهيه وما يمنع رضاه"، وكثيراً ما عُرفت بأها "حفظ النفس حفظاً تاماً عن الوقوع في المحظورات بترك الشبهات"، فقد قيل: "وَمَنْ أَخَذَ بِالشُّبُهَاتِ ارْتَكَبَ الْمُحْرَمَاتِ وَهَلَكَ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ"<sup>٣</sup>، "فَمَنْ رَتَعَ حَوْلَ الحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> سورة يوسف، الآية ٥٣.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٤١-٢٤٢.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ١، ص ٦٧.

<sup>٤</sup> وسائل الشريعة، ج ٢٧، ص ١٦٧.

<sup>٥</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٣٩.

## دور التقوى

يذكر الإمام الخميني قدس سره أهم الأدوار التي تؤديها التقوى على صعيد الحياة المعنوية والروحية للإنسان في الدنيا والآخرة.

### ١- إفاضة العلم

يقول الإمام قدس سره: "عندما يقول الرَّبُّ جَلَّ جلاله في الآية الكريمة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾<sup>١</sup> فلاجل أنّ التقوى تزكّي النفس وتربطها بعالم الغيب المقدّس، ثمّ يكون التعليم الإلهي والإلقاء الرّحمانيّ، لأنّ البخل في المبادئ العالية، محال، وأنّ فيضها يكون واجباً، إذ إنّ واجب الوجود بالذات، واجب من جميع الجهات والحشيات"<sup>٢</sup>.

### ٢- تهذيب النفس

"لا بدّ أن نعرف بأنّ التقوى تزكّي النفس وتطهّرها من الدّنس والقذارات. وطبعاً إذا كانت صفحة النفس ناصعة، وطاهرة من حجب المعاصي وكدرها، كانت الأعمال الحسنة مؤثّرة أكثر، وإصابتها للهدف المبتغى أدقّ، وتحفّق السرّ الكبير للعبادات الذي هو ترويض الجانب المادّي للإنسان، وقهر ملكوته على مُلكه ونفوذ الإرادة الفاعلة للنفس بصورة أفضل"<sup>٣</sup>.

### ٣- سبب قبول الأعمال

يقول الإمام الخميني قدس سره: "التقوى مضافاً إلى أنّها من العوامل الكبيرة في إصلاح النفس، تكون ذات قدرة فعالة في تأثير الأعمال القلبية والقالبية . الظاهرية . للإنسان، وتكون سبباً لقبولها أيضاً. كما يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>٤</sup> ."

<sup>١</sup> سورة البقرة، الآية ٢٨٢ .

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٠٤ .

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٥٩ .

<sup>٤</sup> سورة المائدة، الآية ٢٧ .

<sup>٥</sup> الأربعون حديثاً، ص ٣٥٩ .

#### ٤ - تقوية العزم

يقول الإمام قدس سره: "يمكن أن يُقال أنّ من إحدى الجهات المهمّة للتّقوى والتّجنّب عن المشتبهات النفسانيّة وترك أهوائها والرياضات الشرعيّة والعبادات والمناسك الإلهيّة، تقوية العزم وانقهار القوى الملكيّة تحت ملكوت النفس"<sup>١</sup>.

#### ٥ - راحة الدارين

يقول الإمام قدس سره: "وليُعلم أنّ التمسك بالتّقوى والقناعة موجب لراحة الدارين. وأنّ الراحة في هوان الدّنيا وعدميتها، فلذلك لا يلتذّ ولا يتمتّع بها. وكما أنّه طهر نفسه من النّجاسات الصوريّة، كذلك سيظهر نفسه من نجاسات المحرّمات والشبهات"<sup>٢</sup>.

#### ٦ - تحصيل السّلامة

يقول الإمام الخميني قدس سره في شرحه لحديث الإمام الصّادق عليه السلام الذي ورد في مصباح الشريعة ويتحدث فيه عن معنى السلام في دبر كل صلاة: "معنى السلام عقيب الصلاة هو الأمان، بمعنى أن من أدّى الأوامر الإلهية والسنن النبوية بالخشوع القلبي فيأمن من بلاء الدنيا وعذاب الآخرة، أي يأمن من التصرفات الشيطانية في الدنيا لأن أداء الأوامر الإلهية بالخشوع القلبي موجب لقطع تصرف الشيطان، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر...

السّلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه الموجودات وهذه إشارة إلى مظهريّة الموجودات للأسماء الإلهيّة ولا بدّ للعبد السّالك أن يظهر هذه اللطيفة الإلهيّة التي أودعت واختفت في باطن ذاته وخميرته ويستعملها في جميع المعاملات والمعاشرات والأمانات والارتباطات ويشير بها إلى مملكة باطنه وظاهره ويستعملها في المعاملات مع الحق ودين الحق تعالى لئلا يخون الوديعه الإلهيّة فتسري حقيقة السّلام إلى جميع قواه الملكيّة والملكوّتيّة وفي جميع عاداته وعقائده وأخلاقه وأعماله لتسلم نفسه من جميع التصرفات، وعرف عليه السلام التّقوى طريقًا لتحصيل هذه السّلامة"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٦٤.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٩٢.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٦٧.

## ٧- الوصول إلى غاية العبادة

يقول الإمام الخميني قدس سره: "عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد، وأعلم أنه لا ينفع اجتهاداً لا ورع فيه"<sup>١</sup>. وبهذا المضمون رواية أخرى أيضاً. وهذا شاهد على أن العبادات تتساقط عن الاعتبار، إذا كانت خالية من الورع. ومن المعلوم أن الغاية المنشودة من العبادات التي هي ترويض النفس، ولحمها، وقهر الملكوت للملك والطبيعة، لا تحصل إلا بواسطة الورع الشديد، والتقوى الكاملة"<sup>٢</sup>.

## ٨- شهود تجليات الله تعالى

"فبعد أن يغادر السالك إلى الله بخطوات ترويض النفس والتقوى الكاملة من بيت النفس، ولم يصطحب معه في هذا الخروج العلقة الدنيوية، والتعينات، ويتحقق له السفر إلى الله سبحانه، يتجلى له الحق المتعالي قبل كل شيء، على قلبه المقدس بالألوهية ومقام ظهور الأسماء والصفات"<sup>٣</sup>.

ويقول قدس سره: "التطهر من الملكات الخبيثة - وهو في واقعة مرتبة من مراتب التقوى بمعناها العام . هو مقدمة لاكتساب الكمالات الروحانية التي هي عبارة عن الملكات الفاضلة الحسنة، مثلما أن المرتبة الكاملة للتقوى وهي ترك ما سوى الحق والتنزه عن الشرك بكل معانيه، إنما هي مقدمة لحصول التوحيد والانقطاع للحق تعالى، وهذا هو الهدف الأصلي من الخلق كما يشير إلى ذلك الحديث القدسي: "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف"<sup>٤</sup>.

## مراتب التقوى ودرجاتها

تحدث الإمام الخميني قدس سره عن التقوى ومراتبها في معظم كتبه الأخلاقية والعرفانية وفي وصاياه المختلفة. وقد ذكر للتقوى مراتب عديدة. منها ما يرتبط بمقامات العارفين (حيث سيكون لنا حديث مفصل في كتاب لاحق) ومنها ما يندرج ضمن المراتب العامة. وأشهر مراتب التقوى في هذا المجال ثلاث، هي:

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٧٦.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٠٥-٥٠٦.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٦٦٧.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٤٠.

١- تقوى الظاهر

٢- تقوى الباطن

٣- تقوى العقل

ولكلّ مرتبة أمور ينبغي الوقاية منها. ففي المرتبة الأولى تكون المعاصي والمحرمات، وفي المرتبة الثانية رذائل الأخلاق والملكات، وفي المرتبة الثالثة التعلّق بغير الحقّ تعالى. يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "وليُعلم أنّ للتّقوى مراتب ومنازل، فتقوى الظاهر هي حفظ الظاهر من القذارات وظلمة المعاصي القالبيّة وهذه هي تقوى العامّة.. وتقوى الباطن هي حفظه وتطهيره عن الإفراط والتّفريط وعن التجاوز عن حدّ الاعتدال في الأخلاق والغرائز الرّوحيّة وهذه تقوى الخاصّة. وتقوى العقل حفظه وتطهيره عن استعماله في العلوم غير الإلهيّة، والمراد من العلوم الإلهيّة ما يكون مرتبطًا بالشرائع والأديان الإلهيّة وجميع العلوم الطّبيعيّة وغيرها من أجل معرفة مظاهر الحقّ تكون إلهيّة وإن لم تكن لأجل ذلك فليست كذلك وإن كانت من مباحث المبدأ والمعاد وهذه تقوى أخصّ الخواص، وتقوى القلب حفظه عن مشاهدة وذكر غير الحقّ وهذه تقوى الأولياء".<sup>١</sup>

### المانع الأكبر من التّقوى

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "السّاعي لإعمار الآخرة وجنّة الأعمال عن طريق التحلّي بالتّقوى والقيام بالأعمال الصّالحة، فإنّه لن يحظى بأيّ من مراتب ذلك مع بقاء حبّ الدّنيا، فحبّها يوقعه في المحرّمات الإلهيّة، ويصرفه عن الواجبات الشرعيّة، إذ أنّ ترك الواجبات الماليّة مثل دفع الزّكاة والخمس وأداء الحجّ ناشئٌ من الحرص على جمع المال، وترك الواجبات البدنيّة مثل الصوم والصّلاة ونظائرها ناشئٌ من الحرص على تنمية البدن".<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٣٦٧-٣٦٨.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٣٧.

## المثابرة والمصابرة طريق التقوى

يقول الإمام قدس سره: "إنَّ الطَّرِيقَ الوَحِيدَ إلى المَقَامَاتِ والمَدَارِجِ الإنْسَانِيَّةِ يَمُرُّ عِبرَ هَاتَيْنِ المَرَحَلَتَيْنِ (فَعَلِ الوَاجِبَاتِ وَتَرَكَ المَحْرَمَاتِ)، بِحَيْثُ أَنَّ مِنَ يُوَاطَّبُ عَلَيهِمَا يَكُونُ مِنَ التَّاجِرِينَ السَّعْدَاءِ، وَأَهْمَهُمَا هِيَ التَّقْوَى مِنَ المَحْرَمَاتِ، وَأَنَّ أَهْلَ السُّلُوكِ يَحْسِبُونَ هَذِهِ المَرَحَلَةَ مَقْدَمَةً عَلَى المَرَحَلَةِ الأُولَى... إِذَا، أَيُّهَا العَزِيزُ! بَعْدَ أَنْ عَرَفْتَ بِأَنَّ هَذِهِ المَرَحَلَةَ مَهْمَةٌ جَدًّا. ثَابِرْ عَلَيْهَا بِدَقَّةٍ، فَإِذَا أَنْتَ خَطَوْتَ الخُطْوَةَ الأُولَى وَكَانَتْ صَحِيحَةً، وَبُنِيَتْ هَذَا الأَسَاسَ قَوِيًّا، كَانَ هُنَاكَ أَمَلٌ بِوَصُولِكَ إلى مَقَامَاتٍ أُخْرَى، وَإِلَّا امْتَنَعَ الوَصُولُ، وَصَعِبَت النِّجَاةُ"<sup>١</sup>.

ويقول قدس سره: "واعلم، أنَّ بَدَايَاتِ الأَمْرِ صَعْبَةٌ وَشَاقَّةٌ، وَلَكِنْ بَعْدَ فِتْرَةٍ مِنَ الاستِمْرَارِ وَالمَثَابِرَةِ تَتَحَوَّلُ المَشَقَّةُ إِلَى رَاحَةٍ، وَالعَسْرُ إِلَى يُسْرٍ، بَلْ تَتَبَدَّلُ إِلَى لَذَّةٍ رُوحِيَّةٍ، خُصُوصًا وَأَنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ اللَّذَّةِ لَا يَسْتَبَدِلُونَهَا بِمَجْمِيعِ اللَّذَائِدِ. وَيُمْكِنُ، إِنْ شَاءَ اللهُ، وَبَعْدَ المَوَاطِبَةِ الشَّدِيدَةِ وَالتَّقْوَى التَّامَّةِ، أَنْ تَنْتَقِلَ مِنَ هَذَا المَقَامِ إِلَى مَقَامِ تَقْوَى الخَاصَّةِ. وَهِيَ التَّقْوَى الَّتِي تَلْتَدُّ الرُّوحَ بِهَا. إِذْ أَنْكَ بَعْدَ أَنْ تَذُوقَ طَعْمَ اللَّذَّةِ الرُّوحِيَّةِ تَتَرَكُ شَيْئًا فَشِيئًا اللَّذَائِدِ الجَسَدِيَّةِ وَتَتَجَنَّبُهَا. وَعِنْدَئِذٍ يَسْهَلُ عَلَيْكَ المَسِيرُ حَتَّى لَا تَعُودَ تَقِيمُ وَزْنَاً لِلذَّاتِ الجَسَدِيَّةِ الزَّائِلَةِ، بَلْ تَنْفِرُ مِنْهَا، وَتَقْبَحُ زُخَارِفَ الدُّنْيَا فِي عَيْنِكَ، وَتَنْظُرُ فِي بَاطِنِكَ فَتَجِدُ أَنَّ كُلَّ لَذَّةٍ مِنَ لَذَّاتِ هَذَا العَالَمِ قَدْ أَوْجَدَتْ فِي النَفْسِ أَثْرًا وَأَبْقَتْ فِي القُلُوبِ لَطِخَةً سَوْدَاءَ تَبْعَثُ عَلَى شِدَّةِ الأُنْسِ بِهَذِهِ الدُّنْيَا وَالتَّعَلُّقَ بِهَا. وَهَذِهِ هِيَ نَفْسُهَا تَكُونُ سَبَبَ الإِخْلَادِ إِلَى الأَرْضِ. وَعِنْدَ سَكْرَاتِ المَوْتِ تَتَبَدَّلُ إِلَى صَعُوبَةٍ وَمَشَقَّةٍ وَمَعَانَاةٍ. وَالوَاقِعُ أَنَّ صَعُوبَةَ سَكْرَاتِ المَوْتِ وَحَالَةَ النُّزْعِ الأَخِيرِ القَاسِيَةِ نَاجِمَةٌ عَنِ هَذِهِ اللذاتِ وَحُبِّ الدُّنْيَا، كَمَا سَبَقَتْ الإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ. فَإِذَا أَدْرَكَ الإنسانُ هَذَا المَعْنَى سَقَطَتْ لَذَّاتُ العَالَمِ مِنْ عَيْنِهِ كَلْبًا، وَنَفَرَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنْ مَبَاهِجٍ وَزُخَارِفٍ. وَهَذَا هُوَ التَّقَدُّمُ الثَّانِي إِلَى المَقَامِ الثَّالِثِ مِنَ التَّقْوَى"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الأريعون حديثًا، ص ٢٤٢.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٤٣.

## المفاهيم الرئيسة

١- التّقوى تعني "وقاية النفس من عصيان أوامر الله ونواهيه وما يمنع رضاه" أو "حفظ النّفس حفظًا تامًّا عن الوقوع في المخطورات بترك الشّبّهات". وهي وإن لم تكن من مدارج الكمال والمقامات، لكن بدونها لا يمكن بلوغ أيّ مقام.

٢- التّقوى من أهمّ علائم قوّة النّفس في السّير إلى الله، بالإضافة إلى كونها أعظم وسيلة لتقوية النّفس في العزم على الكمال.

٣- إنّ الطّريق الوحيد إلى المقامات والمدارج الإنسانيّة يمرّ عبر هاتين المرحلتين: الإتيان بما يصلح النّفس ويجعلها سليمة(الواجبات). والآخر، هو الامتناع عن كلّ ما يضرّها ويؤلمها(المحرّمات).

٤- للتّقوى دور أساس في تهذيب النّفس، فهي تؤدّي إلى: تركية النّفس وربطها بعالم الغيب وتطهيرها من الدّنس والقذارات، تقوية العزم، راحة الدّارين، تحصيل السّلامة، ترويض النّفس، شهود تجلّيات الله تعالى.

٥- للتّقوى مراتب ثلاث:

- تقوى الظاهر (الوقاية من المعاصي والمحرّمات)

- تقوى الباطن (الوقاية من رذائل الأخلاق والملكات)

- تقوى العقل (الوقاية من استعمال العقل في العلوم غير الإلهية)

٦- المانع الأكبر من تحصيل التّقوى: حبّ الدنّيّ، فلا بدّ من التخلّص من هذا الحبّ للتدرّج في مراتب التّقوى.

دعاء:

اللَّهُمَّ فَاجْعَلْ نَفْسِي مُطْمَئِنَّةً بِقُدْرِكَ رَاضِيَةً بِقَضَائِكَ مُوَلَّعَةً بِذِكْرِكَ وَدُعَائِكَ مُحِبَّةً لِمَصْفُوتِ أَوْلِيَائِكَ مُحْبُوبَةً فِي أَرْضِكَ وَسَمَائِكَ صَابِرَةً عَلَى نُزُولِ بَلَائِكَ شَاكِرَةً لِقَوَاضِي نِعْمَائِكَ ذَاكِرَةً لِسَوَابِغِ آيَاتِكَ مُشْتَاقَةً إِلَى فَرْحَةِ لِقَائِكَ مُتَزَوِّدَةً التَّقْوَى لِيَوْمِ جَزَائِكَ مُسْتَنَّةً بِسُنَنِ أَوْلِيَائِكَ مُفَارِقَةً لِأَخْلَاقِ أَعْدَائِكَ مُشْعُولَةً عَنِ الدُّنْيَا بِحَمْدِكَ وَنِنَائِكَ<sup>١</sup>.

الآيات الكريمة:

١- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾<sup>٢</sup>.

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾<sup>٣</sup>.

الروايات الشريفة:

١- عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: "يا جابرُ أَيَكْتَفِي مَنْ يَنْتَحِلُ التَّشْيِيعَ أَنْ يَقُولَ بِحُبِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ؟ فَوَاللَّهِ مَا شِيعَتُنَا إِلَّا مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَأَطَاعَهُ. إِلَى أَنْ قَالَ: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَمَلُوا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَلَا بَيْنَ أَحَدٍ قَرَابَةٌ، أَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْرَمُهُمْ عَلَيْهِ أَتْقَاهُمْ وَأَعْمَلُهُمْ بِطَاعَتِهِ. يَا جَابِرُ وَاللَّهِ مَا تَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِالطَّاعَةِ، مَا مَعَنَا بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ وَلَا عَلَى اللَّهِ لِأَحَدٍ مِنْ حُجَّةٍ، مَنْ كَانَ لِلَّهِ مُطِيعًا فَهُوَ لَنَا وَلِيٌّ، وَمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيًا فَهُوَ لَنَا عَدُوٌّ، وَمَا تُنَالُ وَلَا يُتْنَا إِلَّا بِالْعَمَلِ وَالْوَرَعِ"<sup>٤</sup>.

٢- عن أبي الحسن عليه السلام: "مَنْ اتَّقَى اللَّهَ يُتَّقَى وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ يُطَاعُ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الشيخ عباس القمي، مفاتيح الجنان، زيارة أمين الله.

<sup>٢</sup> سورة الأعراف، الآية ٩٦.

<sup>٣</sup> سورة الأعراف، الآية ٢٠١.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ٢، ص ٧٤.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ج ١، ص ١٣٧.

٣- عَنِ الْمُفْضَلِ أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجَاءَهُ هَذَا الْجَوَابُ مِنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَمَّا بَعْدُ فَيَا أَيُّ أَوْصِيكَ وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ فَإِنَّ مِنَ التَّقْوَى الطَّاعَةَ وَالْوَرَعَ وَالتَّوَضُّعَ لِلَّهِ وَالطَّمَأْنِينَةَ وَالْإجْتِهَادَ وَالْأَخْذَ بِأَمْرِهِ وَالتَّصِيحَةَ لِرُسُلِهِ وَالمُسَارَعَةَ فِي مَرْضَاتِهِ وَاجْتِنَابَ مَا نَهَى عَنْهُ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَقَدْ أَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنَ النَّارِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَصَابَ الْخَيْرَ كُلَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَنْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى فَقَدْ أَبْلَغَ الْمُوعِظَةَ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ بِرَحْمَتِهِ"<sup>١</sup>.

٤- عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ "يَقُولُ: لَا يَقُولُ عَمَلٌ مَعَ تَقْوَى وَكَيْفَ يَقُولُ مَا يُتَقَبَلُ"<sup>٢</sup>.

٥- قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا مِنَ الْفِتَنِ وَنُورًا مِنَ الظُّلْمِ وَيُحْلِدُهُ فِي مَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ وَيَنْزِلُهُ مِنْزِلَ الْكِرَامَةِ عِنْدَهُ فِي دَارٍ اصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ ظِلُّهَا عَرْشُهُ وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ وَرُؤَاؤُهَا مَلَائِكَتُهُ وَرَفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٢٨٦.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٧٥.

<sup>٣</sup> تحف البلاغة، ص ٢٦٦.

## الدرس السابع والعشرون: الزهد

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يفهم معنى الزهد ودوره في بناء الإنسان وتكامله.
- ٢- يشرح إلى علامات الزهد الحقيقي ومراتبه.
- ٣- يتعرف إلى آثار الزهد البرنامج الشرعي لتحصيله.



## تمهيد

يُعتبر الزهد من الفضائل العظيمة التي تعرّضت للكثير من التحريف ليس في الممارسة فحسب، بل حتى على مستوى المفهوم، ويعود ذلك إلى علاقته بالحياة الدّنيا وشؤونها التي تمثّل كلّ حياة الإنسان والمجتمع. ولقد بدأ الانحراف عندما لم يعرف المسلمون مسؤوليّتهم تجاه هذه الحياة الأرضيّة، بل تجاه الأرض نفسها، فتأهوا بين مفرط ومفرط. هناك من رأى الدّنيا مسخرة له بالكامل يفعل فيها ما يخلو له طالما أنّه بالحلال! وهناك من اعتبر الدّنيا ظلام وقذارة وسجن يجب أن يتحرّر منه كيفما كان. وبين هذا المفرط وذاك المفرط ضلّ الكثيرون إلّا من هدى الله إلى الزهد الحقيقيّ.

## تعريف الزهد

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "إنّ الزهد بالمعنى المصطلح إذا كان عبارة عن ترك الدنيا من أجل الحصول على الآخرة فهو من أعمال الجوارح، وإذا كان بمعنى الرغبة والإعراض عن الدنيا، وهو الذي يستلزم تركها، فهو من أعمال الجوانح (القلب). ويُحتمل أن يكون معناه التّرك لانعدام الرّغبة والميل مطلقاً، وعليه تظهر أمامنا أربع احتمالات:  
الأول: إنّ الزهد عبارة عن مطلق انعدام الرّغبة في الدّنيا سواء أعرض الزاهد عنها عملياً أم لم يعرض.  
الثاني: أنّ الزهد عبارة عن ترك الدّنيا عملياً سواء انعدمت الرّغبة فيها أم لم تنعدم.  
الثالث: أن يكون بمعنى الإعراض عنها المستلزم لتركها.  
الرابع: أن يكون بمعنى التّرك للدّنيا بسبب انعدام الرّغبة فيها.

ولعلّ الاحتمال الثالث هو الأرجح، يليه الاحتمال الرابع، وبعده الاحتمال الأول، أمّا الاحتمال الثاني فبعيد، لأنّ الزهد ضدّ الرّغبة كما نصّ على ذلك علماء اللغة، وكما ورد في هذا الحديث الشّريف، ولا شكّ في أنّ الرّغبة في الشّيء هي ميل نفسيّ وليس عملاً خارجيّاً، كما أنّها وإن لم تستلزم العمل، إلّا أنّ العمل يتولّد منها عادةً، لذا يمكن القول أنّ الزهد، من هذه الزاوية، عبارة عن انعدام الرّغبة والميل التّفسائيّ، وهذا ما يقتزن عادة بالترك والإعراض وإن لم يكن ذلك على نحو الملازمة، وهذا احتمالاً خامساً في معنى الزهد. وعلى أيّ حال فإنّ الملحوظ في معنى الزهد انعدام الرّغبة والميل، وهذا من الصّفات النفسانيّة<sup>١</sup>.

### أهميّة الزّهد ودوره

إنّ معرفة دور الزّهد في بناء الإنسان وتكامله موقوفة على فهم برنامج الدّين وخطّة الرّسالة، ولهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "إنّ جميع الدّعوات الإلهيّة الحقّة، والشّرائع الرّبانيّة الكاملة - سواء كانت في كشف حقائق التّوحيد وسرائر التّفريد والتّجريد، أو في نشر فضائل الأخلاق ومحاسنها، أو في تشريع الأحكام الإلهيّة - لا تخرج عن دائرة السّعي لتحقيق هدفين: الأول، مقصود بالذّات والاستقلال، والثّاني بالعرض والتّبعيّة. والمقصود بذاته . وهو غاية بعثة الأنبياء عليهم السلام ودعواتهم، وغاية مجاهدات ومكاشفات الكاملين والأولياء عليهم السلام . إنّما هو تحويل هذا الإنسان الطّبيعيّ اللّحمي الحيوانيّ البشريّ إلى إنسان لاهوتيّ إلهيّ ربّانيّ روحانيّ، ووصل أفق الكثرة بأفق الوحدة، وربط الأوّل بالآخر، وهذا يعني تحقيق كمال حقيقة المعرفة المشار إليها في الحديث القدسيّ: "كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف"<sup>٢</sup>، وفي الحديث الشّريف: "أولّ الدين معرفته"<sup>٣</sup>.

والمراد من جميع الأعمال القلبيّة والقاليّة، والأفعال الرّوحيّة والجسديّة، هو تحمّق هذا الهدف المقدّس، فهو الغاية من نشر المعارف الإلهيّة، ولأنّ هذا المقصود الذّاتيّ والاستقلاليّ لا يتحقّق إلاّ بتحقيق أمرين: الأوّل "الإقبال" على الله تعالى، والثّاني "الإدبار"

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٦٩-٢٧٠.

<sup>٢</sup> بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ٣٤٤.

<sup>٣</sup> تحجّ البلاغة، ص ٣٩.

والإعراض عن كلِّ ما سواه تعالى، لذلك فإنَّ جميع الدعوات الإلهية هي إمَّا دعوة للإقبال عليه تعالى، وإمَّا دعوة للإعراض عن غيره عزَّ وجل، كما أنَّ جميع الأعمال القلبية والقاليبة والظاهرة والباطنة، هي إمَّا إقبال على الله أو معينة على الإقبال عليه، وإمَّا الإعراض عمَّا سوى الله ومعينة على هذا الإعراض. ولعلَّ في حصر الأمر الإلهي بالإقبال والإدبار في هذا الحديث الشَّريف الذي نشرحه هنا وفي غيره حيث يقول: "فقال له (للعقل): أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر"<sup>١</sup>، إشارة إلى رجوع جميع الأوامر والتَّواهي إلى هذين الأمرين. إذا اتَّضح هذا الأمر اتَّضحت منزلة الزَّهد والإعراض عن الدُّنيا بل عمَّا سوى الله تعالى. وهو الزَّهد الحقيقي، نسبة إلى السُّلوك الإنسانيّ. وثبت بالتحقيق أنَّ الإعراض عن كلِّ ما سوى الحقِّ تعالى هو مقدَّمة للوصول إلى جمال الجميل والاستغراق في بحر المعارف والتَّوحيد. أي أنَّ الزَّهد بنفسه ليس من الكمالات الإنسانية، والمقامات الرُّوحانيَّة المطلوبة بذاتها، وهذا ما يشير له الكثير من الأحاديث الشريفة. ففي الوسائل عن الكافي الشَّريف مستندًا إلى الإمام باقر العلوم عليه السلام أنَّه قال: "قال أمير المؤمنين: إنَّ من أعون الأخلاق على الدِّين الزَّهد في الدنيا"<sup>٢</sup>.

ويقول قدس سره: "إنَّ الزَّهد الحقيقيّ من أهمِّ جنود العقل والرَّحمان، وبه يحلِّق الإنسان نحو عالم القدس والظَّهارة، ويقطع بالكامل تعلُّقه بالعالم فيحصل على كمال الإنقطاع إلى الله"<sup>٣</sup>. وكفى في الزَّهد ما قاله الإمام الصَّادق عليه السلام في مصباح الشَّريعة: "الزُّهُدُ مِفْتَاحُ بَابِ الْآخِرَةِ وَالْبِرَاءَةُ مِنَ النَّارِ"<sup>٤</sup>. فهو إذًا مفتاح الفوز الأكبر.

### الزَّهد من حالات القلوب

"قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾"<sup>٥</sup>. وقد روي في الوسائل عن الإمام السَّجَّاد عليه السلام أنَّه قال: "ألا وإنَّ الزَّهد في آية من كتاب

<sup>١</sup> الكافي، ج ١، ص ٢١.

<sup>٢</sup> وسائل الشَّيعة، ج ١٦، ص ١٢.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٧٣-٢٧٤.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٢٧٨.

<sup>٥</sup> مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ٤٥.

<sup>٦</sup> سورة الحديد، الآية ٢٣.

الله...<sup>١</sup> ثم تلا هذه الآية الكريمة. وهذا يشهد على صحّة ما أخذنا به من أنّ الزهد من الصّفات التّفنّسيّة الملازمة للعمل، لا أن يكون معناه التّرك نفسه. وبالطّبع، فالقلب الخالي من حبّ الدّنيا المعرض عنها، لا يتأسّف على إدبارها عنه ولا يفرح بإقبالها عليه، وكيف يتأسّف قلب الزاهد على ما فاته من الدّنيا وزخارفها أو يفرح بشيء منها بعد أن استقرّ فيه حال عدم الاهتمام بها؟!<sup>٢</sup>.

فقد علّم أنّ تشكّل الزّهد الحقيقيّ يبدأ في القلب عندما تستقرّ فيه القناعة والاعتقاد بحقارة الدّنيا وقتلتها ولا شيءتها مقارنةً بالحياة الآخرة. وهذا الأمر هو غير النّظر إلى الأرض من موقع المسؤوليّة الإحيائيّة والتّبدليّة.

### درجات الزّهد

إنّ الاطّلاع على درجات الزّهد ومراتبه يساعدنا على فهمه وترسيخ معناه في النّفس. وما أجمل ما ذكره الإمام الخمينيّ قدس سره عند شرحه لحديث جنود العقل والجهل:

"ينبغي العلم بأنّ للزّهد . كسائر الصّفات التّفنّسيّة والمقامات الإنسانيّة . درجات ومراتب كثيرة لا تحصى ولا تحصر بملاحظة الأمور الجزئية، لذا نشير باختصار وبما يناسب هذه الرسالة إلى بعضها:

#### الدرجة الأولى: زهد العامّة

وهو عبارة عن الإعراض عن الدّنيا بهدف الحصول على نعيم الآخرة وهذه الدرجة، في الحقيقة، كسبّيّة تظهر نتيجة للإيمان ببعض منازل الآخرة، فصاحبها هو أسير الشهوة، لكنّه يترك . بحكم العقل . الشّهوات الحقيرة الزائلة سعيًا للحصول على اللذات الشّريفة الباقية، أي ترك الشّهوة هنا هو من أجل الشّهوة أيضًا.

ويُعتبر الإعراض عن الدّنيا خوفًا من عقاب الآخرة من مصاديق هذه الدرجة، وإن كان في إطلاق عنوان الزّهد على هذا الإعراض بدافع الخوف نوع من المسامحة، بيد أنّ ثمة رواية منقولة في كتاب "عيون أخبار الرضا" عن الإمام الصادق عليه السلام: "أنّه سُئل عن الزاهد

<sup>١</sup> وسائل الشّيعيّة، ج ١٦، ص ١٢.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٧٩.

في الدنيا قال: الذي يترك حلالها مخافة حسابه، ويترك حرامها مخافة عقابه<sup>١</sup>، إلا أنّ أحاديث أئمة الدّين ومرّي النفوس تختلف باختلاف المستويات الإدراكية للناس، فهم عليهم السلام يبيّنون لكلّ شخص . بما يتناسب مع مقامه ومرتبته . مرتبة من مراتب مقامات الإنسانيّة، هذه قضية ينبغي للعارف بمقامات النّفس وأسلوب كلمات أهل الله، التنبّه إليها ليكشف مقاصدهم وليجمع بذلك بين شتات كلمات الأولياء والأنبياء عليهم السلام في هذه الأبواب .

### الدرجة الثانية: زهد الخاصّة

وهو عبارة عن الإعراض عن المشتبهات الحيوانية واللذائذ الشهوانية، بهدف الوصول إلى المقامات العقلانية والمدارج الإنسانية. وهذه الدرجة تتولّد من العلم والإيمان ببعض المراتب العالية في عالم الآخرة، فهذا العلم والإيمان يجعلان المشتبهات الحيوانية واللذات الجسمانيّة تبدو حقيرة للعين، وهذا سبب إعراض النفس وانصرافها عنها.

واللذائذ العقلية والرّوحية والإدراكات المجرّدة المرسلّة وإن كانت على الدّوام مورد اهتمام الفلاسفة والأعظم من أهل العلم وقد أولاهما الفيلسوف الجليل المعلم الأول ارسطو طاليس اهتمامًا بالغًا، إلا أنّ درجتها أيضًا تبقى ناقصة عند أهل المعرفة والإيقان وأرباب الحقيقة والعرفان، لأنّ الإعراض من أجل اللذة . حتى لو كانت روحانية . يكشف عن وجود قدم النّفس في السّعي، فهذا أيضًا ليس زهدًا حقيقيًّا، بل هو ترك شهوة ولذّة من أجل شهوة ولذّة.

### الدرجة الثالثة: زهد أخصّ الخواص

وهو عبارة عن الإعراض عن اللذات الروحانية وترك المشتبهات العقلانية بهدف الوصول إلى مشاهدة الجمال الإلهيّ الجميل، والوصول إلى حقائق المعارف الربانية. وهذه أولى مقامات الأولياء والمحبيّن من مراتب الزّهد العالية. فالزّهد الحقيقيّ يحصل لصاحب هذا المقام في مرتبته الأولى، والزّهد الحقيقيّ عبارة عن ترك ما سوى الله لأجله جل وعلا. وبعد هذا المقام تحصل للسّالك أولى مراتب الفناء، وهي عبارة عن الفناء عن اللذات وعدم الالتفات إليها.

<sup>١</sup> عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ٣١٢، وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٦.

وتلي ذلك مقامات الأولياء الأخرى التي لا يتسع المجال لذكرها فنكتفي بذكر هذه الدرجات الثلاث فهي أمهات الدرجات"<sup>١</sup>.

## آثار الزهد

للزهد آثار عديدة نذكر بعضها منها:

### ١- الحكمة

وهي أصل كل خير كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾<sup>٢</sup>. يقول الإمام الخميني قدس سره: "عن محمد بن يعقوب قدس سره بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "من زهد في الدنيا أثبت الله الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه وبصره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجه من الدنيا سالماً إلى دار السلام"<sup>٣</sup>. يثمر الزهد في الدنيا والإعراض عنها ثبات واستقرار نور الحكمة الهادي إلى طريق السعادة والوصول إلى مقام كمال الإنسانية في القلب، ومنه يجري على اللسان كما يشير إلى ذلك الحديث المروي في باب الإخلاص: "ما أخلص عبد لله أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"<sup>٤</sup>. والإخلاص شريك الزهد الحقيقي في ترك الآمال والمقاصد النفسانية. وحقيقة الحكمة مضادة ومنافرة لظلمة حب النفس والعجب بها، والقلب محجوب عن عيوبه ما دام محباً للدنيا وزخرفها، لأن ستار الحب أسمى الحجب، وقد قيل: "حب الشيء يعمي ويصم"، لذا ما دام حب الدنيا والرغبة فيها مستقرين في قلب الإنسان، فهما يصوران له جميع عيوب الدنيا محاسن وقبائحها أموراً جميلة، فإذا أعرضنا عن الزخارف الدنيوية بصّرنا الله بعيوب الدنيا ودائها ودوائها، وإذا حرق هذا الحجاب السميك، سقط الستار الذي كان يصور تلك العيوب محاسن جميلة، وعرف الإنسان الداء والدواء، وحينئذ يتضح له طريق السلوك، ويتعبد له طريق الإصلاح"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٧٢.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٢٨.

<sup>٤</sup> بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢٤٢.

<sup>٥</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٨١.

## ٢- سلامة النفس

في شرحه للحديث المتعلق بالقلب التسليم يقول الإمام قدس سره: "ولأنّ "حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة"، فإنّ سلامة النفس تتحقّق بالزهد في الدنيا، وإنّ تحقّق الزهد الحقيقي في الإنسان، كان خروجه من هذه الدنيا إلى دار السلام، بكامل السلامة من كلّ عيب، لأنّ جميع العيوب نتاج لأنواع التعلّق، فإذا تجرّد من التعلّق بما سوى العزّ الإلهيّ الأقدس، تحقّقت فيه السلامة المطلقة"<sup>٢</sup>.

## ٣- السعادة وحلاوة الإيمان

"وباستناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: "سمعتَه يقول: جُعِلَ الخير كلّهُ في بيت، وجُعِلَ مفتاحه الزهد في الدنيا. ثمّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يجد الرجل حلاوة الإيمان حتى لا يبالي من أكل الدنيا. ثم قال أبو عبد الله عليه السلام حرام على قلوبكم أن تعرف حلاوة الإيمان حتى تزهد في الدنيا"<sup>٣</sup>. ويتّضح من هذا الحديث الشّريف أنّ الوصول إلى الخيرات والسّعادة لا يتيسّر إلا بقطع التعلّق بالدنيا والزهد فيها، فالتعلّق بالدنيا والرغبة فيها هو أصل أصول الانحدار والاحتجاب، في حين أنّ الزهد مفتاح كلّ خير، والمفتاح لا يراد لذاته بل هو مطلوب لفتح باب السّعادة والمعرفة. ثمّ بيّن الإمام الصادق عليه السلام وعلى نحو الاختصار الدّرجة الأولى للزهد، والدّرجة الأولى للخير. ونقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّ الإنسان لا يتدوّق حلاوة الإيمان إلّا بالزهد وعدم الاهتمام بأمثال مأكولات هذه الدنيا، ولن يصل إلى مقام الروحانية ومنزلة الإنسانية إلا بعد أن يعرض عن منزل الحيوانية والبطن والفرج"<sup>٤</sup>.

## كيفية تحصيل الزهد

بالإضافة إلى ما مرّ يوجد بعض الأعمال والإجراءات التي تعين على الزهد منها ما بيّنه الإمام الخميني قدس سره بقوله: "ولعلّه ما اهتّم بشيء في كتاب الله ووصايا الأنبياء والأولياء عليهم السلام وخصوصًا أمير المؤمنين عليه السلام مثلما اهتّم بترك الدنيا والزهد فيها

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٣١.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٨٢.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٢٨.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٨٢.

والإعراض عنها، الذي هو من حقائق التقوى. ولا تحصل هذه المرتبة من التطهير إلا بالعلم النافع والرياضات القلبية القوية وصرف الهمة في التفكير في المبدأ والمعاد واشغال القلب بالاعتبار في أفول الدنيا وخرابها وكرامة العوالم الغيبية وسعادتها<sup>١</sup>.

ويقول قدس سره: "لما كان الإنسان متوجهًا قلبياً إلى الكمال المطلق، فإنه مهما جمع من زخرف الحياة فإن قلبه يزداد تعلقاً بها. فإذا اعتقد أنّ الدنيا وزخارفها هي الكمال ازداد ولعه بها، واشتدّت حاجته إليها، وتجلّى أمام بصره فقره إليها. بعكس أهل الآخرة الذين أشاحوا بوجوههم عن الدنيا، فكلمًا ازداد توجّههم نحو الآخرة، قلّ التفاتهم واهتمامهم بهذه الدنيا، وتلاشت حاجتهم إليها، وظهر في قلوبهم الغنى، وزهدوا في الدنيا وزخارفها"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ١٠٣-١٠٤.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ١٥٥.

## المفاهيم الرئيسة

١- إنّ الزّهد الحقيقيّ من أهمّ جنود العقل والرّحمان، وبه يخلّق الإنسان نحو عالم القدس والطّهارة، ويقطع بالكامل تعلّقه بالعالم فيحصل على كمال الإنقطاع.

٢- إنّ الإعراض عن كلّ ما سوى الحقّ تعالى هو مقدّمة للوصول إلى جمال الجميل والاستغراق في بحر المعارف والتّوحيد.

٣- إنّ الزّهد بالمعنى المصطلح إذا كان عبارة عن ترك الدنيا من أجل الحصول على الآخرة فهو من أعمال الجوارح، وإذا كان بمعنى الرغبة والإعراض عن الدنيا، وهو الذي يستلزم تركها، فهو من أعمال الجوانح (القلب).

٤- الزهد من الصّفات التّفنسيّة الملازمة للعمل، لا أن يكون معناه التّرك نفسه.

٥- من علامات الزّهد الحقيقيّ أن لا يتأسّف الإنسان على إدبار الدّنيا عنه ولا يفرح بإقبالها عليه.

٦- تشكّل الزّهد الحقيقيّ يبدأ في القلب عندما تستقرّ فيه القناعة والاعتقاد بحقارة الدّنيا وقتلتها ولا شبيهيّتها مقارنةً بالحياة الآخرة. وهذا الأمر هو غير التّنظر إلى الأرض من موقع المسؤوليّة الإحيائيّة والتّبدليّة.

٧- للزّهد درجات كثيرة، لكن أمّهات هذه الدّرجات هي:

- زهد العامّة: وهو عبارة عن الإعراض عن الدنيا بهدف الحصول على نعيم الآخرة.

- زهد الخاصّة: وهو عبارة عن الإعراض عن المشتبهات الحيوانية واللذائذ الشهوانية، بهدف الوصول إلى المقامات العقلانية والمدارج الإنسانيّة.

- زهد أخصّ الخواص: وهو عبارة عن الإعراض عن اللذات الروحانية وترك المشتبهات العقلانية بهدف الوصول إلى مشاهدة الجمال الإلهيّ الجميل، والوصول إلى حقائق المعارف الربانيّة.

٨- للزهد آثار عديدة أهمّها: تحصيل حلاوة الإيمان، والحكمة، وسلامة النفس، والسعادة الحقيقية.

٩- تحصيل الزهد يكون بتطهير القلب، وبالإعراض العقلي والقلبي عن الدنيا والإقبال نحو الله والحياة الآخرة.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

اللَّهُمَّ افْضِلْ لِي فِي الْأَرْبَعَاءِ أَرْبَعاً اجْعَلْ قُوَّتِي فِي طَاعَتِكَ وَنَشَاطِي فِي عِبَادَتِكَ وَرَغْبَتِي فِي ثَوَابِكَ وَزُهْدِي فِي مَا يُوجِبُ لِي أَلِيمَ عِقَابِكَ إِنَّكَ لَطِيفٌ لِمَا تَشَاءُ.

### الروايات الشريفة:

١ - عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ: يَا أَحْمَدُ إِنَّ أَحَبَّتْ أَنْ تَكُونَ أَوْرَعَ النَّاسِ فَارْهَدْ فِي الدُّنْيَا وَارْعَبْ فِي الْآخِرَةِ، فَقَالَ: إِلَهِي، وَكَيْفَ ارْهَدْ فِي الدُّنْيَا؟ (وَ ارْعَبْ فِي الْآخِرَةِ) فَقَالَ: خُذْ مِنَ الدُّنْيَا حَقًّا مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ وَلَا تَدَّخِرْ شَيْئاً لِعَدِّ وَدُمَّ عَلَى ذِكْرِي... قَالَ يَا رَبِّ فَمَنْ هَؤُلَاءِ الرَّاهِدُونَ الَّذِينَ وَصَفْتَهُمْ؟ قَالَ: الرَّاهِدُ (هُوَ) الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَيْتٌ يَخْرُبُ فَيَعْتَمَّ لِحْرَابِهِ، وَلَا (لَهُ) وَلَدٌ يَمُوتُ فَيَحْزَنَ لِمَوْتِهِ، وَلَا لَهُ مَالٌ يَذْهَبُ فَيَحْزَنَ لِدَهَابِهِ، وَلَا يَعْرِفُهُ إِنْسَانٌ لِيَشْعَلَهُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ طَرْفَةً عَيْنٍ، وَلَا لَهُ فَضْلٌ طَعَامٍ يُسْأَلُ عَنْهُ، وَلَا لَهُ ثَوْبٌ لَيِّنٌ، يَا أَحْمَدُ وَجُوهُ الرَّاهِدِينَ مُصَفَّرَةٌ مِنْ تَعَبِ اللَّيْلِ وَصَوْمِ النَّهَارِ وَالسِّنْتُهُمْ كِلَالٌ إِلَّا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فُلُوبُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ مَطْعُونَةٌ (مِنْ كَثْرَةِ مَا يُخَالِفُونَ أَهْوَاءَهُمْ قَدْ ضَمَرُوا أَنْفُسَهُمْ) مِنْ كَثْرَةِ صَمْتِهِمْ قَدْ أَعْطُوا الْمَجْهُودَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ لَا مِنْ خَوْفِ نَارٍ وَلَا مِنْ شَوْقِ جَنَّةٍ وَلَكِنْ يَنْظُرُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَهْلٌ لِّلْعِبَادَةِ"<sup>١</sup>.

٢ - عن أمير المؤمنين عليه السلام: "الزهد شيمة المتقين وسجية الأوابين"<sup>٢</sup>.

٣ - عن أمير المؤمنين عليه السلام: "الزهد سجية المخلصين"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ٤٨.

<sup>٢</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢٧٥.

<sup>٣</sup> (م.ن)، ص ٢٧٥.

٤- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "كيف يزهد في الدنيا من لا يعرف قدر الآخرة".<sup>١</sup>

٥- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "قيل له عليه السلام: ما الزهد؟ قال الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا".<sup>٢</sup>

٦- عن علي بن الحسين عليه السلام: "كُونُوا مِنَ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا الرَّاعِينَ فِي الآخِرَةِ أَلَا إِنَّ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بَسَاطًا وَ التُّرَابَ فِرَاشًا وَ الْمَاءَ طَيْبًا وَ قَرَّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْرِيبًا".<sup>٣</sup>

٧- قَالَ رَجُلٌ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيُحِبُّهُ النَّاسُ، فَقَالَ: ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ".<sup>٤</sup>

٨- قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "صَلَاحُ الْأُمَّةِ الْيَقِينُ وَالرُّهُدُ وَفَسَادُهَا بِالْأَمَلِ وَالْبُخْلِ".<sup>٥</sup>

٩- عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْكَزْحِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "سَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُؤْمِنٍ الْوَرَعَ وَالرُّهُدَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَجَوْتُ لَهُ الْجَنَّةَ".<sup>٦</sup>

١٠- عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: "أَصْلُ الرُّهُدِ حُسْنُ الرِّغْبَةِ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ".<sup>٧</sup>

١١- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "يسير المعرفة يوجب الزهد في الدنيا".<sup>٨</sup>

١٢- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "أول الزهد التزهد".<sup>٩</sup>

<sup>١</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ١٤٦.

<sup>٢</sup> تحف العقول، ص ٢٢٥.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٣١.

<sup>٤</sup> مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٥١.

<sup>٥</sup> (م.ن)، ج ٧، ص ٢٧.

<sup>٦</sup> وسائل الشريعة، ج ١٥، ص ٢٤٦.

<sup>٧</sup> مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٤٨.

<sup>٨</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٦٣.

<sup>٩</sup> (م.ن)، ص ٢٧٥.



## الدرس الثامن والعشرون: الحلم

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن معنى وحقيقة الحلم.
- ٢- يشرح دور الحلم في الارتباط بالله تعالى وكسب محبته.
- ٣- يتعرّف إلى منشأ الحلم وكيفية تحصيل هذه الفضيلة.



## تمهيد

إنّ الحلم من الصّفات الأخلاقية العظيمة التي تدلّ على بلوغ صاحبها أعلى مراتب الفضائل. فقد يجمع الإنسان الكثير من الملكات النّفسانية الحميدة في نفسه، لكنّه إذا ضمّ إليها الحلم يكون قد وصل إلى قمة المراتب المعنوية في فضائل الصّفات. يدلّ على هذا المعنى، بالإضافة إلى معرفتنا بحقيقة الحلم، قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم "أعطينا أهل البيت سبعة لم يعطهنّ أحد قبلنا ولا يُعطاهما أحد بعدنا الصّباحة والفصاحة والسّماحة والشّجاعة والحلم والعلم...".<sup>1</sup> ثمّ ذكر الحلم. فلا يجمع مثل هذه الصّفات ولا تجمع فيه إلّا من بلغ من الكمالات أعلاها. وعليه، يجب أن نجتهد لبلوغ الحلم والاتّصاف به وأن نجعله غاية لسيرنا المعنويّ.

فما هي حقيقة الحلم؟ وكيف نتّصف به؟

## ما هو الحلم

يذكر الإمام الخمينيّ قدس سره في كتاب شرح جنود العقل والجهل أنّ الحلم من صفات الله الحسنى، كما أنّه من صفات أكمل خلق الله. ويذكر أيضًا أنّ الحلم ملازم للرّحمة، التي وسعت كلّ شيء. وبيّن قدس سره أنّ الحلم هو المقابل الحقيقيّ للغضب. وإنّ ذكر أيضًا أنّه مقابل للسّفه، وفي نفس المصدر أوضح الإمام قدس سره أنّ الحلم من شعب اعتدال القوّة الغضبيّة. يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "الحلم" من شعب اعتدال القوّة الغضبيّة، وهو ملكة تؤدي إلى حصول الطمأنينة في النفس، فلا تهيح فيها القوّة الغضبيّة بسرعة أو في غير الموارد المناسبة، ولا تفقد زمام

<sup>1</sup> مستدرک الوسائل، ج ١٤، ص ١٥٧.

أمرها إذا واجهت ما لا ترغب فيه أو ما تكرهه أو ما لا يلائمها.

ويقابله "السفه" بفتح الفاء، من سفه على وزن علم يعلم، يُقال: سفه الرجل، أي عدم حلمه. وسفه الجهل حلمة، أي أطاشه وأخفه. والطيش والخفة، تقابل الوقار والسكينة والتحمل. فالسفه ملكة تسلب النفس قدرة التحمل على مواجهة ما لا يلائمها، فتفقد زمام أمرها عن جهل ودون حدود، ويتأجج غضبها دون أن تستطيع السيطرة عليها. فهذه الملكة من فروع خروج القوة الغضبية إلى الإفراط.

ولعل السفاهة هي في الأصل خفة العقل والجهالة، فالعاجز عن السيطرة على القوة الغضبية هو جاهل خفيف العقل، من هنا أطلق على ضد الحلم السفاهة، دون أن يعني ذلك أن حقيقة معنى السفه هي ضد الحلم<sup>١</sup>.

### الحلم في النصوص الشريفة

وعندما نتأمل في الأحاديث الواردة بشأن الحلم نجد أنه جعل مقابلاً للانتقام وظاهرًا في العفو عند المقدرة.

وفي وصية الإمام الصادق عليه السلام لعنوان البصري تتضح ماهية الحلم من خلال ما يفرضه من سلوك ومواقف. فعن أبي عبد الله في حديث قال: "قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: أَوْصِيكَ بِتَسْمَعَةِ أَشْيَاءَ فَإِنَّهَا وَصِيَّتِي لِمُرِيدِي الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يُوقِّعَكَ لِاسْتِعْمَالِهِ، ثَلَاثَةٌ مِنْهَا فِي رِيَاضَةِ النَّفْسِ، وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا فِي الْحِلْمِ، وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا فِي الْعِلْمِ، فَاحْفَظْهَا وَإِيَّاكَ وَالثَّهَؤُونَ بِهَا، قَالَ غُنْوَانُ: فَفَرَّغْتُ قَلْبِي لَهُ... إِلَى أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَأَمَّا اللُّؤَائِي فِي الْحِلْمِ فَمَنْ قَالَ لَكَ إِنَّ قُلْتِ وَاحِدَةً سَمِعْتَ عَشْرًا (فَقُلْ لَهُ) إِنَّ قُلْتِ عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَةً، وَمَنْ سَتَمَكَ فَقُلْ إِنَّ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَقُولُ فَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لِي وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فِيمَا تَقُولُ فَاللَّهُ أَسْأَلُ أَنْ يَغْفِرَ لَكَ، وَمَنْ وَعَدَكَ بِالْحُلْمِ فَعِدُّهُ بِالنَّصِيحَةِ وَالرَّعَاءِ"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٤٠.

<sup>٢</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٢٩٠.

إنّ النفس إذا شعرت بالافتقار والتمكّن من جهة، وواجه صاحبها موقف اعتداء أو إهانة، فإنّها تميل بحكم طبيعتها إلى الردّ والانتقام. وهنا يأتي دور الحلم في امتلاك النفس وضبطها لكي لا يكون منشأ التحرك والتعامل مع هكذا مواقف منطلقاً من النفس والهوى. ممّا يتيح الفرصة للعقل لكي يقيّم الوضع ويحدّد الردّ المناسب، الذي يكون في معظم الحالات صفحاً وعفوًا. باعتبار أنّ إطفاء التيران في المجتمع وفي العلاقات أصلح للناس وأفضل. ولهذا قال الإمام الصادق عليه السلام: "وَحَقِيقَةُ الْحِلْمِ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَخَالَفَكَ وَأَنْتَ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِنْهُ"<sup>١</sup>.

وفي الحديث عن أبي الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام عن الحليم قال: "هُوَ أَنْ تَمْلِكَ نَفْسَكَ وَتَكْظِمَ غَيْظَكَ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا مَعَ الْقُدْرَةِ"<sup>٢</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: "ليس الحليم من عجز فهجم وإذا قدر انتقم إنّما الحليم من إذا قدر عفا وكان الحلم غالباً على كلّ أمره"<sup>٣</sup>.

فيلاحظ أنّ الحلم دليل على لجم الطبيعة المتأججة، ومثل هذا هو أمرٌ عظيم لا يقدر عليه إلاّ المؤيّد بأنوار المعرفة والتوحيد كما قال الإمام الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة: "الحلم سراج الله يستضيء به صاحبه إلى جواره ولا يكون حليماً إلاّ المؤيّد بأنوار المعرفة والتوحيد"<sup>٤</sup>.

فالارتباط بالروح إذا كان قوياً ومستحكماً قدر صاحبه على لجم طبيعته وإنّ العقل إذا أراد أن يحدّد الموقف المناسب للردّ على الإساءة احتاج إلى ثبات في النفس وطمأنينة كما يحتاج الرّبان إلى استقرار السفينة ليقودها إلى شاطئ الأمان. وهذا ما يحققه الحلم. ولهذا، نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام "لا خير في عقل لا يقارنه حلم"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٢٨٩.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ج ١١، ص ٢٩١.

<sup>٣</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢٨٦.

<sup>٤</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٢٨٩.

<sup>٥</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢٨٦.

## ١ - الحلم من صفات الله تعالى

قد علمنا أهميّة الحلم من خلال التّظّر في تعريفه، ويقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "إنّ فضائل الحلم واضحة ثابتة عقلياً، فلا تخفى آثاره الجليلة على ذي عقل سليم. ويكفي في فضل الحلم أنّ الله تعالى وصف نفسه به حيث يقول في قرآنه الكريم، في سورة بني إسرائيل الآية ٤٤: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾<sup>١</sup>، ويقول في سورة الأحزاب الآية ٥١: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾<sup>٢</sup>.

وهذا الوصف يدلُّ على أنّ الحلم من أوصاف الكمال ومن الكمالات المطلقة التي يتّصف بها الموجود بما هو موجود. فقد تقرّر في الفلسفة أنّ أوصاف الحقّ تعالى هي الكمالات المطلقة، ومن صفات الموجود بما هو موجود، فاتّصاف الوجود بما لا يستلزم تخصّص الاستعداد بالطبيعة أو بالرياضة. وجميع الأوصاف الكماليّة هي من جنود الرّحمان، لأنّ جنود الحقّ والرّحمان إنّما هي ظلّه، وظلّ الشّيء لا يباينه على نحو العزلة عنه، بل على نحو التّباین الوصفيّ الذي يعني التّمايز في مراتب الكمال والتّقص، وهذا المعنى العرفانيّ الدقيق والحقيقة البرهانيّة الثابتة (أي أنّ الكمالات ظلّ الله) ورد التّعبير عنها في القرآن الكريم بالآية والعلامة<sup>٣</sup>.

ويستوقفنا في هذا الكلام تعبير الإمام قدس سره عن الحلم بأنّه من الكمالات المطلقة، فإذا وُجد في أيّ موجود دلّ على اتّصاله ببحر الكمال اللامتناهي. ولهذا كان دليلاً على كلّ خير. ويقول الإمام قدس سره: "كما وصف الله تعالى نبيّه إبراهيم . وهو خليل الرّحمان ومن أعظم الكاملين في دار الوجود . بالحلم، فقال في سورة هود، الآية ٧٥: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾<sup>٤</sup>، كما وصف إسماعيل ذبيح الله بذلك مبشراً به، فقال في الآية ١٠١ من سورة الصافات: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾<sup>٥</sup>، فاختار من جميع الصفات الكمالية صفة الحلم في بشارته بهذا الغلام الأمر الذي يشير إلى شدة اهتمام إبراهيم الخليل بهذه الصفة الكمالية

<sup>١</sup> سورة الإسراء، الآية ٤٤ .

<sup>٢</sup> سورة الأحزاب، الآية ٥١ .

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٤٢ .

<sup>٤</sup> سورة هود، الآية ٧٥ .

<sup>٥</sup> سورة الصافات، الآية ١٠١ .

وحبه لها، أو إلى اهتمام الحق تعالى بها، أو كلاهما. وعلى كل حال فهذه الآية تثبت أهمية هذه الملكة الشريفة<sup>١</sup>.

فاتّضح أنّ الحلم:

١ - صفة للكمال المطلق.

٢ - صفة للكمال المطلق.

٣ - سبيل الوصول إلى الله وكسب محبته

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الحلم سبيل الوصول إلى الله تعالى. يقول الإمام الخميني قدس سره: "كما اشتملت الأحاديث الشريفة على مدحٍ عظيم لهذا الخلق الكريم، فقد رُوي في الكافي الشريف مسنداً إلى الإمام باقر العلوم سلام الله عليه أنّه قال: "إن الله عزّ وجلّ يحبُّ الحيّ الحليم"<sup>٢</sup>.

ويقول في رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إنّ الله يحبُّ الحيّ الحليم العفيف المتعفف"<sup>٣</sup>.

وهذا أعظم أشكال المدح عند أهل المحبة والمعرفة، لأنهم لا يقارنون ولا يوزنون بمحبة الله شيئاً، وقد نُقل عن الشيخ البهائي رحمه الله، قوله: "إذا أحبّ عبداً لم يحرمه لقاءه، ورزقه وصاله. لذا فإنّ خصوصية هذا الخلق الكريم في الحصول على حبّ الله تكفي أهل المعرفة والقلوب الحية"<sup>٤</sup>.

٣ - مجلبة لرضا الربّ

كما أنّ الحلم أعظم وسيلة لجلب رضا الربّ المتعال، فمن شعر في نفسه أنّه يكاد يؤخذ بذنبه، فليسرع إلى الصّفح والعفو والحلم. فعن جابر أنّه: "قال سمع أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً يشتم قنبراً وقد رام قنبراً أن يردّ عليه فنأذاه أمير المؤمنين عليه السلام: مهلاً يا قنبر دغ شاتمك مهاناً ترضي الرّحمن وتُسخط الشيطان وتُعاقب عدوك فوالذي فلّق الحبة وبرأ التّسمّة ما أرضى المؤمن ربّه بمثل الحلم"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> (ن.م)، ص ٣٤٢-٣٤٣.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ١١٢.

<sup>٣</sup> (ن.م).

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٤٣.

<sup>٥</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٢٩١.

#### ٤ - الحلم جُنة

وعن الإمام علي عليه السلام قال: "الحلم غطاءٌ ساترٌ والعقل حُسامٌ باترٌ فاستُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ"<sup>١</sup>.

حيث يصل الأمر بالحلم إلى قدرته على إخفاء عيوب وآثار جميع الأخلاق الرذيلة. وذلك بمنع ظهورها وتجليها في ساحة العمل.

#### في كيفية تحصيل الحلم

لقد ذكرنا مراراً أنّ الأصل في التخلُّق أن يعمد السالك المجاهد إلى مناشئ الأخلاق ومنابعها فيرتوي منها أو يوصل نفسه بها. وبالإضافة إلى ذلك عليه أن يزيل الموانع التي تقع على الطريق الموصل.

فأول ما يحتاجه السالك في هذا المجال:

#### ١ - الاجتهاد والمجاهدة

يقول الإمام الخميني قدس سره: "نرجعُ الآن إلى بحثنا الأصلي وهو معرفة سبيل التَّجَلِّي بملكَةِ الحلم. وهنا ينبغي التنبّه إلى أنّ الارتباط شديد بين مُلكِ البدن والروح استناداً إلى ما ثبت في الفلسفة العالية من أنّ للتّفس نشأة غيبية ونشأة عالم الشّهادة، فهي عالية في عين الدنوّ ودانية في عين العلوّ، وإنّ الوحدة حاکمة على جميع قواها لذلك فإنّ جميع الآثار الظاهرية تنتقل من مُلكِ البدن إلى الروح كما أنّ الآثار المعنوية تسري من الروح إلى مُلكِ البدن. لذلك إذا اجتهد الإنسان في تحكيم السكينة والطمأنينة على جميع حركاته وسكناته، والتشبه في أعماله الظاهرية بذوي الحلم، وكذلك إذا اجتهد في كظم غيظه وتكليف الحلم، فإنّ ذلك سينتهي به حتماً إلى التَّجَلِّي بالحلم، أي يصبح هذا التكلّف للحلم بالقوّة أمرًا عاديًا طوعيًا فيه.

وبعبارةٍ أخرى، إذا أجبر الإنسان نفسه على هذا الخُلُق وراقبها بصورة صحيحة وكاملة مدّة حصل بلا ريب على النتيجة المطلوبة. وقد ورد ذكر هذا العلاج في الأحاديث الشريفة لأهل بيت الوحي رحمه الله، ففي الوسائل عن نهج البلاغة، روي عن مولى المتقين عليه السلام أنّه

<sup>١</sup> بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٥.

قال: "إن لم تكن حليماً فتحلّم، فإنه قلّ من تشبّهه بقوم إلا وأوشك أن يكون منهم"<sup>١</sup>، وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: "إن لم تكن حليماً فتحلّم"<sup>٢</sup>.

## ٢. استئصال حبّ الدنيا

"إذا، فالعلاج الأساس لهذه الرذيلة (الغضب) يمكن في إزالة علته، أي استئصال حبّ الدنيا من القلب، فإذا طهر الإنسان نفسه منه تساهل فيما يرتبط بالشؤون الدنيوية، فلا يفقد طمأنينة النفس بسبب فقدان الجاه والمال والمنصب والرئاسة، وحينئذٍ تظهر فيه حقيقة الحلم وتترسخ فيه طمأنينة النفس وثباتها وسكينتها"<sup>٤</sup>.

ويبقى أن نشير إلى الارتباط الوثيق بين الحكم والرئاسة. فعن أبي جعفر قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم"<sup>٥</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: "والعدل على أربع شعبٍ غامضٍ الفهم وغمر العلم وزهرة الحكم وروضة الحلم فمن فهم فسّر جميع العلم، ومن علم عرف شرائع الحكم، ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش في الناس حميداً"<sup>٦</sup>.

## ٣- الإيمان

فقد ذكر الحلم في العديد من الأحاديث أنّه علامة الإيمان أو هو الإيمان كما في الدعاء: "وأطوع خلقك لك أقرئهم منك، وأشدّ خلقك لك إعظاماً أدناهم إليك لا علم إلا خشيتك ولا حلم إلا الإيمان بك"<sup>٧</sup>. أو في غرر الحكم: "للمؤمن عقل وفي، وحلم مرضي، ورغبة في الحسنات و فرار من السيئات"<sup>٨</sup>.

<sup>١</sup> وسائل الشريعة، ج ١٥، ص ٢٦٨.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ١١٢.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٤١.

<sup>٤</sup> (م.ن)، ص ٣٣٨.

<sup>٥</sup> الكافي، ج ١، ص ٤٠٧.

<sup>٦</sup> (م.ن)، ج ٢، ص ٥٠.

<sup>٧</sup> بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٨٩.

<sup>٨</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٩١.

وهذا تأكيد آخر على أنّ الإيمان بالله تعالى منبع كلِّ الكمالات. ولا يحتاج الأمر هنا إلى مزيد شرح، فإنّ من ارتباط قلبه بحضور الله تعالى وشهيد مدى عفوه وصفحه لا يمكن إلا أن ينصبغ بهذه الصبغة العظيمة. ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾<sup>١</sup>.

وعن الحسين بن عليّ عليهما السلام قال: "كُنَّا جُلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ صَعِدَ الْمُؤَدُّنُ الْمَنَارَةَ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ فَبَكَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَكَينَا بِبُكَائِهِ، فَلَمَّا فَرَغَ الْمُؤَدُّنُ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ الْمُؤَدُّنُ؟ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَوَصِيِّهِ أَغْلَمُ، فَقَالَ: لَوْ تَعْلَمُونَ مَا يَقُولُ لَصَحِحْتُمْ فَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً فَلِقَوْلِهِ اللَّهُ أَكْبَرُ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ مِنْهَا... اللَّهُ أَكْبَرُ عَلَى مَعْنَى حِلْمِهِ وَكَرَمِهِ يَخْلُمُ كَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ وَيَصْفَحُ كَأَنَّهُ لَا يَرَى وَيَسْتُرُ كَأَنَّهُ لَا يُعْصَى وَلَا يُعْجَلُ بِالْعُقُوبَةِ كَرَمًا وَصَفْحًا وَحِلْمًا"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> سورة البقرة، الآية ١٣٨.

<sup>٢</sup> مستدرک الوسائل، ج٤، ص ٦٥.

## المفاهيم الرئيسة

١- الحلم من صفات الله الحسنى وصفات أكمل خلق الله، ملازم للرحمة والمقابل الحقيقي للغضب، وهو جُعل مقابلاً للانتقام وظاهرًا في العفو عند المقدرة.

٢- إنَّ النَّفس إذا شعرت بالافتقار والتمكّن من جهة، وواجهت اعتداءً أو إهانة، فإنَّها تميل إلى الردّ والانتقام، وهنا يأتي دور الحلم في امتلاك النَّفس وضبطها لكي لا يكون منشأ التَّحريك والتَّعامل مع هكذا مواقف منطلقًا من النَّفس والهوى.

٣- الحلم دليل على لحم الطَّبيعة المتأججة، ومثل هذا لهو أمرٌ عظيم لا يقدر عليه إلاَّ المؤيَّد بأنوار المعرفة والتَّوحيد.

٤- الحلم من أوصاف الكمال ومن الكمالات المطلقة التي يتَّصف بها الموجود بما هو موجود وهو من الكمالات المطلقة، فإذا وُجد في أيِّ موجود دلٌّ على اتِّصاله ببحر الكمال اللامتناهي، ولهذا كان دليلًا على كلِّ خير. فهو صفة للكمال المطلق وصفة للكمال المطلق.

٥- كما أنَّ الحلم عزٌّ وهو أعظم وسيلة لجلب رضا الرَّبِّ المتعال وكسب محبَّته.

٦- الجلم جُنة، فله القدرة على إخفاء عيوب وآثار جميع الأخلاق الرذيلة، وذلك يمنع من تجلُّبها في ساحة العمل.

٧- الحلم أمرٌ فطري تقتضيه الفطرة السليمة، وأنَّه من جنود العقل والرَّحمان. وهو يأتي من قوة العقل أيضاً، ومن اعتدال القوَّة الغضبيَّة.

٨- للتَّحلي بهذا الخلق العظيم لا بدّ من:

- المجاهدة، فإذا أجز الإنسان نفسه على هذا الخلق وراقبها بصورة صحيحة وكاملة مدَّة حصل بلا ريب على التَّنتيجة المطلوبة ويصبح شيئاً فشيئاً من أهل الحلم.

- استئصال حبِّ الدنيا من القلب، فإذا طهَّر الإنسان نفسه منه تساهل فيما يرتبط بالشؤون الدنيوية، فلا يفقد طمأنينة النفس بسبب فقدان الجاه والمال والمنصب والرَّئاسة، وحينئذٍ تظهر فيه حقيقة الحلم.

٩- الحلم علامة الإيمان بل هو الإيمان كما ورد في بعض الأحاديث.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

اللَّهُمَّ لَيْسَ يَرُدُّ غَضَبَكَ إِلَّا جِلْمُكَ، وَلَا يَرُدُّ سَخَطَكَ إِلَّا عَفْوُكَ، وَلَا يُجِيرُ مِنْ عِقَابِكَ إِلَّا رَحْمَتُكَ، وَلَا يُنْجِي مِنْكَ إِلَّا التَّضَرُّعُ إِلَيْكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَهَبْ لَنَا يَا إِلَهِي مِنْ لَدُنْكَ فَرْجاً بِالْقُدْرَةِ الَّتِي بِهَا تُحْيِي أَمْوَاتَ الْعِبَادِ، وَبِمَا تَنْشُرُ مَيِّتَ الْبِلَادِ وَلَا تُهْلِكُنِي يَا إِلَهِي غَمًّا حَتَّى تَسْتَجِيبَ لِي<sup>١</sup>.

## الروايات الشريفة:

١- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "مَا جُمِعَ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ حِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ"<sup>٢</sup>.

٢- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "لا حلم كالصمت"<sup>٣</sup>.

٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "من عصى غضبه أطاع الحلم"<sup>٤</sup>.

٤- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "لا تحلم عن نفسك إذا هي أغوتك"<sup>٥</sup>.

٥- عن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: "أَطْعِمُوا الْبُرِّيَّ نِسَاءَكُمْ فِي نِفَاسِهِنَّ تَحْلُمَ أَوْلَادُكُمْ"<sup>٦</sup>.

٦- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "زَكَاةُ الْحِلْمِ الْإِحْتِمَالُ"<sup>٧</sup>.

٧- وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "الْحِلْمُ وَالْأَنَاءَةُ تَوَامَانِ تَنْتِجُهُمَا عُلُوُّ الْهَمَّةِ"<sup>٨</sup>.

٨- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "ثمرة الحلم الرفق"<sup>٩</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام يوم الأضحى ويوم الجمعة.

<sup>٢</sup> وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٢٦٨.

<sup>٣</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢١٦.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٢٨٦.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ٢٤٣.

<sup>٦</sup> الكافي، ج ٦، ص ٢٢.

<sup>٧</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٤٢٠.

<sup>٨</sup> بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٤٢٨.

<sup>٩</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢٨٧.

٩- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "الحلم نظام أمر المؤمن"<sup>١</sup>.

١٠- وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَتَعَلَّمُوا لِلْعِلْمِ السَّكِينَةَ وَالْحِلْمَ وَلَا تَكُونُوا جَبَابِرَةَ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَقُومُ عِلْمُكُمْ بِجَهْلِكُمْ"<sup>٢</sup>.

١١- وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "الْحِلْمُ يُطْفِئُ نَارَ الْعُصَبِ وَالْحِدَّةُ تُوجِّحُ إِحْرَاقَهُ"<sup>٣</sup>.

١٢- وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "الْحِلْمُ عِنْدَ شِدَّةِ الْعُصَبِ يُؤَمِّنُ غَضَبَ الْجَبَّارِ"<sup>٤</sup>.

١٣- عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي حَدِيثٍ: "وَمَرَارَةُ الْحِلْمِ أَعْدَبُ مِنْ مَرَارَةِ الْإِنْتِقَامِ"<sup>٥</sup>.

١٤- عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ اءَلْمُوا أَنَّ الْحِلْمَ زِينَةُ وَالْوَقَارَ مُرُوءَةٌ وَالصَّلَاةَ نِعْمَةٌ"<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢٨٥.

<sup>٢</sup> بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٧.

<sup>٣</sup> مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ١٢.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ج ١٢، ص ١١.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ج ١١، ص ٢٩٠.

<sup>٦</sup> (ن.م)، ص ٢٨٨.



## الدرس التاسع والعشرون: الأمانة

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يشرح معنى أن يكون الإنسان أميناً.
- ٢- يبيّن أهمية الأمانة ودورها في تكامل الإنسان وحفظ نظام المجتمع.
- ٣- يتعرّف إلى العلاقة بين حفظ الأمانة والإيمان وأهم موانعها.



## تمهيد

تُعَدُّ الأمانة من بديهيات الإدراكات الأخلاقية عند البشرية وهي ضدّ الخيانة كما ورد في حديث جنود العقل والجهل المروي عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث الإمام الأمانة من جنود العقل بقوله عليه السلام: "...والأمانة وضدها الخيانة".<sup>١</sup> ، ولهذا يُجمع النَّاس على قبح الخيانة ويطردون من اتّصف بها لما فيها من فساد لنظام معاشهم.

وعليه، فلا يحتاج الإنسان إلى تعاليم الأنبياء وإرشاداتهم ليكون أمينًا. فهي حجّة الله تعالى على الإنسانيّة ووسيلته لأخذ الميثاق. أمّا وجه الحاجة في الأمانة إلى هداية السّماء فهي من ناحية التعرّف على الأمانات التي جهلها النَّاس أو غفلوا عنها فضاعت وسط أعرافهم وعاداتهم.

لهذا نجد الإمام يسلّط الضّوء على مجموعة من الأمانات الإلهية ويشرح كيفية اعتبارها كذلك، حتّى إذا أدرك أحدنا معنى الأمانة فيها شعر بالمسؤوليّة الكبرى تجاهها.

فالأمين . بالمعنى التامّ . هو الذي يحافظ على هذه الأمانات، ويردّها إلى أهلها. ولهذا، وُصف العارف بهذه السجّية العظيمة على نحو الحصر، كما جاء في كلام الإمام الصادق عليه السلام: "العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله لو سها قلبه عن الله طرفة عين ل مات شوقًا إليه، والعارف أمين ودائع الله وكنز أسرارهِ ومعدن نوره ودليل رحمته على خلقه ومطيّة علومه وميزان فضله وعدله، قد غني عن الخلق والمراد والدنيا ولا مؤنس له سوى الله ولا نطق ولا إشارة ولا نفس إلا بالله لله من الله مع الله"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ١، ص ٢٢.

<sup>٢</sup> مصباح الشريعة، ص ١٩١.

## أنواع الأمانات

إنّ وضوح معنى الأمانة يغنيننا عن البحث عن تعريفها العمليّ، كما أنّ حسنها الوجدانيّ لا يضطرّنا إلى المجيء بالكثير من الشواهد لتأكيد فضيلتها. فما يهّمنا في هذا البحث هو التعرّف على الأمانات المجهولة لتتعرفّ على الأمين الحقيقيّ عند الله تعالى.

### ١- المادية وغير المادية

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "من المعلوم أنّ خيانة المؤمنين تعمّ الخيانة المالية والخianات الأخرى التي هي أكبر من الخيانة الماليّة. فيجب على الإنسان في هذه الدّنيا أن يراقب النّفس الأمانة كثيراً، إذ ربّما تقوم بعملية التعتيم للحقائق على الإنسان وتذليل الصّعوبات وتسهيلها، مع أنّها توجب الشّقاء الدّائم والخذلان الأبديّ. هذه هي حالة الخيانة لعباد الله، ويتبيّن من هنا أيضاً وضع الخائن لأمانة الحقّ المتعالي"<sup>١</sup>.

### ٢- الولاية والصلاة

ففي الحديث المرويّ عن الإمام عليّ عليه السلام: "كان إذا حضر وقت الصّلاة يتململ ويتزلزل ويتلوّن، فيُقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول عليه السلام: جاء وقت الصّلاة وقت أمانة عرضها الله على السّموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها"<sup>٢</sup>... ويفسّر الإمام الخمينيّ قدس سره هذا الكلام التورايّ قائلاً: "ولعلّ الذّكر في الآية الشريفة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ بصيغة الجمع لما ذكرنا من النكتة في ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ لأنّ الأمانة بحسب الباطن هي حقيقة الولاية وبحسب الظاهر هي الشريعة أو دين الإسلام أو القرآن أو الصلاة"<sup>٣</sup>.

### ٣- التكليف الإلهية

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "توجد في المقام نكتة لا بد من الإشارة إليها، وهي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن أوصى بالورع فرّع عليه قائلاً: "وَلَا تَجْتَرِيءَ عَلَيَّ خِيَانَةً أَبَدًا"<sup>٤</sup> مع

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥١٠.

<sup>٢</sup> عوالي اللآلي، ج ١، ص ٣٢٤.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٣٢٠.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ٨، ص ٧٩.

أنّ الورع يكون عن كلّ المحرمات، أو يكون أعمّ من الحيانة، وعليه لا بدّ من تفسير الحيانة بمعنى أعمّ من المفهوم العربيّ لها، حتى تتطابق مع الورع، بأن نقول إنّ مطلق المعصية أو اقتراف مطلق ما يمنع من السير إلى الله، خيانة، لأنّ التكاليف الإلهية أمانات للحقّ سبحانه كما ورد في الآية الكريمة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>١</sup> الخ. حيث فسّر بعض المفسّرين الأمانة بالتكاليف الإلهية.

#### ٤- الأعضاء الظاهرية والباطنية

بل إنّ جميع الأعضاء، والجوارح والقوى، أمانات للحقّ المتعالى، واستعمالها على خلاف رضا الحقّ سبحانه، خيانة، كما أنّ توجيه القلب إلى غير الحقّ يُعدّ من الخيانة. (بيت شعر: هذه الروح التي أعارها لي الصديق الحميم سأرجعها إليه في اليوم الذي أرى وجهه). أو أنّ المقصود من الخيانة نفس المعنى المتعارف، ويكون وجه التخصيص بذكرها لأجل شدّة الاهتمام بالخيانة، فكأنّ الورع كلّ الورع هو في الابتعاد عن خيانة الأمانة<sup>٢</sup>.

وفي هذا الكلام تأكيد واضح على أهمية صيانة القوى الظاهرية والباطنية للإنسان من الإنحراف عن جادة الصراط المستقيم. ويقول الإمام قدس سره: "ولا بدّ من معرفة أنّ الحقّ تبارك وتعالى، قد وهبنا كافة القوى والأعضاء الظاهرية والباطنية، وبسط لنا بساط الرّحمة والتّعمّة في مملكتنا الظاهرية والباطنية، ووضعها كلّها تحت قدرتنا لتسخيرها، وأتّمننا عليها بلطفه ورحمته، وهي . هذه العطايا . طاهرة ونظيفة من كلّ القذارات الصّورية والمعنوية وكذلك ما أنزل علينا من عالم الغيب كان بعيداً عن الشّوائب والعناصر الغريبة، فإذا أرجعنا هذه الأمانات لدى لقائنا بالذّات المقدّس، من دون أن تصير ممزوجة مع عالم المادّة، وقذارات الملك والدّنيا، كُنّا أمناء على الأمانة التي أودعت عندنا، وإن لم نحافظ على طهارة هذه الأمانات، غدونا من الخائنين والخارجين عن الإسلام الحقيقيّ، وملة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> سورة الأحزاب، الآية ٧٢.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٠٧.

<sup>٣</sup> (ن، ص ٥١١).

## ٥- ولاية أهل البيت ومودتهم

يقول الإمام الخميني قدس سره: "في الحديث المشهور: "إِنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ عَرْشُ الرَّحْمَنِ"<sup>١</sup>، وفي الحديث القدسي المعروف "لَا يَسْعِي أَرْضِي وَلَا سَمَائِي وَلَكِنْ يَسْعِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ"<sup>٢</sup>. فإنَّ قلب المؤمن عرش الحقِّ المتعالِي، وسرير سلطنته وسكنى ذاته المقدَّس، وإنَّه سبحانه صاحب هذا البيت، فالالتفات إلى غير الحقِّ خيانة للحقِّ، والحبُّ لغير ذاته الأقدس ولغير أوليائه الذين يعتبر حبُّهم حبَّه سبحانه، خيانة لدى العرفاء. وإنَّ ولاية أهل بيت العصمة والطَّهارة، ومودَّتهم، ومعرفة مرتبتهم المقدَّسة، أمانة من الحقِّ سبحانه. كما ورد في الأحاديث الشَّريفة في تفسير الأمانة في الآية ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بولاية أمير المؤمنين عليه السلام. كما أنَّ غضب خلافته وولايته، خيانة لتلك الأمانة وأنَّ رفض المتابعة للإمام علي عليه السلام مرتبة من مراتب الخيانة"<sup>٣</sup>.

## آثار الأمانة ونتائجها

دُكر الكثير من النَّائج والآثار العظيمة للأمانة على صعيد الدُّنيا والآخرة، ونكتفي ها هنا بذكر ثلاثة منها كما جاء في كلمات الإمام الخميني قدس سره.

## ١- حفظ نظام المجتمع

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ومن يرجع إلى أخبار المعصومين عليهم السلام المأثورة في ردِّ الأمانة والابتعاد عن الخيانة، لأدرك حجم اهتمام الشَّارع المقدَّس بهذا الموضوع. ويُضاف إلى ذلك هو أنَّ قبحها الدَّائِي لا يخفى على أحد. وأنَّه يجب إخراج الإنسان الخائن من المجتمع البشري، وإلحاقه بأرذل الشَّياطين. ومن المعلوم أنَّ الإنسان الذي يشتهر بين النَّاس بالخيانة، تضيق عليه الحياة وتصبح، حتى في هذا العالم أيضًا. إنَّ البشر بصورة عامة يعيشون مع بعضهم البعض في ظلِّ التعاون والتَّعاضد حياةً سعيدة، ولا يمكن لأحد، الحياة بصورة منفردة، إلَّا إذا غادر المجتمع البشري والتحق بالحيوانات الوحشيَّة. ثمَّ إنَّ

<sup>١</sup> بحار الأنوار، ج ٥٥، ص ٣٩.

<sup>٢</sup> عوالي اللآلي، ج ٤، ص ٧.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثًا، ص ٥١١.

العجلة الكبيرة التي تدور لتحريك الحياة الاجتماعية، هي اعتماد الناس بعضهم على بعض، فإذا زال الاعتماد وتلاشت الثقة، لما تمكن الإنسان أن يعيش هنيئًا رغيدًا. إنّ الركيزة الأساسية للاعتماد المتبادل بين الناس قائمة على الأمانة وترك الخيانة، فلا يحظى الخائن، بالاطمئنان لدى الناس ويُعدّ مارقًا على المدينة وخارجًا عن العضوية للمجتمع البشري وتكون عضويته مرفوضة لدى أصحاب المدينة الفاضلة. ومن الواضح أنّ مثل هذا الإنسان يعيش حياة ضنك وفي صعوبة بالغة<sup>١</sup>.

## ٢- بلوغ أعلى مراتب الكمال

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ففي الحديث عن أبي كهَمَس قال: "قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي يَعْفُورٍ يُقَرِّئُكَ السَّلَامَ. قَالَ: عَلَيْكَ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ، إِذَا أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ فَأَقْرِئْهُ السَّلَامَ وَقُلْ لَهُ: إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ يَقُولُ لَكَ، انظُرْ مَا بَلَغَ بِهِ عَلِيٌّ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَلْزَمُهُ، فَإِنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا بَلَغَ مَا بَلَغَ بِهِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ"<sup>٢</sup>. فيا عزيزي: تدبّر في هذا الحديث الشريف، وانظر إلى أنّ مقام صدق الحديث وأداء الأمانة دفعا بعليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى بلوغ ذلك المقام الرفيع. ويُفهم من هذا الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يحبّ هاتين الخصلتين أكثر من غيرهما، لأنّ هاتين الصّفتين من الصّفات الكمالية لمولانا عليّ بن أبي طالب عليه السلام قد بلغتا به ذلك المقام الرفيع، وإنّ الإمام الصادق عليه السلام قد أبدى اهتمامًا بماتين الصّفتين أكثر من كلّ الأفعال والأوصاف، ودكّر عليه السلام ابن أبي يعفور الذي هو من المخلصين والمقرّبين له عليه السلام بهما خاصة<sup>٣</sup>.

## ٣- الشّفاة يوم الحشر

فإنّ أهمّ معاني الشّفاة المصاحبة والملازمة. وإذا كان الشّفيح قويًا ووجيهًا، فإنّ صحبته تكون أنفع ما يكون في المهمّات والشّدائد. وكفى بيوم القيامة صعوبةً وشدّةً، وكفى بالصّراطِ خطورةً وهولًا. وهنا نجد الأمانة في أفضل نجداتها.

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ٥٠٨.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٠٤.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثًا، ص ٥٠٨-٥٠٩.

ففي الحديث الذي يرويهِ الإمام الخمينيُّ قدس سره عن الإمام الباقر عليه السلام: "قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: حافِتنا الصِّراطُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّحْمُ وَالْأَمَانَةُ، فَإِذَا مَرَّ الْوَصُولُ لِلرَّحْمِ الْمُؤَدِّي لِلْأَمَانَةِ نَفَذَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِذَا مَرَّ الْخَائِنُ لِلْأَمَانَةِ الْقَطُوعُ لِلرَّحْمِ لَمْ يَنْفَعَهُ مَعَهُمَا عَمَلٌ وَتَكْفَأُ بِهِ الصِّراطُ فِي النَّارِ"<sup>١</sup>. فغلم بأنَّ صورتي الرَّحْمِ والأمانة في ذلك العالم تقفان على طريقي الطَّريق، وتعيانان من يصل رحمة ويؤدِّي أمانته، ومع تركهما لا يفيدنا أيَّ عملٍ آخر وإنما بتركها يهوي الإنسان في النار"<sup>٢</sup>.

## موانع الأمانة

احتوت كلمات الإمام الخمينيِّ قدس سره على مجموعة من الملاحظات المهمّة في باب الأمانة وأسباب الخيانة. ونحن نذكر ثلاثة أسباب أساسية تؤدي إلى الخيانة وتحول دون رسوخ ملكة الأمانة في النفس منها:

### ١- حبّ الدُّنيا

فعن الإمام الخمينيِّ قدس سره، قال: "المحتجبون بحجاب الطبيعة، لا همّ لهم سوى الآمال النفسانية والمطلوبات الطبيعية، لذلك فهم يتكالبون على جيفة الطبيعة، ويستهلكون قوَّتهم الغضبيّة في هذا السَّبيل، فيسقطون في مستنقع الدُّنيا والطَّبيعة وشباكها بالوسائل نفسها التي وهبها الله لهم للتخلّص من هذه الشِّبّاك، فيخونون النعم والأمانات الإلهية ويسلّطون عليها الأيدي الملوّثة للنفس الأمارّة بالسَّوء"<sup>٣</sup>.

### ٢- الغضب

يقول الإمام قدس سره: "فليفكّر في أنّ هذه الغريزة (الغضب) التي وهبها الله تعالى إتياء لحفظ نظام الظاهر والباطن وعالم الغيب والشَّهادة، إذا استخدمها لغير تلك الأهداف وبخلاف ما يريد الله سبحانه وضدّ المقاصد الإلهية، فما مدى خيانتها؟ وما هي العقوبات التي يستحقّها؟ وكم هو ظلومٌ جهولٌ؟ لأنّه لم يَصُنْ أمانة الحقّ تعالى، بل استعملها في

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٥٢.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٠٩.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٧٧.

العداوات والمخاصمات. إنَّ امرئًا هذا شأنه لا يمكن أن يأمن الغضب الإلهي<sup>١</sup>.

### ٣- العصبية

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ومن ناحية أخرى في قباحة هذه السجية (العصبية) لدى أهل العلم هو جانب العلم نفسه، إذ إنَّ هذه العصبية خيانة للعلم وتجاهل لحقّه، فمن يتحمّل عبء هذه الأمانة ويلبس لبوسها، عليه أن يرضى حرمتها واحترامها، وأن يعيدها إلى صاحبها صحيحة سليمة. فإذا ما تعصّب، تعصّب الجاهلية يكون قد خان الأمانة وارتكب الظلم والعدوان، وهذه بذاتها خطيئة كبرى"<sup>٢</sup>.

### كيفية حفظ الأمانة

وبالحديث عن كيفية حفظ الأمانة وردّها يتمّ البحث حول الأمانة وفق الرؤية الأخلاقية الإلهية. ونستعين بكلمات إمامنا الخميني قدس سره في بيان المسؤولية المعنوية والعملية تجاه تلك الأمانات العظيمة.

### ١- التمسك بوليّ الله

ففي مورد قوى النفس الظاهرة والباطنية، يقول الإمام الخميني قدس سره: "وليُعلم أنّ جميع القوى الظاهرية والباطنية التي أعطانا الله إيّاها وأنزلها من عالم الغيب، هي أمانات إلهية كانت طاهرة من جميع القذارات، وكانت طاهرة مطهّرة، بل كانت متنوّرة بنور الفطرة الإلهية وبعيدة عن ظلمة تصرف إبليس وكدورته. فلمّا نزلت إلى ظلمات عالم الطبيعة وامتدّت يد تصرف شيطان الواهمة ويد الخيانة الإبلسية إليها، خرجت عن الطهارة الأصلية والفطرة الأولى، وتلوّثت بأنواع القذارات والأرجاس الشيطانية. فالسالك إلى الله إذا أبعد يد الشيطان بالتمسك بذيل عناية وليّ الله، وطهر المملكة الظاهرية وردّ الأمانات الإلهية كما أخذها فهو ما خان الأمانة حينئذٍ. وإن صدرت منه خيانة فهو مورد للغفران والستارية، فيستريح خاطره من ناحية الظاهر"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ١٦٤.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ١٨٠.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٦٧.

## ٢- الصلّاة

أما في مورد الصلّاة فهو قدس سره أفضل من تحدّث عن كَيْفِيَّة أدائها. ومما قاله في هذا المجال: "اعلم أنّ الصلّاة هي مقام العروج إلى مقام القرب والحضور في محضر الأنس، ويلزم للسالك مراعاة آداب الحضور في محضر ملك الملوك المقدّس. وحيث أنّ أدنى المراتب والمراحل لظهور النفس التي هي قشر القشر والبدن الصوّريّ الملوكيّ، إلى أعلى مقاماتها وحقائقها التي هي لبّ اللباب ومقام سرّ القلب، حاضرة في المحضر المقدّس للحقّ، فعلى السالك أيضًا أن يستحضر ويعرض جميع الجنود الباطنة والظاهرة لممالك السرّ والعلن على محضر الحقّ جلّ وعلا، ويقدم إلى محضره المقدّس جميع الأمانات التي وهبها الله سبحانه بيد قدرة الجمال والجلال، وقد كانت في كمال الطّهارة والصّفاء ومن دون تصرف أحد من الموجودات، ويردّها إليه كما أعطاه سبحانه إياها".<sup>١</sup>

## ٣- الإيمان

وحول الإيمان يقول الإمام قدس سره: "...نعوذ بالله من زوال هذا الإيمان الذي ليس له لبّ وجوهر ولا هيمنة له في ملك الجسم، ومن انتقال الإنسان من هذه الدّنيا على التّفاق، وحشره مع المنافقين. وهذا من الأمور الهامة التي لا بدّ أن تدعن لها نفوسنا الضّعيفة، وتهتمّ بها ونكون حريصين على تعميق الإيمان في الظّاهر والباطن والسرّ والعلن، وكما ندعي الإيمان في قلوبنا نجهد أنفسنا على هيمنة الإيمان على الظّاهر أيضًا، حتى يتجدّر الإيمان في القلب ولا يزول أمام عائق ومانع أو أيّ تغيير وتبديل، إلى أن يتمّ تسليم هذه الأمانة الإلهيّة، والقلب الطّاهر الملوكويّ الذي تخمّر بالفطرة الإلهيّة إلى الدّات المقدّس من دون أن تمتد إليه يد الشّيطان والخيانة والحمد لله أولاً وآخراً".<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ١٠١ - ١٠٢.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٦٤.

## موعظة

ونهي الحديث عن الأمانة . وهو لا ينتهي . موعظة للإمام الخميني قدس سره: "أيها العزيز! استيقظ وابتعد عنك الغفلة والسكرة وزن أعمالك بميزان العقل قبل أن توزن في ذلك العالم، وحاسب نفسك قبل أن تُحاسب، واجلُ مرآة القلب من الشرك والتفاهق والتلون، ولا تدع صدأ الشرك والكفر يحيط به بمستوى لا يمكن جلاؤه حتى بنيران ذلك العالم، لا تدع نور الفطرة يتبدل بظلمة الكفر، لا تدع هذه الآية ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾<sup>١</sup> .. أن تضع، لا تخن هذه الأمانة الإلهية بهذا النحو، نظف مرآة قلبك لكي يتجلى فيها نور جمال الحق فيغنيك عن العالم وكل ما فيه، ولكي تتوهج نار الحب . العشق . الإلهي في قلبك، فتحرق الأنواع الأخرى من الحب، ولا تستبدل حينذاك جميع هذا العالم بلحظة واحدة من الحب الإلهي، ولكن تحصل على لذة في مناجاة الله وذكره، تعتبر غيرها من جميع اللذات الحيوانية، لعباً وهواً"<sup>٢</sup>.

وبإسناده عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث المناهي، أنه نَهَى عَنِ الْخِيَانَةِ وَقَالَ: "مَنْ خَانَ أَمَانَةً فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَرُدَّهَا إِلَى أَهْلِهَا ثُمَّ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ مَاتَ عَلَى غَيْرِ مِلَّتِي وَيَلْقَى اللَّهُ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ وَمِنْ اشْتَرَى خِيَانَةً وَهُوَ يَعْلَمُ فَهُوَ كَالَّذِي خَانَهَا"<sup>٣</sup>... ويعرف الجميع مضاعفات سحق الذات المقدس الحق وغضبه على البعد. كما أنه من المعلوم أنّ الشفعاء، لا يشفعون لمن هو مغضوب عليه لدى الحق سبحانه. وخاصة أنّ الخائن يكون خارجاً أيضاً عن أمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ففي حديث آخر "لَيْسَ مِنَّا مَنْ خَانَ مُؤْمِنًا"<sup>٤</sup>، وفي حديث ثالث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "مَنْ خَانَ أَمَانَةً فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَرُدَّهَا إِلَى أَهْلِهَا مَاتَ عَلَى غَيْرِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَلَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ فَيَهْوَى بِهِ فِي شَفِيرِ جَهَنَّمَ أَبَدَ الْآبِدِينَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْخَطِيئَةِ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> سورة الزوم، الآية ٣٠.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٦٢.

<sup>٣</sup> من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ١٥.

<sup>٤</sup> وسائل الشريعة، ج ١٩، ص ٧٧.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ٧٨.

<sup>٦</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥١٠.

## المفاهيم الرئيسة

- ١- الأمين . بالمعنى التام . هو الذي يحافظ على الأمانات، ويردّها إلى أهلها.
- ٢- الأمانة لدى العرفاء هي الولاية المطلقة التي لا يليق بها غير الإنسان، وهذه الولاية المطلقة هي مقام الفيض المقدّس.
- ٣- الأمانة بحسب الباطن هي حقيقة الولاية وبحسب الظاهر هي الشريعة أو دين الإسلام أو القرآن أو الصلاة.
- ٤- من موارد خيانة الأمانة، خيانة عباد الله، والتي هي أعم من الخيانات الماليّة.
- ٥- إنّ مطلق المعصية أو اقتراح مطلق ما يمنع من السّير إلى الله خيانة، لأنّ التكليف الإلهيّة أمانات للحقّ سبحانه، بل إنّ جميع الأعضاء والجوارح والقوى أمانات للحقّ المتعالّي، واستعمالها على خلاف رضا الحقّ سبحانه، خيانة.
- ٦- لقد وهبنا الحقّ تعالى كافّة القوى والأعضاء الظاهريّة والباطنيّة طاهرة ونظيفة من كلّ القذارات الصّوريّة والمعنويّة فإذا أرجعنا هذه الأمانات لدى لقائنا بالذات المقدّس، من دون أن تصير ممزوجة مع عالم المادّة، وقذارات الملك والدنيا، كُنّا أمناء على الأمانة التي أودعت عندنا.
- ٧- الحبّ لغير ذاته الأقدس ولغير أوليائه الذين يعتبر حبّهم حبّه سبحانه، خيانة لدى العرفاء.
- ٨- إنّ عليّاً عليه السلام إنّما بلّغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصدق الحديث وأداء الأمانة.
- ٩- إنّ حفظ الأمانة يكون من خلال: التمسك بذيل عناية وليّ الله، وتقديم جميع الأمانات التي وهبها الله سبحانه بيد قدرة الجمال والجلال إلى محضره المقدّس. ومن خلال السلام والعمل على تجذير الإيمان في القلب إلى أن يتمّ تسليم هذه الأمانة الإلهيّة.
- ١٠- من الأسباب الأساسيّة التي تؤدّي إلى الخيانة وتحول دون رسوخ ملكة الأمانة في النّفس: حبّ الدنيا، الغضب، العصبية.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

اللَّهُمَّ اجْعَلْ نَفْسِي أَوَّلَ كَرِيمَةٍ تَنْتَرَعُهَا مِنْ كَرَائِعِي، وَأَوَّلَ وَدِيعَةٍ تَرْجَعُهَا مِنْ وَدَائِعِ نَعْمِكَ عِنْدِي! <sup>١</sup>.

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قَلْبِي مِنَ التَّفَاقِي وَعَمَلِي مِنَ الرِّيَاءِ وَلِسَانِي مِنَ الكَذِبِ وَعَيْنِي مِنَ الخِيَانَةِ، فَإِنَّكَ تَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ <sup>٢</sup>.

### الآيات الكريمة:

١- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ <sup>٣</sup>.

٢- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ <sup>٤</sup>.

٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ <sup>٥</sup>.

### الروايات الشريفة:

١- عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مَنْ عَرَفَ مِنْ عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِ اللَّهِ كَذِبًا إِذَا حَدَّثَ وَخُلْفًا إِذَا وَعَدَ وَخِيَانَةً إِذَا أُؤْتِمِنَ ثُمَّ ائْتَمَنَهُ عَلَى أَمَانَةٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَنْتَلِيَهُ فِيهَا ثُمَّ لَا يُخْلِفَ عَلَيْهِ وَلَا يَأْجُرُهُ" <sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> نهج البلاغة، خ ٢١٥.

<sup>٢</sup> مفاتيح الجنان، يُدعى به في السحر.

<sup>٣</sup> سورة النساء، الآية ٥٨.

<sup>٤</sup> سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

<sup>٥</sup> سورة الأنفال، الآية ٢٧.

<sup>٦</sup> الكافي، ج ٥، ص ٢٩٩.

٢- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "مَنِ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ، وَرَوَعَ فِي الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهِ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ فِي الدُّنْيَا الْخِزْيَ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَذْلُ وَأَخْزَى"<sup>١</sup>.

٣- وعن الإمام علي عليه السلام قال: "وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفَعَلَهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ"<sup>٢</sup>.

٤- وعن الإمام علي عليه السلام قال: "إِثْمٌ أَدَاءُ الْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَاوَاتِ الْمُبِينَةِ، وَالْأَرْضِينَ الْمُدْحُورَةِ، وَالْجِبَالِ ذَاتِ الطُّوْلِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلَا أَطْوَلَ وَلَا أَعْرَضَ، وَلَا أَعْلَى وَلَا أَعْظَمَ مِنْهَا، وَلَوْ امْتَنَعَ شَيْءٌ بِطَوْلٍ أَوْ عَرِضٌ أَوْ قُوَّةٌ أَوْ عِزٌّ لَامْتَنَعَنَ، وَلَكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ الْعُثُوبَةِ، وَعَقَلْنَ مَا جَهَلِ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُنَّ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾"<sup>٣</sup>.

٥- وعن الإمام علي عليه السلام قال: "أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة صدق حديث وأداء أمانة وعفة بطن وحسن خلق"<sup>٤</sup>.

٦- عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "ثَلَاثَةٌ يُرْزَقُونَ مُرَافَقَةَ الْأَنْبِيَاءِ رَجُلٌ يُدْفَعُ إِلَيْهِ قَاتِلٌ وَلِيَّهُ لِيَقْتُلَهُ فَعَفَا عَنْهُ، وَرَجُلٌ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ لَوْ يَشَاءُ لَخَانَهَا فَيَرُدُّهَا إِلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا، وَرَجُلٌ كَظَمَ غَيْظَهُ عَنْ أَخِيهِ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ"<sup>٥</sup>.

٧- عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَفْضَلُ حَالٍ أُعْطِيَ لِلرَّجُلِ؟ قَالَ: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْخُلُقُ الْحَسَنُ إِنَّ أَدْنَاكُمْ مِنِّي وَأَوْجِبُكُمْ عَلَيَّ شَفَاعَةٌ أَصْدُقُكُمْ حَدِيثًا وَأَعْظَمُكُمْ أَمَانَةً وَأَحْسَنُكُمْ خُلُقًا وَأَقْرَبُكُمْ مِنَ النَّاسِ"<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> نهج البلاغة، ص ٣٨٢.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٨٢.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣١٧.

<sup>٤</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢١٧.

<sup>٥</sup> مستدرک الوسائل، ج ٩، ص ١٢.

<sup>٦</sup> (ن.م)، ج ٨، ص ٤٤٢.

## الدرس الثالثون: العدالة

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن المعنى الدقيق للعدالة وموارد تطبيقها.
- ٢- يشرح أهمية العدالة وموقعيتها في سير الإنسان التكاملي.
- ٣- يتعرّف إلى منشأ العدالة والدفاع لإقامة هذه الفضيلة.



## تمهيد

من الملفت أن نجد أكثر ما ورد في كلمات العلماء حول العدالة يرتبط بالعدالة الفردية أو اعتدال قوى النفس، بينما نجد أكثر ما ورد في الآيات والأحاديث الشريفة يرتبط بالعدالة الاجتماعية.

وقد اشتهر في كتب الفقه معنى العدالة الذي ينطلق من فعل الواجبات وترك المحرمات. فما هو سبب الاختلاف في تفسير قضية هي غاية في الأهمية بحيث اعتُبرت في الأخلاق أعظم الفضائل وأمنها وكلها، وفي المجتمع أساس الحكم وبقاء المجتمعات، وفي الفقه عنوان الالتزام الديني وأصل الكثير من الحقوق والامتيازات؟

## معنى العدل

"العدالة عبارة عن الحدّ الوسط بين الإفراط والتفريط، وهي من أمّهات الفضائل الأخلاقية، بل إنّ العدالة المطلقة حاوية لجميع الفضائل الباطنية والظاهرية، والروحانية والقلبية، والنفسية والجسمية، لأنّ العدل المطلق هو الاستقامة بكل معانيها"<sup>١</sup>.

## أهمية العدالة

قبل الدخول في تفسير العدل وتحليلاته على مستوى الفرد والمجتمع والكون، نتوقّف عند أهمية القضية، لأنّ البحث في معنى العدل لا يشبه ما سبقه من موضوعات، بل يحتاج إلى عناية خاصة ودقّة كافية. وخصوصًا لما قد يترتب على التفسير من استنتاجات هي غاية في الأهمية.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٤٣.

ذكر الإمام أنّ العدالة هي "من أمّهات الفضائل الأخلاقية، بل إنّ العدالة المطلقة حاوية لجميع الفضائل الباطنية والظاهرية، والروحية والقلبية، والتفسيّة والجسميّة، لأنّ العدل المطلق هو الاستقامة بكل معانيها"<sup>١</sup>، وإنّ الاعتدال الحقيقي لا يتيسّر إلاّ للإنسان الكامل"<sup>٢</sup>. وفي نفس المصدر ذكر أنّه "من الفضائل الإنسانية العظمى"، و"به تحقّق غاية الكمال الإنسانيّ ومنتهى السّير الكماليّ بل هو تحقّق هذا الكمال بعينه في أحد معانيه . هو من مهمّات الأمور التي تؤدّي الغفلة عنها إلى خسرانٍ عظيم، وضررٍ جسيم، وشقاءٍ لا يمكن جبره"<sup>٣</sup>.

أمّا في الأحاديث والرّوايات فقد ذُكر أنّ "العدل أحلى من العسل"<sup>٤</sup>، وأنّه من دعائم الإيمان<sup>٥</sup>، وأنّه "رأس الإيمان"<sup>٦</sup>، وأنّه "ميزان الله في الأرض"<sup>٧</sup>، وأنّه أعمّ الأخلاق نفعاً<sup>٨</sup>.

أمّا فيما يتعلّق بعالم الوجود فقد ذكرت الرّوايات أنّه "بالعدل قامت السمّوات والأرض"<sup>٩</sup>.

وهو غيظٌ من فيض الشّواهد التي تبين عظمة هذه الفضيلة وأهمّيّتها. وإذا كان الجود من أشرف الفضائل، فإنّ العدل أفضل منه كما جاء في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام لما سُئل: "أيهما أفضل: العدل، أو الجود؟ فقال: العَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا عَنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا"<sup>١٠</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٤٣.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٤٩.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ١٤٩.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ١، ص ٥٤٢.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ج ٢، ص ٥٠.

<sup>٦</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٣١٩.

<sup>٧</sup> (ن.م)، ص ٣١٧.

<sup>٨</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٣٧٦.

<sup>٩</sup> عوالي اللآلي، ج ٤، ص ١٠٣.

<sup>١٠</sup> نهج البلاغة، ص ٥٥٣.

## العدالة هدف بعثة الأنبياء

فالحقوق مواهب إلهية لأجل إيصال كل مخلوق إلى غايته، ولأجل إيصال كل مجتمع إلى ازدهاره وتقدمه. والعدالة عبارة عن رعاية الحقوق بوضعها في مواضعها بحسب النظام الأتم التكويني. أما تطبيق الحدود الشرعية والالتزام بالأحكام الإلهية فإنه وجه آخر من وجوه رعاية الحقوق، بل هو عينه. وليست الشريعة سوى ذلك البرنامج الذي برعايته وتطبيقه تُصان الحقوق الفردية والاجتماعية، الظاهرية والباطنية.

يقول الإمام قدس سره: "فقد ظهر لك أنّ شأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل نشأة من النشآت وعالم من العوالم حفظ الحدود الإلهية والمنع عن الخروج عن حد الاعتدال والزجر عن مقتضى الطبيعة، أي إطلاقها، لا على الإطلاق. فإن المنع على الإطلاق خروج عن طور الحكمة وقسر في الطبيعة، وخلاف العدل في القضية، وهو خلاف النظام الأتم والسنة الجارية. فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الظاهر بإسمي "الحكم العدل" لمنع إطلاق الطبيعة، والدعوة إلى العدل في القضية. وخليفته مظهره ومظهر صفاته. وهذا أحد معاني قوله عليه السلام، في حديث الكافي: "أولي الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان"<sup>١</sup>.

ويقول قدس سره: "إن هدف بعثة الأنبياء بشكل عام هو تنظيم الناس بعدالة على أساس من العلاقات الاجتماعية، وتقويم آدمية الإنسان. وهذا إنما يمكن من خلال تشكيل الحكومة وتنفيذ الأحكام"<sup>٢</sup>.

ولأن هدفهم كان تحقيق العدالة دوماً، لذا كانوا حجج الله تعالى على الناس: يقول الإمام الخميني قدس سره: "إنّ كون المعصوم حجّة الله ليس معناه أنّه مبين الأحكام فقط، فإن زارة ومحمد بن مسلم وأشباههما أيضاً أقوالهم حجّة، وليس لأحد ردهم وترك العمل برواياتهم، وهذا واضح. بل المراد من كونه وآبائه الطاهرين عليهم السلام حجج الله على العباد أنّ الله تعالى يحتج بوجودهم وسيرتهم وأعمالهم وأقوالهم على العباد في جميع شؤونهم، ومنها العدل في جميع شؤون الحكومة. فأمر المؤمنين عليه السلام حجّة على الأمراء وخلفاء الجور، وقطع الله تعالى

<sup>١</sup> الكافي، ج ١، ص ٨٥.

<sup>٢</sup> روح الله الخميني، مصباح الهداية، مقدمة جلال الدين الآشيتاني، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، الطبعة الخامسة، ١٣٨٤ هـ. ش، ص ٤١.

<sup>٣</sup> روح الله الخميني، الحكومة الإسلامية، مركز بنية الله الأعظم، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٩٩، ص ١١٤.

بسيرته عذرهم في التعدي على الحدود والتجاوز والتفريط في بيت مال المسلمين والتخلف عن الأحكام، فهو حجة على العباد بجميع شؤونهم، وكذا سائر الحجج، وسيما ولي الأمر الذي ييسر العدل في العباد، ويملا الأرض قسطاً وعدلاً، ويحكم فيهم بحكومة عادلة إلهية<sup>١</sup>.

وجاء في الحديث: "غاية العدل أن يعدل المرء في نفسه"<sup>٢</sup>، وهذا الحديث يفتح باباً واسعاً للبحث حول علاقة العدالة الفردية بالاجتماعية. لكن ما يمكن أن يقال بما يتناسب مع هذه الأوراق: أن سعي الفرد لإقامة العدالة الاجتماعية هو أفضل وأسرع طريق لتحقيق العدالة في النفس، على قاعدة: "وأمر بالمعروف تكن من أهله"<sup>٣</sup>.

### ما هو الدافع إلى إقامة العدالة؟

يقول الإمام الخميني قدس سره: "إذا رجع الإنسان إلى وجدانه وأحوال الآخرين من أبناء جنسه استغنى عن إقامة البرهان وإطالة التوضيح للحقيقة المتقدمة، أي إن الرحمة والرفقة والعدل والمحبة والمودة ونظائرها هي من لوازم الفطرة الأصلية السلمية، وأن أضرارها مخالفة للفطرة المخمّرة ومن نتائج احتجاجها، وعليه، فإذا سار الإنسان على الصراط المستقيم في هذا العالم، وعدل قواه الثلاث وجعلها تابعة للقوة الروحانية العقلية، وأخضع سيرته الباطنية والظاهرية لموازن الشريعة الإلهية، حصل باطنه على ملكة الاستقامة، وصارت صورته روحه وباطنه صورة إنسانية قويمه، فتكون بذلك صورته الجسمانية الظاهرة في ذلك العالم صورة إنسانية جميلة ومستقيمة"<sup>٤</sup>.

ويقول قدس سره: "اعلم، أن موضوع العقل والجهل الذي جرى ذكره بين موالي الإمام عليه السلام، يرتبط على ما يبدو بالعقل والجهل عند الإنسان، أي بالقوة العاقلة فيه، وهي القوة الروحانية المجردة بحسب ذاتها، والميالة إلى الخيرات والكمالات، والداعية إلى العدل والإحسان بحسب فطرتها"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> روح الله الموسوي الخميني، كتاب البيع، الدار الإسلامية، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، ص ٢٥.

<sup>٢</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٣١٨.

<sup>٣</sup> تحف البلاغة، ص ٣٩١.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٦١.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ٣٢.

فأتضح أنّ ما يدفع الإنسان للعدالة أمران أساسيان هما:

١- الفطرة التي تعشق النظام الأكمل الذي يتحقّق بالعدل.

٢- العقل الذي يدرك قبح النقص وحسن الكمال ويميّز بينهما حيث يكون الظلم أقبح كلّ شيء، ويقابله العدل الذي يسع كلّ الأشياء بالتواصف.

### العدالة في الأخلاق

نجد الكتب والأبحاث الأخلاقية تركز على معنى أساسي للعدل، وهو المرتبط بتعديل قوى النفس، سواء كانت ظاهرة أو باطنة. ومن المهم أن نقرأ للإمام بعض ما قاله حول هذه النقطة أولاً.

يقول الإمام قدس سره: "قسّم الحكماء أجناس الفضائل إلى أربع فضائل هي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة، إذ إنّ للنفس قوتين هما: قوة الإدراك وقوة التحريك، ولكلّ منهما شعبتان، فقوة الإدراك تنقسم إلى العقل النظريّ والعقل العمليّ، وقوة التحريك تنقسم إلى قوة الدفع (لغير الملائم) وهي قوة الغضب، وإلى قوة الجلب (للملائم) وهي قوة الشهوة.

والاعتدال في كلّ واحدة من هذه القوى الأربع وإخراجها من حدّي الإفراط والتفريط فضيلة. فالحكمة عبارة عن تعديل القوة النظريّة وتهدئتها، والعدالة تعديل القوة العمليّة وتهدئتها، والشجاعة تعديل القوة الغضبيّة وتهدئتها، والعفة تعديل القوة الشهويّة وتهدئتها"<sup>١</sup>.

و"يطلق اسم العدالة على معنى آخر هو تعديل جميع القوى الباطنيّة والظاهريّة والروحانيّة والنفسيّة، واستناداً إلى هذا المعنى قال الفيلسوف المتقدّم ذكره: العدالة كلّ الفضائل لا أحدها"<sup>٢</sup>.

### العدالة منهج السير نحو الكمال الإنساني

يبدو أنّ حقّ الشيء هو ما جعله الله لهذا الشيء للوصول به إلى كماله. فإذا سلب منه أو انتقص، مُنع من الوصول أو أبطأ به. ولا شكّ بأنّ قوى النفس الظاهرة والباطنة هي وسائل

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٤٧-١٤٨.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ١٤٨.

وصول الإنسان ومركبه إلى كماله. فإذا خرجت عن العدالة أو تغلبت إحداها على الأخرى كأن تغلب القوة الشهوية قوة العقل أو الإدراك، أو غلبت القوة الغضبية القوة العاقلة، فإن جميع هذه القوى ستسير على طريق النقص وتكون النتيجة أن يتوقف سير الإنسان نحو الكمال، بل يتجه نحو التسافل والانحطاط.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ينبغي معرفة أنّ العدالة ما دامت تعني الحدّ الوسط بين الإفراط والتفريط، لذا إذا مثلنا للسّير من نقطة العبوديّة إلى مقام قرب الرّبوبيّة بتمثيلٍ حسّيّ بإيصالها بخطّ مستقيم، فإنّ هذا الخطّ المستقيم والسّير المعتدل هو طريق سير الإنسان الكامل من نقص نقطة العبوديّة إلى كمال عزّ الرّبوبيّة. وقد وردت إشارات كثيرة إلى هذا المعنى في الكتاب والسنة، كما أنّ (الصراط المستقيم) الذي يطلبه المصلّي في صلاته هو هذا السّير المعتدل. من هنا وصفت الأحاديث الشريفة الصّراط بأنّه "أدق من الشعرة وأحد من السيف"، لأنّه يتميّز بأنّه يمثّل حدّ الاعتدال والوسطيّة الحقيقيّة، لذلك ينبغي أن يتمثّل في عالم ظهور الحقائق بهذا النحو. ويروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطّ خطّاً في الوسط، وخطّ خطوطاً عن يمينه وشماله، ثمّ وضع يده على الخطّ الأوسط وأشار إلى أنّ هذا هو صراطه. ولا يتيسّر الاعتدال الحقيقيّ إلّا للإنسان الكامل الذي لم ينحرف ولم يخرج عن الصّراط المستقيم منذ بداية السّير إلى منتهى نهاية الوصول، وهو بتمام المعنى الخطّ الأحمديّ والخطّ المحمديّ، وبقيّة السّائر يسرون فيه على نحو التّبعية لا على نحو الأصالة. وبحكم أنّ الخطّ المستقيم الذي يصل بين نقطتين واحدًا لا أكثر، فإنّ الفضيلة - بالمعنى المطلق للسّير على طريق العدالة وسبل الاعتدال - واحدة لا أكثر، في حين أنّ الرذائل كثيرة الأنواع بل غير متناهية"<sup>١</sup>.

### العدالة في كل المراتب

يقول الإمام قدس سره: "إن جميع الأنبياء جاؤوا لأجل تطبيق العدالة وكان هدفهم إقامة العدل في العالم كلّه، لكنهم لم يوفّقوا لذلك، حتّى الرّسول الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم الذي بُعث لإصلاح البشر وإقامة العدل وتربية الناس أيضًا لم يوفّق في زمانه لهذا المقصد، والإمام المهدي

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٤٨ - ١٤٩.

هو من سيوفّق لهذا الأمر ويقيم العدل في كلّ العالم (ليس ذلك العدل الذي بتصوّر عامة الناس . حيث تكون قضية العدالة في الأرض لأجل الرفاهية . بل العدالة في جميع مراتب الإنسانية بحيث لو انحرف الإنسان سواء في العمل أو في الرّوح أو العقل فإنّه يعيده إلى صوابه). هذا هو معنى إيجاد العدالة في الإنسان، فلو كانت أخلاقه أخلاقاً منحرفة، ورجع عن هذا الانحراف إلى اعتداله، تكون العدالة قد تحقّقت فيه، وكذلك لو حصل الانحراف والاعوجاج في العقائد يكون إرجاع تلك العقائد المعوجة إلى العقيدة الصحيحة والصّراط المستقيم هو إيجاد العدالة في عقل الإنسان<sup>١</sup>.

### مخاطر ترك العدالة

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "اعلم أنّ تعديل القوى التّفسانية . الذي يرتكز به تحقّق غاية الكمال الإنسانيّ ومنتهاى السّير الكماليّ بل هو تحقّق هذا الكمال بعينه في أحد معانيه . هو من مهمّات الأمور التي تؤدّي الغفلة عنها إلى خسران عظيم، وضرر جسيم، وشقاء لا يمكن جبره"<sup>٢</sup>.

ويقول قدس سره: "وبعد أن تستسلم الشّهوة والغضب إلى مقام العدل والشّرع تنتشر العدالة في المملكة، وتشكّل حكومة عادلة حقّة يكون فيها العمل والسّيادة للحقّ وللقوانين الحقّة، بحيث لا تتخذ فيها خطوة واحدة ضدّ الحقّ، وتكون خالية من كلّ باطل وجور"<sup>٣</sup>.

### المبادرة إلى تحصيل العدالة في الصغر

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ما دام الإنسان في عالم الطّبيعة فإنّه قادرٌ على أن يعدّل قواه الجانحة إلى الإفراط والتفريط، وأن يُخضع النّفس الشّموس العاصية لسيطرة العقل والشّرع، وهذا الأمر في غاية اليسر والسهولة في أوّل الشّباب، لأنّ نور الفطرة لم يُغلب بعد، وصفاء النّفس لم يذهب بعد، والأخلاق الفاسدة والصّفات القبيحة لم ترسخ في النّفس بعد.

<sup>١</sup> صحيفة الإمام، ج ١٢، ص ٣٨٥.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٤٩.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ١٩٧.

ونفس الطّفل في بداية أمره كالصفحة البيضاء الخالية التي تتقبّل أي نقش بيسرٍ وسهولة، فإذا تقبّلتَه ونُقش فيها فإنّ إزالته لا تكون بيسر، لذا فإنّ من الملاحظة بالمعايشة أنّ المعلومات أو الأخلاق التي يكتسبها الأطفال في أيّام الصّبا تبقى معهم إلى الكهولة، ولّما يطرق النّسيان معلومات زمن الطّفولة. من هنا فقد ألقيت مسؤولية تربية الأطفال وترويضهم على عاتق الوالدين، فإذا تساهلوا أو تهاونوا فيها. في تلك المرحلة. فإنّ من المحتمل أن يتلبّس الطفل المسكين بأنواع الرذائل الكثيرة التي تقوده إلى الشقاء والبؤس الأبديّ. كما يجدر التنبّه إلى أنّ تربية الطفل واحد بصورة حسنة لا تعني تربية إنسان صالح واحد، مثلما أنّ سوء التربية والتهاون في إصلاح طفل واحد لا تعني ضياع إنسان واحد، فرّما كان إصلاح طفل واحد سبباً لإصلاح جماعة كثيرة العدد، بل وإصلاح شعب أو أمة أو مملكة كاملة، كما أنّ من الممكن أن يؤدّي فساد شخص واحد إلى فساد أمة ومملكة كاملة. إنّ نورانيّة شخص واحد مثل الفيلسوف الإسلامي العظيم الخواجه نصير الملّة والدين. رضوان الله عليه. أو العلامة الجليل الحلّي. قدس الله نفسه. قد نورّت ملّة ومملكة كاملة بحيث أنّ النورانيّة باقية فيها إلى الأبد، في حين أنّ ظلمات وشقاوة شخص واحد مثل معاوية بن أبي سفيان أو أي من نظائره من أئمّة الجور قد بذرت. كما نرى. بذور الشقاوة والخسران لأمم وممالك على مدى آلاف السنين<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ١٤٩-١٥١.

## المفاهيم الرئيسة

١- العدالة هي من أمّهات الفضائل الأخلاقية، بل إنّ العدالة المطلقة حاوية لجميع الفضائل الباطنية والظاهرة، والروحية والقلبية، والنفسية والجسمية.

٢- للعدل معنى أساسي وهو المرتبط بتعديل قوى النفس، سواء كانت ظاهرة أو باطنة.

٣- العدالة هي تعديل القوة العملية وتحذيبها، والشجاعة تعديل القوة الغضبية وتحذيبها، والعفة تعديل القوة الشهوية وتحذيبها.

٤- لا يتيسر الاعتدال الحقيقي إلا للإنسان الكامل الذي لم ينحرف ولم يخرج عن الصراط المستقيم منذ بداية السير إلى منتهى نهاية الوصول، وهو بتمام المعنى الخط الأحمدي والخط المحمدي، وبقية السائرين يسرون فيه على نحو التبعية لا على نحو الأصالة.

٥- الإمام المهدي هو من سيوفق لتطبيق العدل في العالم، العدل في جميع مراتبه الإنسانية.

٦- العدالة عبارة عن رعاية الحقوق بوضعها في مواضعها بحسب النظام الأتم التكويني.

٧- ليست الشريعة سوى ذلك البرنامج الذي برعايته وتطبيقه تُصان الحقوق الفردية والاجتماعية، الظاهرة والباطنية.

٨- إنّ سعي الفرد لإقامة العدالة الاجتماعية هو أفضل وأسرع طريق لتحقيق العدالة في النفس على قاعدة: "وأمر بالمعروف تكن من أهله".

٩- إنّ ما يدفع الإنسان للعدالة أمران أساسيان هما: الفطرة التي تعشق النظام الأكمل الذي يتحقق بالعدل، والعقل الذي يدرك قبح النقص وحسن الكمال ويميّز بينهما.

١٠- ما دام الإنسان في عالم الطبيعة فإنّه قادرٌ على أن يعدّل قواه الجانحة إلى الإفراط والتفريط، وأن يُخضع النفس الشّموس العاصية لسيطرة العقل والشّرع، وهذا الأمر في غاية اليسر والسّهولة في أوّل الشّباب.

دعاء:

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَخَلِّ بِحَلِيَّةِ الصَّالِحِينَ، وَأَلْسِنِي زِينَةَ الْمُتَّقِينَ، فِي بَسْطِ الْعَدْلِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ، وَإِطْفَاءِ النَّارِ، وَصَمِّ أَهْلَ الْفُرْقَةِ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَإِفْشَاءِ الْعَارِفَةِ، وَسِتْرِ الْعَائِيَةِ، وَلِينِ الْعَرِيكَةِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَحُسْنِ السَّيْرِ، وَسُكُونِ الرَّيْحِ، وَطِيبِ الْمُخَالَفَةِ، وَالسَّبْقِ إِلَى الْفُضَيْلَةِ، وَإِبْتَارِ التَّفَضُّلِ، وَتَرْكِ التَّعْيِيرِ، وَالْإِفْضَالِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَحِقِّ، وَالْقَوْلِ بِالْحَقِّ وَإِنْ عَزَّ، وَاسْتِقْلَالِ الْحَتِّ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ قَوْلِي وَفِعْلِي<sup>١</sup>.

الروايات الشريفة:

١ - عَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "بِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾<sup>٢</sup> قَالَ: لَيْسَ يُحْيِيهَا بِالْفَطْرِ وَلَكِنْ يَبْعَثُ اللَّهُ رِجَالًا فَيُحْيُونَ الْعَدْلَ فَتُحْيَا الْأَرْضُ لِأَحْيَاءِ الْعَدْلِ وَإِقَامَةِ الْحَدِّ لَهُ أَنْتَعُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْقَطْرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا"<sup>٣</sup>.

٢ - عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾<sup>٤</sup>، قَالَ: "الْعَدْلُ شَهَادَةُ الْإِخْلَاصِ"<sup>٥</sup>.

٣ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾<sup>٦</sup> قَالَ: الْعَدْلُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْإِمَامُ مِنْ بَعْدِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا مِمَّا أَخْطَأْتُ بِهِ الْكِتَابُ"<sup>٧</sup>.

٤ - وعن الإمام علي عليه السلام قال: "مَنْ اسْتَنْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ فَلَا تَكْفُوا عَنِّي مَقَالَةً بِحَقِّ أَوْ مَشُورَةً بِعَدْلِ فَإِنِّي لَسْتُ فِي نَفْسِي بِفَوْقَ مَا أَنْ أَخْطِئَ وَلَا آمَنُ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِي إِلَّا أَنْ يَكْفِيَنِي اللَّهُ مِنْ نَفْسِي مَا

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام.

<sup>٢</sup> سورة الروم، الآية ٥٠.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٧، ص ١٧٤.

<sup>٤</sup> سورة النحل، الآية ٩٠.

<sup>٥</sup> بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ١٨٨.

<sup>٦</sup> سورة المائدة، الآية ٩٥.

<sup>٧</sup> الكافي، ج ٤، ص ٣٩٦.

هُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنِّي فَإِنَّمَا أَنَا وَأَنْتُمْ عِبِيدٌ مَمْلُوكُونَ" ١.

٥- عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الْإِيمَانَ عَلَى أَرْبَعٍ دَعَائِمٍ عَلَى الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ وَالْعَدْلِ وَالْجِهَادِ... الْعَدْلُ عَلَى أَرْبَعٍ شُعَبٍ غَامِضِ الْفَهْمِ وَعَمْرِ الْعِلْمِ وَزَهْرَةِ الْحُكْمِ وَرَوْضَةِ الْحِلْمِ فَمَنْ فَهَمَ فَسَّرَ جَمِيعَ الْعِلْمِ، وَمَنْ عَلِمَ عَرَفَ شَرَائِعَ الْحُكْمِ، وَمَنْ حَلَمَ لَمْ يُفْرِطْ فِي أَمْرِهِ وَعَاشَى فِي النَّاسِ حَمِيداً" ٢.

٦- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مَنْ يَضْمَنُ لِي أَرْبَعَةً بِأَرْبَعَةٍ أَبْيَاتٍ فِي الْجَنَّةِ أَنْفِقَ وَلَا تَخَفُ فَقِراً وَأَفْشَى السَّلَامَ فِي الْعَالَمِ وَاتْرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كُنْتَ مُحِقّاً وَأَنْصَبَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ" ٣.

٧- وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "يَوْمَ الْعَدْلِ عَلَى الظَّالِمِ أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الْجَوْرِ عَلَى الْمَظْلُومِ" ٤.

٨- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: "أَظْلَمُ النَّاسِ مَنْ سَنَّ سُنَنَ الْجَوْرِ وَمَحَا سُنَنَ الْعَدْلِ" ٥.

٩- عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "الْعَدْلُ مِيزَانُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ أَخَذَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ تَرَكَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ" ٦.

١٠- عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "يَا زَيْدُ أَشَدُّ النَّاسِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ وَصَفُوا الْعَدْلَ ثُمَّ خَالَفُوهُ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ ٧، ٨.

١ نصح البلاغة، ص ٣٣٤.

٢ الكافي، ج ٢، ص ٥٠.

٣ (ن.م)، ص ١٤٤.

٤ مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ٢٣١.

٥ (ن.م)، ص ٢٣١.

٦ م.ن، ج ١١، ص ٣١٧.

٧ سورة الزمر، الآية ٥٦.

٨ بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٠.



## الدرس الواحد والثلاثون: التواضع (١) - معنى التواضع, أهميته ودرجاته

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن المعنى الدقيق للتواضع والمائز بينه وبين التملّق.
- ٢- يشرح أهمية التواضع ودوره في التقرب من الله عزّ وجلّ.
- ٣- يتعرّف إلى درجات التواضع وارتباطها بمعرفة الله.



## تمهيد

يلفت الإمام الخميني قدس سره أنظارنا إلى أهمية التواضع عندما يعتبره: "أهمّ من كلّ أمر في تقريب الإنسان إلى الله تعالى"<sup>١</sup>. فتتوقّف عند هذه السجّية العظيمة لتتعرّف إلى دورها في حياة الإنسان المعنويّة في ظلّ ارتباطه بالله سبحانه. وعندما نتعرّف على التأثير الكبير للتواضع في هذا المجال تتوجّه قلوبنا إلى معرفة أسرار وأسبابه. ولا شكّ بأنّ كلّ ذلك يحتاج إلى معرفة دقيقة بهذه الفضيلة المحمودة. فما هو التواضع؟ وكيف نصبح من المتواضعين.

## تعريف التواضع

إنّ جميع الصّفات الأخلاقية الحميدة يمكن التّعريف عليها من خلال سيرة أولياء الله والكمّل من خلقه، وكفى بسلوكهم ومعاملاتهم ونمط حياتهم عبرةً ودرسًا. ولتتميم الفائدة نتوقّف عند التعريف العلميّ للتواضع باعتباره صفة نفسانية بحسب الأحاديث الشريفة وإن انصرفت الأذهان إلى عدّه سلوكًا عمليًا. فيقول الإمام الخميني قدس سره: "بملاحظة أنّ الحديث الشريف<sup>٢</sup> جعل التواضع ضدًّا للكبر - وهو من الصفات النفسانية - ولم يجعله ضدًّا للتكبر الذي هو الإظهار العمليّ للكبر، لذلك ينبغي اعتبار التواضع أيضًا من الصّفات النفسانية وإن كان معناه في الظاهر العريّ واللغويّ هو التّصاغر"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣١٤.

<sup>٢</sup> حديث جنود العقل والجهل المروي عن الإمام الصادق عليه السلام، الكافي، ج ١، ص ٢١.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠١.

## أهمية التواضع

بيّن الإمام الخميني قدس سره أهمية التواضع وهو يشرح رواية هي بمنزلة الحديث القدسي نقلها الكافي الشريف". فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: "فيما أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام: يا داود كما أن أقرب الناس من الله المتواضعون كذلك أبعد الناس من الله المتكبرون"<sup>١</sup>. وفي هذا الحديث الشريف كفاية لأهل اليقظة وأصحاب المعرفة. إذ إنَّ التقرّب إلى الحقّ تعالى هو مصدر كلّ سعادة، والبعد عنه علّة كلّ شقاء وشرّ، لذلك ينبغي لطالبي الحقّ تعالى الذين يعتبرون أنفسهم من جنوده ومن أهل العلم، وكذلك للذين يقيمون العبادات والمناسك ابتغاء التقرّب إلى الحقّ تعالى، ينبغي لهم جميعاً أن يراقبوا أحوال نفوسهم بصورة كاملة ويتنبّهوا إلى أنّ ما يطلبونه لا يتحقّق إلّا بالاتّصاف بالتواضع واجتناب التكبر. ولا كلام لنا مع الذين يطلبون العلم والعمل من أجل الدنيا، فحسابه على الله الجبار، أمّا الذين يدعون أنّهم يطلبون الله الحقّ تبارك وتعالى، فعليهم أن يعرفوا من هذا الحديث الشريف ما ينبغي لهم أن يعملوه، ثم يتّخذوا هذا الحديث الشريف معياراً ومحكاً يعرضون عليه نفوسهم، فإذا وجدوا بقيةً من التكبر في قلوبهم، وأدركوا أنّهم مبتلون بالتكبر العمليّ على الناس، فليعرفوا أنّ أعمالهم وعلومهم لم تكن خالصة لله تعالى، بل كان الهدف منها تلبية أهواء النفس الأمّارة بالسوء، فلو كانت بهدف التقرّب إلى الله لكانت صفتهم التواضع وهو أهم من كلّ أمرٍ في تقريب الإنسان إلى الله تعالى"<sup>٢</sup>.

وينقل الإمام قدس سره في آداب الصلّاة: "حكى أنّ الربيع بن خيثم كان يسهر بالليل إلى الفجر في ركعة واحدة فإذا هو أصبح رفع "يزفر" وقال آه سبق المخلصون وقطع بنا، واستوف ركوعك باستواء ظهرك، وانحط على همتك في القيام بخدمته إلّا بعونه، وفرّ بالقلب من وساوس الشيطان وخدائعه ومكائده، فإنّ الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له ويهديهم إلى أصول التواضع والخضوع بقدر اطلاع عظمتهم على سرائرهم"<sup>٣</sup>.

فلو لم يكن في كلّ ما قيل في التواضع سوى هذا لكفى. إلّا أنّنا سنتعرّف على المزيد

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٢٣.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣١٣.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣١٣-٣١٤.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ٣٥٠.

من أبعاد التواضع وعظمته عند الحديث عن آثاره وبركاته. وإنما أردنا أن ننبّه إلى أهميّة المطلب وعلوّ شأنه من أجل توجيه النفوس وإعداد القلوب.

### كيفية تحصيل التواضع

يقول الإمام الخميني قدس سره: "وعلى أيّ حال فإنّ الإنسان كان ناظرًا لنفسه محبًا لها، فإنّ هذا الحبّ المفرط يحجبه عن نقائصه وعيوبه، ويعميه عن سيئاته، بل يصورها له أحيانًا كماحسن، ويعظّم في عينه ما فيه من فضائل ومحاسن. وبالنسبة نفسها يحجبه عن محاسن غيره ويعظّم سيئاتهم في عينه. أمّا إذا خرج من هذه الاحتجاب ورأى نفسه على حقيقتها وكما هي، بل ونظر إليها بعين الانتقاد، وأساء الظنّ بها، رأى ضعفها وذلتها وأدرك نقصها وافتقارها. وإذا اقترنت هذه الحالة بحسن الظنّ بالآخرين، وتعظيم مخلوقات الحقّ تعالى ومظاهر جلاله وجماله عزّ وجلّ، ظهرت في نفسه - حينئذٍ وبصورة تدريجية - حال التذلل، ورأى نفسه أصغر من الآخرين، وهذه هي حال التواضع القلبي التي إذا ظهرت آثارها في البدن قيل: تواضع وصار متواضعاً".<sup>١</sup>

### التمييز بين التواضع والتملّق

في كلامنا السابق ظهرت لنا عوامل نشوء الكبر وموانع تحقّق التواضع في النفس. ولأهميّة القضية وإمكانية حصول الالتباس بين التواضع الذي هو صفة نفسية محمودة تظهر في السلوك وبين التملّق الذي يُعدّ من خباثات الصفات يقول الإمام الخميني قدس سره: "إنّ التمييز بين التواضع والتملّق والتكبر والإباء يصبح أحيانًا على درجة كبيرة من الصعوبة، فلا بُدّ للإنسان أن يتعوّذ بالله ليهديه إلى طريق الهداية، وإذا تصدّى الإنسان لإصلاح نفسه وتحرك نحو المقصود، فإنّ الله تعالى سوف يشمل به برحمته الواسعة ويسرّ له سبيل الهداية".<sup>٢</sup>

"ويجدر التنبّه إلى الفروق بين التواضع والتملّق... وهذه الفروق تظهر في المصادر والغايات والثمرات. فمصدر التواضع العلم بالله والعلم بالنفس، وغايته الله تعالى أو الفوز بكرامته، وثمرته الكمال الإنساني، أمّا التملّق فمصدره الشكّ والجهل، وغايته التمسّك، وثمرته الذلّة والتقصّ والعار".<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠١-٣٠٢.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثًا، ص ١٠٦.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٣-٣٠٤.

وعليه "فمَرّة يتواضع الإنسان مدفوعًا برذيلة حبّ الدنيا والانجذاب نحو طلب الجاه والمقام. فليس هذا من خُلُق التواضع في شيء، بل إنّه المداهنة والملق وإنّه من الرذائل النفسانيّة، وصاحبها لا يتواضع للفقراء، إلّا إذا طمع فيهم بشيء أو أراد منهم شيئًا. ومرة أخرى يكون طبع التواضع في الإنسان داعية له إلى احترام الناس والتواضع لهم. فقراء كانوا أم أغنياء، مرموقين كانوا أم مغمورين. فهذا تواضعه حالص من غير شائبة، وروحه طاهرة مطهّرة، لم يجتذب قلبه الجاه والمقام. إنّه تواضع محمود للفقراء ومحمود للأغنياء، فلا بُدّ من احترام كلّ إنسان بما هو خليق به. أمّا تحقيرك لأهل الجاه والغنى والتكبر عليهم فلا يعني أنّك لست متملّغًا، بل يعني أنّك حسود، وتكون في الوقت نفسه على خطأ. ولهذا إذا رأيتهم يحترمونك على غير انتظار وتوقع، تتواضع لهم وتخفض لهم جناحك"<sup>١</sup>.

### درجات المتواضعين

ومثلما أنّ للتواضع درجات شدّة وضعفًا، كما جاء بشأن موسى بن عمران (على نبينا وآله وعليه السلام) إنّ الله أراد أن يبعث نبيًّا في زمانه فاطّلع إلى أهل الأرض فلم يجد أشدّ تواضعًا من موسى عليه السلام، فإنّ للتواضع درجات بحسب المعرفة يكون أهلها على درجات في تواضعهم لهذا، قال الإمام الخمينيّ قدس سره: "اعلم أنّ للتواضع درجات تُقابل كلّ درجة منها درجة من درجات التكبر"<sup>٢</sup>:

#### الأول: تواضع الأولياء الكاملين والأنبياء العظام

"وهؤلاء جعلتهم مشاهدتهم القلبية للتجليات الدّاتية والأسمائية والصّفاتية والأفعاليّة متواضعين في حضرة الحقّ تعالى. وأمام مظاهر جمال ذاته المقدّسة وجلالها، وأوجدت مشاهدتهم لكمال الرّبوبيّة وذلة العبوديّة، حالًا في منتهى التواضع والتذلّل في قلوبهم. وكلّما كانت هاتان المشاهدتان أكمل فيهم، فإنّ حقيقة التواضع تزداد كمالًا فيهم، ولذلك كان أشدّ الموجودات تواضعًا هو الوجود المقدّس لأعزّ خلق

<sup>١</sup> الأربعة حديثًا، ص ١٢٧.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٢.

الله بالله وأعبد عباد الله خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم، لأنه أكمل الموجودات في مشاهدة كمال الربوبية ونقص العبودية.

وأهل هذه المرتبة، يتواضعون لمظاهر جمال الحق تعالى وجلاله، من أجله جلّ وعلا وكفرح لتواضعهم له عزّ وجلّ، فتواضعهم لمظاهر جماله وجلاله ظلّ لتواضعهم له جلّ وعلا، وهم يقرنون هذا التواضع بالمحبة أيضاً، وحبّهم لمظاهر الحقّ تعالى تابع لمحبتهم له جلّ وعلا. وهذا التواضع المقترن بالحبّ هو أكمل مراتب التواضع"<sup>١</sup>.

### الثاني: تواضع أهل المعرفة

"وهو من نمط تواضع الأولياء ولكن بمرتبة أدنى، لأنّ مقام المعرفة دون مقام المشاهدة الحضورية"<sup>٢</sup>.

### الثالث: تواضع الحكماء

"وهو يلي رتبة تواضع أصحاب الرّيتين المتقدّمتين، فالحكماء إذا حصلوا على مقام الحكمة الإلهية، وتنوّرت قلوبهم بنورها، صاروا متواضعين للحقّ تعالى وخالقه، وقد ورد في حكّم لقمان وصيّة خاصّة بهذا الأمر"<sup>٣</sup>.

### الرابع: تواضع المؤمنين

"الذين حصلوا بنور الإيمان على العلم بالله، وعرفوا أنفسهم بمقدار ما أضاءه لهم هذا النور الإيمانيّ، فصاروا متواضعين للحقّ تعالى وخالقه"<sup>٤</sup>.

### نماذج من سيرة الأولياء في التواضع

إنّ لمطالعة سيرة أولياء الله والذين تؤكّد بما لا يترك مجالاً للشكّ ما ورد بشأن أهميّة التواضع، وهي أعظم وسيلة لتحقيق هذه الخصلة الرائعة بالنسبة للمتأسّسين، "إن ذكر أحوال العظماء والأولياء والأنبياء، في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ليس بهدف التسجيل

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٢-٣٠٣.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٣٠٣.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٠٣.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ٣٠٣.

التاريخي، بل لتكميل بني الإنسان من خلال الاعتبار بسيرة عظماء العالم، والاتصاف بصفاتهم الكريمة وأخلاقهم الفاضلة. وهذا الحديث الشريف ينبغي للعلماء والأجلاء بالدرجة الأولى أن يضعوه نصب أعينهم ويتخذوه وصية أخلاقية دينية مستفادة من سيرة العلماء بالله وزعماء الدين، فيعلّموا المتعلمين منهم العمل بهذه السيرة النبوية، ويتخلّقوا هم أنفسهم بهذه الأخلاق الإلهية العظيمة، ويتفكّروا في معنى اعتبار عيسى عليه السلام غسل أقدام الحوارين حاجة له يطلبها، وهذا ما يعبر عن غاية التذلل (للمؤمنين) ومنتهى التواضع... أمّا قوله عليه السلام: "بالتواضع تعمُرُ الحكمة"، فالمقصود فيه هو: إمّا أنّ بذور الحكمة لا تنمو في القلب الفاقد للتواضع مثلما أنّ النبتة لا تنمو في الأرض الصلدة، وإمّا أن يكون المقصود هو أنّ العلماء لا يستطيعون بذر بذور الحكمة وتنميتها في قلوب الناس ما لم يكن العلماء أنفسهم متواضعين، فينبغي تليين القلوب القاسية بالتواضع، ثمّ بذر بذور الحكمة فيها وتوقع الثمار منها. وكلا هذين الاحتمالين صحيحان، فالأول يرتبط بإصلاح النفس، والآخر بإصلاح الآخرين<sup>١</sup>، وما نحن نذكر التماذج لتكون لنا عبرة وتزيد من معرفتنا واطّلاعنا على حقيقة التواضع وكيفية.

## ١- رسول الإسلام العظيم

"النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان علمه من الوحي الإلهي، وكانت روحه من العظمة بحيث أنّها بمفردها غلبت نفسيات كلّ البشر، إنّ هذا النبي قد وضع جميع العادات الجاهلية والأديان تحت قدميه، ونسخ جميع الكتب، واختتم دائرة النبوة بشخصه الكريم، وكان هو سلطان الدنيا والآخرة والمتصرّف في جميع العوالم بإذن الله، ومع ذلك كان تواضعه مع عباد الله أكثر من أيّ شخص آخر. كان يكره أن يقوم له أصحابه احتراماً، وإذا دخل مجلساً لم يتصدّر ويتناول الطعام جالساً على الأرض قائلاً: إنّني عبد، أكل مثل العبيد وأجلس مجلس العبيد<sup>٢</sup>. لقد نُقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يحبّ أن يركب الحمار

<sup>١</sup> الكافي، ج ١، ص ٣٧.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣١٤-٣١٥.

<sup>٣</sup> في روايات متعددة أُشير إلى خلق وسلوك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعضها وردت في هذا الكتاب. عن أنس بن مالك قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا إذا رأوه لم يقوموا إليه لما يعرفون من كراهيته. وعن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ويعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: "أنا عبد أكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد"، كتاب مكرام الأخلاق، ص ١٢ الفصل الثاني.

من دون سرج، وأن يتناول الطعام مع العبيد على الأرض، وكان يعطي الفقراء بكلتا يديه. كان ذلك الإنسان العظيم يركب الحمار مع غلامه أو غيره، ويجلس على الأرض مع العبيد، وفي سيرته أنه كان يشترك في أعمال المنزل، ويحتلب الأغنام، ويرقع ثيابه ويخفف نعله بيده، ويطحن مع خادمه ويعجن، يحمل متاعه بنفسه، ويجالس الفقراء والمساكين ويأكل معهم<sup>١</sup>. هذه وأمثالها، نماذج من سيرة ذلك الإنسان العظيم وتواضعه، مع أنه فضلاً عن مقامه المعنوي كان في أكمل حالات الرئاسة الظاهرية<sup>٢</sup>.

## ٢- موسى الكليم

"فموسى الكليم مع ما له من المقام العظيم في النبوة لم يقتنع بذلك المقام وما توقّف عند مقام علمه الشامخ، وبمجرد أن لاقى شخصاً كاملاً كالخضر قال له بكلّ تواضع وخضوع: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾<sup>٣</sup> وصار ملازماً لخدمته حتى أخذ منه العلوم التي احتاج إليها"<sup>٤</sup>.

## ٣- عيسى روح الله

روي في الكافي الشريف: "قال عيسى ابن مريم عليه السلام: يا معشر الحواريين لي إليكم حاجة اقضوها لي. قالوا: فُضيتُ حاجتُك يا روح الله، فقام فغسل أقدامهم. فقالوا: كُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا يَا رُوحَ اللَّهِ. فقال: إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْخِدْمَةِ الْعَالِمُ. إِنَّمَا تَوَاضَعْتُ هَكَذَا لَكُمْ لِكَيْ تَتَوَاضَعُوا بَعْدِي فِي النَّاسِ كَتَوَاضَعِي لَكُمْ!، ثم قال عيسى عليه السلام: بالتواضع تعمُرُ الحكمةُ لا بالتكبرِ، وكذلك في السهل يَنْبُثُ الزَّرْعُ لا في الجبل"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> كان يجلس على الأرض وينام عليها ويأكل عليها وكان يخفف النعل ويرفع الثوب ويفتح الباب ويحلب الشاة ويعقل البعير فيحلبها ويطحن مع الخادم إذا عبي... ويخدم في مهنة أهله ويقطع اللحم، وإذا جلس على طعام جلس مُخْفَرًا... يركب ما أمكنه من فرس أو بغلة أو حمار ويركب الحمار بلا سرج وعليه العذار.. يجالس الفقراء والمساكين ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده. بحار الأنوار، ج ١٦ ص ٢٢٦، تاريخ نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، باب مكارم أخلاقه الحديث ٣٤.

<sup>٢</sup> الأريعون حديثاً، ص ١٢٢.

<sup>٣</sup> سورة الكهف، الآية ٦٦.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ٢٠٦.

<sup>٥</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣١٤.

## المفاهيم الرئيسة

١- ينبغي لطلاب الحق تعالى الذين يعتبرون أنفسهم من جنوده وقيموون العبادات والمناسك ابتغاء التقرب إلى الحق تعالى، أن يراقبوا أحوال نفوسهم بصورة كاملة ويتنبهوا إلى أن ما يطلبونه لا يتحقق إلا بالاتّصاف بالتواضع واجتناب التكبر.

٢- إنّ الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له ويهديهم إلى أصول التواضع والخضوع بقدر اطلاع عظمتهم على سرائرهم.

٣- التواضع من الصفات النفسانية وإن كان معناه في الظاهر العربي واللغوي هو التّصاغر.

٤- إذا خرج الإنسان من الاحتجاب ورأى نفسه على حقيقتها وكما هي، رأى ضعفتها وذلتها وأدرك نقصها وافتقارها. وإذا اقترنت هذه الحالة بحسن الظنّ بالآخرين، وتعظيم مخلوقات الحق تعالى ومظاهر جلاله وجماله عزّ وجلّ، ظهرت في نفسه. حينئذٍ وبصورة تدريجية. حال التذلل، وهذه هي حال التواضع القلبيّ.

٥- الفرق بين التملق والتواضع هو أنّ مصدر التواضع هو العلم بالله وبالنفس، وغايته الله تعالى أو الفوز بكرامته، وثمرته الكمال الإنسانيّ، أمّا التملق فمصدره الشّرك والجهل، وغايته التّمسك، وثمرته الذلّة والتقص والعار.

٦- درجات المتواضعين:

- الأولياء الكاملين والأنبياء العظام: هؤلاء أوجدت مشاهدتهم لكمال الرّبوبيّة وذلّة العبوديّة، حالاً في منتهى التواضع والتذلل في قلوبهم.

- تواضع أهل المعرفة: وهو من نمط تواضع الأولياء ولكن بمرتبة أدنى، لأنّ مقام المعرفة دون مقام المشاهدة الحضورية.

- تواضع الحكماء: حصلوا على مقام الحكمة الإلهية، وتنوّرت قلوبهم بنورها، صاروا متواضعين للحقّ تعالى ولخلقه.

- تواضع المؤمنين الذين حصلوا بنور الإيمان على العلم بالله، وعرفوا أنفسهم بمقدار ما أضاءه لهم هذا النور الإيمانيّ، فصاروا متواضعين للحقّ تعالى ولخلقه.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَتَوَلَّنِي فِي حَيْرَاتِي وَمَوَالِي الْعَارِفِينَ بِحَقِّنَا، وَالْمُنَابِذِينَ لِأَعْدَائِنَا بِأَفْضَلِ وَلَا تَيْتِكَ... وَاجْعَلْنِي  
اللَّهُمَّ أَجْرِي بِالْإِحْسَانِ مُسَيِّئَهُمْ، وَأُعْرِضْ بِالتَّجَاوُزِ عَنْ ظَالِمِهِمْ، وَأَسْتَعْمِلْ حُسْنَ الظَّنِّ فِي كَافَّةِهِمْ، وَاتَّوَلَّ بِالْبِرِّ  
عَامَّتَهُمْ، وَأَغْضُ بَصْرِي عَنْهُمْ عَفَّةً، وَأَلِينُ جَانِبِي لَهُمْ تَوَاضُعًا.

## الروايات الشريفة:

١- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "التكبر على المتكبرين هو التواضع بعينه"٢.

٢- عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "مِنَ التَّوَاضُعِ أَنْ تَرْضَى بِالْمَجْلِسِ دُونَ الْمَجْلِسِ، وَأَنْ تُسَلِّمَ عَلَى مَنْ  
تَلْقَى، وَأَنْ تَتْرِكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كُنْتَ مُحِقًّا، وَأَنْ لَا تُحِبَّ أَنْ تُحَمَدَ عَلَى التَّقْوَى"٣.

٣- عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: "التَّوَاضُعُ أَنْ تُعْطِيَ النَّاسَ مَا تُحِبُّ أَنْ تُعْطَاهُ"٤.

٤- عن الحسن بن الجهم عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: "قُلْتُ مَا حَدُّ التَّوَاضُعِ الَّذِي إِذَا فَعَلَهُ الْعَبْدُ كَانَ  
مُتَوَاضِعًا؟ فَقَالَ: التَّوَاضُعُ دَرَجَاتٌ مِنْهَا أَنْ يَعْرِفَ الْمَرْءُ قَدْرَ نَفْسِهِ فَيُنْزِلَهَا مَنْزِلَتَهَا بِقَلْبٍ سَلِيمٍ لَا يُحِبُّ أَنْ يَأْتِيَ  
إِلَى أَحَدٍ إِلَّا مِثْلَ مَا يُؤْتَى إِلَيْهِ، إِنْ رَأَى سَيِّئَةً دَرَأَهَا بِالْحَسَنَةِ، كَاطِمُ الْعَيْظِ، عَافٍ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ  
الْمُحْسِنِينَ"٥.

٥- عن الكاظم عليه السلام: "يَا هِشَامُ لِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ وَمَطِيَّةُ الْعَقْلِ التَّوَاضُعُ، وَكَفَى بِكَ جَهْلًا أَنْ تَرَكَبَ مَا  
نُهِيتَ عَنْهُ"٦.

١ الإمام السجّاد، الصحيفة السجّادية، دعاؤه عليه السلام لجيرانه.

٢ شرح نخب البلاغة، ج ٢٠، ص ٢٩٨.

٣ الكافي، ج ٢، ص ١٢٢.

٤ (ن.م)، ص ١٢٤.

٥ (ن.م).

٦ (ن.م)، ج ١، ص ١٥.

٦- عَنِ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مَنْ خَرَجَ فِي حَاجَةٍ وَمَسَحَ وَجْهَهُ بِمَاءِ الْوَرْدِ لَمْ يَرْهَقْ وَجْهَهُ فَتَرَ وَلَا ذِلَّةً، وَمَنْ شَرِبَ مِنْ سُورِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ يُرِيدُ بِهِ التَّوَاضُعَ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ الْبَتَّةَ"<sup>١</sup>.

٧- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "تُكْتَبُ الصَّلَاةُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَسْهُمٍ سَهْمٌ مِنْهَا إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ، وَسَهْمٌ مِنْهَا الرُّكُوعُ، وَسَهْمٌ مِنْهَا السُّجُودُ، وَسَهْمٌ مِنْهَا الْخُشُوعُ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْخُشُوعُ؟ قَالَ: التَّوَاضُعُ فِي الصَّلَاةِ وَأَنْ يُقْبَلَ الْعَبْدُ بِقَلْبِهِ كُلَّهُ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ١٢٠.

<sup>٢</sup> مستدرک الوسائل، ج ١، ص ٩٨.

## الدرس الثاني والثلاثون: التواضع (٢) - منشأ التواضع وكيفية اكتسابه

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن العلاقة الحاكمة بين العلم والتواضع.
- ٢- يشرح دور حبّ الله ومعرفته وذكره وشكره في اكتساب التواضع.
- ٣- يتعرّف إلى دور الصلّاة والسجود في تحصيل خلق التواضع.



## تمهيد

يحبّ النَّاسُ التَّواضِعَ وَيَجْلُونَ المتواضعين. وتحكي التجربة أنّ كل من تواضع لله وفي سبيل الله رفعه الله وأكرمه.

فالفطرة العاشقة للكمال والسموّ والرّفعة ستنسجم مع هذه الفضيلة لأنّها في باطنها تمثّل هذا الكمال المطلوب، وإن ظهرت بصورة التبرّي منه.

إنّ المتواضع عندما ينزع عن نفسه صفات الكمال، فذلك لأنّه يؤمن بأنّ الكمال الحقّ لله تعالى بالأصالة. وإنّ كل كمال ظهر فيه إنّما هو محض التفضّل من الله عزّ وجلّ. فمن عرف الله وأحبّه نزه نفسه عن أن تكون منازعة لربّه في أعظم صفاته وهو الكبرياء والتفرد بالكمال الحقيقيّ.

## منشأ التواضع

يذكر الإمام الخمينيّ قدس سره مجموعة من الأمور التي تُعدّ من مناشئ التواضع في النَّفس. وكما نلاحظ، فإنّها جميعاً تصدر من منبع واحد هو العالم العلويّ، فمن لم يتّصل به لن يكون له حظّ من التواضع، وإذا تواضع فإنّ تواضعه لا يكون إلّا تملّغاً.

## ١- الفطرة

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "إنّ التواضع والخضوع والتعظيم في مقابل العظيم الجليل، من الأمور الفطريّة الراسخة في فطرة كلّ إنسان بحيث لا تجد بين البشر من يشدّ عنها، فقلوب أيّ إنسان إذا أدرك عظمة شخص اندفع طواعية بفطرته. دون تأمّلٍ أو تردّد. إلى تجليله والخضوع تواضعاً له وتصاغراً له أمام عظمته، بل ويعمد إلى التواضع على المتصلين به تبعاً للتواضع له.

وحيث أنّ الإنسان بفطرته متواضعٌ متذللٌ (بالكامل) للعظيم المطلق والكبير بكلّ معنى الكلمة وبتمام حقيقتها، لذا فإنّه . إذا لم تحتجب فطرته السليمة ولم تختمر بمواد عالم الطبيعة فتحضغ لأحكام هذا العالم . يقرّ بالتواضع . على نحو الاستقلال، للحقّ تعالى جلّت عظمته، لأنّه تعالى العظيم على الإطلاق، وكلّ عظمة وكبرياء وجلال وجمال ظلّ لعظمته تعالى وجلاله وجماله .

إذن، فالإنسان . بحسب فطرته الأصلية السليمة من حجب أحكام الطبيعة . متواضع للحقّ تعالى بالذات، ولمظاهر جماله وجلاله بالعرض . والتواضع لعباد الحقّ تعالى هو التواضع عينه له جلّ وعلا، ولا سبيل للنفس والشيطان إلى التأثير على هذا النوع من التواضع المنبعث من الفطرة السليمة، لذلك لا يكون هذا التواضع ناشئاً من أهواء النفس، فهو منزّه عن الطمع في الحصول على منافعتها، وصاحب هذه الفطرة السليمة غير المحجوبة لا يتواضع لغير الحقّ تعالى في الوقت نفسه الذي يتواضع لجميع خلق الله، لأنّ قلبه لا يتوجّه لغيره عزّ وجلّ، فالتكثير هنا هو التوحيد عينه، والتوجّه للخلق هو التوجه عينه للحقّ تعالى . وهذا الخلق الكريم يكون معرفة الله عينها، ومحبته تعالى لأنّه صادراً من تلك المعرفة وهذه الحجة .

ولا يتملّق صاحب هذه الفطرة السليمة لأيّ مخلوق، لأن منشأ التملّق هو حبّ النفس والاحتجاب عن الحقّ تعالى وهو منزّه عنهما . من هنا يتضح أنّ التواضع للحقّ والخلق من لوازم الفطرة المخمّرة السليمة، وأنّ التكبر والتملّق هما من لوازم احتجاب الفطرة، لأنّ الإنسان إذا حجّبه حجب النفس عن فطرته السليمة، وسيطر عليه حبّ النفس والتوجّه لها، أخذ يسجّل لنفسه . بدافع حبّها . الكثير من الكمالات، غافلاً عن مبدأ الكمالات، مستصعراً الآخرين إذا لم يجد عندهم ما يثير طمعه المادي، ومعظماً لهم إذا وجد فيهم ما يطمع به، فيتكبر على الضعاف ويتملّق لأهل الدنيا الذين يطمع بما عندهم<sup>١</sup> .

## ٢- العلم

إنّ العلم بصورةٍ عامّةٍ ينبغي أن يكون منشأً للتواضع، لأنّ العالم هو أكثر الناس اطلاعاً على جهله نظراً لمعرفته بسعة العلم وما خفي عنه . لهذا، يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "من

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣١٩-٣٢١ .

كان جهله أكبر وعقله أصغر كان تكبره أكثر، ومن كان علمه أكثر وروحه أكبر وصدوره أوسع، كان تواضعه أكثر"¹.

ويقول قدس سره: "فاعلم، أنّ التواضع وليد العلم والمعرفة، والكبر وليد الجهل وانعدام المعرفة"².

### ٣- معرفة الله والنفس

يقول الإمام الخميني قدس سره: "أما قوله عليه السلام: "إنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِخُدْمَةِ النَّاسِ هُوَ الْعَالِمُ"، فهو يرجع إلى كون التواضع ثمرة العلم بالله والعلم بالنفس، وهذا ما ينبغي تحقّقه في العلماء، فالعالم الذي لا يتميّز بالتواضع للناس بل يتوقّع منهم الخضوع والتواضع له، ليس بعالم، وما يحتزنه من مفاهيم هو رجز الشيطان، ولو كانت هذه المفاهيم وسيلة للسعادة والسلامة لكان إبليس أيضاً من السعداء، والعلم الذي يفقد خاصيته الأصلية (وهي التواضع) هو حجابٌ غليظ يكون التحرّر منه وخرقه من أصعب الأمور"³.

### ٤- حبّ الله تعالى

"إنّ معرفة الله تؤدّي إلى حبّه عزّ وجلّ، فإذا اكتمل هذا الحبّ تحرّر هذا الإنسان من أسر نفسه، فإذا تحرّر منها تحرّر من أسر العالم كلّه، وتخلّص من الطمع في نفسه وفي غيره، وتطهّر من رجز الشيطان ورجز الطبيعة، وأشرق النور الأزليّ في باطن قلبه، وانتقل منه إلى ظاهره وجوارحه، فنور جميع أفعاله وأقواله، وجعل كلّ قواه وجوارحه إلهيّة ونورانيّة، فيكون في الوقت ذاته متواضعاً للجميع، ممتنعاً عن التملّق لأحدٍ، فلا يتطلّع بعين الطمع إلى ما عند أحد من الخلق، ولا يرجو شيئاً ممّا في أيديهم"⁴.

### ٥- ذكر الله تعالى

وإذا كانت المعرفة سبباً لتحقيق الحبّ، لأنّ من عرف الله تعالى وكان على الفطرة الصّافية توجّه قلبه إلى مصداق الكمال الواقعيّ الذي تعشقه فطرته وتطلبه، فإنّ المحبّة كذلك هي السبب الأهمّ للدّكر كما جاء في الأحاديث بأنّ من أحبّ شيئاً أكثر ذكره. والدّكر

¹ الأريعون حديثاً، ص ١٢٢.

² (ن.م)، ص ١٢٢.

³ جنود العقل والجهل، ص ٣١٥.

⁴ (ن.م)، ص ٣٠٥.

ليس سوى استحضار عظمة المحبوب في القلب. ومن كان كذلك كيف له أن يتكبر. يقول الإمام الخميني قدس سره: "اعلم أنّ ذكر الله تعالى يجعل القلب مُعرضًا عن جميع منازل الطبيعة ومناظرها، بل ويجعل كلّ العالم بكل ما فيه عدماً لا قيمة له في عينه، فلا يتعلّق بشيءٍ منه، بل ينحصر تعلّقه بالحقّ تعالى وحده، حتى تبلغ همّته مرتبةً من العلوّ لا يقيم معها وزنًا لجميع عوالم الوجود، وعندها لا تضعف همّته بسبب الواردات القلبية مهما كانت، فلا يستشعر الكبر في نفسه بسبب هذه الواردات بل إنّه يستصغر كلّ شيءٍ غير الحقّ تعالى وآثار جماله وجلاله، وهذه الحال هي بحمد ذاتها سببٌ لتواضعه له عزّ وجلّ بالأصالة، ولخلقه بالتبعية، لأنّه يرى الخلق من الحقّ تعالى... إذًا، فحبّ الله تعالى يثمر سعة الصدر، وهذه السعة تولّد التواضع وعزّة النفس"<sup>١</sup>.

## ٦- شكر الله

وعندما يعرف الإمام ماهية الشكر يذكر له ثمرة مهمّة هي التواضع، فيقول قدس سره: "الشكر عبارة عن مقابلة النعمة بالقول أو الفعل أو النية، وله ثلاث أركان: الأول: معرفة المنعم وما يليق به من صفات ومعرفة النعمة. الثاني: الحال القلبية التي تثمرها هذه المعرفة، وهي حال الخضوع للمنعم والتواضع له"<sup>٢</sup>.

## ٧- شرح الصدر

يقول الإمام الخميني قدس سره: "اعلم أنّ أسباب التواضع والتكبر وموجباتهما كثيرة، منها شرح الصدر وضيقه: فالمتحلّي بشرح الصدر لا يولي أهمية لما يراه في نفسه من كمال وجمال ومال ونفوذ وحشمة، ولا يستعظمه، لأن سعته الوجودية كبيرة إلى درجة تجعله يتغلب على جميع الواردات القلبية، فلا يضيق وعاءُهُ الوجودي بشيءٍ. وهذه السعة في الصدر وليدة معرفة الحقّ تعالى، وهي التي توصل قلوب المتأهّلين للأئمة بالله إلى مقام الاطمئنان والسكينة والطمأنينة"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٤-٣٠٥.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ١٧٤.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٣٠٤.

## كيفية اكتساب التواضع

### ١- التأسي بأولياء الله

ذكرنا أنّ من أهم عوامل اكتساب التواضع وتحصيله التأسي. وعندما يعرف السالك أسباب التواضع ويعمل عليها، فإنّها ستثمر هذه الصفة الفاضلة.

يقول الإمام قدس سره: "فيا أيها العزيز! إذا كان التكبر بالكمال المعنوي، فقد كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والإمام عليّ عليه السلام أرفع شأنًا، وإذا كان بالرئاسة والسلطان، فقد كانت لهما الرئاسة الحقّة. ومع ذلك، كانا أشدّ الناس تواضعًا. فاعلم، أنّ التواضع وليد العلم والمعرفة، والكبر وليد الجهل وانعدام المعرفة، فامسح عن نفسك عار الجهل والانحطاط، واتّصف بصفات الأنبياء، واترك صفات الشيطان، ولا تنازع الله في رذائه. الكبرياء. فمن ينازع الحقّ في رذائه فهو مغلوبٌ ومقهورٌ بغضبه، ويكُفّ على وجهه في النار".<sup>١</sup>

### ٢- العمل بخلاف هوى النفس

بالإضافة إلى ما ذكر يوصي الإمام قدس سره بطريقة عمليّة معروفة في تهذيب النفس وهي العمل بالخلاف أو مخالفة النفس، فيقول: "إذا عزمت على إصلاح نفسك، فطريقه العمليّ أمرٌ يسير مع شيء من المثابرة، وإنّه طريق لو اتّصفت بهمة الرجال وحرية الفكر وعلوّ النظر، فلن تصادفك أية مخاطر. فإنّ الأسلوب الوحيد على النفس الأمّارة، وقهر الشيطان، ولا تبتاع طريق النجاة، هو العمل بخلاف رغباتهما. إنّه لا يوجد سبيل أفضل لقمع النفس من الاتّصاف بصفة التواضع ومن السير وفق مسيرة المتواضعين فحيثما تكن درجة التكبر عندك، ومهما تكن طريقتك في العلم والعمل، اعمل قليلاً بخلاف هوى نفسك، فإنّ مع الإلتفات إلى الملاحظات العلميّة تجاه التكبر، والانتباه إلى النتائج المطلوبة. إذا رغبت بأن تتصدر المجلس متقدّمًا على أقرانك، فخالفها واعمل عكس ما ترغب فيه. وإذا كانت نفسك تأنف من مجالسة الفقراء والمساكين، فمرّغ أنفها في التراب وجالسهم وأكلهم ورافقهم في السفر ومازحهم، وقد تجادل نفسك فتقول لك: إنّ لك مقامًا ومنزلةً، وإنّ عليك أن تحافظ على مقامك من أجل ترويج الشريعة والعمل في سبيلها، فمجالستك الفقراء تذهب بمنزلتك

<sup>١</sup> الأربعون حديثًا، ص ١٢٢.

من القلوب، وإنّ المزاح مع مَنْ هو دونك، يقلّل من عظمتك، وجلوسك في ذيل المجلس يحطّس من هيبتك، فلا تقدر أن تؤدّي واجبك الشرعيّ على خير وجه!! اعلم، أنّ هذه كلّها من مكائد الشيطان والنفس الأمارّة<sup>١</sup>.

### ٣- الصلاة

يقول الإمام قدس سره: "الصلاة هي جوهر التواضع والخشوع، ولبّتها هو هجران النفس، والسفر إلى الله فهي "معراج المؤمن"<sup>٢</sup>.

### ٤- السجود

"ولا بُعد عن الله أبداً من أحسن تقربه في السجود، ولا قُرب إليه أبداً من أساء أدبه وضيّع حرمة بتعلّق قلبه بسواه في حال سجوده، فاسجد سجود متواضع لله تعالى ذليل علم أنّه خلّق من تراب يطؤه الخلق وأنّه اتّخذك (ركب) من نطفة يستقذرها كلّ أحد وكون ولم يكن، وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسرّ والروح فمن قرب منه بُعد من غيره..."<sup>٣</sup> واعلم أنّ في السجود كسائر الأوضاع الصلواتية هيئة وحالة وذكرًا وسرًا. وهذه الأمور للكتمل على نحو قد بيّنت في هذه الرسالة إشارةً وأما بيانها تفصيلاً فغير مناسب. وأمّا للمتوسّطين فهيتها إراءة المترية وترك الاستكبار والعجب وإرغام الأنف وهو من المستحبات المؤكّدة بل تركه خلاف الاحتياط إظهارًا لكمال التخصّص والتذلل والتواضع<sup>٤</sup>.

### موعظة للإمام

عن الإمام الصادق عليه السلام: "ما من عبداً إلا وفي رأسه حكمة ومليكٌ يمسكها، فإذا تكبّر قال له: اتضع وضعتك الله، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس. وإذا تواضع رفعه الله عز وجل. ثمّ قال: انتعش الله، فلا يزال أصغر الناس في نفسه وأرفع الناس في أعين الناس"<sup>٤</sup>. فيا أيها العزيز ما يحتوي عليه رأسك من الدماغ،

<sup>١</sup> (م.ن)، ص ١٢٢-١٢٣.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٧٧.

<sup>٣</sup> معراج السالكين، ص ٣٥٦.

<sup>٤</sup> الكافي ج ٢، ص ٣١٢.

تحتويه رؤوس الآخرين أيضاً، إذا كنت متواضعاً، احترمتك الناس قهراً واعتبروك كبيراً، وإذا تكبرت على الناس لم تنل منهم شيئاً من الاحترام. بل إذا استطاعوا أن يذلوك لأذلوك ولم يكثرثوا بك. وإن لم يستطيعوا إذلالك، لكنك وضيعاً في قلوبهم، وذليلاً في أعينهم، ولا مقام لك عندهم. افتح قلوب الناس بالتواضع فإذا أقبلت عليك القلوب ظهرت آثارها عليك وإن أدبرت تكون آثارها على خلاف رغباتك.

فإذا فرضنا أنك كنت من المبتغين للاحترام والمقام الرفيع، لكان اللازم عليك أن تسلك الطريق الذي يفضي بك إلى الاحترام والسمو، وهو مجارة الناس والتواضع لهم. إن التكبر ينتج ما هو على خلاف طلبك وقصدك. إنك لا تكسب من وراء التكبر نتيجة دنيوية مجدية، بل ستحصل من ورائه نتيجة معكوسة. ويُضاف إلى ذلك أن مثل هذا الخلق يوجب الذل في الآخرة والمسكنة في ذلك العالم. فكما أنك احتقرت الناس في هذا العالم، وترفعت على عباد الله وتظاهرت أمامهم بالعظمة والجلال والعزة والاحتشام، كذلك تكون صورة هذا التكبر في الآخرة، الهوان<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> الأربعون حديثاً، ص ١١١.

## المفاهيم الرئيسة

١- منشأ التواضع:

- الفطرة: قلبُ أيِّ إنسان إذا أدرك عظمة شخص اندفع طواعيةً بفطرته - دون تأملٍ أو تردد - إلى تحليله والخضوع تواضعًا له، وتصاغيرًا له أمام عظمته.

- العلم: لأنّ العالم هو أكثر الناس اطلاعًا على جهله.

- معرفة الله والنفس: التواضع ثمرة العلم بالله والعلم بالنفس.

- حبّ الله: إنّ معرفة الله تؤدّي إلى حبّه عزّ وجلّ، فإذا اكتمل هذا الحبّ تحرّر هذا الإنسان من أسر نفسه، فإذا تحرّر منها تحرّر من أسر العالم كلّه، وتخلّص من الطمع في نفسه وفي غيره، فيكون في الوقت ذاته متواضعًا للجميع.

- ذكر الله: يجعل القلب مُعرضًا عن جميع منازل الطبيعة ومناظرها، بل ويجعل كلّ العالم بكل ما فيه عمدًا لا قيمة له في عينه، فينحصر تعلقه بالحقّ تعالى وحده.

- الشكر: الشكر عبارة عن مقابلة التعمّة بالقول أو الفعل أو النية، والحال القلبية التي تثمرها المعرفة بالمنعم، هي حال الخضوع للمنعم والتواضع له.

- شرح الصدر: فالمتحلي بشرح الصدر لا يولي أهميةً لما يراه في نفسه من كمال وجمال ومال ونفوذ وحشمة ولا يستعظمه، لأنّ سعته الوجودية كبيرة إلى درجة تجعله يتغلب على جميع الوردات القلبية، فلا يتكبّر.

٢- كيفية اكتساب التواضع:

- التأسي بأولياء الله (الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته، موسى وعيسى عليهما).

- العمل بخلاف هوى النفس: لا يوجد سبيل أفضل لقمع النفس من الاتّصاف بصفة التواضع ومن السّير وفق مسيرة المتواضعين فحيثما تكن درجة التكبر عندك، ومهما تكن طريقتك في العلم والعمل، اعمل قليلاً بخلاف هوى نفسك.

- الصلاة: الصلاة هي جوهر التواضع والخشوع.

- السجود: فاسجد سجود متواضع لله تعالى ذليل علم أنّه خلّق من تراب يطوّه الخلق وأنّه اتخذك (ركب) من نطفة يستقذرها كلّ أحد وكون ولم يكن.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَخْلَصْتُ بِانْقِطَاعِي إِلَيْكَ وَأَقْبَلْتُ بِكُلِّي عَلَيْكَ وَصَرَفْتُ وَجْهِي عَمَّنْ يَخْتِاجُ إِلَي رَفِيدِكَ وَقَلْبْتُ مَسْأَلَتِي عَمَّنْ لَمْ يَسْتَعْنِ عَن فَضْلِكَ وَرَأَيْتُ أَنَّ طَلَبَ الْمُحْتَاجِ إِلَى الْمُحْتَاجِ سَفَهُ مِنْ رَأْيِهِ وَضَلَّةٌ مِنْ عَقْلِهِ فَكَمْ قَدْ رَأَيْتُ يَا إِلَهِي مِنْ أَنْاسٍ طَلَبُوا الْعِزَّ بِعَيْرِكَ فَذَلُّوا، وَزَامُوا الثَّرْوَةَ مِنْ سِوَاكَ فَافْتَقَرُوا، وَحَاوَلُوا الْإِرْتِفَاعَ فَاتَّضَعُوا، فَصَحَّ بِمُعَايَنَةِ أَمْثَالِهِمْ حَازِمٌ وَقَفَّهُ اعْتِبَارُهُ، وَأَرْشَدَهُ إِلَى طَرِيقِ صَوَابِهِ اخْتِيَارُهُ"<sup>١</sup>.

الروايات الشريفة:

١ - عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "كَمَالُ الْعَقْلِ فِي ثَلَاثَةٍ: التَّوَاضُّعُ لِلَّهِ وَحُسْنُ الْيَقِينِ وَالصَّمْتُ إِلَّا مِنْ خَيْرٍ"<sup>٢</sup>.

٢ - وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "يَا هِشَامُ إِنَّ الزَّرْعَ يَنْبُثُ فِي السَّهْلِ وَلَا يَنْبُثُ فِي الصَّفَا فَكَذَلِكَ الْحِكْمَةُ تَعْمُرُ فِي قَلْبِ الْمُتَوَاضِعِ وَلَا تَعْمُرُ فِي قَلْبِ الْمُتَكَبِّرِ الْجَبَّارِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ التَّوَاضُّعَ آلَةَ الْعَقْلِ وَجَعَلَ التَّكَبُّرَ مِنْ آلَةِ الْجُهْلِ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ مَنْ شَمَخَ إِلَى السَّقْفِ بِرَأْسِهِ شَجَّهُ وَمَنْ خَفَضَ رَأْسَهُ اسْتَظَلَّ تَحْتَهُ وَأَكْنَهُ، فَكَذَلِكَ مَنْ لَمْ يَتَوَاضِعْ لِلَّهِ خَفَضَهُ اللَّهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ إِلَى أَنْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْفَعْ الْمُتَوَاضِعِينَ بِعَدْرِ تَوَاضُعِهِمْ وَلَكِنْ رَفَعَهُمْ بِعَدْرِ عَظَمَتِهِ وَبِحَدِيثِهِ"<sup>٣</sup>.

٣ - وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "الْأَكْلُ مَعَ الْخُدَامِ مِنَ التَّوَاضُّعِ فَمَنْ أَكَلَ مَعَهُمْ اشْتَاقَتْ إِلَيْهِ الْجَنَّةُ"<sup>٤</sup>.

٤ - عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: "أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الْعِلْمُ بِاللَّهِ وَالتَّوَاضُّعُ لَهُ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام متفرعاً إلى الله عز وجل.

<sup>٢</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٢٩٦.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ٢٩٩.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ج ١٦، ص ٣٣١.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ج ١١، ص ٣٠٠.

٥- قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَنْ تَوَاضَعَ لِلْمُتَعَلِّمِينَ وَذَلَّ لِلْعُلَمَاءِ سَادَ بِعِلْمِهِ فَالْعِلْمُ يَرْفَعُ الْوَضِيعَ وَتَرْكُهُ يَضَعُ الرَّفِيعَ وَرَأْسُ الْعِلْمِ التَّوَاضُّعُ"<sup>١</sup>.

٦- عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَذْكُرُ: "أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَلَكٌ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّكَ أَنْ تَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا مُتَوَاضِعًا أَوْ مَلِكًا رَسُولًا، قَالَ: فَتَنَظَّرَ إِلَى جِبْرِئِيلَ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ أَنْ تَوَاضِعَ، فَقَالَ: عَبْدًا مُتَوَاضِعًا رَسُولًا، فَقَالَ الرَّسُولُ: مَعَ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُكَ مِمَّا عِنْدَ رَبِّكَ شَيْئًا، قَالَ: وَمَعَهُ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الْأَرْضِ"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٦.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٢٢.

## الدرس الثالث والثلاثون: الصمت

### أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يميّز الصّمت الممدوح والذي يُعدّ فضيلة عن غيره.
- ٢- يتعرّف إلى أهميّة الصّمت وآثاره.
- ٣- يفهم الأمور التي تعين على تحصيل فضيلة الصّمت.



## تمهيد

الصمت فعل، بل هو أقلّ من ذلك، إنّه ترك، لا يحتاج إلى مؤونة، لكنّه إذا صار سمة شخصيّة كان خُلُقًا عظيمًا، لأنّه يتطلّب جهدًا كبيرًا. وكأنّ النفس إذا خُلّيت وطبعها مالت إلى الكلام فكيف إذا كانت أمارة بالسوء؟! بل كيف إذا رأت في الكلام تعزيزًا لشأنها وتحصيلًا لمرادها وأهوائها؟!

عندئذٍ يشبه حال الصمت كمن يوقف قطارًا ينزلق بسرعة كبيرة. وكثيرٌ من الناس لا يقدرّون عليها بالرغم من أنّه في الظاهر لا يستلزم شيئًا. فلماذا كان الصمت شعار المؤمنين في مراتبهم العالية؟ وكيف يمكن أن نصل إلى هذه الفضيلة العظيمة؟

## ماهية الصمت

لا شكّ بأنّ الكلام وسيلة من وسائل تأمين الحاجات المختلفة، وبواسطته تسهل عمليّة التّواصل بين النّاس في حياتهم الاجتماعيّة التي اضطروا إليها، على قاعدة أنّ الإنسان مدنيّ بالاضطرار، فما دامت الحياة الاجتماعيّة قائمة، احتاج الإنسان إلى جملة من الأمور التي يؤمن بها معاشه.

وبالنظر إلى تشعّب الحياة الاجتماعيّة وتعقيداتها ونشوء الأنظمة المختلفة تشكّل الكثير من العوائق في طريق تأمين الاحتياجات، ترجع كلّها أو جلّها إلى سيطرة الأهواء والأطماع وتحوّلها إلى أنظمة حكم، فازدادت الحاجة إلى الكلام وتخطّت حدود الاحتياجات الأوّليّة. وبسبب ذلك تضاعفت مساحات الكلام والتّواصل الشفهيّ أضعافًا كثيرة. ومع كلّ زيادة ازداد وقوع النّاس في الأخطاء وكثرت زلّاتهم نتيجة كثرة كلامهم. "ومن كثر كلامه كثر

خطوه<sup>١</sup>. ومع كثرة الأخطاء تكثر الأضرار وتزداد الشُّرور، وكان لا بدّ من إيقاف هذا المسلسل بواسطة بعث الأنبياء لكي يعيدوا الحياة الاجتماعيّة إلى وضعها الأوّليّ، ويضعوا حدًّا لمسيرة الانزلاق المتفاقمة.

في هذا المجال، عمل أولياء الله من أجل خلاص النَّاس والمجتمعات على خطّين متوازيين.

**الأوّل:** تأمين البيئة الاجتماعيّة التي تقلّل من استعمال اللسان،

**والثّاني:** البناء الأخلاقيّ والمعنويّ الذي يوجّه الإنسان إلى أمور كثيرة تغنيه عن العديد من مجالات التّواصل الشفهيّ. فالكلام اضطرار في اضطرار.

ومن جملة أولياء الله كان الإمام الخمينيّ قدس سره الذي تحدّث عن فضيلة الصّمت وأهمّيته، وبيّن موقعيته في منظومة الأخلاق الإسلاميّة ودوره في هداية الإنسان نحو الغاية المنشودة.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "الصمت هو السكوت، لكن المراد هنا ليس السكوت المطلق فهذا ليس من جنود العقل، وليس أفضل من الكلام، بل إنّ الكلام في محلّه المناسب أفضل من السكوت. لأنّه بالكلام تُنشر المعارف والحقائق الدنيّة وتُروّج المعالم والآداب الشرعيّة، والله تعالى متّصفٌ به، ومن أوصافه الجميلة (وكل أوصافه جميلة) أنّه المتكلم. لذلك لم يجعل هنا الحديث الشريف (حديث جنود العقل والجهل) "التكلم" ضدًّا للصمت، بل جعل ضده "الهذر". بفتحتين. وهو الهذيان، والكلام بالأمور الفارغة غير المفيدة. إذًا، فالممدوح شرعًا وعقلًا والذي هو من جنود العقل، السكوت عن الهذيان والهذر"<sup>٢</sup>.

وبهذا البيان يُعلم أنّ فضيلة الصّمت بالإضافة لا مطلق الصّمت. وعلى هذا الأساس، ينبغي أن نفسّر الأحاديث والزوايات التي حثّت عليه، وجعلته من صفات المؤمنين ومن علائم الإيمان كما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: "في حديثٍ في صفات المؤمنين أَسْتَبْتُهُمْ مَسْجُونَةٌ وَصُدُورُهُمْ وَعَاءٌ لِسِرِّ اللَّهِ إِنْ وَجَدُوا لَهُ أَهْلًا (نَبْدُوهُ إِلَيْهِ نَبْدًا) وَإِنْ لَمْ يَجِدُوا لَهُ أَهْلًا أَلْقُوا عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ أَقْفَالًا غَيَّبُوا مَفَاتِيحَهَا وَجَعَلُوا عَلَى أَفْوَاهِهِمْ أَوْكِيَةً صُلْبٌ صِلَابٌ أَصْلَبُ مِنَ الْجِبَالِ لَا يُنَحْتُ مِنْهُمْ شَيْءٌ خُرَّانٌ"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> تحج البلاغة، ص ٥٣٦.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٤٥.

<sup>٣</sup> مستدرک الوسائل، ج ٩، ص ٢٦.

## أهمية الصمت

ذكر الإمام قدس سره بأن الصمت من أعظم الإنجازات، وذكرت الأحاديث الشريفة مجموعة مهمة من نتائج الصمت وثوابه.

### ١- الصمت من الكمالات

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ولا ريب في أنّ هذا الصمت وحفظ اللسان من اللغو والباطل هو من الفضائل والكمالات الإنسانيّة، بل إنّ السيطرة على هذه الأفعى المتمرّدة اللسان، وتطويعها للإرادة الذاتية، من أعظم الإنجازات ولكن قلّ مَنْ يُوفِّقُ لذلك، لأنّ للسان آفات ومخاطر أوصلها بعضهم إلى قرابة العشرين آفة ولعلّها أكثر من ذلك أيضاً".<sup>١</sup>

### ٢- في الصمت التّجاة والراحة في الدّنيا والآخرة

وفي مصباح الشريعة: "قال الإمام الصادق عليه السلام: "الصّمتُ شِعَارُ الْمُحَقِّقِينَ بِحَقَائِقِ مَا سَبَقَ وَجَفَّ الْقَلَمُ بِهِ، وَهُوَ مِفْتَاحُ كُلِّ رَاحَةٍ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَفِيهِ رِضَا الرَّبِّ وَتَخْفِيفُ الْحِسَابِ وَالصَّوْنُ مِنَ الْخَطَايَا وَالرِّزْقُ، قَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ سِتْرًا عَلَى الْجَاهِلِ وَزِينًا لِلْعَالِمِ، وَمَعَهُ عِزُّ الْهَوَاءِ وَرِيَاضَةُ النَّفْسِ وَخِلَاوَةُ الْعِبَادَةِ وَرَوَالُ قَسْوَةِ الْقَلْبِ وَالْعَفَافُ وَالْمُرُوَّةُ وَالظَّرْفُ، فَأَغْلِقْ بَابَ لِسَانِكَ عَمَّا لَكَ بُدٌّ مِنْهُ لَا سِيَّمَا إِذَا لَمْ تَجِدْ أَهْلًا لِلْكَلامِ وَالْمُسَاعَدَةَ فِي الْمَذَاكِرَةِ لِلَّهِ وَفِي اللَّهِ، وَكَانَ رِبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ يَضَعُ قِرْطَاسًا بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَكْتُبُ مَا يَتَكَلَّمُ، ثُمَّ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ فِي عَشِيَّتِهِ مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ وَيَقُولُ: أَوْهَ بِنَا الصَّامِتُونَ وَبِقِيَّتِنَا، وَكَانَ بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يَضَعُ حِصَاةً فِي فَمِهِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَا عَلِمَ أَنَّهُ لِلَّهِ وَفِي اللَّهِ وَلِوَجْهِ اللَّهِ أَخْرَجَهَا، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَتَنَفَّسُونَ تَنَفُّسَ الْعَرَفِيِّ وَيَتَكَلَّمُونَ شِبْهَ الْمَرْضَى، وَإِنَّمَا سَبَبُ هَلَاكِ الْخَلْقِ وَبِحَاتِهِمُ الْكَلَامُ وَالصَّمْتُ، فَطُوبَى لِمَنْ رُزِقَ مَعْرِفَةَ عَيْبِ الْكَلَامِ وَصَوَابِهِ وَعَلِمَ الصَّمْتَ وَقَوَائِدَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَخْلَاقِ الْأَنْبِيَاءِ وَشِعَارِ الْأَصْفِيَاءِ وَمَنْ عَلِمَ قَدْرَ الْكَلَامِ أَحْسَنَ صُحْبَةَ الصَّمْتِ وَمَنْ أَشْرَفَ عَلَى مَا فِي لَطَائِفِ الصَّمْتِ وَائْتَمَنَهُ عَلَى خَزَائِنِهِ كَانَ كَلَامُهُ وَصَمْتُهُ كُلُّهُ عِبَادَةً وَلَا يَطَّلِعُ عَلَى عِبَادَتِهِ إِلَّا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ".<sup>٢</sup>

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٤٥.

<sup>٢</sup> بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٢٨٤.

### ٣- الصّمت أساس العزّ

كما جاء عن عثمان بن عيسى حيث قال: "حَضَرْتُ أَبَا الْحَسَنِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ أَوْصِنِي فَقَالَ لَهُ اخْفِظْ لِسَانَكَ تُعَزَّ وَلَا تُمَكِّنِ النَّاسَ مِنْ قِيَادِكَ فَتَذِلَّ رَقَبَتَكَ"<sup>١</sup>.

### ٤- في الصّمت الرجوع إلى جوار الله

ومن أعظم ما قيل في قلة الكلام ما ورد عن القطب الراوندي في قصص الأنبياء: "إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا كَثُرَ وُلْدُهُ وَوُلْدُ وُلْدِهِ كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ عِنْدَهُ وَهُوَ سَاكِتٌ فَقَالُوا: يَا أَبَتَهُ مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟ فَقَالَ: يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ لَمَّا أَخْرَجَنِي مِنْ جِوَارِهِ عَهْدَ إِلَيَّ وَقَالَ أَقِلَّ كَلَامَكَ تَرْجِعْ إِلَى جِوَارِي"<sup>٢</sup>. وكان الصّمت منهاج الرجوع إلى الله تعالى كله.

### ٥- السّلامة من التّار

وفيه السّلامة من أعظم البلايا وهي التّار كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "رَجِمَ اللَّهُ عَبْدًا تَكَلَّمَ فَعَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ إِنَّ اللَّسَانَ أَمْلَكُ شَيْءٍ لِلْإِنْسَانِ أَلَا وَإِنَّ كَلَامَ الْعَبْدِ كُلَّهُ عَلَيْهِ إِلَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ أَوْ إِصْلَاحَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بَنِي جَبَلٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتُمْ أَخَذُوا بِمَا نَتَكَلَّمُ؟ فَقَالَ لَهُ: وَهَلْ تَكُتُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاجِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ فَمَنْ أَرَادَ السَّلَامَةَ فَلْيَحْفَظْ مَا جَرَى بِهِ لِسَانُهُ"<sup>٣</sup>.

### ٦- خُلُقُ الْأَوْلِيَاءِ

ويكفيه عظمة أنّه من أخلاق من كان أخا عليّ بن أبي طالب عليه السلام كما روي عنه في نهج البلاغة: "كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَحٌّ فِي اللَّهِ وَكَانَ يُعْظِمُهُ فِي عَيْنِي صِعْرَ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ إِلَى أَنْ قَالَ وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتًا إِلَى أَنْ قَالَ وَكَانَ إِذَا غَلِبَ عَلَى الْكَلَامِ لَمْ يُغْلِبْ عَلَى السُّكُوتِ وَكَانَ عَلَى أَنْ يَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ إِلَى أَنْ قَالَ فَعَلَيْكُمْ بِحَذِهِ الْحَلَالِيقِ فَالزُّمُوهَا"<sup>٤</sup>.

١ الكافي، ج ٢، ص ١١٣.

٢ بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٨٠.

٣ الكافي، ج ٢، ص ١١٥.

٤ نهج البلاغة، ص ٥٢٦.

وفي قصة: "مَرَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَخْلَاطِ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ فِيهِمْ مُهَاجِرِيٌّ وَلَا أَنْصَارِيٌّ وَهُمْ فُغُودٌ فِي بَعْضِ الْمَسَاجِدِ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ (و) إِذَا هُمْ يَخُوضُونَ فِي أَمْرِ الْقَدَرِ وَعَزِيرِهِ بِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ قَدِ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ وَاشْتَدَّ فِيهِ مُحْكُهُمْ وَجَدَالُهُمْ فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ فَسَلَّمَ فَرَدُّوا عَلَيْهِ وَأَوْسَعُوا لَهُ وَقَامُوا إِلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ الْقُعودَ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَخْفَلْ بِهِمْ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِمْ وَلَمْ يَرِدْ عَلَيْهِمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عِبَادًا قَدْ أَسْكَنَتْهُمْ حَشِيئَتَهُ مِنْ غَيْرِ عِيٍّ وَلَا بَكْمٍ وَأَنْتُمْ هُمْ الْفُصْحَاءُ الْعُقَلَاءُ الْأَلْيَاءُ الْعَالِمُونَ بِاللَّهِ وَأَيَّامِهِ"<sup>١</sup>.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "إن الكلام، ولا شك، هو من كمالات الوجود، والتكلم منشأ للكثير من الكمالات أيضاً، فلولاها لكانت أبواب المعارف موصدة، لذلك فقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم بجميل الذكر فقال في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ \* عَلَّمَ الْقُرْآنَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾<sup>٢</sup>. فقدّم تعليم البيان على جميع نعمه الأخرى. وهو تبارك وتعالى في مقام ذكر مننه على بني الإنسان. ومع ذلك، فقد رجحوا عليه الصمت والسكوت لأنه من غير الممكن حصول الاطمئنان من السلامة من آفاته، ولصعوبة حفظه والسيطرة عليه"<sup>٣</sup>.

ومن هذا الكلام يُعلم أنّ ترجيح الصمت على الكلام يرجع إلى الحالة الغالبة على الناس كما ذكرنا. ففي ظل تلك البيئة الاجتماعية سيكون الأصل هو الكلام العابث واللغويّ مع ما سيجرّه من أخطاء وذنوب، ويكون الترجيح بسبب هذه الأوضاع.

ويقدّم الإمام الخميني قدس سره منهاجاً كاملاً للتعامل مع الكلام وموقع الصمت في الحياة ضمن وصية خاصة لأهل السلوك وطلاب المعنى.

### منهاج الصمت

يقول الإمام الخميني قدس سره: "وكان أهل الرياضات ليلزمون أنفسهم بالسكوت كأمرٍ حتميٍّ، ويهتمون لأجله بالخلوة والعزلة رغم أنّ في مجالسة أهل المعرفة والعلماء وأهل الإقبال

<sup>١</sup> مستدرک الوسائل، ج ٧، ص ٥٤٢.

<sup>٢</sup> سورة الرحمن، الآيات ١-٤.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٤٦.

والتوجه إلى الله والرياضات، فوائد كثيرة وعائدات لا تُحصى، في حين أنّ في العزلة حرماناً من الكثير من المعارف والعلوم، كما أنّ خدمة الخلق . وهي من أفضل الطاعات والقربات . تحصل عادة من خلال المعاشرة، لكنّ مشايخ أهل الرياضات يرحّجون العزلة على المعاشرة بسبب كثرة آفات المعاشرة، وصعوبة حفظ الإنسان، في الأعمّ الأغلب، نفسه منها.

والحقّ في الأمر أنّ على الإنسان في البداية . وعند اشتغاله بالتعلّم والاستفادة . أن يجالس العلماء والفضلاء، ولكن مع حفظ آداب العشرة ورعاية ومعرفة أحوال وأخلاق المعاشرين، كما يجب عليه أن يستفيد من مشايخ وعظماء أهل التوجّه إلى الله في بدايات سيره وسلوكه، وفي أواسطه وأوائل نهاياته. فهو مضطّرّ للعشرة في هذه المرحلة.

أما إذا وصل إلى مرحلة نهايات سلوكه، فينبغي له التفرّغ الكامل لنفسه لمدة، والاشتغال بالحقّ وذكره تعالى، فإذا تعارضت الخلوة مع الحقّ خلال هذه المدة مع معاشرة الخلق، وجب عليه أن يعتزل لكي يُفاض عليه الكمال اللائق به من الملكوت الأعلى. فإذا وجد في نفسه ظهور حال الطمأنينة والسكينة والاستقرار والاستقامة، وأمن من غلبة الحالات النفسية والوساوس الإبلسية، حينئذٍ عليه أن يتوجّه إلى معاشرة الخلق بهدف إرشادهم وتعليم وتربية عباد الله وخدمة خلقه، فيعدّ نفسه للإقبال على خدمة الخلق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وهذا المنهاج عام يشمل الصمت والسكوت والكلام والإرشاد، فعلى الإنسان أن يشتغل في بداية أمره . حيث يكون متعلّماً . بالبحث والدّرس والتعلّم، فيجتنب فقط الكلمات والأقوال اللغوية الباطلة. فإذا كُئِل، فعليه أن يشتغل بالتفكير والتدبّر، فيمنع لسانه عن التّطرق بغير ذكر الله وما يرتبط به لكي تفيض على قلبه الإفاضات الملكوتية.

فإذا أصبح وجوده حقّاناً إلهياً، واطمأنّ إلى إلهية أقواله وكلامه، فعليه أن ينطق ويتصدّى لتربية النَّاس وتعليمهم والأخذ بأيديهم، فلا يتوانى عن خدمتهم ولا للحظة حتّى يرضى الله عنه، ويجعله من عباده المرّيين، ويخلع عليه خلعة التّعليم والإرشاد، فيجبر تبارك وتعالى بهذه الخدمة نقصه حيث وُجد<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٤٦-٣٤٧.

## الصمت من شروط السير إلى الله

ويتبين لنا أنّ لسلوك الإنسان وسيره إلى الله مراحل أهمّها بحسب كلام الإمام . البدايات، ومن ثمّ الأواسط ومن بعدها أوائل النهايات حتّى يبلغ مرحلة النهايات. ولكلّ مرحلة شروطها وآدابها المرتبطة بالكلام والصمت.

وقد أعطى الإمام قدس سره علامات أساسيّة لكلّ مرحلة مع ما تقتضيه من أمور وأعمال. وتكون حالة الطمأنينة والتّبات والسكينة والاستقامة والأمن من غلبة الحالات النفسية والوساوس الإبلسية من علامات انتقاله إلى مرحلة النهايات التي يصبح فيها الكلام أهمّ من السكوت لأنّه يندرج ضمن اعظم الاعمال وهو هداية الخلق والأخذ بأيديهم إلى الله تعالى.

ومن أروع ما قيل في هذا الباب الذي يُعدّ منهاجًا كاملاً للصمت ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: "الكلام إظهار ما في قلب المرء من الصفاء والكدر والعلم والجهل، قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام المرء محبوبٌ تحت لسانه، فإنّ كلامك وأعرضه على العقل والمعرفة فإن كان لله وفي الله فتكلّم به وإن كان غير ذلك فالسكوت خيرٌ منه، وليس على الجوارح أخفّ مؤونةً وأفضل منزلةً وأعظم قدرًا عند الله من الكلام في رضاء الله ولو وجهه ونشر آياته ونعمائه في عبادته ألا ترى أنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل فيما بينه وبين رُسله معنى يكشف ما أسرّ إليهم من مكنونات علمه ومخزونات وحيه غير الكلام؟! وكذلك بين الرُّسل والأمم ثبت بهذا أنّه أفضل الوسائل والكلف والعبادة، وكذلك لا معصية أنقل على العبد وأسرع عُقوبةً عند الله وأشدّها ملامةً وأعجلها سامةً عند الخلق منه، واللسان ترجمان الضمير وصاحب خير القلب وبه ينكشف ما في سرّ الباطن وعليه يُحاسب الخلق يوم القيامة والكلام خمر تُسكر القلوب والعقول ما كان منه لغير الله عزّ وجلّ، وليس شيءٌ أحقّ بطول السّجن من اللسان".<sup>1</sup>

<sup>1</sup> مستدرک الوسائل، ج ٩، ص ٢٩.

## ما يعين على الصّمت

بيّن الإمام الخمينيّ قدس سره أنّ الصّمت من لوازم الفطرة السليمة، وبذلك يكون الحفاظ على هذه الفطرة والاستمداً منها أفضل وسيلة لتحصيل الصّمت بمعناه الأخلاقيّ الرّيفع. فهناك من يصمت خوفاً من توبيخ النَّاس أو ملامتهم أو سخريتهم واستهزائهم، ومثل هذا الصّمت ليس نابغاً من الفطرة العاشقة للكمال والتي يجد صاحبها فرصة عظيمة في الصّمت للتوجّه إلى أنوار الملكوت. يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "وحيث أنّ الصّمت عن الباطل واللغو، واجتناب الهذيان والهذر، يُعين الإنسان على التّفكّر والاشتغال بباطنه وتطهيره من الرّجس، وتخليته وتصفيته، وبالتالي تقريبه من مبدأ الكمال الذي تعشقه الفطرة، وإزالة الأشواك من طريقه إليه، لذا فإنه من لوازم الفطرة السليمة المخمّرة إلهياً ومن جنود العقل والرحمان... وإذا احتجبت النفس عن فطرتها الأصلية السليمة وتعلقت بعالم الطبيعة وآماله الدنيئة، ظهر فيها الحبّ الكاذب واللغو الباطل حبّ كاذب ولغو باطل مثلما يظهر في المريض الاشتهاء الكاذب للطعام المضرّ له. فإذا خرجت النفس من هذه الحال من الاحتجاب، أدركت أن ما أحبته من مظاهر الطبيعة في تلك الحال الاحتجاجية هو أمرٌ تكرهه الفطرة السليمة، وأن ما كانت تنفر منه - في تلك الحال من الاحتجاب - من ذكر الله والتفكير والصّمت والخلوّة بالحقّ تعالى، هو أمرٌ تعشقه الفطرة السليمة"<sup>١</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٥٤.

## المفاهيم الرئيسة

١- الصّمت فعل، بل هو أقلّ من ذلك، إنّه ترك، لا يحتاج إلى مؤونة، لكنّه إذا صار بئمة شخصيّة كان خُلُقًا عظيمًا، لأنّه يتطلّب جهدًا كبيرًا. وكأنّ النَّفس إذا خُلّيت وطبعها مالت إلى الكلام فكيف إذا كانت أمانة بالسوء؟!

٢- كثرة زلات الناس نتيجة كثرة كلامهم. "فمن كثر كلامه كثر خطؤه". ومع كثرة الأخطاء تكثر الأضرار وتزداد الشّور.

٣- عمل أولياء الله من أجل خلاص النَّاس والمجتمعات على: ١. تأمين البيئة الاجتماعيّة التي تقلّل من استعمال اللسان. ٢. البناء الأخلاقيّ والمعنويّ الذي يوجّه الإنسان إلى أمور كثيرة تغنيه عن العديد من مجالات التّواصل الشفهيّ.

٤- الصّمت هو السّكوت، لكن المراد هنا ليس السّكوت المطلق فهذا ليس من جنود العقل، فالممدوح شرعًا وعقلًا والذي هو من جنود العقل، السكوت عن الهذيان والهدر لا مطلق الصّمت.

٥- الصّمت هو منهج الرجوع إلى الله تعالى كلّ، إن النبيّ آدم عليه السلام في كلامه إلى ولده يقول: "يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ جَلٌّ جَلَالُهُ لَمَّا أَخْرَجَنِي مِنْ جَوَارِهِ عَهْدَ إِلَيَّ وَقَالَ أَقَلَّ كَلَامَكَ تَرْجِعُ إِلَى جَوَارِي".

٦- إنّ الصّمت من الكمالات، وفيه النّجاة والرّاحة في الدّنيا والآخرة، وهو عزّ، وخُلُق الأولياء.

٧- المنهج العام للصّمت هو أن يشتغل الإنسان في بداية أمره بالبحث والدّرس والتّعلّم، فيجتنب فقط الكلمات والأقوال اللغوية الباطلة. فإذا كمل، فعليه أن يشتغل بالتّفكّر والتدبّر، فيمنع لسانه عن النّطق بغير ذكر الله وما يرتبط به لكي تفيض على قلبه الإفاضات الملكوتية.

٨- ما يعين على الصّمت: الحفاظ على الفطرة والاستمداد منها، فالصّمت عن الباطل واللغو، واجتناب الهذيان والهدر، يُعين الإنسان على التّفكّر والاشتغال بباطنه وتطهيره من الرّجس، وتخليته وتصفيته، وبالتالي تقريبه من مبدأ الكمال الذي تعشقه الفطرة.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي رُوعِي مِنَ التَّمَيِّ وَالنَّظْيِ وَالْحَسَدِ ذِكْرًا لِعَظَمَتِكَ، وَتَفَكُّرًا فِي قُدْرَتِكَ، وَتَدْبِيرًا عَلَى عَدُوِّكَ، وَمَا أَجْرَى عَلَى لِسَانِي مِنْ لَفْظَةٍ فُحْشٍ أَوْ هُجْرٍ أَوْ شَتْمٍ عَرَضٍ أَوْ شَهَادَةٍ بَاطِلٍ أَوْ اغْتِيَابٍ مُؤْمِنٍ غَائِبٍ أَوْ سَبِّ حَاضِرٍ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ نُطْقًا بِالْحَمْدِ لَكَ، وَإِعْرَاقًا فِي الثَّنَاءِ عَلَيْكَ، وَذَهَابًا فِي تَمَجِيدِكَ، وَشُكْرًا لِنِعْمَتِكَ، وَاعْتِرَافًا بِإِحْسَانِكَ، وَإِحْصَاءً لِمَنِّكَ"¹.

الروايات الشريفة:

١- عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: "قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.... يَا هِشَامُ إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ دَلِيلًا وَدَلِيلُ الْعَقْلِ التَّفَكُّرُ وَدَلِيلُ التَّفَكُّرِ الصَّمْتُ"².

٢- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: يَا طَالِبَ الْعِلْمِ إِنَّ لِلْعَالَمِ ثَلَاثَ عِلَامَاتٍ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالصَّمْتَ"³.

٣- قَالَ دَاوُدُ لِسُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "يَا بُنَيَّ عَلَيْكَ بِطُولِ الصَّمْتِ فَإِنَّ التَّدَامَةَ عَلَى طُولِ الصَّمْتِ مَرَّةٌ وَاحِدَةٌ خَيْرٌ مِنَ التَّدَامَةِ عَلَى كَثْرَةِ الْكَلَامِ، يَا بُنَيَّ لَوْ أَنَّ الْكَلَامَ كَانَ مِنْ فِضَّةٍ كَانَ يَنْبَغِي لِلصَّمْتِ أَنْ يَكُونَ مِنْ ذَهَبٍ"⁴.

٤- قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "جُمِعَ الْخَيْرُ كُلُّهُ فِي ثَلَاثِ حِصَالٍ: النَّظَرِ وَالسُّكُوتِ وَالْكَلامِ، فَكُلُّ نَظَرٍ لَيْسَ فِيهِ اعْتِبَارٌ فَهُوَ سَهْوٌ، وَكُلُّ كَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ فَهُوَ لَعْوٌ، وَكُلُّ سُكُوتٍ لَيْسَ فِيهِ فِكْرَةٌ فَهُوَ غَفْلَةٌ، فَطَوْبَى لِمَنْ كَانَ نَظَرُهُ عَبْرًا وَصَمْتُهُ تَفَكُّرًا وَكَلَامُهُ ذِكْرًا وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ وَأَمِنَ النَّاسُ شَرَّهُ"⁵.

¹ الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام في مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال.

² الكافي، ج ١، ص ١٥.

³ (ن.م)، ص ٣٧.

⁴ (ن.م)، ص ١١٤.

⁵ مستدرک الوسائل، ج ٩، ص ٣١.

٥- عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: "إِذَا قَامَ الْإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ وَجَبَ عَلَى النَّاسِ الصَّمْتُ"<sup>١</sup>.

٦- عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ فِي وَصِيَّتِهِ لَوْلَدِهِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "يَا بُنَيَّ الْعَافِيَةُ عَشْرَةٌ أَجْزَاءٌ تَسْعَةٌ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ وَوَاحِدٌ مِنْهَا فِي تَرْكِ مُجَالَسَةِ السُّفَهَاءِ"<sup>٢</sup>.

٧- عَنْ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ النُّعْمَانِ: "إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ الصَّمْتَ وَأَنْتُمْ تَتَعَلَّمُونَ الْكَلَامَ كَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا أَرَادَ التَّعَبُّدَ يَتَعَلَّمُ الصَّمْتَ قَبْلَ ذَلِكَ بِعَشْرِ سِنِينَ فَإِنْ كَانَ يُحْسِنُهُ وَيَصْبِرُ عَلَيْهِ"<sup>٣</sup>.

٨- عَنِ الْكَاطِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ: "قَالَ لِهَيْشَامِ بْنِ الْحَكَمِ يَا هَيْشَامُ لِكُلِّ شَيْءٍ دَلِيلٌ وَدَلِيلُ الْعَاقِلِ التَّفَكُّرُ وَدَلِيلُ التَّفَكُّرِ الصَّمْتُ، إِلَى أَنْ قَالَ: يَا هَيْشَامُ قَلَّةُ الْمَنْطِقِ حُكْمٌ عَظِيمٌ فَعَلَيْكُمْ بِالصَّمْتِ، فَإِنَّهُ دَعَا حَسَنَةً وَقَلَّةً وَزُرٍ وَخِفَّةً مِنَ الدُّنُوبِ فَحَصِّنُوا بَابَ الْحِلْمِ فَإِنَّهُ بَابُ الصَّبْرِ إِلَى أَنْ قَالَ: يَا هَيْشَامُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِذَا رَأَيْتُمُ الْمُؤْمِنَ صَمُوتًا فَادْنُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقِي الْحِكْمَةَ وَالْمُؤْمِنُ قَلِيلُ الْكَلَامِ كَثِيرُ الْعَمَلِ وَالْمَنَافِقُ كَثِيرُ الْكَلَامِ قَلِيلُ الْعَمَلِ"<sup>٤</sup>.

٩- عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "أَمْسِكْ لِسَانَكَ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَى نَفْسِكَ، ثُمَّ قَالَ: وَلَا يَعْرِفُ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَحْزَنَ مِنْ لِسَانِهِ"<sup>٥</sup>.

١٠- وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ"<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> وسائل الشريعة، ج ١٢، ١٨٦.

<sup>٢</sup> من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤٠٥.

<sup>٣</sup> مستدرک الوسائل، ج ٦، ص ٢٢.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ص ١٧.

<sup>٥</sup> (ن.م)، ص ١١٧.

<sup>٦</sup> الكافي، ج ٢، ص ١٥.



## الدرس الرابع والثلاثون: الرفق

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرّف إلى معنى الرفق وأهميته.
- ٢- يبيّن أثر الرفق في تهذيب النفس.
- ٣- يتعرّف إلى منشأ الرفق وعلاماته.



## تمهيد

جاء في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: "إنَّ الله تبارك وتعالى رقيق يحبُّ الرِّفق"¹. ويقول سماحة الإمام الخامني دام ظله: "الهدف هو أن يتخلَّق الإنسان بأخلاق الله تعالى". لهذا كان الرِّفق عظيمًا وينبغي السَّعي والمجاهدة لامتلاكه والتَّحقُّق به.

فما هو الرِّفق؟ وما هي أهم آثاره على مستوى تهذيب النَّفس والسَّير المعنويّ. وكيف يمكن للسَّالك أن يتخلَّق به.

## ما هو الرِّفق؟

يذكر الإمام الخميني قدس سره أنَّ الرِّفق ما يُضادُّ الخرق كما جاء في حديث جنود العقل والجهل "الرِّفق وضدُّه الخرق، والرِّفق بالكسر ضدُّ العنف"². فمن عرف الخرق يمكنه أن يتصوَّر الرِّفق جيِّدًا.

ويعرِّف الإمام الرِّفق بمعنى المداراة واللطف في التَّعامل فيقول: "الرِّفق" وضدُّه "الخرق"، "الرِّفق" بالكسر ضدُّ "العنف"، وهو بمعنى المداراة واللطف في التَّعامل، يُقال: "رَفَّقَ رَفْقًا به وله وعليه: عامله بلطف. ورفقه: أعانه ونفعه، ورفَّقَ رفاقةً: رَفَّقَ رَفْقًا به وله وعليه: عامله بلطف. ورفقه: أعانه ونفعه، ورفَّقَ رفاقةً: أي صار رقيقًا فسُمِّي الرِّفيقُ رقيقًا بلحاظ الرِّفق والمداراة في معاملته، كما ورد الرِّفق بمعنى لين الجانب"³.

¹ الكافي، ج ٢، ص ١٢٠.

² جنود العقل والجهل، ص ٢٨٥.

³ (ن)، ص ٢٨٥.

ويبدو أنّ الرّفق يدلّ على مصاحبة الشّيء . سواء كان مجتمّعاً أو فرداً أو حيواناً أو حتّى شيئاً . لأجل إيصاله إلى غايته . فالرّفق يهتمّ بالوصول مع المرافق إلى الهدف المنشود . ولذلك لا يترك صحبته وملازمته . ففي الرّفق اهتمام فائق وحرص على الغير ورعاية لأحواله واستعداداته وطاقاته وإمكاناته . والرّفق من يراعي مثل هذه الأمور من أجل إيصال أصحابها إلى المطلوب . فهو لا يدفعهم دفعاً ولا يجزّهم بعنف ، بل يتماشي معهم بحسب الوسع والطّاقة .

صحيح أنّ الغالب على الرّفق اللطف واللين لأنّ طبائع الأشياء مجبولة عليهما ما خلا الحجارة . ولكن الأصل في الرّفق هو ما ذكرنا من المرافقة نحو الهدف . ولهذا يقول الإمام الخمينيّ قدس سره في شرح الحديث: "إذا كان الرّفق خرقاً كان الخرق رفقاً"¹ . . . . . عندما يصير الرّفق سبباً للخرق والتعب ، فيجب الكفّ عن المداراة والرّفق والعمل بالخرق الذي يصبح حينئذٍ الرّفق والمداراة عينهما ، فمثلاً إذا صار الرّفق والمداراة في قطع اليد التالفة التي لا مناص من قطعها ، سبباً للخرق والتعب والإيذاء لصاحبها ، وجب اللجوء إلى العنف والعجلة والشدّة في قطعها ، فيكون هذا الخرق حينئذٍ الرّفق والمداراة عينهما"² .

### أعظم مظاهر الرّفق

إنّ الرّفق الإلهيّ هو أعظم مثل وأجلى مظهر للرّفق الذي ينبغي أن يتخلّق به طلاب الكمال . وقد جاء في الحديث عنّ أبي عبّد الله عليه السلام قال: "إنّ الله تبارك وتعالى رفيقٌ يحبُّ الرّفقَ فمن رفقهِ بعبادِهِ تسليلاً أضغانَهُمْ ومُضادَّتَهُمْ لهوائِهِمْ وقلوبِهِمْ ، ومن رفقهِ بِهِمْ أَنَّهُ يدعُهُمْ على الأمرِ يُريدُ إزالتَهُمْ عنه رفقاً بِهِمْ لكيلاً يُلقيَ عليهِمْ عرى الإيمانِ ومُناقَلتَهُ جُملةً واحدةً فيضعُوهَا فإذا أرادَ ذلكَ نسَخَ الأمرِ بالآخرِ فصارَ منسوخاً"³ .

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "إنّ الحقّ تعالى شأنه يعامل خلقه بالرّفق والمداراة في جميع الأمور ، فتشريع الشرائع هو الرّفق والمداراة بعينهما لأنه يهدي إلى سبل السعادة والكمال ، بل إنّ تأديب الطّاعة وفرض الحدود والتعزيرات ، يعبر عن كمال الرّفق والصّلاح ،

¹ تحجّ البلاغة ، ص ٤٠٢ .

² جنود العقل والجهل ، ص ٢٨٦ .

³ الكافي ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

لأنّ تعطيل التّأديب وعدم إقامة الحدود هو خرقٌ وفساد يشمل حتّى معطلها، كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف: "وإذا كان الرفق خرقاً كان الخرق رفقاً"<sup>١</sup>، بل وإنّ العذاب الأخرويّ هو أيضاً رفقٌ حسب رؤية العارفين بالغايات والمبادئ<sup>٢</sup>.

ويقول قدس سره: "إنّ الأنبياء هم بمنزلة الأطباء المشفقين، الذين جاءوا بكل لطفٍ ومحبةٍ لمعالجة المرضى، بأنواع العلاج المناسب لحالهم، وقاموا بهدائيتهم إلى طريق الرّشاد"<sup>٣</sup>.

### أهميّة الرّفق ودوره

يقول الإمام الخميني قدس سره: "اعلم، أنّ للرّفق والمداراة كامل الأثر في تحقيق الغايات المرجوة من الأمور المختلفة، سواء في مجال معايشة النّاس وأمور الدّنيا، أو في مجال الشّؤون الدّينيّة وهداية الخلق وإرشادهم، والأمر بالمعروف، والتّهي عن المنكر، أو في مجال مجاهدة النّفس وترويضها والسّلوك إلى الله تعالى: ولعلّ إلى هذا يشير ما ورد في الحديث الشريف من أنّ "الرفق يُمنّ والخرق شؤم"<sup>٤</sup>.

ويظهر أثر الرّفق الأعظم في الآخرة حين الحاجة الماسّة إليه. وقد نقل الإمام الخميني قدس سره عن الشّيخ الصّدوق في كتاب الخصال حديثاً شريفاً جاء فيه: "كان آخر ما أوصى به الخضر موسى بن عمران عليه السلام أنّه قال له: لا تُعبّرنّ أحداً بذنب، وإنّ أحبّ الأمور إلى الله عزّ وجلّ ثلاثة: القصد في الجدة، والعفو عند المقدرة، والرّفق بعباد الله، وما رفق أحدٌ بأحدٍ في الدّنيا إلّا رفق الله عزّ وجلّ به يوم القيامة، ورأس الحكمة مخافة الله تبارك وتعالى"<sup>٥</sup>.

وسوف نذكر مجموعة من الآثار المهمّة للرّفق على مستوى النّفس والمجتمع.

<sup>١</sup> نصح البلاغة، ص ٤٠٢.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩١.

<sup>٣</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٤١.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ٢، ص ١١٩.

<sup>٥</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٨٧.

<sup>٦</sup> الخصال، ج ١، ص ١١١.

<sup>٧</sup> (ن.م)، ص ٢٨٩.

## الرفق وسيلة لترويض النفس

يقول الإمام قدس سره: "كما أنّ الرّفق من الأصول المهمّة في باب ترويض النّفس وسلوك طريق الحقّ تعالى، وما أكثر ما يؤدّي أخذ النّفس بالشدّة - خاصّة في بدايات الأمر لا سيّما مع الشّبّاب - إلى تنفيرها من التّرياضات والسلوك، وإلى الفرار بالتّالي من الحقّ. وبالفعل فإنّ الكثير من الشّبّاب انخرفوا بالكامل وصاروا لا يبالون بالشؤون الدّينيّة أصلاً بعد فترة شدّدوا فيها على أنفسهم بالمواظبة المشدّدة والالتزام المفرط في أداء المستحقّات".<sup>١</sup>

## الرفق باعث لزيادة الإيمان

إنّ الرّفق بالنّفس من أعظم أسباب استقرار الإيمان في القلب وفتح أبواب المعارف الإلهيّة. وينقل الإمام الخميني قدس سره حديثاً عن الإمام الباقر عليه السلام حيث يقول فيه: "من قُسم له الرّفق قُسم له الإيمان".<sup>٢</sup> وعن أبي جعفر عليه السلام قال: "إنّ لكلّ شيء قُفلاً، وقُفْلُ الإيمان الرّفق".<sup>٣</sup>

وفي هذين الحديتين الشّريفيين دلالة على ما تقدّم ذكره من أنّ الرّفق والمداراة من الأصول المهمّة في مجاهدة النّفس وترويضها والسلوك إلى الله، فإذا رفقت بالنّفس أنسّت بالعبادات والطّاعات وتعلّقت بها وأحبتها فيكون هذا الأُنس والحبّ سبباً لأنسها وحبّها للحقّ تعالى، وفي ذلك فتحٌ لأبواب المعارف الإلهيّة التي هي مصدر الإيمان. في حين أنّ العنف والحرق قد يؤدّيان أحياناً إلى عدم استساغة الرّوح واستئصالها للعبادة والعبوديّة، وهذا ما يؤدّي إلى إعراض القلب عن الحقّ تعالى. ولذلك كان الرّفق قفلاً الإيمان فمن حصل عليه اكتسب الإيمان".<sup>٤</sup>

فملاحظة الرّفق في العبادات يعبر عن الانسجام مع إرادة الله. وكأنّ الرّفيق بنفسه في إقامة فرائض ربّه يقبل أن تمسك اليد الرّؤوفة لله تعالى بزمامه، فيكون بذلك مستعدّاً لخير صحبة كما نقول في الدّعاء: "اللهم أنت الصّاحب في السّفَر والخليفة في الأهل ولا

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٨٩.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ١١٨.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ص ١١٨.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٢.

يجمعهما غيرك"<sup>١</sup>. أمّا الذي يخرق ويخرج عن برنامج الإسلام فمثله كمن يزايد على ربّه. وهذا من أكبر أسباب القطيعة. نعوذ بالله منها.

### الرفق على الصعيد الاجتماعي

وأكثر ما يظهر الرفق في الحياة الاجتماعية وفي التعامل مع الناس . سواء على صعيد تربيتهم أو تعليمهم أو هدايتهم . لهذا خصّص الإمام قسمًا مهمًّا من كلامه حول الرفق لهذا المجال . ونحن ننقل بعضًا منه ها هنا .

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "فمثلاً يمكن للإنسان من خلال الرفق والمداراة في القيام بالأمر الدنيويّة أن يستقطب قلوب الناس ويخضعها لإرادته، ولكن من المحال أن يُنجز شيئاً من ذلك بالعنف والشدّة. وحتى لو أُجبر أحدًا على طاعته بالعنف والشدّة، فإنّه لن يأمن خيانتته له لأنّ قلبه ليس خاضعًا له، في حين أنّ الرفق والموادّة يخضعان القلوب، فإذا خضعت تبعتها جميع القوى الظاهرة والباطنة. إنّ فتح القلوب أهمّ من فتح البلدان، فالخدمات الصادقة والتضحيات المخلصة هي ثمرة فتح القلوب الذي يستتبع فتح البلدان أيضًا. والفتوحات الإسلامية كانت ثمرة فتح القلوب للنظام الإسلاميّ، وإلا ما كانت لتتحقق مع تلك القلّة في العدّة والعدد. بل إنّ للرفق والمداراة الأثر الأكبر . من أثر أي عامل آخر . في تحقّق الغايات المرجوة، هكذا هو الحال في الشؤون الدنيويّة، وكذلك في الشؤون الدنيويّة كإرشاد الناس وهدايتهم، فالرفق من أهمّ العوامل في تحقّق هذا المقصد الشريف، بل لا يمكن تحقّقه بدونه"<sup>٢</sup>.

### الرفق في التعامل مع العصاة

هذا على صعيد نشر الإسلام وتثبيت أركانه في جنة التحدّيات والمؤامرات والتّهديدات، أمّا على صعيد التعامل مع العصاة والمخالفين والطّاعين، فيقول الإمام قدس سره: "عندما أمر الله تبارك وتعالى موسى وهارون عليهما السّلام بالذهاب إلى فرعون ودعوته إلى الحقّ وإرشاده إليه، أوصاهما . فيما أوصاهما به . أن: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ \* فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا

<sup>١</sup> نهج البلاغة، ص ٨٦ .

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٨٧ .

لَعَلَّهُ يَنْدَكُرُ أَوْ يَخْشَى<sup>١</sup>. فرغم أنّ فرعون بلغ في طغيان أنانيته مرتبة ادّعاء الألوهية، إلا أن الرفق والمداراة مع ذلك أجمع في جذب قلبه القاسي. وهذه وصية عامة للهداة إلى طريق الحقّ، تأمرهم بأن يسلكوا سبيل فتح القلوب، ولذلك مدح الله تعالى نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾<sup>٢</sup>. أجل، فمثل هذا الهدف العظيم (هداية الخلق) يتطلب خلقاً عظيماً تكون لديه قوة المقاومة في مواجهة جميع الصعاب، فلا يترك ميدان هداية الخلق تحت أي طائل. وإن أشدّ ما يشقّ ويتعب ويؤذي الهداة إلى الحق، معاشرّة الجهلة ودعوة الحمقى إلى الهدى، كان الحال كذلك ما يزال، لذا وجب أن يكون هؤلاء الهداة متحلين بأسمى مراتب الخلق الحسن، وأن تكون قوة الرفق والمداراة راسخة فيهم إلى درجة تمكنهم من التغلب على جهالات الجهلة والحمقى، لأن سرعة التأثر والانكماش ومرض الانفعال تنافي مهمتهم المقدسة، والشدة والعنف والاستعجال تصدهم عن القيام بواجبهم في الهداية إلى الله. والإرشادات إلى ذلك كثيرة في الأحاديث الشريفة<sup>٣</sup>.

### الرفق في التعلّم والتعليم

أما على صعيد التعلّم والتربية الروحية، فيقول الإمام قدس سره: "وبإسناده عن عمر بن حنظلة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "يا عمر لا تحملوا على شيعتنا وارفقوا بهم، فإنّ الناس لا يحملون ما تحملون"<sup>٤</sup>. وهذا الحديث الشريف يحمل وصية عامة للخوادم، فالناس متميزون في تحمّل العلوم والمعارف وكذلك في تحمّل الطّاعات القلبية والبدنية، فلا يمكن الإفصاح لكلّ شخص عن كلّ علم خاصّة في باب المعارف، بل إنّ سرائر التّوحيد وحقائق المعارف هي من الأسرار التي يجب كتمانها وحفظها عند أهلها. ومعظم الضّلالات وأنواع الإضلال وأشكال التّكفير، ناتجة من عدم التزام هذه الوصية، بل إنّ اجتناب الناس، حتّى علماء الظّاهر منهم للعلوم الإلهية وابتعادهم عن المعارف والحقائق ناتج من "تهتكت" بعض أرباب الاصطلاحات الذوقية أو أصحاب العلوم العرفانية الرسمية الذين أفصحوا عن القرآن

<sup>١</sup> سورة طه، الآيات ٤٣ و ٤٤.

<sup>٢</sup> سورة القلم، الآية ٤.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٨٨.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ٨، ص ٣٣٤.

والحديث الشريف وإصلاحاتها، رغم أنّ هذه الحقائق المعرفية موجودة . في أكمل صورها من البيان . في كتاب الله وأحاديث أئمة الهدى عليهم السلام، ولكن هؤلاء أظهروها بصورة سيئة جعلت أهل الظاهر ينفرون منها، بعد أن عجزوا هم أيضاً عن فصل اللبّ عن القشر، والحقيقة عن الصورة الظاهرية، والمعنى عن اللفظ، فنفوا أصل تلك الحقائق المعرفية الشريفة"<sup>١</sup>.

وفي قصة يرويها الإمام الصادق عليه السلام: "إنّ رجلاً كان له جازٌّ وكان نصرانيّاً فدعاه إلى الإسلام وزيّنه له فأجابته، فأتاه سحيراً ففرغ عليه الباب، فقال له: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ فقال: توضعاً والبس ثوبيك ومُر بنا إلى الصلاة. قال: فتوضعاً ولبس ثوبيه وخرج معه، قال: فصلياً ما شاء الله، ثم صلّى الفجر، ثم مكثنا حتى أصبحنا، فقام الذي كان نصرانيّاً يريدُ منزله، فقال له الرجل: أين تذهب؟ التّهائرُ قصيرٌ والذي بينك وبين الظّهر قليل! قال: فجلس معه إلى أن صلّى الظهر، ثمّ قال: وما بين الظّهر والعصر قليل! فاحتبسه حتى صلّى العصر. قال: ثمّ قام وأراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إنّ هذا آخر التّهائر وأقلُّ من أوّله، فاحتبسه حتى صلّى المغرب، ثمّ أراد أن ينصرف إلى منزله فقال له: إنّما بقيت صلاة واحدة. قال: فمكث حتى صلّى العشاء الآخرة، ثمّ تفرّقا. فلمّا كان سحيراً غداً عليه فضرب عليه الباب فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان، قال: وما حاجتك؟ قال: توضعاً والبس ثوبيك واخرج بنا نصلّ. قال: أطلب لهذا الدّين من هو أفرغُ مني، وأنا إنسان مسكينٌ وعليّ عيال"<sup>٢</sup>.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ولعلّ إلى هذا المعنى تشبُّرُ الأحاديث الشريفة التي تقسّم الإيمان إلى سبعة أسهم، أو إلى عشر درجات، أو إلى تسعة وأربعين جزءاً، وكذلك قولهم عليهم السلام: "لا تحملوا على صاحب السّهم سهمين، ولا على صاحب السّهمين ثلاثة"<sup>٣</sup> وهكذا. ولأنّ التمايز في درجات الأعمال والطّاقة والإقبال والشّوق إليها ينشأ غالباً من اختلاف درجات الإيمان، فإنّهم عليهم السلام ضربوا الأحاديث الشريفة مثلاً بهدف تقريب هذا المعنى للأذهان"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٣.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٤٣.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٤.

<sup>٤</sup> الكافي، ج ٣، ص ٤٢.

<sup>٥</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٩٤.

## أ نموذج للرفق

من خلال كلمات الإمام الواردة في باب الرفق، يتبين لنا معنى المداراة أيضًا. وكأنَّ الإمام جمع بين المعنيين في خُلُقٍ واحد أو شخصيَّة واحدة. ويذكر الإمام قدس سره أ نموذجًا لهذا الخلق في تعامل السالك مع نفسه حيث يقول: "أدب الرعاية وكيفيَّته أن يراعي السالك في أيِّ مرتبة كان فيها، سواء في الرِّياضات والمجاهدات العلميَّة أم النَّفسانيَّة أم العمليَّة، حاله ويتعامل مع نفسه بالرفق والمداراة ولا يحتملها أزيد من طاقتها وحالها. ورعاية هذا الأدب بالنسبة إلى الشَّبَاب وحديثي العهد من المهتمَّات، فإنَّه إذا لم يعامل الشَّبَاب أنفسهم بالرفق والمداراة ولم يؤدِّوا الحظوظ الطَّبيعيَّة إلى أنفسهم بمقدار حاجتها من الطَّرق المحلَّلة يوشك أن يقعوا في خطر عظيم لا يتيسَّر لهم جبرانه، وهو أن النَّفس ربَّما تصير بسبب الضَّغط عليها وكفَّها عن مشتهاياتها أكثر من العادة مطلقة العنان في شهواتها ويخرج زمام الاختيار من يد صاحبها. واقتضاءات الطَّبيعة إذا تراكمت ونار الشَّهوة الحارَّة إذا وقعت تحت ضغط الرِّياضة الزَّائدة عن الحدِّ، فإنَّها تستعر لا محالة وتحرق كلَّ المملكة. وإذا صار السالك لا يسمع الله مطلق العنان أو أصبح الزَّاهد بلا اختيار، فإنَّه يقع في هاوية لا يرى وجه النَّجاة منها أبدًا ولا يعود إلى طريق السَّعادة والفلاح بتاتًا"<sup>١</sup>.

## من أين ينشأ الرفق؟

إذا عرفنا منشأ الرفق أمكننا أن نتَّجه إليه ونتعدَّى منه، وإذا كان ناضبًا فعليًا إحياءه. وقد بنى الإمام قدس سره منظومته الأخلاقيَّة على مبدأ الفطرة وبيَّن أنَّ جميع الكمالات المعنويَّة تنشأ من فطرة الله تعالى التي فطر النَّاس عليها. والفطرة عبارة عن ذلك الفيض الذي يتَّصل بالإنسان ويمدّه بالكمالات الرُّوحيَّة. فإذا حافظ الإنسان على وعاء هذا الفيض ولم يقطع الاتِّصال به تكاملت نفسه وسمت وأبجَّهت نحو مصدر الفيض وأصبحت لا ثقة لمحضره وقربه ولقائه.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٣٩-٤٠.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "إنَّ الرِّفْقَ والمداراةَ والصَّحْبَةَ والرَّفْقَةَ من مظاهر الرِّحْمَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ ومن شؤونها، إنَّ القلبَ الذي دخلته جلوة الرِّحْمَةِ، ونظر لِعِبَادِ اللَّهِ تعالى بعين الرِّحْمَةِ والرَّأْفَةِ، فمن الطَّبِيعِيِّ أن يتعامل بالرِّفْقِ والمداراةِ في جميع المجالات المذكورة في الفصل السابق، سواءً مع أبناء جنسه، أو حتَّى مع غيرهم من الحيوانات الخاضعة له. فهو يأخذ بالرِّفْقِ والرِّحْمَةِ والرَّأْفَةِ في معاشرته الخدم والعبيد، والأرحام والجيران خصوصاً، ومع جميع فئات الناس. ويلتزم السلوك نفسه في مجال إرشاد الخلق وتعليمهم، والقيام بفريضة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، فما يحصل عليه من أشعة الرِّحْمَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ يتجلَّى في قيامه بهذه المهام النبيلة بالرِّفْقِ والمداراةِ، ومن الطبيعي أن يكون. مع تجلِّي أشعة الرحمة فيه - بعيداً عن الشدَّة والعنف وأمثالها. فإذا اتَّضحت هذه المقدِّمة أنَّ الرِّفْقَ من مقتضيات الفطرة السَّليمة المخمَّرة بيد الله تعالى، لأنَّ قلوب جميع بني الإنسان مجبولة في فطرة الله على الرِّحْمَةِ، وأنَّ عالم الوجود هو مظهر الرِّحْمَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ، ولذلك قال أهل المعرفة: "ظهر الوجود باسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فهذه الرِّحْمَةُ الرَّحْمَانِيَّةُ هي مفتاح باب الوجود مثلما أنَّها فاتحة كتاب التَّدْوِينِ الإلهِيِّ (القرآن) "¹.

"كما أنَّ حبَّ الحقِّ تعالى - وهذا الحبُّ من أركان الفطرة السَّليمة - يستتبع حتماً حبَّ آثاره تبارك وتعالى ومخلوقاته، وهذا الحبُّ يستلزم بدوره الرِّفْقَ والمداراةَ، من هنا يتَّضح أنَّ الرِّفْقَ والمداراةَ هما من لوازم الفطرة المحمَّرة إلهياً، وبالمقابل يتَّضح أنَّ الخرق ناشئ من الاحتجاب والانحراف عن فطرة الله"².

¹ جنود العقل والجهل، ص ٢٩٠.

² (ن.م)، ص ٢٩١.

## المفاهيم الرئيسة

- ١- الرفق يضادّ العنف، وهو بمعنى المداراة واللطف في التعامل.
- ٢- في الرفق اهتمام فائق وحرص على الغير ورعاية لأحواله واستعداداته وطاقاته وإمكاناته، والرفيق من يراعي مثل هذه الأمور من أجل إيصال أصحابها إلى غاياتهم.
- ٣- إنّ الرفق الإلهي هو أعظم مثل وأجلى مظهر للرفق الذي ينبغي أن يتخلّق به طلاب الكمال. فالحقّ تعالى شأنه يعامل خلقه بالرفق والمداراة في جميع الأمور، فتشريع الشرائع هو الرفق والمداراة بعينهما لأنه يهدي إلى سبل السعادة والكمال.
- ٤- الرفق بالنفس من أعظم أسباب استقرار الإيمان في القلب وفتح أبواب المعارف الإلهية. فإذا رفقت بالنفس أنست بالعبادات والطاعات وتعلقت بها وأحببتها فيكون هذا الأناجى والحبّ سبباً لأنسها وحبّها للحقّ تعالى، وفي ذلك فتح لأبواب المعارف الإلهية التي هي مصدر الإيمان.
- ٥- يجب الرفق بالناس، فالناس متميزون في تحمّل العلوم والمعارف وكذلك في تحمّل الطاعات القلبية والبدنية، ولا يمكن الإفصاح لكلّ شخص عن كلّ علم خاصّة في باب المعارف.
- ٦- إنّ معظم الضلالات وأنواع الإضلال وأشكال التكفير، ناتجة من عدم الالتزام بوصية الرفق بالناس حسب قدراتهم وطاقاتهم.
- ٧- على السالك أن يتعامل مع نفسه بالرفق والمداراة ولا يحمّلها أزيد من طاقتها وحالها، فربّما تصير النفس بسبب الضغط عليها وكثرتها عن مشتهياتها أكثر من العادة مطلقة العنان في شهواتها ويخرج زمام الاختيار من يد صاحبها.
- ٨- إنّ جميع الكمالات المعنوية تنشأ من الفطرة. فالقلب الذي دخلته جلوة الرحمة - لحفاظه على الفطرة - ونظر لعباد الله تعالى بعين الرحمة والرأفة، فمن الطبيعي أن يتعامل بالرفق والمداراة في جميع المجالات.
- ٩- إنّ حبّ الحقّ تعالى. وهذا الحبّ من أركان الفطرة السليمة. يستتبع حتماً حبّ آثاره تبارك وتعالى ومخلوقاته، وهذا الحبّ يستلزم بدور الرفق والمداراة.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

اللَّهُمَّ إِنَّ الرَّجَاءَ لِسَعَةِ رَحْمَتِكَ أَنْطَقَنِي بِاسْتِغْفَالِكَ وَالْأَمَلَ لِأَنَاتِكَ وَرَفِيقَكَ شَجَعَنِي عَلَى طَلَبِ أَمَانِكَ وَعَفْوِكَ، وَبِي يَارَبِّ دُنُوبٍ قَدْ وَاجَهْتَهَا أَوْجُهُ الْإِنْتِقَامِ وَخَطَايَا قَدْ لَاحَظْتَهَا أَعْيُنُ الْأَصْطِلَامِ وَاسْتَوْجَبْتُ بِهَا عَلَى عَذْلِكَ أَلِيمِ الْعَذَابِ وَاسْتَحَقَّقْتُ بِاجْتِرَاحِهَا مُبِيرَ الْعِقَابِ وَخِفْتُ تَعْوِيقَهَا لِاجَابَتِي وَرَدَّهَا إِتَابِي عَنْ قَضَاءِ حَاجَتِي بِإِبْطَالِهَا لِطَلِبَتِي وَقَطَعَهَا لِأَسْبَابِ رَغْبَتِي مِنْ أَجْلِ مَا قَدْ أَنْقَضَ ظَهْرِي مِنْ ثِقَلِهَا وَبَهَظَتِي مِنَ الْإِسْتِفْلَالِ بِحَمْلِهَا، ثُمَّ تَرَجَعْتُ رَبِّ إِلَى حِلْمِكَ عَنْ الْخَاطِئِينَ وَعَفْوِكَ عَنِ الْمُذْنِبِينَ وَرَحْمَتِكَ لِلْعَاصِينَ فَأَقْبَلْتُ بِثِقَتِي مُتَوَكِّلاً عَلَيْكَ طَارِحاً نَفْسِي بَيْنَ يَدَيْكَ شَاكِيَا بَنِي إِلَيْكَ سَائِلاً مَا لَا اسْتَوْجِبُهُ مِنْ تَفْرِيجِ الْمَهْمِ وَلَا اسْتَحِقُّهُ مِنْ تَنْفِيسِ الْعَمِّ مُسْتَقِيلاً لَكَ إِيَّاي وَاثِقاً مَوْلَايَ بِكَ<sup>١</sup>.

## الروايات الشريفة:

١- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "مِنْ زِيِّ الْإِيمَانِ الْفِقْهُ وَمِنْ زِيِّ الْفِقْهِ الْحِلْمُ وَمِنْ زِيِّ الْحِلْمِ الرَّفْقُ وَمِنْ زِيِّ الرَّفْقِ اللَّيْنُ وَمِنْ زِيِّ اللَّيْنِ السُّهُولَةُ"<sup>٢</sup>.

٢- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مُدَارَاةُ النَّاسِ نِصْفُ الْإِيمَانِ وَالرَّفْقُ بِهِمْ نِصْفُ الْعَيْشِ"<sup>٣</sup>.

٣- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ الرَّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ وَلَا نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ"<sup>٤</sup>.

٤- عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ فِي الرَّفْقِ الزِّيَادَةَ وَالْبِرْكََةَ وَمَنْ يُحْرِمِ الرَّفْقَ يُحْرِمِ الْخَيْرَ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> مفاتيح الجنان، المناجاة بالاستقالة.

<sup>٢</sup> وسائل الشريعة، ج ١٢، ص ١٥٩.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٢، ص ١١٧.

<sup>٤</sup> (م.ن)، ص ١١٩.

<sup>٥</sup> (م.ن)، ص ١١٩.

٥- عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: "أَيُّمَا أَهْلِ بَيْتٍ أُعْطُوا حَظَّهُمْ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي الرَّزْقِ، وَالرَّفْقُ فِي تَقْدِيرِ الْمَعِيشَةِ خَيْرٌ مِنَ السَّعَةِ فِي الْمَالِ، وَالرَّفْقُ لَا يَعْجِزُ عَنْهُ شَيْءٌ وَالتَّبْدِيرُ لَا يَبْقَى مَعَهُ شَيْءٌ"<sup>١</sup>.

٦- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ كَانَ الرَّفْقُ خَلْقًا يُرَى مَا كَانَ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ شَيْءٌ أَحْسَنَ مِنْهُ"<sup>٢</sup>.

٧- وَعَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لَوْلَدِهِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "يَا بُنَيَّ رَأْسُ الْعِلْمِ الرَّفْقُ وَآفَتُهُ الْخُرْقُ"<sup>٣</sup>.

٨- عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: "مَا ارْتَجَّ امْرُؤٌ وَ أَحْجَمَ عَلَيْهِ الرَّأْيُ وَ أَعْيَتْ بِهِ الْحِيلُ إِلَّا كَانَ الرَّفْقُ مِفْتَاحَهُ"<sup>٤</sup>.

٩- عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثٍ قَالَ: "وَمَنْ أَقْرَضَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كَانَ لَهُ بِكُلِّ دِرْهَمٍ أَقْرَضَهُ وَزَنَ جَبَلٍ أُحَدٍ مِنْ جِبَالِ رَضْوَى وَطُورِ سَيْنَاءَ حَسَنَاتٌ، وَإِنْ رَفِقَ بِهِ فِي طَلْبِهِ تَعَدَّى بِهِ عَلَى الصِّرَاطِ كَالْبُرْقِ الْخَاطِفِ الْأَمْعِ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَدَابٍ، وَمَنْ شَكَا إِلَيْهِ أَخُوهُ الْمُسْلِمَ فَلَمْ يُقْرِضْهُ حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ يَوْمَ يَجْزِي الْمُحْسِنِينَ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ١١٩.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ص ٢٠.

<sup>٣</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٩٤.

<sup>٤</sup> (ن.م)، ج ١١، ص ٩٥.

<sup>٥</sup> وسائل الشريعة، ج ١٨، ٣٣١.

## الدرس الخامس والثلاثون: الرأفة

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يبيّن المعنى الدقيق للرأفة.
- ٢- يشرح أهمية الرأفة ودورها في حفظ النوع البشري والحياة الاجتماعية.
- ٣- يتعرّف إلى مظاهر الرأفة والسبيل للتحلّي بهذه الفضيلة.



## تمهيد

الرأفة من أعظم الصفات الإلهية والرؤوف اسم لله جميل، يتجلى به في الوجود بجزان نقص الكائنات. ولما كان أصل الكمالات ومنبع الفضائل والخيرات هو ذات الحق المقدس جلّ وعلا، ولما كان التخلّق بأخلاق الله هدفاً أساسياً لوجود الإنسان في هذا العالم، ولما كان العالم ساحة لإعمال الرأفة، كان لزاماً على الإنسان أن يسعى ليتخلّق بهذه الصفة العظيمة. فما هي الرأفة؟ وما هي أهم تجلياتها في الحياة الدّنيا؟ وكيف يمكن لمن يفتح قلبه وصدّره على هذه التجليات أن يتفاعل معها وينفعل بها بحيث تؤول عاقبة أمره لأن يصبح مظهرًا تامًا لها؟

## ما هي الرأفة؟

يذكر الإمام الخميني قدس سره أنّ الرأفة لازمة للين الذي هو المقابل الحقيقي للقسوة<sup>١</sup>، ويرفض قول بعض الحكماء بأنّها من أحوال القلب الصنوبري (وهو العضو المعروف في الجسد)، لأنّ الرأفة والقسوة من الأمور المعنويّة: "لا يبدو صحيحاً قوله (أحد المحقّقين من الحكماء). أنّ الرأفة والقسوة حال القلب الصنوبري، لأنّهما من الأمور المعنويّة غير الجسمانيّة الملازمة للإدراك أو القائمة به، فهي بعيدة ومنزهة عن أفق الجسم والجسمانيّة. لكن المقصود أنّ الرأفة أقرب من الرّحمة لأفق الجسمانيّة، وبعبارة أخرى إنّ الرّحمة من صفات النّفس في وجهتها الغيبيّة الملكوتيّة، في حين أنّ الرأفة من صفات النّفس في وجهتها الظاهريّة التي يمكن التعبير عنها بمقام الصدر"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٢٢.

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٢١٤-٢١٥.

والملفت في كلام الإمام هو ما ذكره حول الرأفة أنّها من صفات النفس في وجهتها الظاهرية لأنّ النفس هي الحقيقة المدبّرة لعالم الطبيعة وللبدن الظاهريّ، سواء كان هذا التدبير نابغاً من العقل أو لا. فبعض النفوس في تدبيرها للأبدان تسوقها نحو الهلاك والمرض والتلف، وذلك إذا لم تخضع لسلطان العقل.

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أنّ الله عزّ وجلّ خلق العقل من نورٍ مخزونٍ مكنونٍ في سابق علمه الذي لم يطلع عليه نبيّ مرسل ولا ملك مقرّب فجعل العلم نفسه، والفهم روحه، والزهد رأسه، والحياء عينيه، والحكمة لسانه، والرأفة همته، والرحمة قلبه"<sup>١</sup>.

فلما كان العقل مكلفاً بإرجاع كائنات العالم الطبيعيّة إلى الله، ولما كان العقل طريق الكائنات في رحلة السير إلى الله (سواء كان السير عبر الإنسان أو من قبل الإنسان نفسه)، فإنّ الهمّ الأكبر لهذه الوسيلة يظهر في الرأفة. وكأنّ شدّة عناية العقل بالتأقسين من أجل تكميلهم يكون من خلال هذه الصفة الجميلة.

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "اعلم أنّ الرّحمة والرأفة والعطف ونظائرها هي من تجلّيات الأسماء الجماليّة الإلهيّة، تفضل الله تبارك وتعالى بتجهيز الحيوان عمومًا والإنسان خصوصًا بها، من أجل حفظ النوع الحيوانيّ وكذلك حفظ النظام العائليّ الإنسانيّ، وهي من تجلّيات الرّحمة الرّحمانيّة التي أقيم نظام الوجود عمومًا عليها. ولولا وجود هذه الرّحمة والعطف في الحيوان والإنسان لتقطّعت روابط الحياة الفرديّة والاجتماعيّة، فبهما يحفظ الحيوان أولاده ويحتضنهم، وبهما يجرس الإنسان عائلته، وبهما يحفظ السّلطان العادل مملكته. ولولا وجود هذه الرّحمة والشفقة والرأفة، لما تحمّلت أي أم كل تلك المشاق والصّعوبات الاستثنائيّة لحضانة الأولاد"<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> الخصال، ج ٢، ص ٤٢٧.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢١٦-٢١٧.

## أهم تجليات الرأفة في الحياة

### ١- حفظ نظام العالم

ولمعرفة المزيد عن الرأفة، يذكر الإمام الخميني قدس سره بعض تجلياتها في الحياة فيقول: "كما أنّ جذبة الرّحمة والرّأفة الإلهية هي التي جذبت القلوب إليه تعالى، وحفظ بها . فطرياً . نظام العالم"<sup>١</sup>.

### ٢- الأنبياء والأولياء

"وهذه الرّحمة والرّأفة هي التي جعلت المعلمين الروحانيين والأنبياء العظام والأولياء الكرام والعلماء بالله يتحمّلون كل تلك المتاعب والمشاق من أجل توفير السعادة الدائمة لأبناء بجدتهم من العائلة البشرية"<sup>٢</sup>.

ويقول قدس سره أيضاً: "واسم الرّحمة . الذي تتفرّع منه الرّأفة والعطف ونظائرها من أسماء الصّفات والأفعال . هو أكثر اسم عزّفت الحقّ تعالى نفسه به، وكثره في كلّ سورة من سور القرآن لكي تتعلّق قلوب عباده برحمته الواسعة، فهذا التعلّق هو منشأ تربية النفوس وتليين القلوب القاسية، فلا يمكن جذب قلوب النّاس وصدّهم عن الطّغيان والتمرد، بأي شيء يمثل ما تجذبهم الرّحمة والرّأفة والمودّة، ولهذا فإنّ الأنبياء العظام هم مظاهر رحمة الحقّ جلّ وعلا، ولذلك نلاحظ في آخر سورة التوبة . وهي سورة الغضب . أنّ الله تعالى وصف رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم . بهذه الصورة: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>٣</sup> . ويكفي في بيان شدّة رأفته ورحمته صلى الله عليه وآله وسلم . بجميع بني الإنسان قوله تعالى في أوّل سورة الشعراء: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾<sup>٤</sup> ، وقوله في أوائل سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢١٧ .

<sup>٢</sup> (م.ن)، ص ٢١٧ .

<sup>٣</sup> سورة التوبة، الآية ١٢٨ .

<sup>٤</sup> سورة الشعراء، الآية ٣ .

<sup>٥</sup> سورة الكهف، الآية ٦ .

<sup>٦</sup> (م.ن)، ص ٢١٨ .

### ٣- الوحي الإلهي

"بل إنَّ نزول الوحي الإلهي والكتاب السماوي الشريف مظهر لرحمة الله ورأفته تجلّي في عالم الملك"<sup>١</sup>.

### ٤- الحدود والتعزيرات

"وحتى الحدود والتعزيرات والقصاص وأمثالها هي جميعاً من حقيقة الرّحمة والرّأفة، وإن كانت قد ظهرت في صورة الغضب: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾"<sup>٢</sup>.

### ٥- جهنّم

"بل إنَّ جهنّم هي رحمة ظهرت في صورة الغضب للذين لهم لياقة الوصول إلى السعادة، ولكن الشوائب تحجبهم عنها، فلولا تخليصهم وتطهيرهم في جهنّم من هذه الشوائب لما شاهدوا وجه السعادة أبداً"<sup>٤</sup>.

### الرأفة من لوزام الفطرة السليمة

فلو اطلعنا على مظاهر الرأفة وتأملنا فيها وقربنا أنفسنا منها، لانفعلت قلوبنا بما وأصبحت مستعدة للتشكّل على شاكلتها، لأنّ حقيقة أمر التّربية الإلهية متقوّمة بأمرين أساسيين، وهما:

**الأول:** التجلّي من الربّ المتعال. وهو ما نعبر عنه بتقديم النموذج المعاش والواقعيّ القلبيّ والعقليّ والحسيّ. لا الفكريّ البحت. ولهذا، فإنّه تعالى لم يكتفِ بإنزال الكتب، بل جعل لها مظاهر في الحياة البشريّة هم الأنبياء والأولياء الكاملين.

**الثاني:** إيجاد الاستعداد. وهو المعبر عنه بالفطرة الهادية التي تمثّل الانسجام التّام مع مصاديق التّربية والكمال. بل هي العشق والتّوجّه نحو هذه الكمالات.

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢١٧.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ١٧٩.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢١٧.

<sup>٤</sup> (م.ن)، ص ٢١٧.

ولهذا، يقول الإمام الخميني قدس سره: "اعلم أنّ الرحمة والرأفة والشفقة واللين والحلم هي جميعاً من لوازم الفطرة المخمّرة ومن جنود العقل والرحمان، وقد زرع في فطرة كلّ إنسان حبّ التعاطف والتّراحم والمودّة والعدل والإنصاف، فكُلّ إنسان . حتّى الظالم . مدفوعٌ فطريّاً إلى أن يكون رحيماً وعطوفاً ورؤوفاً بمن تحت سلطته، وبالضعفاء والبؤساء والمساكين والأطفال الضعاف، بل إنّ الإنسان مفطورٌ على الرّحمة بكلّ حيّ، والرأفة بكلّ موجود.

لقد خلق الله تعالى الإنسان من حقيقة رحمته، فهو صورة الرّحمة الإلهيّة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ\* عَلَّمَ الْقُرْآنَ\* خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾<sup>١</sup>، فقد نسب خلق الإنسان إلى اسم الرحمان، ولذلك كان الإنسان الظالم والقاسي القلب متنقراً فطريّاً من الظلم والقسوة، فهو يذمّ صدورهما من الآخرين وإن غفل عن صدورهما منه نفسه: وهو يأنس بالعدل والرحمة والرأفة، بل إنّ الظالم يريد بطبعه أن يكون ظلمه بالعدل، وأن تكون قسوته . شئت أم أبيت . بشكل الرّحمة فيضفي عليها وشاح الرّحمة، وذلك لأنّ فطرته وجبلته متنقّرة من الظلم والقسوة، محبّة للرحمة والرأفة، لذلك فهو يسعى للتقرّب من هاتين الصفتين . ولو بالاسم والظاهر . ويسعى للانتفاع منهما ولو بالاسم والصورة. وإذا رجع الإنسان إلى وجدانه وأحوال الآخرين من أبناء جنسه استغنى عن إقامة البرهان وإطالة التوضيح للحقيقة المتقدّمة، أي إنّ الرّحمة والرأفة والعدل والمحبة والمودّة ونظائرها هي من لوازم الفطرة الأصليّة السلمية، وأنّ أضدادها مخالفة للفطرة المخمّرة ومن نتائج احتجاجها<sup>٢</sup>. ومثل هذين الأمرين يمثّلان أصول التّربية قاطبةً.

## سبيل التحلي بالرأفة

### ١ - ذكر رأفة الله

في البداية يتوجّه الإنسان بحواسّه إلى المظاهر، وعندما يشتدّ حضورها في خياله وحاطره تفرض عليه أن يتفكّر فيها ويستخرج منها ما يشبه القواعد العامّة أو المفاهيم

<sup>١</sup> سورة الرحمن، الآيات ١ و ٣ .

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٢٣-٢٢٤ .

الكليّة. فإذا قوي حضورها في الفكر انتقلت إلى القلب التي هي مرحلة الذّكر.

إنّ الذين يذكرون رأفة الله تعالى، فإنّ هذه الرأفة ستذكّرهم ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾<sup>١</sup>. ومعنى صيرورة العبد مذكوراً عند الله تعالى أن يتحقّق بالكمال اللائق لأنّ الله تعالى لا يذكر سوى الصّفات والأسماء الحسنیّ تعالى مجده.

## ٢- موالاة أهل البيت عليهم السلام والتأسي بهم

وفي الحديث عن الإمام جعفر عليه السلام عن أبيه عن الإمام علي عليه السلام قال: "إنّا أهل بيت شجرة النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وبيت الرأفة ومعدن العلم"<sup>٢</sup>.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: "إن الله خلقنا، فأحسن خلقنا، وصورنا، فأحسن صورنا، وجعلنا عينه في عباده، ولسانه الناطق في خلقه، ويده المبسوطة على عباده بالرأفة والرحمة، ووجهه الذي يؤتى منه، وبابه الذي يدل عليه، وخزانه في سمائه وأرضه، بنا أثمرت الأشجار، وأينعت الثمار، وجرت الأنهار، وبنا ينزل غيث السماء، وبنيت عشب الأرض، وعبادتنا عبد الله، ولولا نحن ما عبد الله"<sup>٣</sup>.

فوصف أهل البيت بكونهم بيت الرأفة إشارة إلى ظهور الرأفة المطلقة في نهم وسيرتهم. وقوله عليه السلام: "ويده المبسوطة على عبادة بالرأفة" تأكيد على أنّ عناية الله بخلقه وعباده تظهر فيهم وبهم. فهم أعلى مظاهر رأفة الله. من عرفهم وتعرّض بقلبه لرأفتهم أو شك أن يتخلّق بأخلاقهم.

وإذا كان المملّك. وهو الرئاسية والقيادة. لأجل هداية الموارد البشريّة والماديّة إلى الأهداف السامية، فلا شكّ أنّه بأمر الحاجة إلى الرأفة. ولهذا جاء في الحديث: "أفضل الملوك من أعطي ثلاث خصال: الرأفة والجود والعدل"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> سورة البقرة، الآية ١٥٢.

<sup>٢</sup> بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٤٦.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ١، ص ١٤٤.

<sup>٤</sup> تحف العقول، ٣١٩.

وعن الإمام الصادق عليه السلام قَالَ: "إِنَّ شِيعَةَ عَلِيٍّ كَانُوا خُمُصَ الْبُطُونِ ذُبُلَ الشَّفَاهِ أَهْلَ رَأْفَةٍ وَعِلْمٍ وَحِلْمٍ يُعْرِفُونَ بِالرَّهْبَانِيَّةِ فَأَعَيْنُوا عَلِيَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِاللَّوَرَعِ وَالْإِجْتِهَادِ"<sup>١</sup>.

### الحياء أصل الرأفة

جاء في بحار الأنوار عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: "أما الحياء فيتشعب منه اللين والرأفة والمراقبة لله في السرّ والعلانية والسلامة واجتناب الشرّ والبشاشة والسماحة والظفر وحسن الثناء على المرء في الناس فهذا ما أصاب العاقل بالحياء فطوبى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضيحته"<sup>٢</sup>.

ولعلّ السرّ في كون الحياء منبعاً للرأفة أنّه أعظم لباس ساتر للعيوب. ولا شكّ بأنّ معرفة الرأفة تتّجه نحو جبران العيوب والإغماض عنها والتّركيز على الإيجابيات ونقاط القوّة بدل التّركيز على نقاط الضّعف، فتكون الرأفة من هذه الجهة مستمدّة من الحياء.

<sup>١</sup> الكافي، ج ٢، ص ٢٣٣.

<sup>٢</sup> بحار الأنوار، ج ١، ص ١١٨.

## المفاهيم الرئيسة

١- الرأفة من أعظم الصفات الإلهية والرؤوف اسم لله جميل، يتجلّى به في الوجود بجران نقص الكائنات.

٢- الفرق بين الرحمة والرأفة هو أنّ الرحمة من صفات النفس في وجهتها الغيبية الملكوتية، في حين أنّ الرأفة من صفات النفس في وجهتها الظاهرية التي يمكن التعبير عنها بمقام الصدر، فالنفس هي الحقيقة المدبّرة لعالم الطبيعة وللبدن الظاهريّ، سواء كان هذا التدبير نابغاً من العقل أو لا.

٣- عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنّ الله عزّ وجلّ خلق العقل من نورٍ مخزونٍ مكنونٍ في سابق علمه... فجعل العلم نفسه... والرأفة همّ" ولما كان العقل مكلفاً بإرجاع كائنات العالم الطبيعيّة إلى الله، ولما كان العقل طريق الكائنات في رحلة السير إلى الله فإنّ الهمّ الأكبر لهذه الوسيلة يظهر في الرأفة.

٤- تتحلّى الرأفة في الحياة ب:

١. حفظ نظام العالم، ٢. الأنبياء والأولياء، ٣. الوحي الإلهي، ٤. الحدود والتعزيرات، ٥. جهنّم (التي هي رحمة ظهرت في صورة الغضب للذين لهم لياقة الوصول إلى السعادة، ولكن الشوائب تحجبهم عنها، فلولا تخليصهم وتطهيرهم في جهنّم من هذه الشوائب لما شاهدوا وجه السعادة أبداً)

٥- إنّ الرأفة من لوازم الفطرة الأصلية السلمية، حتّى الظالم هو متنقّر فطريّاً من الظلم والقسوة.

٦- إنّ التحلّي بالرأفة يكون بذكر رأفة الله تعالى، وموالاتة أهل البيت عليهم السلام والتأسي بهم، فهم يد الله المبسوطة على عباده بالرأفة.

٧- الحياء منبع الرأفة والسرّ في ذلك هو أنّ الحياء ساتر العيوب، والرأفة تتجّه نحو جبران العيوب والإغماض عنها والتركيز على الإيجابيات فتكون من هذه الجهة مستمدّة من الحياء.

دعاء:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَهِي أَذْهَلَنِي عَنْ إِقَامَةِ شُكْرِكَ تَتَابِعَ طَوْلِكَ وَأَعْجَزَنِي عَنْ إِحْصَاءِ نُنَائِكَ فَيُضْ فَضْلِكَ وَشَعَلَنِي عَنْ ذِكْرِ مَحَامِدِكَ تَرَادُفُ عَوَائِدِكَ وَأَعْيَابِي عَنْ نَشْرِ عَوَارِفِكَ تَوَالِي أَيَادِيكَ وَهَذَا مَعَامٌ مَنْ اعْتَرَفَ بِسُبُوغِ النِّعْمَاءِ وَقَابَلَهَا بِالتَّقْصِيرِ وَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْإِهْمَالِ وَالتَّضْيِيعِ وَأَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ الْبُرُّ الْكَرِيمُ الَّذِي لَا يُجِيبُ قَاصِدِيهِ وَلَا يَطْرُدُ عَنْ فَنَائِهِ أَمْلِيهِ، بِسَاحَتِكَ تُحْطُ رِحَالُ الرَّاجِينَ وَبِعُرْصَتِكَ تَقِفُ أَمَالُ الْمُسْتَرْفِدِينَ فَلَا تُقَابِلُ أَمَالَنَا بِالتَّحْيِيبِ وَالْإِيَّاسِ وَلَا تُلْبِسْنَا سِرْبَالَ الْعُنُوطِ وَالْإِبْلَاسِ<sup>١</sup>.

الآيات الكريمة:

- ١ - ﴿الرَّائِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>٢</sup>.
- ٢ - ﴿وَالَّذِينَ حَاوُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>٣</sup>.
- ٣ - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>٤</sup>.
- ٤ - ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> الإمام السجّاد، الصحيفة السجّادية، مناجاة الشاكرين.

<sup>٢</sup> سورة النور، الآية ٢.

<sup>٣</sup> سورة الحشر، الآية ١٠.

<sup>٤</sup> سورة البقرة، الآية ١٤٣.

<sup>٥</sup> سورة البقرة، الآية ٢٠٧.

٥ - ﴿يَوْمَ يَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾<sup>١</sup>.

٦ - ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>٢</sup>.

الروايات الشريفة:

١ - عن الصادق عليه السلام قال: "خطب أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله وسلم فقال فيما يقول: أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني أيها الناس أنا قلب الله الواعي ولسانه الناطق وأمينه على سرّه وحجته على خلقه وخليفته على عباده وعينه الناظرة في بريته ويده المبسوطة بالرفقة والرحمة ودينه الذي لا يصدقني إلا من محض الإيمان محضا ولا يكذبني إلا من محض الكفر محضا"<sup>٣</sup>.

٢ - وَمِنْ كِتَابِ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ: "أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِي بَلَدِكَ شَكَّوْا مِنْكَ فَسَنُوهُ وَعَلِظَتْ وَاحْتِقَارًا وَجَفَوَهُ فَتَنْظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدَنَّوْا لِشَرِكِهِمْ وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْمَعُوا لِعَهْدِهِمْ فَالْبَسَنْ لَهُمْ جَلْبَابًا مِنَ اللَّيْلِ تَشْبُوهُ بِطَرْفٍ مِنَ الشَّدَّةِ وَدَاوِلُ هُمْ بَيْنَ الْمَسْوَةِ وَالرَّفَاقَةِ وَامْرُجُ هُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ إِنْ شَاءَ

<sup>١</sup> سورة آل عمران، الآية ٣٠.

<sup>٢</sup> سورة التوبة، الآية ١١٧.

<sup>٣</sup> الاختصاص، ص ٢٤٨.

<sup>٤</sup> بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٤٨٩.

## الدرس السادس والثلاثون: العفة

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يتعرف إلى معنى العفة وتأثيرها على إيمان الإنسان وسلوكه نحو الله.
- ٢- يبين كيفية ترسيخ خلق العفة في أنفسنا.
- ٣- يشرح المانع الأساس من اكتساب خلق العفة.



## تمهيد

لما خلق الله الإنسان أودع فيه جملة من القوى، بما يصل إلى كماله وينال منفعه. ولأجل أن تتحرك هذه القوى على هذا الصراط المستقيم، فإن الله تعالى وهب هذا الإنسان قوة العقل التي يميز فيها النافع من الضار لكي لا تتجه قواه المختلفة نحو الفساد والهلاك.

وكانت القوة الشهوية التي أنعم الله بها على الإنسان. كما يقول الإمام الخميني. من أجل حفظ النظام العائلي وتحقيق الكرامة والسعادة له في الدنيا والآخرة. وقد وضع الله سبحانه مجموعة من القوانين والتشريعات التي لو التزم بها أصحاب القوة الشهوية لضمنوا تحقق تلك الأهداف. ولكي يضمن استعمال هذه القوة وفق النظام التشريعي اللائق، كان لا بد من صيانة أقوى هي الصيانة الأخلاقية.

فما هي الأخلاق التي تجعل الالتزام بأحكام القوة الشهوية سهلاً وميسراً؟ وكيف نحقق هذه الانطلاقة في أنفسنا؟

## التعريف العلمي

إنّ من الأخلاق التي تجعل القوة الشهوية معتدلة لا تميل إلى جانب التفريط والحمود ولا إلى جانب الإفراط والهوس خُلُق العفاف.

"إنّ الكثير من الأخلاق الفاضلة هي التي تتوسّط جانبي الإفراط والتفريط والعفة خلق يتوسّط بين رذيلة الشره ورذيلة الخمود".<sup>١</sup> "ولا بدّ من معرفة أنّ علماء الأخلاق أرجعوا كافة الفضائل النفسية، إلى أمور أربعة هي: الحكمة، والعفة، والشجاعة، والعدالة، واعتبروا أنّ الحكمة فضيلة للنفس الناطقة التي تُميز وتفرّق الإنسان عن غيره، والشجاعة

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٤٢٤.

من فضائل النفس الغضبية، والعفة من فضائل النفس الشهوية، والعدالة ترعى الفضائل الثلاثة<sup>١</sup>.

ولهذا يقول الإمام الخميني قدس سره: "قسّم الحكماء أجناس الفضائل إلى أربع فضائل هي: الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة، إذ إنّ للنفس قوتين هما: قوة الإدراك وقوة التحريك، ولكلّ منهما شعبتان، فقوة الإدراك تنقسم إلى العقل النظري والعقل العملي، وقوة التحريك تنقسم إلى قوة الدفع (لغير الملائم) وهي قوة الغضب، وإلى قوة الجلب (للملائم) وهي قوة الشهوة. والاعتدال في كل واحدة من هذه القوى الأربع وإخراجها من حدّي الإفراط والتفريط فضيلة. فالحكمة عبارة عن تعديل القوة النظرية وتهدئتها، والعدالة تعديل القوة العملية وتهدئتها، والشجاعة تعديل القوة الغضبية وتهدئتها، والعفة تعديل القوة الشهوية وتهدئتها"<sup>٢</sup>.

إنّ أكثر الناس يميلون بحكم البيئة التي تنير الغرائز نحو الشره والتهاك واستعمال قوة الشهوة بصورة إفراطية. ولعلّه لهذا الأمر قد جعل الحديث المنقول عن الإمام الصادق عليه السلام العفة ضداً للتهاك.

### أهمية العفة

يقول الإمام الخميني قدس سره: "لو تفكّر الإنسان الواعي قليلاً في هذا الأمر لعرف بوضوح كامل أنّ جنايته الحقيقية إنّما تقع إذا هتك ستر العفة لهذه القوة التي أنعم الله بها على الإنسان من أجل حفظ النظام العائلي، وتحقيق الكرامة والسعادة له في الدنيا والآخرة، فكيف يسخرها لغايات هي على الضدّ ممّا يُراد منها؟! ويقول في رواية أخرى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إنّ الله يحبّ الحييّ الحليم العفيف المتعفف"<sup>٣</sup>.

فإذا نظرنا إلى جميع التحركات والأنشطة التي يقوم بها البشر لوجدنا أنّ معظمها ينطلق من هذه القوة لأجل تأمين مقتضيات الشهوة. أمّا القسم المتبقي منها فإنّه عبارة عن دفع

١ الأربعون حديثاً، ص ٥٤٧.

٢ جنود العقل والجهل، ص ١٤٧-١٤٨.

٣ الكافي، ج ٢، ص ١١٢.

٤ جنود العقل والجهل، ص ٢٥٨.

المضار، بل إنّ الكثير من استعمالات القوّة الغضبيّة إنّما هي لخدمة القوّة الشهويّة. ولا شكّ بأنّ قوّة الوهم عندما تتغلّب على قوّة العقل وتمنع من سريان نوره في النّفس، فتعرض هذه النّفس عن الاستماع إلى أحكامه وأوامره، فلن يبقى سوى الاندفاع الشّهوانيّ والغضبيّ الفاقد للهداية. وتصبح مملكة الإنسان كسفينةٍ تحوض غمار لجج البحار العاتية دون ربّان خبير وعارف. هنا تأتي الحاجة الماسّة إلى العقل الذي يحدّد ما ينفع وما يضرّ في الشّهوة. وعندما يلتزم الإنسان بأحكامه ويستقرّ عليها مدّة يرسخ فيه خلق العقّة، فيكون أفضلّ معين للعقل على إكمال سيطرته على وجود الإنسان وعالمه الأخلاقيّ والسلوكيّ.

### بعض مناقشٍ العقّة

يمكننا أن نحدّد مجموعة من الأسباب التي تساهم في اعتدال القوّة الشهويّة وحياسة ملكة العقّة. ومنها:

#### ١- الإيمان

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: "إنّ الحياء والعقّة من خلائق الإيمان، وإنّها لسجّية الأحرار وشيمة الأبرار"<sup>١</sup> وهذا الحديث يدلّ على أنّ التفاعل القلبيّ مع آيات حضور الله في الكون والحياة يجعل الإنسان معتدلاً في استعمال شهوته. وسرّ ذلك أنّ المؤمن الذي تعلق قلبه بالله تعالى وتوجّه إليه سيجعل كل قوّة منحه الله إيّاها في سبيل الوصول إلى لقائه. وعندها لن يكون للشّهوة في حياته دور القيادة والسيطرة. وهذا هو العامل الأهمّ في العقّة.

#### ٢- الفطرة

يقول الإمام الخمينيّ قدس سره: "إنّ العقّة من الأمور الفطريّة الملازمة للفطرة السليمة المخمّرة، وبالتالي من جنود العقل، في حين أنّ الهتك من مقتضيات الفطرة المحجوبة ومن جنود إبليس والجهل. إذ إنّ العدالة في عمل كلّ قوّة، وهي بمثابة جنس العقّة (وأصل ظهورها) هي أمرٌ فطريّ يقابله الجور، وهو ضدّ الفطرة السليمة كما تقدّم سابقاً، مثلما أنّ الخضوع الكامل والتبعية للكُمل هو أمرٌ فطريّ وما يقابله خلاف الفطرة.

<sup>١</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢٥٧.

كما أنّ العفة نفسها والحياء والحشمة من الأمور الفطريّة التي جبل عليها الإنسان، في حين أنّ التهتّك والفحشاء والوقاحة مخالفة لفطرة كلّ إنسان، لذلك فإنّ حبّ العفة والحياء مخمّر في فطرة كلّ إنسان مثلما أنّ بغض التهتّك وانعدام الحياء مخمّر فيها أيضاً<sup>١</sup>.

### ٣- ولاية أهل البيت عليهم السلام

ففي الحديث المرويّ عن مفضل قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: "إِيَّاكَ وَالسَّفِيْلَةَ فَإِنَّمَا شِيعَةُ عَلِيٍّ مِنْ عَفْ بَطْنُهُ وَفَرَجُهُ وَاشْتَدَّ جِهَادُهُ وَعَمِلَ لِخَالِقِهِ وَرَجَا ثَوَابَهُ وَخَافَ عِقَابَهُ فَإِذَا رَأَيْتَ أَوْلِيكَ فَأَوْلِكَ شِيعَةَ جَعْفَرٍ"<sup>٢</sup>.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: "وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمْرِيهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعْيُنُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ"<sup>٣</sup>.

### ٤- المعرفة

فإنّ من عرف أنّ ما يحتاجه مقسومٌ مضمونٌ من عند الله لن يتهالك من أجل الوصول إليه، وبالتالي لن يزيد من استعمال قوّة الشهوة لأجل نيل المزيد من الشهوة. فعن الحسين عليه السلام: "أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ: يَا هَذَا لَا تُجَاهِدْ فِي الرِّزْقِ جِهَادَ الْغَالِبِ وَلَا تَتَّكِلْ عَلَى الْقَدْرِ اتِّكَالَ مُسْتَسْلِمٍ فَإِنَّ اتِّبَاعَ الرِّزْقِ مِنَ السُّنَّةِ وَالْإِجْمَالِ فِي الطَّلَبِ مِنَ الْعِفَّةِ وَلَيْسَ الْعِفَّةُ بِمَانِعَةٍ رِزْقًا وَلَا الْحِرْصُ بِجَالِبٍ فَضْلًا وَإِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ وَالْأَجَلَ مَحْتَمٌ وَاسْتِعْمَالَ الْحِرْصِ جَالِبُ الْمَأْثَمِ"<sup>٤</sup>.

### ٥- أولوية الجهاد الأكبر

الذين عرفوا أنّ هناك جهاداً كبيراً يحتاج إلى جهد وسعي يفوق مساعيهم العادية في الحياة وآمنوا أنّهم إذا لم يسلكوا هذا الطريق فسوف يحتنكهم الشيطان ويجعلهم من

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٥٧.

<sup>٢</sup> الكافي، ج ٢، ص ٢٣٣.

<sup>٣</sup> نهج البلاغة، ص ٤١٧.

<sup>٤</sup> مستدرک الوسائل، ج ١٣، ص ٣٥.

أوليائه، هؤلاء هم الذين سيقدرّون على فهم معاني الأحاديث التالية ووضعها في مكانها الصحيح.

فمن أبي جعفر عليه السلام قال: "أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ عَقَّةٌ بَطْنٌ وَفَرْجٌ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ"<sup>١</sup>. وعنه عليه السلام: "قَالَ لَهُ رَجُلٌ إِنِّي ضَعِيفُ الْعَمَلِ قَلِيلُ الصَّلَاةِ قَلِيلُ الصَّوْمِ وَلَكِنْ أَرْجُو أَنْ لَا آكُلَ إِلَّا حَلَالًا وَلَا أَنْكَحَ إِلَّا حَلَالًا، فَقَالَ وَأَيُّ جِهَادٍ أَفْضَلُ مِنْ عَقَّةٍ بَطْنٍ وَفَرْجٍ"<sup>٢</sup>.

وقال عليه السلام: "مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ مِنْ عَقَّةٍ بَطْنٍ وَفَرْجٍ وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ"<sup>٣</sup>.

### إخضاع العفة لحكم العقل والشرع

غالبًا ما يكون الحديث عن أسباب ومناشئ الأخلاق حديثًا عن كيفية تحصيلها. فمن علم أنّ الفطرة أساس هذه الفضيلة اتّجه نحو تحسين فطرته واكتساب المزيد من أنوارها. وجاهد من أجل إزالة الحجب المانعة منها. يقول الإمام الخميني قدس سره: "أما جانب التفريط في النفس البهيمية فهو "الخمود" وهو عبارة عن كبت القوة الشهوية فوق ما يقتضيه حدُّ الاعتدال والمقدار المطلوب، وتعطيل هذه القوة التَّبيلية التي أنعم الله بها على الإنسان لكي يحفظ بها نفسه ونوعه. فإذا أخضعت هذه القوة لحكم العقل والشرع، وأُخرجت من حدّي الغلوِّ والتقصير والإفراط والتفريط، وكان تحركها منسجمًا مع العقل والشرع، ضمن حاكمية جنود الله، ظهرت فيها السكينة والطمأنينة، وملكة الاعتدال واكتسبت صبغة عقلية بل إلهية، وهذه هي "العفة"<sup>٤</sup>.

### أكبر مانع من العفة

يقول الإمام الخميني قدس سره: "والإنسان الذي قر فيه هذا الحبّ (حبّ الدنيا) بجانب لجميع الفضائل المعنوية، وإنّ الشجاعة والعفة والسخاء والعدالة التي هي مبدأ جميع

<sup>١</sup> بحار الأنوار، ج ٦٦.

<sup>٢</sup> (ن.م)، ج ٦٨، ص ٢٧٣.

<sup>٣</sup> (ن.م)، ج ٧٥، ص ١٤١.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٥٦.

الفضائل النفسانية لا تجتمع مع حب الدنيا<sup>١</sup>.

فمن اتخذ الدنيا وسيلة لتعزيز الأنا وانطلق من حب النفس في التعامل مع مواهب هذه الحياة، سيرى كل شيء فيها شهوة لنفسه ويطلبها لتأمين حظوظ النفس وآمالها. وعندها ستعظم شهوته وتفوق مقدار حاجاته الطبيعية فيتملكه الهوس وسيسيطر عليه الشره ولا يبقى قادرًا على حفظ الاعتدال والسير الصحيح على الصراط المستقيم للمنافع والنعم الإلهية.

### تحصيل العفة بالتفكير والترويض

يقول الإمام الخميني قدس سره: "الخُلُق عبارة عن حالة نفسية، تدفع الإنسان نحو العمل من دون تروّي وتفكير. فمثلاً إن الذي يتمتع بالسّخاء، يدفعه خُلُقه هذا إلى الجود والإنفاق من دون حاجة إلى تنظيم مقدّمات، وترتيب مرجّحات. وكأنّ هذا الخُلُق غدا من الأمور الطبيعية للإنسان مثل النظر والسمع. وهكذا النفس العفيفة التي أصبحت العفة خُلُقًا لها جزءاً طبيعياً لها، وما دامت النفس لم تبلغ هذا المستوى من التجذّر الخُلُقيّ بواسطة التفكّر والتدبّر والترويض، لم يكن لها أخلاق وكمال، ويُخشى عليها من زوال الخُلُق الكريم الذي يُعدّ من الكمالات النفسية، وتغلب عليها العادات والخلق السيئ. وأمّا إذا بلغ الخُلُق مستوى الأفعال الطبيعية في الإنسان، وغدا من قبيل القوى والآلات، وظهرت سلطنة الحقّ وقهره، لكان زواله مشكلاً ونادراً<sup>٢</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٦٢.

<sup>٢</sup> الأربعون حديثاً، ص ٥٤٦.

## المفاهيم الرئيسة

١- العفة خلق يتوسط بين رذيلة الشَّرِّ ورذيلة الخمود. وهي من فضائل النَّفس الشَّهْوِيَّة. فهي من الأخلاق التي تجعل القوة الشهوية معتدلة لا تميل إلى جانب التَّفريط والخمود ولا إلى جانب الإفراط والهوس.

٢- إنّ جنابة الإنسان الحقيقيَّة إنّما تقع إذا هتك ستر العفة لهذه القوة التي أنعم الله بها على الإنسان من أجل حفظ النِّظام العائليِّ، وتحقيق الكرامة والسَّعادة له في الدُّنيا والآخرة.

٣- العقل هو الذي يحدّد ما ينفع وما يضرّ في الشَّهوة، وعندما يلتزم الإنسان بأحكامه ويستقرّ عليها مدّة يرسخ فيه خُلُق العفة.

٤- مناقشئ العفة هي:

- الإيمان: فالمؤمن الذي تعلّق قلبه بالله تعالى وتوجّه إليه سيجعل كلّ قوّة منحه الله إيّاها في سبيل الوصول إلى لقاءه، وعندها لن يكون للشَّهوة في حياته دور القيادة والسيطرة. وهذا هو العامل الأهمّ في العفة.

- الفطرة: إنّ حبّ العفة والحياء مخمّر في فطرة كلّ إنسان مثلما أنّ بغض التَّهتُّك وانعدام الحياء مخمّر فيها أيضاً.

- المعرفة: إنّ من عرف أنّ ما يحتاجه مقسومٌ مضمونٌ من عند الله لن يتهالك من أجل الوصول إليه، وبالتالي لن يزيد من استعمال قوّة الشَّهوة لأجل نيل المزيد من الشَّهوة، بل سيتعقّف.

- الدّخول في الجهاد الأكبر.

٥- أكبر مانع أمام العفة هو حبّ الدنيا، فمن اتَّخذ الدُّنيا وسيلةً لتعزيز الأنا وانطلق من حبّ النَّفس في التّعامل مع مواهب هذه الحياة، سبى كلّ شيء فيها شهوة لنفسه ويطلبها لتأمين حظوظ النَّفس وآمالها.

٦- العفة يمكن تحصيلها من خلال التفكّر الدائم في الآثار السلبية لعدم التخلّق بهذه الصفة، والترويض الدائم للنفس ومجاهدتها كلما حملت الإنسان على العمل بالشهوات والغرائز.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

اللَّهُمَّ ارزُقْنَا تَوْفِيقَ الطَّاعَةِ وَبُعْدَ الْمُغْصِبَةِ وَصِدْقَ النَّبِيِّ وَعِزْفَانَ الْحُرْمَةِ... وَتَفَضَّلْ عَلَيَّ عُلَمَائِنَا بِالرُّهْدِ وَالنَّصِيحَةِ وَعَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ بِالْجُهْدِ وَالرَّغْبَةِ وَعَلَى الْمُسْتَمِعِينَ بِالِاتِّبَاعِ وَالْمَوْعِظَةِ... وَعَلَى الشَّبَابِ بِالِإِنَابَةِ وَالتَّوْبَةِ، وَعَلَى النِّسَاءِ بِالْحَيَاءِ وَالْعِفَّةِ<sup>١</sup>.

### الآيات الكريمة:

١- ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾<sup>٢</sup>.

٢- ﴿وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِياتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَعُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>٣</sup>.

٣- ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾<sup>٤</sup>.

### الروايات الشريفة:

١- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "الصَّبْرُ عَنِ الشَّهْوَةِ عِفَّةٌ وَعَنِ الْغَضَبِ نَجْدَةٌ وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ تَوَرُّعٌ"<sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> مفاتيح الجنان، دعاء: الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف.

<sup>٢</sup> سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

<sup>٣</sup> سورة النور، الآية ٣٣.

<sup>٤</sup> سورة النساء، الآية ٦.

<sup>٥</sup> مستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٢٦٣.

٢- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "الكفّ عما في أيدي الناس عفة وكبر همة".<sup>١</sup>

٣- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور".<sup>٢</sup>

٤- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "الْجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ يَا جَابِرُ هَذَا شَهْرُ رَمَضَانَ مَنْ صَامَ نَهَارَهُ وَقَامَ وَرَدًّا مِنْ لَيْلِهِ وَعَفَّ بَطْنَهُ وَفَرَّجَهُ وَكَفَّ لِسَانَهُ خَرَجَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَخُرُوجِهِ مِنَ الشَّهْرِ، فَقَالَ جَابِرٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْسَنَ هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يَا جَابِرُ وَمَا أَشَدَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ".<sup>٣</sup>

٥- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "تَزَوَّجُوا إِلَى آلِ فُلَانٍ فَإِنَّهُمْ عَفُوا فَعَفَّتْ نِسَاؤُهُمْ وَلَا تَزَوَّجُوا إِلَى آلِ فُلَانٍ فَإِنَّهُمْ بَغَوْا فَبَعَّتْ نِسَاؤُهُمْ، وَقَالَ: مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ أَنَا اللَّهُ قَاتِلُ الْفَاتِلِينَ وَمُقْفِرُ الرَّاغِبِينَ أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَزْنُوا فَتَزْنِي نِسَاؤُكُمْ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ".<sup>٤</sup>

٦- وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "مَا الْمُجَاهِدُ الشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَعْظَمِ أَجْرٍ مِمَّنْ قَدَرَ فَعَفَ لَكَادَ الْعَفِيفُ أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ".<sup>٥</sup>

٧- قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: "حَسْبُكَ مِنْ كَمَالِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يُحْمَدُ بِهِ، وَمِنْ حَيَاتِهِ أَنْ لَا يَلْقَى أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ، وَمِنْ عَقْلِهِ حُسْنُ رِفْقِهِ، وَمِنْ أَدَبِهِ عِلْمُهُ بِمَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَمِنْ وَرَعِهِ عَفَّةُ بَصَرِهِ، وَعَفَّةُ بَطْنِهِ".<sup>٦</sup>

٨- عن أمير المؤمنين عليه السلام: "على قدر الحياء تكون العفة".<sup>٧</sup>

٩- عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ جَهْمٍ قَالَ: "رَأَيْتُ أَبَا الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ اخْتَضَبَ فَقُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ اخْتَضَبْتَ فَقَالَ نَعَمْ إِنَّ التَّهَيُّةَ مِمَّا يَزِيدُ فِي عِفَّةِ النِّسَاءِ وَ لَقَدْ تَرَكَ النِّسَاءَ الْعِفَّةَ بِتَرْكِ أَرْوَاجِهِنَّ التَّهَيُّةَ".<sup>٨</sup>

<sup>١</sup> تصنيف غرر الحكم، ٣٩٨.

<sup>٢</sup> نصح البلاغة، ص ٤٠٢.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٤، ص ٨٧.

<sup>٤</sup> (م.ن)، ج ٥، ص ٥٥٤.

<sup>٥</sup> نصح البلاغة، ص ٥٥٩.

<sup>٦</sup> مستدرک الوسائل، ج ١٢، ص ١٧٠.

<sup>٧</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٢٥٦.

<sup>٨</sup> الكافي، ج ٥، ص ٥٦٧.



## الدرس السابع والثلاثون: شرح الصدر

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

١. يتعرف إلى المعنى الدقيق لشرح الصدر وأهم علاماته.
٢. يبين أهمية شرح الصدر وآثاره.
٣. يشرح العلاقة بين شرح الصدر والولاية.



## تمهيد

يرمز القلب إلى هوية الإنسان المعنوية والباطنية مثلما يدل الوجه على هويته الظاهرية. وعندما يجري الحديث عن تعامل القلب مع الأنوار الملكوئية والفيوضات الرحمانية، يأتي دور الصدر. فالصدر وعاء القلب وليس أمرًا مغايرًا له. ولهذا، قال الإمام الخميني قدس سره: "وأما شرح الصدر فهو يحصل لقلب الإنسان.."<sup>١</sup>.

وعليه يكون انشراح الصدر وانفتاحه وتوسعه واستعداده لتلقي الفيض والنور من الكمالات العظيمة التي سنشير إلى بعض آثارها وتجلياتها في الحياة المعنوية والسلوكية للإنسان.

## ما هو شرح الصدر؟

يقول الإمام الخميني قدس سره: "قال تعالى في الآية المباركة ٢٢ من سورة الزمر، ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>٢</sup>. وفي هذه الآية جعل شرح الصدر الذي يستلزم قبول الحق. مقابلًا لقساوة القلب التي تستلزم عدم قبول الحق، ثم ذكر في الآية اللاحقة اللين ورقة القلب وهي المقابل الحقيقي للقساوة، فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾<sup>٣</sup>.

وينقل الإمام قدس سره رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه لما سُئل عن معنى الشرح في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾<sup>٤</sup>، وقيل: ما هذا الشرح؟ قال: "إنَّ النور إذا

<sup>١</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٨٠.

<sup>٢</sup> سورة الزمر، الآية ٢٢.

<sup>٣</sup> سورة الزمر، الآية ٢٣.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٢١.

<sup>٥</sup> سورة الأنعام، الآية ١٢٥.

دخل القلب انشرح له الصّدر وانفسح. قيل: يا رسول الله وهل لذلك علامة؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور والإنيابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله" <sup>١</sup>.

ويقول قدس سره: "المتحلّي بشرح الصّدر لا يولي أهمية لما يراه في نفسه من كمالٍ وجمالٍ ومالٍ ونفوذٍ وحشمةٍ ولا يستعظمه، لأنّ سعته الوجودية كبيرة إلى درجة تجعله يتغلب على جميع الوردات القلبية، فلا يضيق وعاؤه الوجودي بشيء" <sup>٢</sup>.

فاتضح أنّ انشراح الصّدر اللازم للهداية الإلهية ينطلق من رقة القلب واستعداده لتلقّي الأنوار الريفاتية، وكلّما تلقّى المؤمن نورًا واستقبله، زاد استعداده لتلقّي المزيد من الأنوار. وبالعكس، إذا لم يعمل بمقتضى هذا التور، خرج من القلب وصار الصّدر ضيقًا، بل أضيق ممّا كان عليه.

من هنا، كان العمل من شروط كسب هذه الملكة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في الحديث الذي سيأتي "فعليك بالعمل لله في سرّ أمرك وعلا نيتك، فلا شيء يعدل العمل" <sup>٣</sup>، بعد أن ذكر انشراح الصّدر وعلاماته.

ويتجلّى انشراح الصّدر، بحسب الكلام المذكور في:

- ١- قبول الحق.
- ٢- التجافي عن دار الغرور.
- ٣- الإنيابة إلى دار السرور.
- ٤- الاستعداد للموت قبل حلول الفوت.
- ٥- زوال العجب والرّضا عن النّفس.

### أهم آثار انشراح الصّدر

وبالإضافة إلى ما ذكر في تعريف شرح الصّدر، ذكر الإمام قدس سره أنّه يؤدّي إلى:

- ١- إيصال قلوب المتأهّمين للأُنس بالله تعالى.

<sup>١</sup> بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٨١.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٨٠.

<sup>٣</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣٠٤.

<sup>٤</sup> بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٤٢.

٢- وإلى مقام الطمأنينة والسكينة.

٣- وإلى التواضع وعزة النفس.

ويقول قدس سره: "إن ضيق القبر أو اتساعه منوط بضيق الصدر أو انشراحه"<sup>١</sup>.

من أين ينشأ شرح الصدر؟

١. التجافي عن دار الغرور

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ولا يخفى أنّ القلب ما دام متوجّهاً لدار الطبيعة وبئر الدنيا المظلمة الضيقة، أسيراً في غلاف الملك وأغلال هذا العالم، فهو قلبٌ ضيقٌ مظلمٌ غير مستعدّ لتلقّي نور الهداية وتجليات الجمال والجلال. أمّا شرح الصدر فهو يحصل لقلب الإنسان بمقدار إعراضه عن الدنّيا وزخارفها، فتقبل حينئذ التور المعنويّ حتّى ينصرف بالكامل عن دار الغرور ويتجافى وينقطع عنها، فيتأهّل بذلك لتلقّي تجلّي التور المطلق وجمال الجميل الحقّ"<sup>٢</sup>.

٢- معرفة الله

ويقول قدس سره أيضاً: "هذه السّعة في الصدر وليدة معرفة الحقّ تعالى، وهي التي توصل قلوب المتألهين للأنس بالله إلى مقام الإطمئنان والسكينة والطمأنينة"<sup>٣</sup>.

٣- حبّ الله وذكره

"اعلم أنّ ذكر الله تعالى يجعل القلب مُعرضاً عن جميع منازل الطّبيعة ومناظرها، بل ويجعل كلّ العالم بكلّ ما فيه عدماً لا قيمة له في عينه، فلا يتعلّق بشيءٍ منه، بل ينحصر تعلّقه بالحقّ تعالى وحده، حتّى تبلغ همّته مرتبةً من العلوّ لا يقيم معها وزناً لجميع عوالم الوجود، وعندها لا تضعف همّته بسبب الواردات القلبيّة مهما كانت، فلا يستشعر الكبر في نفسه بسبب هذه الواردات بل إنّه يستصغر كلّ شيءٍ غير الحقّ تعالى وآثار جماله وجلاله... فحبّ الله تعالى يثمر سعة الصدر، وهذه السّعة تولّد التواضع وعزة النفس، في حين أنّ حبّ

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ١٣٥.

<sup>٢</sup> جنود العقل والجهل، ص ٢٨٠.

<sup>٣</sup> (ن)، ص ٣٠٤.

النفس والنظر إليها نتيجة لضيق الصدر من جهة، وعلة لزيادته من جهة أخرى" <sup>١</sup>.

فتبين لنا أنّ شرح الصدر ينشأ من الأمور التالية:

١- الإعراض عن الدنيا وزخارفها.

٢- معرفة الحقّ تعالى.

٣- حبّ الله وذكره.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ <sup>٢</sup> قال: فقال بولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام" <sup>٣</sup>.

## كيف نشرح صدورنا؟

### ١- العلم

بالرغم من أنّ شرح الصدر عطاء إلهي، لكن للبعد دور في تحمئة القلب لقبول الشرح. وإنّ من أعظم الأمور التي تؤدّي إلى شرح الصدر هو العلم والمعرفة حيث يقول الإمام قدس سره: "فالعلم نور، والنور ينور القلب ويوسعه، ويشرح الصدر، ويضيء طريق الهداية والسلوك" <sup>٤</sup>.

### ٢- الإيمان

وفي الحديث أنّ عليّاً عليه السلام قال لرجل: "إن كنت قد شرح الله صدرك بما قد تبينت لك فأنت والذي فلق الحبة وبرأ النسمة من المؤمنين حقاً. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين كيف لي أن أعلم بأي من المؤمنين حقاً؟ قال: عليه السلام لا يعلم ذلك إلا من أعلمه الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وشهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة أو شرح الله صدره ليعلم ما في الكتب التي أنزلها الله عزّ وجلّ على رسله وأنبيائه، قال يا أمير المؤمنين: ومن يطبق ذلك؟ قال: من شرح الله صدره ووقفه له، فعليك بالعمل لله في سرّ أمرك وعلايتك فلا شيء يعدل العمل" <sup>٥</sup>.

<sup>١</sup> (م.ن)، ص ٣٠٤-٣٠٥.

<sup>٢</sup> سورة الشرح، الآية ١.

<sup>٣</sup> بصائر الدرجات، ج ١، ص ٧٣.

<sup>٤</sup> جنود العقل والجهل، ص ٣١٠.

<sup>٥</sup> بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٤٢.

وفي هذا الحديث إشارة واضحة إلى التّلازم بين الإيمان الحقيقيّ وشرح الصّدْر. فمن أشرقت أنوار الإيمان بالله في قلبه وسّعته وشرحته، لأنّ للإيمان دورٌ كبيرٌ في توجيهه ووجهة القلب نحو الخيرات والكمالات. فهو الذي يبدأ من القبول والإذعان. وكفى بهذا أثر في توجيه القلب نحو المطلوب. والملفت في كلام أمير المؤمنين عليه السلام أيضًا أنّه جعل العلم بما في الكتب التي أنزلها الله عزّ وجلّ على رسله وأنبيائه من علامات شرح الصّدْر.

## المفاهيم الرئيسة

١- عندما يجري الحديث عن تعامل القلب مع الأنوار الملكوتية والفيوضات الرحمانية، يأتي دور الصدر. فالصدر وعاء القلب وليس أمرًا مغايرًا له.

٢- إنَّ شرح الصدر قبول الحقِّ، وهو يقابل قسوة القلب التي تستلزم عدم قبول الحقِّ.

٣- من علامات شرح الصدر:

- أنَّ صاحبه لا يولي أهمية لما يراه في نفسه من كمالٍ وجمالٍ ومالٍ ونفوذٍ وحشمة ولا يستعظمه، لأنَّ سعته الوجودية كبيرة إلى درجة تجعله يتغلب على جميع الوردات القلبية، فلا يضيق وعأؤه الوجودي بشيء.
- الاستعداد للموت قبل نزوله.
- العلم بما في الكتب التي أنزلها الله.

٤- إنَّ انشراح الصدر اللازم للهداية الإلهية ينطلق من رقة القلب واستعداده لتلقي الأنوار الربانية، وكلما تلقى المؤمن نورًا واستقبله، زاد استعداده لتلقي المزيد من الأنوار.

٥- من آثار انشراح الصدر: الأنس بالله تعالى، الطمأنينة والسكينة، التواضع وعزة النفس.

٦- يحصل شرح الصدر لقلب الإنسان بمقدار إعراضه عن الدنيا وزخارفها، ونتيجة معرفة الحقِّ تعالى وذكره وحبِّه، فحبُّ الله تعالى يثمر سعة الصدر، وهذه السعة تولد التواضع وعزة النفس، في حين أنَّ حبَّ النفس والنظر إليها نتيجةً لضيق الصدر من جهة، وعلة لزيادته من جهة أخرى، وكذلك بولاية عليٍّ عليه السلام.

٧- بالرغم من أنَّ شرح الصدر عطاء إلهي، لكن للبعد دور في تهيئة القلب لقبول الشرح، وذلك من خلال المعرفة والعلم بالحقِّ تعالى وزيادة الإيمان والعمل.

دعاء:

اللهم إني...أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ... وَأَنْ تَشْرَحَ بِكِتَابِكَ صَدْرِي وَتَحُطَّ بِتِلَاوَتِهِ وَزُرِّي وَمُنْحَنِي السَّلَامَةَ فِي دِينِي وَنَفْسِي وَلَا تُوحِشْ بِي أَهْلَ أُنْسِي<sup>١</sup>.

اللَّهُمَّ وَامْنُنْ عَلَيَّ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، وَزِيَارَةِ قَبْرِ رَسُولِكَ، صَلَوَاتِكَ عَلَيْهِ وَرَحْمَتِكَ وَبَرَكَاتِكَ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، وَآلِ رَسُولِكَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ... وَأَشْرَحْ لِمَرَاثِدِ دِينِكَ قَلْبِي وَأَعِدْنِي وَدُرَّتِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ<sup>٢</sup>.

بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ إِلَى أَوْكَارِ الْأَفْكَارِ يَأْوُونَ وَفِي رِيَاضِ الْقُرْبِ وَالْمُكَاشَفَةِ يَرْتَعُونَ وَمِنْ حِيَاضِ الْمَحَبَّةِ بِكَأْسِ الْمُلَاطَفَةِ يَكْرَعُونَ وَشَرَائِعِ الْمُصَافَاةِ يَرْدُونَ، قَدْ كُشِفَ الْغَطَاءُ عَنْ أَبْصَارِهِمْ وَاجْتَلَتْ ظِلْمَةُ الرَّئِبِ عَنْ عَقَائِدِهِمْ وَأَنْتَفَتْ مَخَالِجَةُ الشَّكِّ عَنْ قُلُوبِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ وَأَنْشَرَحَتْ بِتَحْقِيقِ الْمَعْرِفَةِ صُدُورُهُمْ وَعَلَتْ لِسَبْقِ السَّعَادَةِ فِي الرَّهَادَةِ هِمْمُهُمْ وَعَدُبَ فِي مَعِينِ الْمُعَامَلَةِ شَرُّهُمْ وَطَابَ فِي مَجْلِسِ الْأُنْسِ سِرُّهُمْ<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> الإمام السجّاد، الصحيفة السجّادية، دعاء: يوم السبت.

<sup>٢</sup> (م.ن)، دعاؤه عليه السلام إذا سأل الله العافية.

<sup>٣</sup> (م.ن)، مناجاة العارفين.



## الدرس الثامن والثلاثون: النشاط والبهجة في العبادة

### أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

- ١- يفهم ومعنى أن يكون المؤمن مبتهجًا نشيطًا.
- ٢- يتعرف إلى آثار البهجة والنشاط وتأثيرها في العبادات وفي قبولها.
- ٣- يشرح منشأ البهجة والنشاط وشروط المحافظة عليهما.



## تمهيد

لا يخلو أحد من نشاط أو بهجة، لأنّ الكسل والغمّ إذا سيطرا على الإنسان قتلاه. لكن المطلوب هو أن يصبح النشاط عنوان شخصيّة المؤمن وأحد أبرز سماته نظرًا لضيق الفرصة ومرورها مرّ السحاب (مقارنةً بالأوضاع) وعظيم ما ينتظره من ثواب. وكيف لا يكون المؤمن مبتهجًا مشرفًا متفائلًا وهو يرى ما أعدّه الله وهبّاه له من إمكانات الكمال.

فالغالب على الحياة. وإن كانت الحياة الدّنيا. هو ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾<sup>١</sup>. ومن لم يرَ هذه الحقيقة ابتلي بالغمّ وسيطر عليه الحزن السّليبي الذي يوشك أن يدمر كلّ طاقاته البناء واستعداداته الواعدة.

فكيف يكون المؤمن نشيطًا مبتهجًا؟ وكيف يحافظ على نشاطه وبهجته؟

## أهميّة النشاط والبهجة

بالنّظر إلى وضوح النشاط والبهجة في قاموسنا العام، فلا حاجة إلى تعريفهما بصورة علميّة جامعة مانعة، حيث أنّ آثارها في النّفس والبدن ظاهرة جليّة. إلّا أنّ ما يعيننا في أبحاثنا الأخلاقية أن نرى مدى أهميّة هاتين الحالتين ودورهما على مستوى الحياة المعنويّة للإنسان. ولا شكّ بأنّ من أهمّ علامات الحياة المعنويّة سعي الإنسان الحثيث في العمل الصّالح والعبادة وصرف زهرة شبابه وطاقته في سبيل الله الحيّ القيوم.

يذكر الإمام الخمينيّ قدس سره للنّشاط والبهجة مجموعة من الآثار والتّمار الطّيبية؛ منها أنّها توجب فتح بعض الأبواب (إلى عالم الغيب). ومنها أنّها تؤدّي إلى كشف بعض أسرار العبادات. ومنها أنّها تؤدّي إلى ظهور آثار الأغذية الرّوحانيّة التي هي المعارف الإلهيّة في القلب بصورة أسرع، كما أنّها تسرّع في هذه الحالة من تصفية باطنه.

<sup>١</sup> سورة التّحل، الآية ١٨.

## ١- كشف بعض أسرار العبادات

يقول الإمام الخميني قدس سره: "ومن الآداب القلبية للصلاة وسائر العبادات وله نتائج حسنة بل هو موجب لفتح بعض الأبواب وكشف بعض أسرار العبادات، أن يجتهد السالك في أن تكون عبادته عن نشاط وبهجة في قلبه وفرح وانبساط في خاطره، ويحترز احترازًا شديدًا من الإتيان بالعبادة مع الكسل وإدبار النفس. فعليه أن يختار وقت العبادة بحيث يكون للتفكير إقبال ونشاط وحيوية بعيدًا عن التعب والفتور؛ لأنه إذا حمل النفس على العبادة في حين الكسل والتعب، يمكن أن تترتب عليه آثار سيئة، منها: أن يتضجر الإنسان من العبادة ويزيد تكلفه وتعسّفه، ويوجب ذلك بالتدرّج تنفر طباع النفوس منها. وهذا، مضافًا إلى أنه من الممكن أن يصرف الإنسان بالكامل عن ذكر الحق، ويؤدي الروح من مقام العبودية التي هي منشأ جميع السعادات، ينتج عنه ألا يحصل للعبادة مع هذه الحالة نورانية القلب، ولا ينفعل باطن النفس منها، ولا تصير صورة العبودية صورة باطنية للقلب. وقد ذكرنا من قبل أن المطلوب في العبادات هو أن ينطبع باطن النفس بصورة العبودية"<sup>١</sup>.

## ٢- تحقّق الأثر من العبادات

"إنّ من أسرار العبادات والرياضات ونتائجهما أن تكون إرادة النفس في ملك البدن نافذة، وتكون دولة النفس منقهرة ومضمحلّة في كبريائها، وتسيطر الإرادة على القوى المبتوثة والجنود المنتشرة في ملك البدن وتمنعها من العصيان والتمرّد والأناييّة، وتكون القوى مسلّمة لملكوت القلب وباطنه، بل تصير جميع القوى بالتدرّج فانية في الملكوت، ويطبق أمر الملكوت في الملك وينفذ فيه، وتقوى إرادة النفس، ويفلت زمام المملكة من يد الشيطان والنفس الأمارة، وتُساق جنود النفس من الإيمان إلى التسليم ومن الرضا إلى الفناء. وفي هذه الحالة تجد النفس رائحة من أسرار العبادة، ويحصل لها شيء من التجلّيات الفعلية. وما ذكرنا لا يتحقّق إلا بأن تؤدّي العبادات عن نشاط وبهجة ويحترز فيها من التكلّف والتعسّف والكسل احترازًا تامًّا، كي تحصل للعباد حالة

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٣٧-٣٨.

المحبة والعشق لذكر الحقّ ولمقام العبودية، ويحصل له الأُنس والتمكّن. وإنّ الأُنس بالحقّ وذكره من أعظم المهمّات؛ ولأهل المعرفة بهما عناية شديدة وفيها يتنافس المتنافسون من أصحاب السّير والسلوك"<sup>١</sup>.

### ٣- سرعة تأثير الأغذية الروحانية في القلب وتصفية الباطن

"وكما أنّ الأطباء يعتقدون بأنّ الطّعام إذا أُكُل بالسرور والبهجة يكون أسرع في الهضم، كذلك يقضي الطّبّ الرّوحانيّ بأنّ الإنسان إذا تغدّى بالأغذية الرّوحانيّة بالبهجة والاشتياق محترّزاً من الكسل والتكلف، يكون ظهور آثارها في القلب وتصفية باطنه بها أسرع. وقد أشير إلى هذا الأدب في الكتاب الإلهيّ الكريم والصّحيفة الرّبوبيّة القوميّة، حينما قال تعالى في مقام تكذيب الكفّار والمنافقين: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾<sup>٢</sup>. وقد فسّرت آية ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾<sup>٣</sup> في حديث بأنّ المراد من سكارى كُسالى"<sup>٤</sup>.

### ٤- توسعة وعاء الإنسان لاستقبال الفيوضات

والتأثير العظيم للنشاط والبهجة يبرز من خلال دورهما في توسعة وعاء الإنسان لاستقبال الفيوضات الإلهيّة. وكأنّ هذا النشاط يوسّع مجاري الاستقبال فيجعل الإنسان أكثر استعداداً.

"ففي الحديث عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام: "إذا نشطت القلوب فأودعوها وإذا نفرت فودعوها"<sup>٥</sup>. وهذا دستور جامع منه عليه السلام بأنّ أودعوا في القلوب في وقت نشاطها، وأمّا في وقت نفورها فحلّوها تستريح. فلا بدّ في كسب المعارف والعلوم أيضاً من رعاية هذا الأدب، وألاّ يحمل القلوب على الكسب مع الكراهة والتّفور"<sup>٦</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٣٨.

<sup>٢</sup> سورة التّوبة، الآية ٥٤.

<sup>٣</sup> سورة النساء، الآية ٤٣.

<sup>٤</sup> معراج السالكين، ص ٣٩.

<sup>٥</sup> مستدرک الوسائل، ج ١، ص ١٤٤.

<sup>٦</sup> معراج السالكين، ص ٣٩.

## من أين ينشأ النشاط والبهجة

### ١- الشكر

وهو عبارة عن تقدير النعمة كونها صادرة من المنعم، ويؤدي إلى الزيادة حتى يصل الشاكر إلى مقام العجز عن الشكر لدخوله في بحر النعمة المطلقة. يقول الإمام الخميني قدس سره: "واعلم أن الشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية وله أركان ثلاثة: الأوّل معرفة المنعم وصفاته اللائقة به... الثاني الحال التي هي ثمرة تلك المعرفة، وهي الخضوع والتواضع والسرور بالمنعم، من حيث إنها هدية دالة على عناية المنعم بك، وعلامة ذلك أن لا تفرح من الدنيا إلا بما يوجب القرب منه. الثالث العمل الذي هو ثمرة تلك الحال فإنّ تلك الحال إذا حصلت في القلب حصل فيه نشاط للعمل الموجب للقرب منه، وهذا العمل يتعلّق بالقلب واللسان والجوارح".<sup>١</sup>

### ٢. حبّ أهل البيت عليهم السلام

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "من رزقه الله حبّ الأئمة من أهل بيتي فقد أصاب خير الدنيا والآخرة فلا يشكك أحد أنّه في الجنة فإنّ في حبّ أهل بيتي عشرون (عشرين) خصلة عشر منها في الدنيا وعشر منها في الآخرة أما التي في الدنيا فالزهد والحرص على العمل والورع في الدين والرغبة في العبادة والتوبة قبل الموت والنشاط في قيام الليل".<sup>٢</sup>

ويدلّ هذا الحديث على أنّ النشاط من أهم علامات إصابة خير الدنيا والآخرة. وقد يظنّ البعض أنّ المؤمن ينبغي أن يكون جاداً بمعنى العبوس والتجهم لأنّه لا يعيب ولا يمزح. وقد خلط هؤلاء بين المزاح العابث اللغويّ والدعابة اللطيفة. وقد ذكرت الأحاديث أنّ من علامات المؤمن النشاط. عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "المؤمن له قوّة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وحرص في فقه، ونشاط في هدى".<sup>٣</sup>

<sup>١</sup> الأربعون حديثاً، ص ٢٧٨.

<sup>٢</sup> الخصال، ج ٢، ص ٥١٥.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٢، ص ٢٣١.

وكفى بهذا الوصف للإنسان الكامل دلالة على حسن البهجة، «فقد روي أن الباقر عليه السلام هاشمي من هاشميين، وعَلَوِيٌّ مِنْ عَلَوِيَّيْنِ، وَقَاطِيبِيٌّ مِنْ قَاطِيبِيَّيْنِ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ اجْتَمَعَتْ لَهُ وِلَادَةُ الْحُسَيْنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَتْ أُمُّهُ أُمُّ عَبْدِ اللَّهِ بِنْتِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَصْدَقَ النَّاسِ لَهْجَةً وَأَحْسَنَهُمْ بَهْجَةً وَأَبْدَلَهُمْ مُهْجَةً»<sup>١</sup>.

بل إنَّ التَّقْصِيرَ فِي الْقِيَامِ بِآدَابِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ هُوَ الَّذِي يَحْرِمُ الْإِنْسَانَ مِنْ هَذِهِ الْخِصْلَةِ الرَّائِعَةِ، حَيْثُ يَقُولُ الْإِمَامُ قُدْسُ سِرِّهِ: "فِي كُلِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الصَّلَاتِيَّةِ حَقٌّ لِلَّهِ تَعَالَى لِابْتِدَاءِ الْعَبْدِ مِنَ الْقِيَامِ بِهِ وَهُوَ آدَابُ الْعِبَادَةِ فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ، وَلِلْعَبْدِ حِظٌّ وَنَصِيبٌ يَعْطِيهِ الْحَقُّ بِاللُّطْفِ الْخَفِيِّ وَالرَّحْمَةِ الْجَلِيَّةِ بَعْدَ قِيَامِ الْعَبْدِ بِآدَابِ الْعِبَادَةِ، وَإِذَا رَأَى نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الْإِلَهِيَّةِ مَحْرُومًا مِنَ الْعَنَائَاتِ الْخَاصَّةِ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ بِآدَابِ الْعِبَادَةِ، وَعَلَامَةٌ ذَلِكَ لِلْمَتَوَسِّطِينَ أَنْ لَا تَذِيقَ ذَائِقَةُ الْقَلْبِ لَذَّةَ الْمُنَاجَاةِ وَحَلَاوَةَ الْعِبَادَاتِ وَيَجْرَمُ عَنِ الْبَهْجَةِ وَالسَّرُورِ وَالانْقِطَاعِ إِلَى الْحَقِّ"<sup>٢</sup>.

### شروط تحصيل الابتهاج والنشاط

قد عُلمَ أَنَّ الْإِبْتِهَاجَ فِي النَّفْسِ نَاشِئٌ مِنْ إِدْرَاكِ الْكَمَالِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ فِطْرَةَ الْإِنْسَانِ وَتَرْكِيْبَتَهُ الْأَصْلِيَّةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْإِنْفِعَالِ الْإِيجَابِيِّ تَحَاةِ عَطَاءَاتِ الرَّبِّ وَإِنْعَامِهِ. وَهَذَا، فَإِنَّ الْمَحَافِظَةَ عَلَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ الْأَصْلِيَّةِ هِيَ الْأَسَاسُ فِي الْعَمَلِ. وَعَلَى السَّالِكِ الْمَجَاهِدِ أَنْ يَحْتَرِزَ مِنْ كُلِّ بَشَاعَةٍ أَوْ قَبْحٍ يَدْخُلُ إِلَى نَفْسِهِ فَيُظْلِمُهَا، لِأَنَّ الْفِطْرَةَ قَائِمَةٌ عَلَى التَّعَلُّقِ بِالْجَمَالِ وَمَا يَحْجِبُهَا أَوْ يَضْعِفُهَا هُوَ الْإِتِّصَالُ بِالْقَبْحِ، وَأَقْبَحُ الْقَبَائِحِ الْعُقَائِدُ الْبَاطِلَةُ وَالتَّفْسِيرَاتُ الْخَاطِئَةُ لِلْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ وَالْمَصِيرِ. وَيَأْتِي بَعْدَهَا فِي الْقَبْحِ الْأَخْلَاقُ الدَّمِيمَةُ، وَمِنْ بَعْدِهَا مَسَاوِي الْأَفْعَالِ وَعَدَمُ اتِّبَاعِ بَرْنَامِجِ الْإِسْلَامِ الْعَمَلِيِّ.

يقول الإمام الخميني قدس سره: "وبالجملة، الميزان في باب المراجعة أن يكون الإنسان ملتفتًا إلى أحوال النفس، ويسلك معها بحسب قوتها وضعفها. فإذا كانت النفس قوية في العبادات والرياضات وتقدر على المقاومة، فليجد ويسعى في العبادة. وأما الذين طووا أيام عنفوان

<sup>١</sup> بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٢١٥.

<sup>٢</sup> معراج السالكين، ص ٢٢٨.

الشباب، وانطفأت نائرة الشهوات شيئاً ما فيهم، فلناسب لهم أن يجدوا في الرياضات النفسانية أكثر ويدخلوا في السلوك والرياضة بفتوة. فكلما عودوا النفس على الرياضات، فُتح لهم باب آخر إلى أن تغلب النفس القوى الطبيعية وتصير القوى الطبيعية مسخرة تحت كبرياء النفس. وما ورد في الأحاديث الشريفة، من الأمر بالجد والسعي في العبادة، وما ورد فيها من مدح الذين يجتهدون في العبادة والرياضة، وما ورد في عبادات أئمة الهدى عليهم السلام من جهة، وما ورد من هذه الأحاديث الشريفة المادحة للاقتصاد في العبادة من جهة أخرى، مبني على اختلاف أهل السلوك ودرجات النفوس وأحوالها، والميزان الكلي هو نشاط النفس وقوتها أو نفورها وضعفها<sup>١</sup>.

وفي كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحارث الهمداني: "وَخَادِعُ نَفْسِكَ فِي الْعِبَادَةِ وَارْفُقْ بِهَا وَلَا تَفْهَرَهَا وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا إِلَّا مَا كَانَ مَكْتُوباً عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَتَعَاهُذِهَا"<sup>٢</sup>.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: "تَجَنَّبُوا الْمُنَى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ بِهِجَةً مَا خُوِّلْتُمْ وَتَسْتَصْغِرُونَ بِهَا مَوَاهِبَ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَكُمْ وَتُعْجِبُكُمْ الْحَسْرَاتُ فِيمَا وَهَمْتُمْ بِهِ أَنْفُسَكُمْ"<sup>٣</sup>.

<sup>١</sup> معراج السالكين، ص ٤١-٤٢.

<sup>٢</sup> مستدرک الوسائل، ج ١، ص ١٤٥.

<sup>٣</sup> الكافي، ج ٥، ص ٨٥.

## المفاهيم الرئيسة

١- التّشاط هو عنوان شخصيّة المؤمن وأحد أبرز سماته لأنّه يرى ما أعدّه الله وهيبّاه له من إمكانات الكمال وأحاطه من نعم، ومن لم ير هذه الحقيقة ابتلي بالغمّ وسيطر عليه الحزن السّليّ الذي يوشك أن يدمر كلّ طاقاته البتّة.

٢- من آثار التّشاط والبهجة:

- توجب فتح بعض أبواب عالم الغيب.
- تؤدّي إلى كشف بعض أسرار العبادات
- تحصل للعباد حالة المحبّة والعشق لذكر الحقّ ولمقام العبودية، ويحصل له الأُنس والتمكّن.
- تصير جميع القوى بالتّدريج فانية في الملكوت، ويطبق أمر الملكوت في الملك وينفذ فيه، وتقوى إرادة التّفس.
- توسعة وعاء الإنسان لاستقبال الفيوضات الإلهيّة.

٣- ينشأ التّشاط والبهجة من:

- الشكر: الذي يثمر حالة من الخضوع والتواضع والسرور بالنعم.
- محبة أهل البيت عليهم السلام: فهي توجد النشاط على العبادة وقيام الليل.
- الفطرة: فالابتهاج في التّفس ناشئ من إدراك الكمال، وذلك لأنّ فطرة الإنسان وتركيبته الأصليّة مبنية على الانفعال الإيجابيّ تجاه عطاءات الرّبّ وإنعامه.

٤- إن تحصيل النشاط والبهجة يكون ب:

- الحفاظ على الفطرة التي تبتهج تجاه العطاءات الإلهيّة ويكون ذلك بالاحتراز من كلّ بشاعة أو قبح يدخل إلى نفسه فيظلمها.
- مراعاة أحوال التّفس، والسلوك معها بحسب قوّتها وضعفها.

٥- ما يمنع من تحقّق النشاط والبهجة:

- التّقصير في القيام بأداب العبوديّة لله هو الذي يحرم الإنسان من هذه الخصلة الرائعة.
- حمل التّفس على العبادة في حين الكسل والتعب.

## شواهد من وحي الدرس

دعاء:

اللَّهُمَّ اقْضِ لِي فِي الْأَرْبَعَاءِ أَرْبَعًا: اجْعَلْ قُوَّتِي فِي طَاعَتِكَ وَنَشَاطِي فِي عِبَادَتِكَ وَرَغْبَتِي فِي ثَوَابِكَ وَزُهْدِي فِيْمَا يُوجِبُ لِي أَلِيمَ عِقَابِكَ إِنَّكَ لَطِيفٌ لِمَا تَشَاءُ<sup>١</sup>.

الآيات الكريمة:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾<sup>٢</sup>.

الروايات الشريفة:

١ - عن أمير المؤمنين عليه السلام: "السرور يبسط النفس و يثير النشاط"<sup>٣</sup>.

٢ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا كَسِلَ أَوْ أَصَابَتْهُ عَيْنٌ أَوْ صُدَاغٌ بَسَطَ يَدَيْهِ فَقَرَأَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ فَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا كَانَ يَجِدُهُ"<sup>٤</sup>.

<sup>١</sup> الصحيفة السجادية، دعاؤه عليه السلام يوم الأربعاء.

<sup>٢</sup> سورة النساء، الآية ١٤٢.

<sup>٣</sup> تصنيف غرر الحكم، ص ٣١٩.

<sup>٤</sup> وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٢٣١.